رموز الكنوز
في
تفسير الكتاب العزيز

تأليف

الإمام الحافظ عز الدين عبد الرازق بن رزق الله الرسعني الحنبلي

(٥٨٩ - ٦٦١هـ)

دراسة وتحقيق

أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة للمحقق

أ. د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

يطلب من :

مكتبة الأسدي للنشر و التوزيع

مكة المكرمة ـ العزيزية ـ مدخل جامعة أم القرى ت ـ ٥٥٧٠٥٠٦ فاكس ـ ٥٥٧٥٢٤١

فرع العزيزية الشارع العام ت ـ ٥٢٧٣٠٣٧ ص. ب ٢٠٨٣

سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّ يسرْ وأعنْ، إنكَ وليّ ذلك.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾ قرأ حفص: ﴿يحشرهم﴾ بالياء، حملاً على لفظ الغيبة في قوله: ﴿لهم دار السلام﴾ [الأنعام:١٢٧]. وقرأ الباقون بالنون، على الإخبار من الله تعالى عن نفسه(١).

والمعنى: اذكر يوم نحشر الثقلين الإنس والجنّ جميعاً في موقف القيامة.

و«جميعاً» حالٌ من المفعول(٢).

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ فيه إضمارٌ تقديره: فيُقال لهم: يا معشر الجنِّ.

والمعْشَرُ: الجماعة أمرهم واحد، والجمع: مَعَاشِر(٣).

والمراد بشياطين الجنّ: مَرَدَتُهم.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ١٥٢)، والحجة لابن زنجلة (٥٠٩)، والكشف (١/ ٤٥١-٤٥٢)، والنشر (٢/ ٢٦٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٧)، والسبعة في القراءات (١/ ٢٦٩).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ١٧٨).

(٣) انظر: اللسان (مادة: عشر).

﴿قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إغوائهم واستهوائهم، حتى صاروا لكم أشياعاً وأتباعاً.

﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ أي: وقال أولياء الجن الذين أطاعوهم من الإنس: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾، أي: انتفع بعضنا ببعض، واستمتاع الإنس بالجن ما حصل لهم من الشهوات بواسطة تسويلهم وتسهيلهم، واستمتاع الجن بالإنس طاعتهم لهم فيما زيّنوه لهم من الكفر والمعاصي.

فإن قيل: أي غرض لهم ونفع في كفر الإنس ومعصيتهم؟

قلت: هم قوم طبعوا على الشّر، فهم يرتاحون إلى اجتذاب الإنس إليه وإن لم يكن لهم فيه نفع، كما قيل[1]:

من الناسِ من يرتاحُ للشرِّ طبعُه ... وإن لم يكن فيه غِنىً وغِناء
كما يشرف الياقُوت والدُّرّ عقعق ... وليسَ له في ذا وذاكَ غِذاء

وقيل: استمتاع الإنس ما في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:٦]، وكان الرجل إذا نزل وادياً أو أراد مبيتاً قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله.

واستمتاعُ الجن: فخرُهم بذلك على قومهم حيث اعترف لهم الجن والإنس بالسيادة. وهذان القولان مرويان عن ابن عباس[2].

وقيل: استمتاع الجن: إغواؤهم الإنس، واستمتاع الإنس: ما يتلقونه منهم

---

(١) لم أعرف قائل البيتين.

(٢) زاد المسير (٣/ ١٢٣).

من السحر والكهانة[١].

﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ وهو أجل البعث بعد الموت، وهذا الاعتراف خارج مخرج الاعتذار والندم والاستسلام لما يُراد بهم يوم القيامة.

﴿قال النار مثواكم﴾ قال ابن عباس: يريد: فيها مقامكم[٢].

﴿خالدين فيها﴾ منصوب على الحال[٣].

﴿إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ وهو قدر ما بين بعثهم إلى دخولهم النار، كأنه قيل: داخلين فيها منذ يبعثون إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم وحسابهم، وهذا اختيار الزجَّاج[٤].

وقال ابن عباس: استثنى الله قوماً قد سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي ﷺ[٥].

و«ما» على هذا القول بمعنى: «مَن»، ويكون الاستثناء من المضاف إليه في قوله: ﴿مثواكم﴾.

وقيل: «إلا ما شاء الله» من أنواع العذاب، فقد روي أنهم يعذبون بالزمهرير، فينقادون ويطلبون الرد إلى الجحيم.

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

---

(١) زاد المسير (٣/ ١٢٣).

(٢) الوسيط (٢/ ٣٢٣)، وزاد المسير (٣/ ١٢٤).

(٣) انظر: التبيان (١/ ٢٦١)، والدر المصون (٣/ ١٧٩).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٢).

(٥) الوسيط (٢/ ٣٢٣).

قوله تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي: كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض، «نولي بعض الظالمين بعضاً»: نُسلّط بعضهم على بعض حتى كان منهم ما كان.

قال مالك بن دينار: قرأتُ في بعض كتب الله المنزلة أن الله يقول: أفني أعدائي بأعدائي ثم أفنيهم بأوليائي (١).

وأخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده، عن مالك بن دينار، قال: قرأت في التوراة: «إني أنا الله لا إله إلا أنا، ملك الملوك، قلوبهم بيدي، ونواصيهم بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطفهم عليكم» (٢).

وقال قتادة: يجعل بعضهم أولياء بعض (٣).

وقال في رواية أخرى: يجعل بعضهم يتبع بعضاً (٤).

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٩)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٥٨) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ. كلهم بلفظ: قال مالك: قرأت في الزبور: «إني أنتقم من المنافق بالمنافق، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً». وذكره ابن كثير بهذا اللفظ (٢/ ١٧٧).

(٢) لم أقف عليه في المطبوع من الزهد. والحديث أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٨، ٦/ ١٧٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٦١٨) وعزاه لأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٣٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٣٥)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٥٨) وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿ألم يأتكم﴾ وقرأ الحسن: "تأتكم" بالتاء[1].

﴿رسل منكم﴾ تعلق الضحاك بظاهر الآية فقال: إن الله يبعث إلى الجن رسلاً منهم كما بعث إلى الإنس، وإليه ذهب مقاتل[2] وأبو سليمان[3]. وهو الذي تقتضيه الحكمة الإلهية، لأن الجنس بالجنس آنس، وإليه أميل.

وقال مجاهد: الرّسل من الإنس، والنُّذُر من الجن، وهم قوم يسمعون كلام الرسل فيبلغون الجن ما سمعوا وينذرونهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾[4] [الأحقاف:٢٩].

وقال آخرون -منهم ابن جريج والزجّاج[5]-: الرسل من الإنس خاصة، وإنما قال: «رسل منكم» لأنه لما جمع الإنس والجن في الخطاب صحّ ذلك، وإن كان من أحدهما؛ كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]، وإنما يخرج من

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٢٥).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٣٧٠).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٣٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٠) وعزاه لابن جرير.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٩).

وانظر: الطبري (٨/ ٣٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٥٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٢).

المِلْح وحده[١].

ولا خلاف بين أهل العلم أن محمداً ﷺ بُعث إلى الإنس والجن.

أخرج الإمام أحمد في المسند، عن الأعمش، عن مجاهد في قوله ﷺ: «بُعِثْتُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ. قَالَ: الأَحْمَرَ: الإِنْسُ، وَالأَسْوَدَ: الجِنُّ»[٢].

وقال ابن عباس: كانت الرسل تُبعثُ إلى الإنس خاصة، ورسول الله ﷺ بُعث إلى الإنس والجن[٣].

قوله تعالى: ﴿يقصون عليكم آياتي﴾ أي: يقرؤون عليكم كتبي، ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: يُخوِّفونكم بيوم القيامة، ﴿قالوا شهدنا﴾ أي: أقررنا ﴿على أنفسنا﴾ أو شهد بعضنا على بعض بإنذار الرسل.

ثم أخبر الله تعالى عن حالهم فقال: ﴿وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾.

قال مقاتل[٤]: حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر.

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى بعثة الرسل وإنذارهم سوء العاقبة، وهو خبر

---

(١) انظر: الطبري (٨/ ٣٦)، والماوردي (١/ ١٧٠)، وزاد المسير (٣/ ١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥ ح٢١٣٣٧).

(٣) زاد المسير (٣/ ١٢٥).

(٤) تفسير مقاتل (١/ ٣٧١).

مبتدأ محذوف[١]، أي: الأمر ذلك.

﴿أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم﴾ تعليل، أي: الأمر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم.

فعلى هذا ﴿أن﴾ هي التي تنصب الأفعال. ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، على معنى: لأنَّ الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم. ولك أن تجعله بدلاً من «ذلك»؛ كقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾[٢] [الحجر:٦٦].

وقوله: ﴿بظلم﴾ قال ابن عباس: بشرك[٣].

وقيل: بذنوبهم ومعاصيهم.

فعلى هذا: المعنى: بسبب ظلم.

ويجوز أن يكون حالاً، على معنى: لم يكن ربك مهلك القرى ظالماً لهم حتى يوقظهم من غفلتهم ويرشدهم إلى طريق النجاة.

فإن قيل: قد ثبت بالبرهان القطعي أن الظلم مستحيلٌ على الله، وأنه لو أهلكهم قبل إنذارهم لم يكن ظالماً لهم، فكيف يصح هذا المعنى؟

قلتُ: لما كانت العقوبة قبل الإنذار ظلماً في عرف الناس بعضهم مع بعض وفيما يتوهمه الجاهلون مما يجوز على الله وما لا يجوز، خاطبهم بما يتعارفون وعلى ما يعتقده الجاهلون منهم ومن غيرهم.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ٢٦١)، والدر المصون (٣/ ١٨٢).

(٢) وهو قول الزمخشري في الكشاف (٢/ ٦٣).

(٣) الطبري (٨/ ٣٧) بلا نسبة، وزاد المسير (٣/ ١٢٦).

والواو في قوله: ﴿وأهلها غافلون﴾ واو الحال.

قوله تعالى: ﴿ولكل درجات﴾ أي: ولكل عامل بطاعة أو معصيته، ﴿درجات﴾ منازل ومراتب متفاوتة في الارتفاع والانحطاط، ﴿مما عملوا﴾ أي: من أجل ما عملوا.

﴿وما ربك بغافل عمّا يعملون﴾ قرأ ابن عامر: "تعملون" بالتاء، حملاً على ما بعده من المخاطبة. وقرأ الباقون: بالياء، حملاً على ما قبله ومن المغايبة[1].

والمعنى: وما ربك بغافل عما يعملون من الحسنات والسيئات، بل علم أجزاءها وأعدّ جزاءها.

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

﴿وربك الغني ذو الرحمة﴾ أي: الغني عن خلقه ذو الرحمة لهم، ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العتاة الكفرة، والعصاة الفجرة، ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ أي: يخلق خلقاً آخر خلفاً منكم، يكونون له أطوع وإلى مرضاته أسرع.

﴿كما أنشأكم﴾ أي: ابتدأ خلقكم من ذرية قوم آخرين.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٢)، والكشف (١/ ٤٥٢)، والنشر (٢/ ٢٦٢-٢٦٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٦٩).

قال الزجَّاج[١]: موضع الكاف نصب، المعنى: ويستخلف من بعدكم مثل ما أنشأكم. يقال: أنشأ الله الخلق؛ إذا خلقه وابتدأه، وكل من ابتدأ شيئاً فقد أنشأه. ومن ذلك قولنا: فأنشأ الشاعر يقول، أي: ابتدأ من نفسه.

والنَّشَأُ: الصِّغارُ من الأولاد. قال نُصيب:

وَلَوْلا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصَيْبٌ ... لَقُلْتُ بِنَفْسِيَ النَّشَأُ الصِّغَارُ[٢]

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ أي: إنما توعدون من مجيء الساعة والجزاء على الأعمال لآت.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ قال أبو عبيدة[٣]: يقال: أعجزني كذا، أي: فاتني وسبقني.

فالمعنى: وما أنتم بفائتين الله إذا طلبكم.

﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ وقرأ [أبو بكر][٤] عن عاصم: «مكاناتكم» بالجمع حيث وقع[٥].

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٣).

(٢) البيت لنصيب بن رباح. من فحول الشعراء الإسلاميين. كان أسود اللون، عبداً لرجل من كنانة من آل ودان، ذو فصاحة، لم يشبب بغير امرأته، وكان عفيفاً كبير النفس. مدح عبد العزيز بن مروان فأعطاه ألف دينار فكَّ بها نفسه، واتصل بعده بسليمان بن عبد الملك. انظر البيت في: اللسان، مادة: (نشأ).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٢٠٦).

(٤) في الأصل: أبو عمر. والصواب ما أثبتناه (انظر: الحجة للفارسي ٢/ ٢١٢، والإتحاف ص:٢١٧).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٢)، والكشف (١/ ٤٥٢)، والنشر (٢/ ٢٦٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٦٩).

قال الزجاج[١]: المعنى: اعملوا على تمكنكم.

ويجوز أن يكون المعنى: اعملوا على ما أنتم عليه، ويقال للرجل إذا أمرتـه أن يَثْبُتَ على حال: على مكانتكَ يا فلان، أي: اثبت على ما أنت عليه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يـأمرهم بالثبـات عـلى مـا هـم عليـه والله لا يـأمر بالفحشاء؟

قلتُ: هذا تهديد لهم؛ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠]. ألا تراه يقول: ﴿فسوف تعلمون﴾.

وقوله: ﴿إني عامل﴾ وقف حسن. المعنى: إني عامل على مكانتي، ثابتٌ على ما أنا عليه من دين الإسلام. وقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ لم يعده أحد رأس آية وليس بوقف؛ لأن قوله: ﴿من تكون له عاقبة الدار﴾ معمول «تعلمون».

قال مكي[٢]: إن جعلت "مَنْ" استفهاماً كانت في موضع رفع بالابتداء، ومـا بعده الخبر، والجملة في موضع نصب بـ«تعلمون». وإن جعلتها بمعنـى «الـذي» كانت في موضع نصب بـ«تعلمون».

قرأ حمزة والكسائي: ﴿من يكونُ﴾ بالياء، هنا وفي القصص[٣]. وقرأ البـاقون بالتاء فيهما؛ لتأنيث العاقبة[٤].

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٣).

(٢) مشكل إعراب القرآن لمكي (١/ ٢٩١).

(٣) عند الآية رقم: ٣٧.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٣)، والحجة لابن زنجلـة (ص:٢٧٢)، والكـشف (١/ ٤٥٣)، والنـشر (٢/ ٢٦٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٧)، والسبعة في القراءات (١/ ٢٧٠).

و«عاقبة الدار»: الجنَّة. و«الظالمون»: المشركون.

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ قال ابن عباس: كان المشركون يجعلون لله من حرثهم وأنعامهم وثمارهم نصيباً، وللأوثان نصيباً، فما كان للأوثان أنفق على السدنة والقائمين بحفظها، وما كان لله أطعم الضيفان والمساكين ولا يأكلون من ذلك شيئاً، فما سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غني عن هذا، وما سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله ردوه إلى نصيب الأوثان وقالوا: إنها لفقيرة، فذلك قوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث﴾[1]. أي: خلق من الزرع والأنعام "نصيباً".

وفي الآية إضمار.

قال الزجاج[2]: المعنى: وجعلوا لله نصيباً وجعلوا لشركائهم نصيباً، يدل عليه قوله: ﴿فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا﴾. فدل بالإشارة إلى النصيبين.

﴿فقالوا هذا لله بزعمهم﴾ قرأ الكسائي: ﴿بزُعْمِهِمْ﴾ بضم الزاي، وهي لغة

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٤٠)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٩٠-١٣٩١)، والبيهقي في سننه (١٠/ ١٠). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢١٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٢) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه.

(٢) لم أقف عليه في معاني الزجاج. وانظر: زاد المسير (٣/ ١٢٨).

بني أسد، وفتحها الباقون[١]، وبعض قيس يكسرون الزاي[٢].

والمعنى: قالوا هذا لله بزعمهم الكاذب واعتقادهم الباطل.

قال شريح القاضي[٣]: لكل شيء كنية، وكنية الكذب: زعموا[٤].

﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم﴾ قال الحسن: كانوا إذا هلك الذي لأوثانهم أخذوا بدلَهُ مما لله، ولا يفعلون ذلك في ما لله[٥].

وقيل: كانوا إذا حصدوا ما جعلوه لله فوقع منه شيء فيما جعلوه لآلهتهم تركوه، وقالوا: هي إليه محتاجة، فإذا حصدوا ما جعلوه لآلهتهم فوقع منه شيء فيما جعلوه لله أعادوه إلى موضعه. وهكذا كانوا يفعلون في البُدن إذا وقع من أحد النصيبين في الآخر. وفي السقي إذا انفجر ماء أحد النصيبين إلى الآخر.

﴿ساء ما يحكمون﴾ أي: قبح الحكم حكمهم؛ حيث آثروا الأصنام على الله تعالى الذي ذرأ الحرث والأنعام.

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٣)، والكشف (١/ ٤٥٣)، والنشر (٢/ ٢٦٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٧)، والسبعة في القراءات (١/ ٢٧٠).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ١٢٨).

(٣) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم سنان، قاضي الكوفة، ويقال: شريح بن شراحيل، أو ابن شرحبيل، أبو أمية، ممن أسلم في حياة النبي ﷺ، وانتقل من اليمن زمن الصدّيق. مات سنة ثمان وسبعين، وقيل: سنة ثمانين (سير أعلام النبلاء ٤/ ١٠٠).

(٤) القرطبي (٧/ ٩٠، ١٨/ ١٣٥).

(٥) الماوردي (١/ ١٧٤)، والوسيط (٢/ ٣٢٦)، وزاد المسير (٣/ ١٢٩).

﴿شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وكذلك﴾ أي: ومثل ذلك الفعل القبيح.

﴿زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم﴾ قال الحسن ومجاهد: «شركاؤهم»: شياطينهم[١].

وقال قتادة: شركاؤهم في الشرك[٢].

وقال الزجاج[٣]: سدنة الأصنام، زيّنوا لهم قتل أولادهم بوأد البنات خشية الفقر والنحر للآلهة.

قال ابن السائب: كان أحدهم يحلف إن وُلِد له كذا وكذا غلاماً لينحرنّ أحدهم، كما حلف عبد المطلب[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٤٣)، وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٩٣)، ومجاهد (ص: ٢٢٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) الماوردي (١/ ١٧٤)، وزاد المسير (٣/ ١٣٠).

قال ابن الجوزي: وللمفسرين في المراد بـ"شركائهم" أربعة أقوال:

أحدها: أنهم الشياطين، قاله الحسن ومجاهد والسدي.

والثاني: شركاؤهم في الشرك، قاله قتادة.

والثالث: قوم كانوا يخدمون الأوثان، قاله الفراء والزجاج.

والرابع: أنهم الغواة من الناس، ذكره الماوردي.

وإنما أضيف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين اختلقوا ذلك وزعموه.

(٣) لم أقف عليه في معاني الزجاج. وقد عزا ابن الجوزي النص إليه في: زاد المسير (٣/ ١٣٠).

(٤) الماوردي (١/ ١٧٤-١٧٥)، وزاد المسير (٣/ ١٣٠).

وقد اختلف القرّاء في هذا الحرف، فقرأ الأكثرون «زَيَّنَ» بفتح الزاي على البناء للفاعل، الذي هو «شركاؤهم»، على معنى: زين لهم الشركاء قتل الأولاد، وهذا وجه ظاهر.

وقرأ ابن عامر: ﴿زُيِّنَ﴾ بضم الزاي، على البناء للمفعول الذي هو القتل، ﴿أَوْلادَهُمْ﴾ بالنصب، أعملوا فيه القتل، ﴿شركائهم﴾ بالجر، على إضافة القتل إليهم(١)، التقدير: وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم، فأضاف القتل إلى الشركاء وإن لم يباشروه؛ لأنهم زينوه لآبائهم ودعوهم إليه.

وقد ضعفوا هذه القراءة للفصل بين المضاف والمضاف إليه.

قال أبو علي الفارسي(٢): وهذا قبيح قليل الاستعمال، ولكنه جاء في الشعر، كما أنشده أبو الحسن الأخفش(٣):

فَزَجَجْتُها مُتَمَكِّناً   زَجَّ القَلُوصَ أَبي مَزَادَهْ(٤)

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٣)، والكشف (١/ ٤٥٣)، والنشر (٢/ ٢٦٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٠).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٤، ٢١٥).

(٣) الأخفش، إمام النحو، أبو الحسن، سعيد بن مسعدة البلخي ثم البصري، مولى بني مجاشع، كان قدرياً، أخذ عن الخليل بن أحمد ولزم سيبويه حتى برع، وكان من أسنان سيبويه بل أكبر، وله كتب كثيرة في النحو والعروض ومعاني القرآن، مات الأخفش سنة نيف عشرة ومئتين وقيل سنة عشر. (السير ١٠/ ٢٠٦).

(٤) انظر البيت في: الكتاب (١/ ١٧٦)، وتخليص الشواهد (ص:٨٢)، والخزانة (٤/ ٤١٥، ٤١٦، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣)، ومعاني الفراء (١/ ٣٥٨)، والخصائص (٢/ ٤٠٦)، والأشموني (٢/ ٣٢٧)، وشرح المفصل (٣/ ١٨٩)، ومجالس ثعلب (ص:١٥٢)، والحجة للفارسي (٢/ ٢١٥)، والدر المصون (٣/ ١٨٧)، والطبري (٨/ ٤٤)، والقرطبي (٨/ ٣٣).

=

أي: زجَّ أبي مزاده القلوص.

وقال الزمخشري[١]: الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف شيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر، كان سمجاً مردوداً، فكيف في الكلام المنثور؟ فكيف [به][٢] في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته.

والذي حمله على ذلك: أن رأى [في][٣] بعض المصاحف «شركائهم» مكتوباً بالياء، ولو قرأ بجرّ «الأولاد» و«الشركاء»، لأن الأولاد شركاؤهم [في أموالهم][٤] لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب.

قلتُ: وقد روي عن[٥] ابن عامر أنه قرأ بجرّ «الأولاد» على الإضافة، وجرّ «الشركاء» على البدل من «الأولاد»، لأنهم يشاركون آباءهم في النسب والميراث والدين.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والحسن البصري: «زُيّن» بضم الزاي، «قتلُ» بالرفع، كابن عامر، «أولادِهم» بالجرّ للإضافة، «شركاؤهم» بالرفع[٦].

قال سيبويه: كأنه قيل: من زيّنه؟ قال: شركاؤهم.

= والزج: الطعن، والقلوص: الناقة الشابة، وهو مفعول فاصل بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً. يقول: فطعنت الناقة أو الجماعة برمح قصير، كطعن أبي مزادة القلوص في السير.

(١) الكشاف (٢/ ٦٦).

(٢) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) مثل السابق.

(٤) مثل السابق.

(٥) قوله: «عن» مكرر في الأصل.

(٦) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٣٠)، والدر المصون (٣/ ١٨٧).

قوله تعالى: ﴿ليردوهم﴾ أي: ليهلكوهم بالإغواء. واللام في "ليردوهم" و"ليلبسوا" -على قول الحسن ومجاهد أنَّ التزيين من الشياطين-: للتعليل والعرض، وعلى قول من قال: أنَّ التزيين من السدنة أو الشركاء في الشرك، فهي لام الضرورة.

﴿وليلبسوا عليهم دينهم﴾ أي: ليخلطوه.

قال ابن عباس: ليُدخلوا عليهم الشك، وكانوا على دين إسماعيل، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين[1].

﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ أي: ما فعل المشركون ما زيّن لهم من قتل الأولاد، أو ما فعل الشركاء أو الشياطين أو السدنة التزيين ولا الإرداء ولا اللبس.

ثم هددهم فقال: ﴿فذرهم وما يفترون﴾، أي: فدعهم وما يختلقون من الإفك وما يتقوّلون من الباطل، فأنا الذي أجازيهم على افترائهم.

قال ابن عباس: كانوا إذا دفنوا بناتهم قالوا: إن الله أمرنا بذلك[2].

وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ

(١) الوسيط (٢/ ٣٢٨)، وزاد المسير (٣/ ١٣١).

(٢) زاد المسير (٣/ ١٣١).

سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر﴾ والحِجْرُ: الحرام، وأصله من الحَجْر، وهو المنع، ومنه: فلان في حَجْر القاضي، أي: في منعه الصادّ له عن التصرف في ماله[1].

والحِجْر: العقل؛ لأنه يمنع من التورط في المهالك.

وضم الحاء لغة قرأ بها الحسن البصري وقتادة[2].

وقرأ ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وابن عباس في آخرين: «حِرْجٌ» بتقديم الراء على الجيم[3]، مثل: جَذَبَ وجَبَذَ.

"وحِجْر" فِعْل بمعنى مفعول؛ كالذِّبْح والطِّحْن، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث، والواحد والجمع.

وأشاروا بقولهم: ﴿هذه حجر﴾ إلى البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. وقيل: إلى الذبائح التي كانوا يذبحونها لآلهتهم وإلى ما كانوا يجعلونه لها من زروعهم.

﴿لا يطعمها إلا من نشاء﴾ قال ابن السائب: هم الرجال دون النساء[4].

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (حجر).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٨).

(٣) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٣١)، والدر المصون (٣/ ١٩٥).

(٤) الماوردي (٢/ ١٧٥)، وزاد المسير (٣/ ١٣١).

وقال ابن زيد: بالعكس من ذلك[١].

وقيل: سدنَةُ الأوثان.

وفي قوله: ﴿بزعمهم﴾ إشعار بأنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم.

﴿وأنعام حرمت ظهورها﴾ وهي البحائر والسوائب والحوامي حين تـذبح، ﴿وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها﴾ وإنما يذكرون عليها اسم الصنم.

وقيل: هي التي لا يحجّون عليها ولا يُلبّون على ظهورها.

والمعنى: أنهم قسموا أنعامهم فقالوا: هذه أنعام حِجْـرٌ، وهـذه أنعـام محرمـة الظهور، وهذه أنعام لا يذكرون اسم الله عليها، فنوّعوها على هذا التنويع، ونسبوا ذلك إليه افتراءً واجتراءً عليه.

و﴿افتراء﴾ نصب على [غير][٢] المصدر.

وقيل: على الحال، أو هو مفعول لأجله[٣].

﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ أي: يجزيهم بكـذبهم في قـولهم: "إن الله أمرنـا بذلك".

قوله تعالى: ﴿وقالوا ما في بطـون هـذه الأنعـام﴾ أي: مـا في بطـون البحـائر والسوائب والوصـائل مـن الأجنَّـة والألبـان، ﴿خالـصة لـذكورنا ومحـرم عـلى أزواجنا﴾ أي: ما انفصل عنها حياً خالص للذكور دون الإناث، وما ولد منها ميتاً اشترك في أكله الذكور والإناث.

---

(١) زاد المسير (٣/ ١٣٢).

(٢) زيادة على الأصل. وانظر: الدر المصون (٢/ ١٩٦).

(٣) وهو مذهب سيبويه. انظر: الكتاب (١/ ٣٦٧). وانظر: الدر المصون (٢/ ١٩٦).

وتأنيث «خالصةٌ» للمبالغة في الخلوص؛ كرَاوِيَة، وعلاَّمَة، ونسَّابَة، أو لأن ما في بطون الأنعام أنعام، فحمل التأنيث في «خالصة» على معنى «ما» والتذكير في «مُحَرَّمٌ» على لفظها.

وقال الزمخشري[١]: يجوز أن يكون مصدراً وقع موقع الخالص؛ كالعاقبة. أي: ذو خالصة.

ويدل عليه قراءة من قرأ: «خالصةً» بالنصب، على أن قوله: «لذكورنا» هو الخبر، و«خالصة» مصدر مؤكد، ولا يجوز أن يكون حالاً متقدمة، لأن المجرور لا يتقدم عليه حالُه.

وقرأ ابن مسعود وأبو العالية[٢] والأعمش: «خَالِصٌ» بالرفع من غير هاء[٣].

وقرأ ابن عباس وأبو رزين[٤]: «خَالِصه» برفع الصاد والهاء على ضمير مذكر[٥].

قال الزجاج[٦]: هو عندي -والله أعلم- ما خَلصَ حَيّاً.

---

(١) الكشاف (٢/ ٦٨).

(٢) رُفَيع -بالتصغير- ابن مهران، أبو العالية الرِّياحي -بكسر الراء والتحتانية-، مشهور بكنيته، توفي سنة تسعين (التقريب ص:٢١٠).

(٣) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٣٣)، والدر المصون (٣/ ١٩٧).

(٤) مسعود بن مالك، أبو رزين الأسدي الكوفي، ثقة فاضل، مات سنة خمس وثمانين (التقريب ص:٥٢٨).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٨).

وانظر: زاد المسير (٣/ ١٣٣)، والدر المصون (٣/ ١٩٧).

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٥).

وقرأ قتادة: «خالصةً» بالنصب[١]، كما تقدم.

﴿وإن يَكُنْ مَيْتَةً﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «تكُنْ» بالتاء؛ لتأنيث لفظ الميتة، وقرأ الباقون بالياء، حملاً على لفظ «ما».

وقرأ ابن كثير[٢] وابن عامر: "ميتةٌ" بالرفع، جعلا "كان" تامة لا تحتاج إلى خبر. وقرأ الباقون بالنصب، جعلوها ناقصة، وأضمروا فيها الاسم[٣].

﴿سيجزيهم وصفهم﴾ أي: جزاء وصفهم الكذب على الله في التحليل والتحريم.

﴿إنه حكيم عليم﴾ فكيف يشرع هذه الأحكام التي لا ينقاد لها عقل سليم، ولا فهم مستقيم.

وقيل: إنه حكيم في مجازاتهم، عليم بمقادير جزائهم.

قوله تعالى: ﴿قد خسر الذين قَتَلُوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ وقرأ ابن عامر وابن كثير: "قتّلوا" بالتشديد[٤].

قال قتادة: كان أحدهم يقتل بنته مخافة السبي عليها والفاقة، ويغذو كلبه[٥].

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٣٣)، والدر المصون (٣/ ١٩٧).

(٢) عبد الله بن كثير الداري المكي، أبو معبد، القارئ. مات سنة عشرين ومائة (التقريب ص:٣١٨).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٦-٢١٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٤)، والكشف (١/ ٤٥٤)، والنشر (٢/ ٢٦٥-٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٠-٢٧١).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٥)، والكشف (١/ ٤٥٥)، والنشر (٢/ ٢٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧١).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ٥١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٦)
=

قال ابن عباس: نزلت في ربيعة ومضر والذين كانوا يئدون بناتهم أحياءً في الجاهلية[١].

قال الزجاج[٢]: «سفهاً» منصوب على معنى اللام، أي: للسفه، مثل: فعلت ذلك حذرَ الشر.

ويجوز أن يكون منصوباً على تأويل المصدر؛ لأن قتلهم أولادهم قد سفهوا فيه، فكأنه قال: قد سفهوا سفهاً.

وقرأ ابن السميفع[٣] والجحدري[٤]: «سُفَهَاءَ»، جمع سفيه[٥]. ونصبه على الحال[٦].

﴿وحرموا ما رزقهم الله﴾ من الحرث والأنعام.

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عباس قال: «إِذا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلاثِينَ وَالْمِائَةِ مِنْ سُورَةِ الأَنْعَامِ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا =

وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٥١) عن عكرمة. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٦) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن عكرمة.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٥).

(٣) محمد بن السميفع اليماني، أحد القراء، له قراءة شاذة منقطعة السند، قاله أبو عمرو الداني وغيره، مات سنة تسعين في خلافة الوليد بن عبد الملك (ميزان الاعتدال ٦/ ١٧٩، ولسان الميزان ٥/ ١٩٣).

(٤) أبو مجشر، عاصم الجحدري، صاحب القراءة، بصري، عن يحيى بن معين أنه قال: عاصم الجحدري، ثقة. (الجرح والتعديل ٦/ ٣٤٩، والمقتنى ٢/ ٦٤).

(٥) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٣٤)، والدر المصون (٣/ ١٩٩).

(٦) انظر: الدر المصون (٢/ ١٩٩).

أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾»(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ أي: أبدع وأظهر «جنات معروشات» أي: ممسوكات، «وغير معروشات» أي: ومتروكات على وجه الأرض.

وقال ابن عباس: «المعروشات»: ما انبسط على وجه الأرض وانتشر مما يعرش؛ كالكرم والقرع والبطيخ. «وغير معروشات»: ما قام على ساق وبسق؛ كالنخل وسائر الأشجار والزرع(٢).

وقال الضحاك: الكرم منه ما يعرش ومنه ما لم يعرش(٣).

وقيل: «المعروشات»: ما أنبته الناس في الأرياف والعمران، «وغير

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٩٧ ح٣٣٣٤).

(٢) زاد المسير (٣/ ١٣٤).

وقال ابن عباس في تفسيره (ص:٢١٦) عند ذكر هذه الآية: المعروشات: ما عرش الناس، وغير معروشات: ما خرج في البر والجبال من الثمرات.

(٣) زاد المسير (٣/ ١٣٥).

معروشات»: مما نبت بنفسه في البراري، كأن الذي أنبته الناس اهتمّوا به فعرّشوه، والذي نبت بنفسه في البراري غير معروش[١]. تقول: عرشت الكَرْم؛ إذا جعلت له دعائم[٢].

قرأ علي عليه السلام: «مغروسات وغير مغروسات»، بالغين المعجمة والسين المهملة فيهما[٣].

﴿والنخل والزرع مختلفاً أكله﴾ يعني: ثمر النخل وحب الزرع، لكلِّ شيء منه طعم يُخالفُ طعم الآخر.

و﴿مختلفاً﴾ حال مقدرة[٤]؛ لأنها لم يكن لها وقت الإنشاء أُكُلٌ فيوصف بالاختلاف. ومثله قوله تعالى: ﴿فادخلوها خالدين﴾ [الزمر:٧٣].

قال الزجاج[٥]: هذه مسألة شديدة في النحو إلا على من عرف حقيقتها، لأن للقائل أن يقول: كيف أنشأه في حال اختلاف أُكله وهو قد نشأ من قبل وقوع أَكْلِه؟ وأُكُلُهُ ثمره.

فالجواب في ذلك: أنه عز وجل قد ذكر[٦] إنشاءَهُ بقوله: ﴿هو خالق كل شيء﴾ [الأنعام:١٠٢].

---

(١) وهو قول ابن عباس. أخرجه الطبري (٨/ ٥٢). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٣٦٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس. وانظر: الماوردي (٢/ ١٧٨).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (عرش).

(٣) انظر هذه القراءة في: القرطبي (٧/ ٩٨).

(٤) انظر: التبيان (١/ ٢٦٣)، والدر المصون (٢/ ١٩٩).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٦).

(٦) في معاني الزجاج: قدَّر.

فأعلم جل وعز أنه المنشئ له في حال اختلاف أُكُلِهِ، ويجوز أن يكون أنشأَهُ ولا أكل فيه مختلفاً أُكُلُه، لأن المعنى: مُقَدِّراً ذلك فيه، كما تقول: لَتَدْخُلُنَّ منزل زيد آكلين شاربين. فالمعنى: أنكم تدخلون مُقَدِّرِينَ ذلك. وسيبويه هو دلّ على هذا وبيّنه في قوله[١]: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ معه صَقْرٌ صائداً به غداً، فنصب "صائداً" على الحال. والمعنى: مُقَدِّراً به الصيد.

قوله تعالى: ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾ أمرُ إباحة.

﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وأبو عمرو: «حَصَادِه» بفتح الحاء -وهي لغة بني تميم وأهل نجد-، وكسرها الباقون[٢] -وهي لغة أهل الحجاز-.

قال سيبويه[٣]: وهو الأصل.

وفي المراد بهذا الحق قولان:

أحدهما: أنَّه الزكاة. قاله ابن عباس، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، ومحمد ابن الحنفية، وقتادة[٤].

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٢/ ٤٩).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٥١)، والكشف (١/ ٤٥٦)، والنشر (٢/ ٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧١).

(٣) الكتاب (٤/ ١٢).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٥٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٨)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٧ ح١٠٤٧٥)، والبيهقي في سننه (٤/ ١٣٢)، وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٧٨)، والنحاس في ناسخه (ص:٤٢١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٧٠) وعزاه لابن أبي حاتم والنحاس وابن عدي والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك. ومن طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لابن المنذر وابن أبي

فعلى هذا القول: الآية مدنية، وهي محكمة[(١)].

والثاني: أنَّه حقٌّ غير الزكاة.

قال مجاهد: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم منه، وإذا دسته وذَرَيْتَه فاطرح لهم منه، وإذا أكدسته فاطرح لهم منه، فإذا عرفت كيله فاعزل زكاته[(٢)].

وقال الربيع: هو لقاط السنبل[(٣)].

وقال [يزيد][(٤)] بن الأصم: كان أهل المدينة إذا صرموا يجيئون بالعذق

= حاتم. ومن طريق آخر عن طاوس، وعزاه لابن أبي شيبة وأبي داود في ناسخه والبيهقي.

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤١٩)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٣١-٣٣٥).
قال الشوكاني في فتح القدير (٢/ ١٦٩): وقد اختلف أهل العلم هل هذه الآية محكمة أو منسوخة، أو محمولة على الندب؟ فذهب ابن عمر وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير إلى أن الآية محكمة، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطى من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما، وذهب ابن عباس ومحمد ابن الحنفية والحسن والنخعي وطاوس وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريج أن هذه الآية منسوخة بالزكاة، واختاره ابن جرير، ويؤيده أن هذه الآية مكية، وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف. وقالت طائفة من العلماء: إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب. اهـ.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٥٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٨)، وسعيد بن منصور (٥/ ٩٥)، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٧ ح١٠٤٧٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٨) وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٥٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٧) وعزاه لابن المنذر والنحاس وأبي الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ قال: ما سقط من السنبل.

(٤) في الأصل: زيد. والصواب ما أثبتناه. وانظر: ترجمته في: تقريب التهذيب (ص:٥٩٩).

فيعلقونه في جانب المسجد، فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فيسقط منه فيأخذه[(١)].

فعلى هذا؛ قوله: ﴿وآتوا حقه﴾ أمر استحباب.

وقال سعيد بن جبير وعطية: كان هذا قبل الزكاة، فلما فرضت الزكاة نُسخ هذا[(٢)].

قال سفيان: سألت السدي عن هذه الآية فقال: نسخها العشر ونصف العشر. قلتُ: عن من؟ قال: عن العلماء[(٣)].

قال ابن عباس: نَسخت الزكاة كلّ نفقة في القرآن[(٤)].

فعلى هذا يكون قوله: ﴿وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أمر إيجاب، ويكون منسوخاً كما ذكروا[(٥)]. هذا حاصل ما ذكره المتقدمون من العلماء.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٥٧) عن يزيد بن الأصم، وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٧ ح١٠٧٨٧) عن البراء. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٨) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ عن ميمون بن مهران ويزيد بن الأصم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٥٨)، والنحاس في ناسخه (ص:٤١٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٨) وعزاه للنحاس وأبي الشيخ عن سعيد بن جبير.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٨ ح١٠٤٨٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٧) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي داود في ناسخه وابن المنذر.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٤٠٨ ح١٠٤٨٤)، والنحاس في ناسخه (١/ ٤٢٠) كلاهما عن الضحاك، وابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٨) عن عكرمة. وانظر: الماوردي (٢/ ١٧٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٨) وعزاه لأبي عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك. ومن طريق آخر عن عكرمة، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٤١٩) وما بعدها، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٣١-٣٣٥).

وذهب أكثر متأخري العلماء إلى أن المراد بالحقِّ: الزكاة.

قال القاضي أبو يعلى ابن الفراء: فائدةُ ذكر الحصاد: أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه وبلوغه، وإنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه، وقد كان يجوز أن يُتوهم أن الحق يَلْزَمُ بنفس نباته قبل قطعه، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد دون ما يتلف[١].

وقال أيضاً: «اليوم» ظرفٌ للحقّ لا للإيتاء، فكأنه قال: وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية[٢].

وقال الواحدي[٣]: هذا في النخيل؛ لأن ثمارها إذا حصدت وجب إخراج ما يجب[٤] فيها من الصدقة، والزرع محمول عليه في وجوب الإخراج، إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد، فيؤخر إلى زمان التنقية.

وقال صاحب الكشاف[٥]: معناه: اعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء.

وهذه الفوائد في نهاية ما يكون من الحسن.

ويجوز عندي -والله أعلم- أن يقال: العرب توقع اليوم على الزمان،

---

(١) انظر قول أبي يعلى في: زاد المسير (٣/ ١٣٦).

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) الوسيط (٢/ ٣٣٠).

(٤) قوله: «يجب» مكرر في الأصل.

(٥) الكشاف (٢/ ٦٩).

فيقولون: كان ذلك يوم بُعاث[١]، ويوم صفين[٢]، وقد قررنا ذلك فيما مضى.

والمعنى: فآتوا حقه زمان حصاده، وزمان الحصاد مظنة استقرار الوجوب، فلذلك أمر بالإيتاء فيه.

قوله تعالى: ﴿ولا تسرفوا﴾ أي: لا تتجاوزوا الحدّ في الإعطاء، كما فعل ثابت بن قيس بن شمّاس[٣].

قال ابن عباس: [صرم][٤] ثابت خمسمائة نخلة، ثم قسمها في يوم واحد، فأمسى ولم يترك لأهله شيئاً، فكره الله له ذلك فنزلت: ﴿ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾[٥].

وقال الزهري في قوله: «ولا تسرفوا»: لا تنفقوا في المعصية[٦].

قال مجاهد: لو كان أبو قبيس[٧] ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً،

---

(١) يوم بُعاث: كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وهو يوم من مشاهير أيام العرب (انظر: اللسان، مادة: بعث). وكان الظهور فيه للأوس.

(٢) صفين: موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس، وكانت وقعة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما (معجم البلدان ٣/ ٤١٤)

(٣) ثابت بن قيس بن شماس -بمعجمة وميم مشددة وآخره مهملة-، أنصاري خزرجي، خطيب الأنصار، من كبار الصحابة، بشره النبي ﷺ بالجنة، واستشهد باليمامة بمنام رآه خالد بن الوليد رضي الله عنهما (التقريب ص:١٣٣).

(٤) في الأصل: صم. والتصويب من المصادر التالية.

(٥) ذكره القرطبي (٧/ ١١٠)، والبغوي (٢/ ١٣٦).

(٦) زاد المسير (٣/ ١٣٦).

(٧) أبو قبيس: اسم الجبل المشرف على مكة، وجهه إلى قعيقعان، ومكة بينهما، أبو قبيس من شرقيها وقعيقعان من غربيها، قيل: سمي باسم رجل من مذحج؛ لأنه أول من بنى فيه قبة (معجم البلدان =

ولو أنفق درهماً واحداً أو مداً في معصية الله كان مسرفاً[١].

وقيل لحاتم الطائي: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير[٢].

وقال سعيد بن المسيب: لا تمنعوا الصدقة الواجبة[٣].

قوله تعالى: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشاً﴾ هذا عطف على قوله: ﴿أنشأ جنات معروشات﴾[٤]، وأنشأ من الأنعام حمولة، وهي التي تحمل الأثقال.

قال عنترة:

مَا رَاعَنِي إِلاَّ حَمُولَةُ أَهْلِها وَسْطَ الرِّكَابِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ[٥]

قال ابن مسعود: هي ما حَمَل من الإبل[٦].

= ١/ ٨٠).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٩) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) ذكره القرطبي (٧/ ١١٠).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٦١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٣٩٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (٤/ ١٤٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٦٩) وعزاه لعبد الرزاق وابن أبي حاتم.

(٤) انظر: التبيان (١/ ٢٦٣)، والدر المصون (٢/ ٢٠٠).

(٥) البيت لعنترة. انظر: ديوانه (ص:١٧)، واللسان، مادة: (خمم)، وشرح القصائد (ص:٣٢٧)، وتهذيب اللغة (٧/ ١٧)، والدر المصون (٢/ ٢٠١)، والطبري (١٢/ ٧٨)، والقرطبي (٧/ ١١٢)، وروح المعاني (١٢/ ١٠٢).

والخِمْخِم: -بكسر الخائين المعجمتين- نبات تُعْلَفُ حَبَّه الإبل. ويقال: هو بالحاء: «الحمحم» (اللسان، مادة: خمم).

(٦) أخرجه الطبري (٨/ ٦٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٠٠)، ومجاهد (ص:٢٢٦)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٨)، والحاكم (٢/ ٣٤٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٧٠) وعزاه للفريابي وعبد بن حميد وأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني والحاكم وصححه.

وقال قتادة: الحَمُولَة: ما حمل من الإبل والبقر. والفرش: الغنم والفصلان والعجاجيل، سميت فرشاً؛ لأنها تفرش للذبح، أو لما ينسج من أصوافها وأوبارها وأشعارها من الفرش[1].

﴿كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحريم والتحليل.

وقد سبق تفسير ما لم نذكره هاهنا.

ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج﴾ بدلاً من «حمولةً وفرشاً»، أي: وأنشأ ثمانية أزواج، أو بدل مما بعد «كلوا» فإنه في موضع نصب، والأول أوجه[2].

والزوج: كل فرد معه آخر من جنسه[3].

ثم فسّر الأزواج فقال: ﴿من الضأن اثنين﴾ أي: زوجين اثنين؛ يريد: الذكر

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٦٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٠٠-١٤٠١).

(٢) التبيان (١/ ٢٦٣)، والدر المصون (٢/ ٢٠١).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (زوج).

والأنثى. والضأن: ذوات الصوف من الغنم[(١)]. والمَعْز: ذوات الشعر منها[(٢)].

قال الزجاج[(٣)]: والضَّأْنُ: جمع ضَائِن [وضأْن][(٤)]، مثل: تَاجِر وتَجْر.

قرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كثير: «المعَز» بفتح العين، وسكّنها الباقون[(٥)].
وهو جمع ماعز؛ كحَارِس وحَرَس، وتَاجِر وتَجَر أيضاً.

﴿قل آلذكرين﴾ من الضأن والمعز، ﴿حرّم أم الأنثيين﴾ المعنى: فإن كان حرّم الذكرين فكلّ الذكور حرام، وإن كان حرّم الأنثيين فكلّ الإناث حرام، وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز من الأجنة، فهي إما ذكور وإما إناث.

أو يقال: إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين فقد حرّم الأولاد، وكلها أولاد، فيكون التحريم شاملاً للكل.

قال الزجاج[(٦)]: وكذلك الاحتجاج في قوله: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾.

قل لهم يا محمد على وجه التبكيت لهم عند ظهور الحُجّة عليهم، ووضوح كون ما اختلقوه فرية بلا مرية: ﴿نبئوني بعلم﴾ أي: خبروني بعلم من جهة الله تعالى

---

(١) انظر: المعجم الوسيط (ص:٥٣٢).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (معز).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٩).

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٢١٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٥)، والكشف (١/ ٤٥٦)، والنشر (٢/ ٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧١).

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٩).

يدلُّ على تحريم مَا حرمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في إضافة التحريم إليه.

ومضمون هذه الآية والتي بعدها: إبطال ما كانوا عليه من أمر البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي[١]، وإبطال قولهم: ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا... الآية﴾.

قال الزجاج[٢]: فأما الإعراب في «آلذكرين» فالنصب بـ«حَـرَّمَ»، وتَثْبُتُ[٣] ألف المعرفة مع ألف الاستفهام؛ لئلا يلتبس الاستفهام بالخبر، لأنه لو قيل: «أَلذكرين حَرَّمَ» بألف واحدة، لالتبس الاستفهام بالخبر، وقد يجوز مع «أم» حذف الألف، لأن «أم» تدل على الاستفهام، ولكن القراءة بتبيين الألف الثانية.

قوله تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا﴾ قال الزجاج[٤]: معناه: هل

---

(١) البحيرة: كانت العرب إذا نتجت الناقة عشرة أبطن شقوا أذنها نصفين، فلا ينتفع منها بلبن ولا ظهر، وتترك ترعى وترد الماء، ويُحَرَّم لحمها على النساء، ويُحَلَّل للرجال (اللسان، مادة: بحر).
والسَّائبة: كان الرجُل في الجاهلية إذا قدم من سَفَر أو برئ من مَرَض و غير ذلك قال: ناقِتي سائبة، فلا ينتفع بظهرها ولا تُحلأُ عن ماءٍ، ولا تُمنَع من كلأٍ ولا تُرْكَب (اللسان، مادة: سيب).
والوَصِيلة: كانت في الشاة خاصة، كانت الشاة إذا وَلَدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً جعلوه لآلهتهم، فإذا ولدت ذكَراً وأُنثَى قَالوا: وَصَلت أخَاهَا، فلم يذبحوا الذَّكَر لآلهتهم. والوصيلة التي كانت في الجاهلية: الناقة التي وصلت بين عشرة أبطن، وهي من الشاء التي ولدت سبعة ابطن عناقين عناقين، فإن ولدت في السابع عناقاً قيل: وصلت أخاها، فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء، وتجري مجرى السائبة (اللسان، مادة: وصل).
والحَامِي: الفَحْلُ من الإبل يَضْرِبُ الضِّرَابَ المعدودَ (اللسان، مادة: حما).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

(٣) تدغم وتندمج.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٢٩٩).

شاهدتم الله حرّم هذا[١]؛ إذ كنتم لا تؤمنون برسول.

ثم بيّن الله تعالى ظلمهم فقال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم﴾.

قال ابن عباس: يريد: عمرو بن لُحَي[٢] الذي سَيَّبَ السوائب ومن جاء بعده[٣].

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه﴾ هذه الآية تتضمن الإعلام أن التحليل والتحريم إنما يُتلقّى من جهة الوحي والتنزيل.

﴿إلا أن يكون ميتة﴾ قرأ ابن عامر وابن كثير وحمزة: «تكون» بالتاء، حملاً على المعنى، لأن المحرّم إما أن يكون عيناً، أو نفساً، أو جثة. وقرأ الباقون بالياء حملاً على اللفظ، لأن قوله: «لا أجد» يدل على نفي الوجود، والتقدير: إلا أن يكون الموجود ميتةً.

---

(١) بمعنى: قال لكم ذلك مشافهة وسمعتموه منه.

(٢) عمرو بن لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي، من قحطان، أول من غيّر دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأوثان (الأعلام ٥/ ٨٤).

(٣) الوسيط (٢/ ٣٣١)، وزاد المسير (٣/ ١٣٩).

واتفقوا على نصب «ميتةً»، إلا ابن عامر، فإنه رفع[١]. وقد أشرنا إلى تعليل القراءتين آنفاً[٢].

﴿أو دماً مسفوحاً﴾ يعني: مصبوباً.

﴿أو فسقاً﴾ سمى سبحانه ما ذُبح باسم آلهتهم فسقاً؛ لتوغّله في الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة.

وقوله: ﴿أُهِلَّ﴾ صفة منصوبة المحل[٣]. وما لم أذكره هاهنا فقد سبق ذكره فيما مضى.

فصل

ذهب قوم من المفسِّرين إلى أن هذه الآية منسوخة بآية المائدة المشتملة على تحريم المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكلّ السبع[٤]، وبالأحاديث التي وردت في تحريم الحُمر الأهلية وكلِّ ذي ناب من السباع، ومِخْلَب[٥] من الطير. وهو مذهبٌ بعيدٌ من التحقيق والصواب، لأن المنخنقة وما بعدها من جملة الميتة، وأخبار الآحاد لا تَنْسَخُ القرآن، وإنما المعنى: لا أجد فيما أوحي إليّ من القرآن، أو لا أجد فيما أوحي إليّ من القرآن وغيره محرّماً، إلا أن يكون ميتة[٦].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٦)، والكشف (١/ ٤٥٦)، والنشر (٢/ ٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢١٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٢).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإن يكن ميتة﴾ [الأنعام: ١٣٩].

(٣) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٠٥).

(٤) كما جاء ذلك في الآية الثالثة من سورة المائدة.

(٥) المخلب: بكسر الميم، وهو للطائر والسباع بمنزلة الظفر للإنسان (اللسان، مادة: خلب).

(٦) انظر: الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/ ٤٣٢)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٣٥-٣٣٦).

وليس في هذا دلالة على إباحة ما عدا المحرمات في الآية، وإنما الآية اقتضت أمره ﷺ بإخبار الكفار أنه لم يجد مُحرّماً سوى ما عيّن في الآية، ثم بعد ذلك حرّم عليه ما حرّم من المطاعم.

أو يكون المعنى: لا أجد شيئاً محرّماً من المطاعم التي حرّمتموها، فيكون الاستثناء منقطعاً؛ لأنهم كانوا يستحلون الميتة والدم.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ يقال: ظُفُر بضمِّ الظاء والفاء، وبها قرأ الأكثرون، و «ظُفْر» بضم الظاء وإسكان الفاء.

قال الشاعر:

لَقَدْ كُنْتُ ذا نَابٍ وَظُفْرٍ عَلَى العِدَا ... فَأَصْبَحْتُ لا يَخْشَوْنَ نَابي وَلا ظُفْري[1]

و «ظِفْر» بكسر الظاء وسكون الفاء، وبها قرأ الحسن[2].

و «ظِفِر» [بكسرهما][3]، وبها قرأ أبو السَّمَّال[4].

---

(١) انظر البيت في: زاد المسير (٣/ ١٤٢).

(٢) انظر: مختصر ابن خالويه (ص:٤١)، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري (ص:٥١٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٠).

(٣) في الأصل: بسكونهما، والصواب ما أثبتناه، انظر الدر المصون (٣/ ٢٠٦).

(٤) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٢٤٥).

و «أُظْفور»[١].

قال الشاعر:

مَا بَيْنَ لُقْمَتِهِ الأُولى إِذا انْحَدَرَتْ وَبَيْنَ أُخْرَى تَلِيهَا قَيْدَ أُظْفُورِ[٢]

قال ابن عباس وجمهور المفسِّرين في هذه الآية: والظفر: ما ليس بمتفرج الأصابع؛ كالإبل والنعام والإوز والبط[٣].

وقال ابن زيد: يريد: الإبل فقط[٤]. ويأباه قوله: «كل».

وقال ابن الأنباري[٥]: الظفر هاهنا يجري مجرى الظفر للإنسان.

وقال صاحب الكشاف[٦]: ذو الظفر: ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم، فلما ظلموا حُرّم ذلك عليهم، فعمّ التحريم كل ذي ظفر، بدليل قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحلّت لهم﴾ [النساء:١٦٠]، وقوله: ﴿ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما﴾ كقولك: من

(١) وهذه لم يقرأ بها، ولكنها لغة في "الظُّفُر".

(٢) انظر البيت في: اللسان، مادة: (ظفر)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٣٧٥)، وزاد المسير (٣/ ١٤٢)، وشرح الزرقاني (١/ ١٠٢).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٧٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٠)، والبيهقي في سننه (١٠/ ٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٧٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن قتادة، وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٧٣).

(٥) انظر قول الأنباري في: زاد المسير (٣/ ١٤٢).

(٦) الكشاف (٢/ ٧١).

زيد أخذت ماله، يريد بالإضافة: زيادة الربط. والمعنى: أنه حرم عليهم لحم كلِّ ذي ظفر وشحمه وكل شيء بينه، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم [الخالصة][(١)]، وهي الثروب وشحوم الكلى، وذلك قوله: ﴿حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما﴾ يريد: ما اشتمل بالظهر من الشحم.

﴿أو الحوايا﴾ قال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة والزجاج وابن قتيبة وجمهور المفسِّرين واللغويين: هي المَبَاعِرُ، واحدتها: حَوِيَّة وحَاوِيَة وحاوياء[(٢)].

قال علي عليه السلام:

أَقْتُلُهُم وَلاَ أَرَى مُعَاوِيَهْ ... الجَاحِظَ العَيْنِ العَظِيمِ الحَاوِيَهْ[(٣)]

وقال آخر:

كَأَنَّ نَقِيقَ الحَبِّ في حَاوِيائِهِ ... فَحِيحُ الأَفَاعِي أَوْ نَقِيقُ العَقَارِبِ[(٤)]

والمراد: ما حملت الحوايا من الشحم أو ما اختلط بعظم.

---

(١) في الأصل: الخاصة. والتصويب من الكشاف (٢/ ٧١).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٧٥-٧٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١١)، والبيهقي في سننه (١٠/ ٨). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢١٨)، وتفسير مجاهد (ص:٢٢٦)، ومعاني الزجاج (٢/ ٣٠١)، وتفسير غريب القرآن (ص:١٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٧٨-٣٧٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) انظر البيت في: اللسان، مادة: (حوا)، وزاد المسير (٣/ ١٤٣).

(٤) البيت لجرير يصف الخنزير والحب في حاوياته. انظر: ديوانه (ص:٢٣٩)، واللسان، مادة: (نقق)، وتهذيب اللغة (٥/ ٢٩٢)، وزاد المسير (٣/ ١٤٣)، والدر المصون (٢/ ٢٠٩).

قال جمهور المفسِّرين: يريد: الأليّة[١].

وقال ابن جريج: كل شحم في القوائم والجنب والرأس وفي العينين والأذنين فهو ما اختلط بعظم، وهو حلال لهم، وإنما حرم عليهم الثرب وشحم الكِلية[٢].

وقيل: «الحوايا» عطف على «شُحُومَهُمَا»[٣].

والأول أكثر وأشهر وأوضح، و«أو» بمنزلتها، كقولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين[٤].

وقيل: بمعنى الواو -كما سبق-.

﴿ذلك﴾ إشارةٌ إلى التحريم، ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ أي: بسبب ظلمهم الفاحش من قتل الأنبياء والأولياء وأخذهم الربا وغير ذلك، ﴿وإنا لصادقون﴾ فيما أخبرناكم عنهم من البغي والظلم والتحريم والجزاء وغير ذلك.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٧٦) عن ابن جريج. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٧٩) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٧٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٧٩) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٣) انظر: التبيان (١/ ٢٦٤)، والدر المصون (٢/ ٢٠٨).

(٤) هذا قول الزمخشري في الكشاف (٢/ ٧١). قال السمين الحلبي (٢/ ٢٠٨): والأحسن في هذه الآية إذا قلنا إن «الحوايا» معطوف على «شحومهما»؛ أن تكون «أو» فيه للتفصيل، فصل بها ما حرّم عليهم من البقر والغنم.

ثم قال -يعني: السمين-: وعبارة الزمخشري سبقه إليها أبو إسحاق -يعني: الزجاج- فإنه قال (٢/ ٣٠١-٣٠٢): وقال قوم: حرمت عليهم الثروب، وأحل لهم ما حملت الظهور، وصارت «الحوايا أو ما اختلط بعظم» نسقاً على ما حرم، لا على الاستثناء.

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ
ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ
ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن
شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟
أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا
ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ
ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

قوله تعالى: ﴿فإن كذبوك﴾ قال ابن عباس: يريد: المشركين(١).

وقال مجاهد: اليهود(٢).

﴿فقل ربكم ذو رحمة واسعة﴾ فغير بِدْع ولا بعيد أن لا يعاجلكم بالعقوبة

---

(١) زاد المسير (٣/ ١٤٤).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٧٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٢)، ومجاهد (ص:٢٢٦). وذكره السيوطي في الدر (٢/ ٣٧٩) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

لسعة رحمته، ولكنه أجّلكم إلى الوقت المقدر لعذابكم والانتقام منكم، ﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾.

قوله تعالى: ﴿سيقول الذين أشركوا﴾ هذا إخبار من الله تعالى لنبيّه بما سيقوله المشركون، فلما قالوه، قال: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ [النحل:٣٥].

والمعنى: سيقول المشركون من عُبّاد الأصنام وغيرهم ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ يريدون: البحائر والسوائب.

قال الزجاج[(١)]: زعم سيبويه أن العطف بالظاهر على المضمر المرفوع في الفعل قبيح، يستقبح: قمت وزيد، فإن جاءت «لا» حَسُنَ الكلام فقلت: ما قمتُ ولا زيد.

والمعنى: لو شاء لحال بيننا وبين ذلك، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأصنام وتحريم الحرث والأنعام. وهذه مجادلةٌ فاسدة؛ لأن لخصمِهم أن يقابل ما اعتلوا به من الشبه بمثله، ولا يلزم من ذلك كونه على الحق عندكم.

ثم إن الله أكذبهم فيما نسبوه إليه من الرضى بما هم عليه فقال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ قال ابن عباس: قالوا لرسلهم مثل ما قال هؤلاء لك، ولو أن الله أكذبهم في نسبتهم المشيئة إليه لقال: ﴿كذلك كَذَب﴾ بالتخفيف[(٢)].

﴿قل﴾ لهم يا محمد على وجه التهكم بهم، ﴿هل عندكم من علم﴾ جاءكم به رسول أو نزل عليكم به كتاب، ﴿فتخرجوه لنا إن تتبعون﴾ فيما أنتم عليه من الدين

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٠٢).

(٢) الطبري (٨/ ٧٩)، وزاد المسير (٣/ ١٤٥).

إلا الباطل، ﴿إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون﴾ أي: تكذبون.

﴿قل فلله الحجة البالغة﴾ حيث أنزل الكتب وبعث الرسل، وأوضح الدلائل، لأنكم أيها المحتجون لصحة شركهم وباطلهم والمعتقدون رضى الله بما هم عليه، حيث لم يقهرهم على تركه، بل أرخى لهم أعنّة تماديهم في ميادين غيّهم.

﴿فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ قال جويرية بن أسماء[1]: سمعت علي بن زيد تلا هذه الآية: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فنادى بأعلى صوته: انقطع والله هاهنا كلام القدرية[2].

قوله تعالى: ﴿قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾. «هَلُمّ»[3] كلمة يستوي في الدعاء بها الواحد والاثنان والجماعة، والمذكر والمؤنث. هذه لغة أهل الحجاز، وبها جاء القرآن.

وأما بنو تميم وأهل نجد فإنهم يقولون للواحد: هَلُمَّ، وللاثنين: هَلُمَّا، وللجماعة: هَلُمُّوا، وللأنثى: هَلُمِّي، وللثنتين: هَلُمَّا، وللنسوة: هَلْمُمْنَ.

والمعنى: هاتوا شهداءكم. والمراد بهذا: تبكيتُهم وإظهار انقطاع حجتهم.

﴿الذين يشهدون أن الله حرم هذا﴾ يعني: ما ذَكَرَ من الحرث والأنعام مما

---

(١) جويرية بن أسماء بن عبيد الضبعي، بضم المعجمة وفتح الموحدة، البصري، صدوق، مات سنة ثلاث وسبعين. (التقريب:١٤٣).

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٨٠) وعزاه لأبي الشيخ عن علي بن زيد.

والقدرية: قوم ينسبون إلى التكذيب بما قدر الله من الأشياء.

(٣) هلم: هو اسم فعل لا ينصرف عند أهل الحجاز، وفعل يؤنث ويجمع عند بني تميم. انظر: المفصل للزمخشري (ص:١٩٣)، واللباب للعكبري (٢/ ٨٩)، والتبيان (١/ ٢٦٤)، والدر المصون (٢/ ٢١٢).

حرمه المشركون.

﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم﴾ أي: لا توافقهم ولا تصدقهم، ﴿ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا﴾ فحَرَّموا الحلال وحَلَّلوا الحرام، ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ سبق تفسيره.

قوله تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ سبق الكلام على «تعالوا» في آل عمران[1].

وقوله: ﴿ما حرّم﴾ منصوب بفعل التلاوة، تقديره: اتلوا الذي حرّمه ربكم عليكم[2].

ثم فسّره فقال: ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾، و«لا» للنهي، ويجوز أن تكون: «أنْ» هي الناصبة للفعل، و«لا» زائدة، والجملة في موضع نصب على البدل من «ما حرّم»، أو في موضع رفع، على معنى: هو «ألَا تشركوا به».

وقيل: تم الكلام عند قوله: «ما حرّم ربكم» ثم قال: «عليكم ألَا تشركوا به شيئاً»، كما قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] فيكون إغراءً[3].

وقال الزمخشري[4]: «أن» في «أن لا تشركوا» مفسِّرة، و«لا» للنهي.

فإن قلت: هلاَّ قلت هي التي تنصب الفعل، وجعلت «أن لا تشركوا» بدلاً

---

(١) عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا ...﴾ [الآية:٦١].

(٢) ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: حرم ربكم أن تشركوا، و"لا" زائدة (انظر: التبيان ١/ ٢٦٥، والدر المصون ٢/ ٢١٣).

(٣) انظر: التبيان (١/ ٢٦٥)، والدر المصون (٢/ ٢١٣).

(٤) الكشاف (٢/ ٧٥).

من «ما حرّم»؟

قلتُ: وجب أن تكون «ألا تشركوا»، «ولا تقربوا»، «ولا تقتلوا»، «ولا تتبعوا السُّبل» نواهي لانعطاف الأوامر عليها، وهي قوله: «وبالوالدين إحساناً»؛ لأن التقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، «وأوفوا»، «وإذا قلتم فاعدلوا»، «وبعهد الله أوفوا».

فإن قلت: فما تصنع بقوله: «وأن هذا صراطي مستقيماً» فيمن قرأ بالفتح، وإنما يستقيم عطفه على «أن لا تشركوا» إذا جعلت «أن» هي الناصبة للفعل، حتى يكون المعنى: أَتْلُ عليكم نفي الإشراك والتوحيد، وأَتْلُ عليكم أن هذا صراطي مستقيماً؟

قلتُ: أجعل قوله: «وأن هذا صراطي مستقيماً» علةً للاتباع بتقدير اللام؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] بمعنى: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه. والدليل عليه القراءة بالكسر، كأنه قيل: واتبعوا صراطي لأنه مستقيم، [أو: واتبعوا صراطي إنه مستقيم](١).

فإن قلت: إذا جعلت «أنْ» مفسرة لفعل التلاوة وهو معلق بـ«ما حرّم ربكم» وجب أن يكون ما بعده منهياً عنه محرماً كله؛ كالشرك، وما بعده مما دخل عليه حرف النهي، فما تصنع بالأوامر؟

قلتُ: لما وردت هذه الأوامر مع النواهي وتقدمهن جميعاً فعل التحريم واشتركن في الدخول تحت حكمه، عُلِمَ أن التحريم راجع إلى أضدادها، وهي

(١) ما بين المعكوفين زيادة من الكشاف (٢/ ٧٥).

الإساءة إلى الوالدين، وبخس الكيل والميزان، وترك العدل في القول، ونكث عهد الله عز وجل. هذا تمام كلامه[(١)].

قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق﴾ قال ابن عباس: يريد: مخافة الفقر[(٢)].

يقال: أَمْلَقَ الرَّجُلُ فهو مُمْلِقٌ؛ إذا افْتَقَرَ[(٣)].

والمراد: نهيهم عما كانوا عليه من دفن البنات أحياءً خشية النفقة عليهن.

ثم ضمن الله تعالى الرزق للجميع فقال: ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾.

﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ سبق تفسيره في قوله: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ [الأنعام: ١٢٠].

﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾ وهو أن يكفر بعد إيمانه، أو يزني بعد إحصانه، أو يقتل نفساً مؤمنة معصومة[(٤)].

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «كان فيما أعطى الله موسى في الألواح: ولا تقتل النفس التي حرمت إلا بالحق فتضيق عليك الأرض برحبها، والسماء بأقطارها،

---

(١) أي: الزمخشري في الكشاف.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٨٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤١٤). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢١٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٨٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) انظر: اللسان، مادة: (ملق).

(٤) أخرج البخاري ومسلم من حديث عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» (البخاري ٦/ ٢٥٢١ ح٦٤٨٤، ومسلم ٣/ ١٣٠٢ ح١٦٧٦).

وتبوء بسخطي والنار»(١).

﴿ذلكم﴾ يعني: ما ذكر في هذه الآية، ﴿وصاكم﴾ أي: أمركم به، ﴿لعلكم تعقلون﴾.

وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن﴾.

أي: بالخصلة التي هي أحسن، وهي القيام بتثميره، وحسن تدبيره، وعدم تبذيره.

وقال ابن عباس: يريد: إن كنتَ له وصياً فأصلحتَ ماله أكلتَ بالمعروف إن احتجت إليه، وإن كنت غنياً عنه فعُفَّ عن أكله(٢).

﴿حتى يبلغ أشده﴾ وهو استحكام قوة الشباب، والمراد به: أن يبلغ ويؤنس منه الرشد، وهو الصلاح في المال والدين، وقد ذكرناه في سورة النساء(٣).

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٦٥-٢٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٨١) وعزاه لابن مردويه وأبي نعيم في الحلية وابن لال في مكارم الأخلاق عن جابر بن عبد الله.

(٢) الوسيط (٢/ ٣٣٧)، وزاد المسير (٣/ ١٤٩).

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ...﴾ [النساء:٦].

قال أبو عبيدة[١]: الأشدّ: لا واحد له.

وقال الفراء[٢]: واحده: «شدّ» في القياس، ولم نسمع لها بواحد.

وقال ابن قتيبة[٣]: لا واحد له، فإن أكرهوا على ذلك قالوا: شد بمنزلة «ضبّ وأضبّ».

وقيل: واحد الأشد: شدّ، بفتح الشين وضمها[٤].

قال بعض البصريين: واحد الأشد: «شِدة»، كنعمة وأنعم[٥].

فإن قيل: لم خصَّ مال اليتيم بالذكر مع أن جميع الأموال لا يجوز قربانها إلا بالتي هي أحسن؟

قلتُ: خصه بالذِّكْر؛ لضعفه عن الانتصار لنفسه، وزيادة الطمع فيه لصغره.

قوله تعالى: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ أتموها بالعدل والتسوية من غير بخس ولا شطط، على حسب اجتهاد المكلف في تحري العدل.

﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: ما يسعها وتقدر عليه، ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ أي: إذا تكلمتم أو شهدتم فاعدلوا، ﴿ولو كان ذا قربى﴾ أي: ولو كان المقول له أو عليه في شهادة أو غيرها ذا قرابتك.

﴿وبعهد الله أوفوا﴾ هو مثل قوله: ﴿أوفوا بالعقود﴾ [المائدة:١]، وقد سبق

---

(١) مجاز القرآن (٢/ ٩٩).

(٢) لم أقف عليه في معاني الفراء. وانظر: زاد المسير (٣/ ١٤٩)، واللسان، مادة: (شدد).

(٣) انظر قول ابن قتيبة في: زاد المسير (٣/ ١٤٩).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ١٤٩).

(٥) انظر: زاد المسير (٣/ ١٤٩).

تفسيره. ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾.

﴿وأَنَّ هذا صراطي مستقيماً﴾ اتفقوا على تشديد النون في «أَنَّ» إلا ابن عامر، فإنه خففها من الثقيلة، تقديره: وأنه، فحذف ضمير الشأن، وكسر حمزة والكسائي الهمزة على الاستئناف، وفتحها الباقون[١].

قال الفراء[٢]: إن شئت جعلت «أَنَّ» مفتوحة بوقوع «أُتْلُ» عليها، وإن شئت جعلتها خفضاً على معنى: ذلكم وصاكم به وأنَّ هذا صراطي مستقيماً.

وسيبويه يقول[٣]: التقدير: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه؛ كقوله: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ [المؤمنون:٥٢] والمشار إليه: القرآن ودين الإسلام.

﴿فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ وهي: الضلالات والبدع.

أخبرنا أبو علي بن عبد الله بن الفرج في كتابه، أخبرنا أبو القاسم هبة الله الشيباني، أخبرنا أبو علي الحسن بن علي الواعظ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان، أخبرنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد قال: حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، [عن][٤] عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله رضي الله عنه قال: «خَطَّ رَسُولُ الله ﷺ خطّاً بيَدِهِ ثمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ الله مُسْتَقِيماً، ثمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثمَّ قَالَ: هَذِهِ السُّبُلُ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إلاَّ وعَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثمَّ

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٧)، والكشف (١/ ٤٥٧)، والنشر (٢/ ٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٣).

(٢) معاني الفراء (١/ ٣٦٤).

(٣) انظر: الكتاب (٢/ ١٢٦-١٢٧).

(٤) في الأصل: بن. والمثبت من مسند أحمد.

قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾»[١].

وأخرج الترمذي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الصَّحِيفَةِ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلْيَقْرَأ هؤلاء الآيَاتِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾»[٢].

وقال ابن عباس: هذه الآيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب[٣].

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥ ح٤٤٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٤ ح٣٠٧٠) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) الوسيط (٢/ ٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن﴾ إن قيل: على أي شيء عطف قوله: «ثم آتينا»؟

قلتُ: قال الزجاج[١]: على معنى التلاوة[٢]، التقدير: قل تعالوا أَتْلُ ما حَرَّمَ ربكم عليكم ثم أَتْلُ عليكم ما آتاه الله موسى.

وقال الزمخشري[٣]: عطفه على «وصاكم».

فإن قلت: كيف [صَحَّ][٤] عطفه عليه بـ«ثم» وإيتاء موسى الكتاب قبل التوصية بدهر طويل؟

قلتُ: هذه التوصية قديمة، لم تزل [توصاها][٥] كلّ أمة على لسان نبيها، كما قال ابن عباس: [محكمات][٦] لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، كأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً.

ثم أعظم من ذلك أنَّا آتينا موسى الكتاب [وأنزلنا هذا الكتاب][٧] المبارك.

وقيل: هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ [الأنعام:٨٤].

وقال غيره: تقديره: ثم كنا قد آتينا موسى الكتاب، ومثله قول الشاعر:

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٠٦).

(٢) أي: الانتقال من كلام لآخر بقطع النظر عن الزمن.

(٣) الكشاف (٢/ ٧٦-٧٧).

(٤) زيادة من الكشاف (٢/ ٧٦).

(٥) في الأصل: توصاتها. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٦) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٧) ما بين المعكوفين زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

قُلْ لِمَنْ سَادَ ثمّ سَادَ أَبُوهُ ثم قَدْ سَادَ قَبْلَ ذلِكَ جَدُّه[(١)]

قوله تعالى: ﴿تماماً﴾ مفعول له[(٢)]، المعنى: آتيناه الكتاب لأجل التمام على الذي أحسنه من كتب الله وشرائع دينه، وعلوم أنبيائه.

وقيل: تماماً للنعمة والكرامة على ما أحسن في طاعتي وتبليغ رسالتي، فتكون الذي بمعنى «ما».

وقيل: المعنى: آتيناه الكتاب تاماً جملة واحدة لم نفرق إنزاله، كالقرآن مضافاً إلى الذي أحسنه من العلم وزيادة عليه.

فعلى هذه [الأقوال][(٣)] المشار إليه: موسى ﷺ.

وقيل: المعنى: تماماً للنعمة والكرامة على من كان محسناً صالحاً، يريد: جنس المحسنين، وهو اختيار أبي عبيدة وكثير من المحققين[(٤)].

ويؤيده قراءة عبد الله بن مسعود: «على الذي أحسنوا»[(٥)].

---

(١) البيت لأبي نواس في مدح العباس بن عبيد الله. انظر البيت في: تفسير ابن كثير (١/ ٦٨)، وشرح النووي على مسلم (٢/ ٧٨). و(ثم) هنا لعطف الخبر بعد الخبر لا للترتيب.

(٢) التبيان (١/ ٢٦٦)، والدر المصون (٢/ ٢٢٠).

قال العكبري: قوله تعالى: (تماماً) مفعول له، أو مصدر، أي: أتممناه إتماماً، ويجوز أن يكون في موضع الحال من الكتاب، (على الذي أحسن) يقرأ بفتح النون على أنه فعل ماض، وفي فاعله وجهان: أحدهما: ضمير اسم الله والهاء محذوفة، أي: على الذي أحسنه الله، أي: أحسن إليه وهو موسى، والثاني: هو ضمير موسى؛ لأنه أحسن في فعله، ويقرأ بضم النون على أنه اسم، والمبتدأ محذوف، وهو العائد على الذي، أي: على الذي هو أحسن، وهو ضعيف. اهـ.

(٣) في الأصل: إلا قول.

(٤) انظر: الماوردي (٢/ ١٨٩)، وزاد المسير (٣/ ١٥٣).

(٥) انظر: مختصر ابن خالويه (ص:٤١)، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري (ص:٥٢٢).

وقال ابن زيد: تماماً على إحسان الله على أنبيائه[(١)].

وفيه تعسف.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبو رزين والحسن ويحيى بن يعمر[(٢)]: «أحسنُ» بالرفع[(٣)]، على معنى: هو أحسن، فحذف المبتدأ.

وقرأ ابن عمرو وأبو المتوكل: «أُحسِن» بضم الهمزة وكسر السين[(٤)].

﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ تبياناً لكل شيء يحتاج إليه من شرائع الدين.

قوله تعالى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ يعني: القرآن، ووصفه بالبركة لما يأتي من قِبَلِه من الخير الكثير، ﴿فاتبعوه﴾ اعملوا بما فيه، ﴿واتقوا﴾ مخالفته، ﴿لعلكم ترحمون﴾.

قوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا﴾ وهم اليهود والنصارى.

قال مقاتل[(٥)]: كان كفار مكة يقولون: قاتل الله اليهود والنصارى كيف كذبوا

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٩١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٨٦) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) يحيى بن يعمر العدواني، أبو سليمان البصري، قاضي مرو. كان من فصحاء أهل زمانه، وأكثرهم علماً باللغة. روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة وأبا هريرة وغيرهم. أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي. قيل: هو أول من نقط المصحف. مات سنة تسع وثمانين (تهذيب التهذيب ١١/ ٢٦٦).

(٣) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٥٤)، والدر المصون (٣/ ٢٢١).

(٤) انظر هذه القراءة في: زاد المسير، الموضع السابق.

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٣٧٩).

أنبيائهم، فوالله لو جاءنا نذير وكتاب لكنا أهدى منهم، فنزلت هذه الآية.

و«أَنْ» في محل النصب.

قال الكسائي والفراء[١]: معناه: اتقوا أن تقولوا.

والذي عليه حذاق النحاة من البصريين وغيرهم: أنه مفعول لأجله، تقديره: أنزلناه كراهة أن تقولوا يا أهل مكة: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا[٢].

﴿وإن كنا﴾ هي «إِنْ» المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية، والأصل: وإنه كنا ﴿عن دراستهم لغافلين﴾ على أن الهاء ضمير الشأن.

والمعنى: كنا عن قراءتهم غافلين لا نعلم ما هي إذا سمعناها أو نظرنا فيها؛ لأن لغتنا تنافيها.

﴿أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم﴾ أرشدُ إلى الصواب وأدرى بمواقع الكلام وفصل الخطاب؛ لحدة أذهاننا، [ونقاوة][٣] أفهامنا.

﴿فقد جاءكم بينة من ربكم﴾ وهو محمد ﷺ، يخاطبكم بلسانكم العربي، ﴿وهدى ورحمة﴾ وهو القرآن.

﴿فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها﴾ أي: فمن أشد ظلماً ممن جحد بالقرآن ومعجزات محمد ﷺ وأعرض عنها بعد أن عرفها.

وقيل: صدف الناس عنها، فهو أبلغ؛ لأنه صدف بنفسه وصدف الناس عنها.

ثم توعدهم فقال: ﴿سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا

---

(١) معاني الفراء (١/ ٣٦٦).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ١٤٥)، ومعاني الزجاج (٢/ ٣٠٧).

(٣) في الأصل: وتقاية.

يصدفون﴾.

قوله تعالى: ﴿هل ينظرون﴾ أي: هل ينتظرون.

﴿إلا أن تأتيهم الملائكة﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «يأتيهم الملائكة» بالياء، هنا وفي النحل[١]؛ لتذكير معنى الملائكة[٢].

قال مقاتل[٣]: هو مَلَكُ الموت وحده.

وقال غيره: مَلَكُ الموت وأعوانه يأتيهم لقبض أرواحهم.

﴿أو يأتي ربك﴾ قال الثعلبي[٤]: يأتي ربك بلا كيف لفصل القضاء بين خلقه في موقف القيامة.

وقال الحسن والضحاك: يأتي أمره[٥].

قوله تعالى: ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ قال عامة المفسرين: يعني: طلوع الشمس من مغربها[٦].

---

(١) عند الآية رقم: ٣٣.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٧)، والكشف (١/ ٤٥٨)، والنشر (٢/ ٢٦٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٣-٢٧٤).

(٣) تفسير مقاتل (١/ ٣٨٠).

(٤) الثعلبي (٤/ ٢٠٧).

(٥) زاد المسير (٣/ ١٥٦).

(٦) أخرجه الطبري (٨/ ٩٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٧)، ومجاهد (ص:٢٢٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٨٩).

فائدة: قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٧): إن الحكمة في طلوع الشمس من مغربها: أن الملحدة والمنجمين زعموا أن ذلك لا يكون، فيريهم الله قدرته ويطلعها من المغرب كما أطلعها من المشرق؛ ولتحقق عجز نمرود حين قال له إبراهيم: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

وقد أخرج الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عَنْ النبي ﷺ في قَوْلِه: «﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، قَالَ: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا»[(١)].

وروى مسروق عن ابن مسعود قال: طلوع الشمس والقمر من مغربهما[(٢)].

قوله تعالى: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها﴾.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عبد الصمد العطار، وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا محمد بن يوسف الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد، حدثنا عمارة، حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا فَإِذا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذاكَ حِينَ ﴿لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾»[(٣)].

وأخرجه مسلم عن أبي بكر، عن ابن فضيل، عن عمارة.

ويقع لنا عالياً من طريق المسند، فإن الإمام أحمد رحمه الله، يرويه عن محمد بن فضيل، عن عمارة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٤ ح٣٠٧١) وقال: هذا حديث حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٩٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٩ ح٩٠١٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٨٩) وعزاه لسعيد بن منصور والفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٩٧ ح٤٣٥٩)، ومسلم (١/ ١٣٧ ح١٥٧)، وأحمد (٢/ ٢٣١ ح٧١٦١).

وبه قال: حدثنا البخاري، حدثني إسحاق، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طلعت ورَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أجمعون، وَذَلِكَ حِينَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا، ثم قرأ الآية»[(١)].

وأخبرنا الشريف أبو الفتوح محمد بن محمد البكري التيمي[(٢)] برباطه بدمشق، حدثنا أبو الأسعد هبة الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الكريم القشيري[(٣)]، حدثنا أبو عبد الله إسماعيل بن عبد الله القلانسي، أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى بن الفضل[(٤)]، أخبرنا محمد بن عبد الله الصفار، حدثنا أحمد بن أبي نعيم الفضل بن دكين، حدثنا عبد الله بن موسى، عن أبي سعيد البقال، عن عبد الله بن أبي أوفى

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٩٧ ح٤٣٦٠).

(٢) محمد بن محمد بن محمد بن عمرو القرشي التيمي البكري النيسابوري الصوفي، ولد سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وحدث ببغداد وبمكة ومصر ودمشق، وجاور مدة. توفي في حادي عشر جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٨٩-٩٠).

(٣) هبة الرحمن بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن هوازن، أبو الأسعد القشيري النيسابوري، خطيب نيسابور، كان صاحب فضل ومعرفة بعلوم القوم، ولد في جمادى الأولى سنة ستين وأربعمائة، روى الكثير، وذاع صيته وارتحلوا إليه، وحدث عنه خلق كثير، وأملى مجالس كثيرة، وظهر به صمم في آخر حياته، توفي في ثالث عشر شوال سنة ست وأربعين وخمسمائة، وله ست وثمانون سنة (سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٨٠-١٨٢، ولسان الميزان ٦/ ١٨٧).

(٤) محمد بن موسى بن الفضل بن شاذان الصيرفي النيسابوري، من أهل نيسابور، ثقة، كان والده مثرياً، وكان ينفق، فكان لا يحدث حتى يحضر محمد هذا، وإن غاب عن سماع جزء أعاده له، فأكثر عنه جداً، مات في ذي الحجة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة عن نيف وتسعين سنة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٥٠، والتقييد ص: ١١٠).

قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي على الناس ليلة قياس ثلاث ليال من لياليكم هذه، لا يعرفها إلا المتهجدون، يقوم المتهجد فيقرأ أجزاءه، ثم ينام، ثم يقوم فيقرأ أجزاءه، ثم ينام، فإذا كان ذلك فزعوا إلى المساجد، فبينا هم كذلك إذ طلعت الشمس من مغربها»(١).

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي ذرّ قال: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَيْهِ بَرْذَعَةٌ أَوْ قَطِيفَةٌ(٢)، قَالَ: وَذاكَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا ذرٍّ؛ هَلْ تَدْرِي أَيْنَ تَغِيبُ هذه الشمس؟ قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِئَةٍ تَنْطَلِقُ حَتَّى تَخِرَّ لِرَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ سَاجِدَةً تَحْتَ الْعَرْشِ، فإذا حان خروجها أذن الله لها فتخرج فتطلع، فَإِذا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُطْلِعَهَا مِنْ حَيْثُ تَغْرُبُ حَبَسَهَا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّ مَسِيرِي بَعِيدٌ، فَيَقُولُ لَهَا: اطْلعِي مِنْ حَيْثُ غِبْتِ، فَذلِكَ حِينَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا»(٣).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قَالَ: «ثَلاثٌ إِذا خَرَجْنَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ»(٤).

وفيه من حديث عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «أَوَّلَ الآيَاتِ

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٩٥) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وليس هو في شيء من الكتب الستة (وانظر: فتح الباري ١١/ ٣٥٥).

(٢) البَرْذَعَة: الحِلس الذي يُلقى تحت الرحل (اللسان، مادة: برذع).
والقطيفة: كساء له خَمْل (اللسان، مادة: قطف).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٥ ح٢١٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ١٣٨ ح١٥٨).

خُرُوجاً: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى. قَالَ عَبْدُ الله بن عمرو: ويمكث الناس بعد طلوعها، فَأَيَّتُهُمَا خَرَجَتْ قبل فَالأُخْرَى مِنْهَا قَرِيبٌ»[١].

وقال عبد الله بن عمرو: يمكث الناس بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة[٢].

قوله تعالى: ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾ صفة لقوله: «نفساً»[٣].

وقوله: ﴿أو كسبت﴾ عطف على «آمنت»[٤]، وإنما لم ينفعها الإيمان؛ لأنها اضطرت إليه عند رؤية الآية الخارقة، وسقط معنى التكليف والإيمان الاختياري.

﴿قل انتظروا﴾ ما توعدكم الله به في هذه الآية وغيرها، ﴿إنا منتظرون﴾ ذلك لكم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين فارقوا دينهم﴾ قرأ عليّ عليه السلام وحمزة والكسائي: «فارقوا» بزيادة ألف. وقرأ باقي القُرَّاء السَّبعة: «فرّقوا» بتشديد الرَّاء من غير

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٦٠ ح٢٩٤١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٣٩١) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) انظر: التبيان (١/ ٢٦٦)، والدر المصون (٢/ ٢٢٤).

(٤) انظر: الدر المصون (٢/ ٢٢٤).

ألف[١].

وفي المشار إليهم ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أهل الضلالة من هذه الأمة. قاله أبو هريرة[٢].

فعلى هذا؛ معنى «فارقوا دينهم»: باينوه وتركوه جانباً واتبعوا أهواءهم.

ومعنى «فرقوا دينهم»: آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه؛ كالمعتزلة[٣] والرافضة[٤]، فإنهم آمنوا بكثير مما جاءهم به النبي ﷺ وكفروا بكثير منه، فإنهم لا يؤمنون بكثير من أحوال الآخرة، كعذاب القبر، وإخراج المؤمنين من النار بالشفاعة، والنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة.

ويجوز أن يكون معنى: «فرقوا دينهم»: صاروا أشياعاً وفرقاً.

القول الثاني: إنهم أهل الكتاب. قاله ابن عباس والضحاك وقتادة ومجاهد[٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٨)، والكشف (١/ ٤٥٨)، والنشر (٢/ ٢١٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٤).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٥)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٠٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٠٢) وعزاه للحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في الألقاب وابن مردويه.

(٣) المعتزلة: هم القائلون بأن العباد خالقوا أعمالهم، وبنفي الرؤية ، وبوجوب الثواب والعقاب، وهم عشرون فرقة (تحفة الأحوذي ٧/ ٣٣٤).

(٤) الرافضة: فرقة من فرق الشيعة، سميت بذلك؛ لأنها رفضت رأي زيد بن علي بن الحسين في صحة خلافة أبي بكر وعمر، وانشقوا عليه (انظر: ضحى الإسلام ٣/ ١٣٦).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٩). وأخرجه النحاس في ناسخه (ص:٤٤٢) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٠١، ٤٠٣) وعزاه للنحاس في ناسخه عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن قتادة، وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر. ومن طريق آخر عن =

فالمعنى: فارقوا دينهم الذي جاءهم به موسى وعيسى.

ومعنى «فرّقوا دينهم»: صاروا فرقاً وشيعاً، أو هو إيمانهم بالبعض وكفرهم بالبعض.

أخبرنا الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن ظفر بن أحمد النابلسي[١] سنة أربع وستمائة، أخبرنا القاضي أبو المكارم أحمد بن محمد بن محمد بن اللبان[٢] العدل بأصبهان، أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد الحداد[٣]، أخبرنا الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني[٤]، حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين =

السدي، وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) إسماعيل بن ظفر بن أحمد النابلسي، ولد سنة أربع وسبعين وخمسمائة، مات رابع شوال سنة تسع وثلاثين وستمائة، ودفن بسفح قاسيون (ذيل التقييد ١/ ٤٦٤-٤٦٥).

(٢) أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن النعمان بن عبد السلام، أبو المكارم اللبان التيمي الأصبهاني، ولد سنة سبع وخمسمائة، حدث عن أبي علي الحداد بجميع مسند الطيالسي وكتاب صفة الجنة لأبي نعيم وغير ذلك، وسماعه صحيح. توفي يوم الخميس سابع عشري ذي الحجة سنة سبع وتسعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٢-٣٦٣، والتقييد ص:١٨١).

(٣) الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن مهرة، أبو علي الحداد الأصبهاني المقرئ، كان شيخاً عالماً ثقة صدوقاً من أهل القرآن، حدث عن أبي نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ فأكثر عنه، ورحل إليه الناس، وكان خيراً ديّناً صالحاً، ولد سنة تسع عشرة وأربعمائة، وتوفي في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة خمس عشرة وخمسمائة (التحبير ص:١٧٧-١٧٩، والتقييد ص:٢٣٧).

(٤) أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران المهراني أبو نعيم الأصبهاني. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، وأجاز له مشايخ الدنيا وله ست سنين، وتفرد بهم، ورحلت الحفاظ إلى بابه لعلمه وضبطه وعلو إسناده. صنف "الحلية"، و"المستخرج على البخاري"، و"المستخرج على مسلم"، و"دلائل النبوة"، و"تاريخ أصبهان"، و"فضائل الصحابة"، و"صفة الجنة" وغيرها. مات =

الآجري(١)، قال: حدثنا أبو الفضل جعفر بن محمد الصندلي(٢)، حدثنا أبو بكر بن زنجويه(٣)، حدثنا محمد بن يوسف الفريابي(٤)، حدثنا سفيان الثوري، عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم(٥).

قال الآجري: وأخبرنا أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي(٦)، حدثنا الهيثم بن خارجة(٧)، حدثنا إسماعيل بن

=

في سنة ثلاثين وأربعمائة (طبقات الحفاظ ص:٤٢٣).

(١) محمد بن الحسين بن عبد الله الآجري البغدادي، مصنف كتاب الشريعة، كان مجاوراً بمكة، وكان عالماً عاملاً صاحب سنّة واتباع، ديّناً ثقة. توفي بمكة في المحرم سنة ستين وثلاثمائة (تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٣٦، وطبقات الحفاظ ص:٣٧٩).

(٢) جعفر بن محمد بن يعقوب، أبو الفضل الصندلي، كان ثقة صالحاً ديّناً يسكن باب الشعير. مات في ربيع الآخر من سنة ثمان عشرة وثلاثمائة (تاريخ بغداد ٧/ ٢١١).

(٣) محمد بن عبد الملك بن زنجويه، أبو بكر البغدادي الغزال، صاحب الإمام أحمد، واسع الرحلة، وثقه النسائي وغيره، توفي في جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٤٦-٣٤٧، وتذكرة الحفاظ ٢/ ٥٥٤).

(٤) محمد بن يوسف بن واقد بن عثمان الفريابي، أبو عبد الله الضبي، نزيل قيسارية من مدائن فلسطين، أخذ عن عمر بن ذر والأوزاعي والثوري وخلق. وكان رجلاً صالحاً ثقة، مات في أول سنة اثنتي عشرة ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٠/ ١١٤-١١٨، وتذكرة الحفاظ ١/ ٣٧٦).

(٥) عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، أبو أيوب الإفريقي الشعباني، قاضي إفريقية وعالمها ومحدّثها. قيل: كان أول مولود ولد في الإسلام بإفريقية، توفي سنة ست وخمسين ومائة (سير أعلام النبلاء ٦/ ٤١١-٤١٢).

(٦) أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي، مشهور، وثقه الدارقطني، مات سنة ست وثلاثمائة (ميزان الاعتدال ١/ ٢٢٦، ولسان الميزان ١/ ١٥١-١٥٣).

(٧) الهيثم بن خارجة الخراساني، أبو أحمد المروزي البغدادي، أصله من خراسان، روى عن إسماعيل بن

=

عياش[1]، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ قَالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيل، تفرَّق بَنُو إسْرائيلَ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَستَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ، تزيد عليهم، كُلّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً، قَالُوا: مَنْ هذه الملة، قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[2].

وهذا لفظ حديث الصوفي.

وبالإسناد، قال الآجري:

حدثنا أبو بكر بن أبي داود، حدثنا المسيب بن واضح قال: سمعت يوسف بن أسباط يقول: «أصول البدع أربع: الروافض[3]، والخوارج[4]،

=

عياش وحفص بن ميسرة، وروى عنه الإمام أحمد وابنه، والبخاري وأبو حاتم وغيرهم، وثقه ابن معين، مات في ذي الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٧٧-٤٧٩، وطبقات الحفاظ ص:٢٠٧).

(١) إسماعيل بن عياش بن سليم، أبو عتبة الحمصي العنسي، محدّث الشام، كان من بحور العلم، محتشماً نبيلاً جواداً، صادق اللهجة، متين الديانة، صاحب سنّة واتباع وجلال ووقار، ولد سنة ست ومائة، وتوفي سنة اثنتين وثمانين ومائة (سير أعلام النبلاء ٨/ ٣١٢-٣٢٨، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٥٣-٢٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦ ح٢٦٤١) وقال: هذا حديث مفسر غريب، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٤٢)، والآجري في الشريعة (ص:٢١).

(٣) الروافض: من الشيعة، وهم الذين رفضوا زيد بن علي حين سألوه عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، فقالوا: إذاً نرفضك، فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة.

(٤) الخوارج: هم المفرطة المكفرة لسيدنا علي رضي الله عنه، ومن أذنب كبيرة، وهم عشرون فرقة (تحفة الأحوذي ٧/ ٣٣٤).

والقَدَرية[١]، والمرجئة[٢]، ثم تتشعب كل فرقة ثماني عشرة طائفة، فتلك ثنتان وسبعون فرقة، والثالثة والسبعون الناجية[٣] التي قال رسول الله ﷺ إنها الناجية»[٤].

القول الثالث: أنهم المشركون. قاله الحسن[٥].

ومعنى: «فارقوا دينهم»: أي: تركوا دين إبراهيم وإسماعيل وعبدوا الأصنام، وفارقوا دينهم الذي جاءهم به محمد ﷺ.

ومعنى فرّقوه: صاروا فرقاً وشِيعاً، وذهبوا إلى التكذيب به كل مذهب، فهؤلاء يقولون: كهانة، وهؤلاء يقولون: سحر، وهؤلاء يقولون: أساطير الأولين، إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿لستَ منهم في شيء﴾ قال أبو الضحى: برئ نبيكم منهم[٦].

---

(١) القدرية: نسبة إلى القدر، وهي فرقة كلامية ذات مفاهيم خاطئة في مفهوم القدر، حيث زعموا أن العبد مستقل بإرادته وقدرته وليس لله في فعله مشيئة ولا خلق، وأول من أظهر القول بالقدر معبد الجهني.

(٢) المرجئة: هي القائلة بأنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وهي خمس فرق (تحفة الأحوذي ٧/ ٣٣٤).

(٣) في الآجري: الجماعة.

(٤) أخرجه الآجري في الشريعة (ص:٢١). وذكره الأحوذي في التحفة، في تعليقه على حديث افتراق الأمة (٧/ ٣٣٤). وأصل الحديث في الترمذي، وقد سبق تخريجه في الحديث السابق. وانظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٣٢).

(٥) الماوردي (٢/ ١٩٢)، وزاد المسير (٣/ ١٥٨).

(٦) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣١) كلاهما عن أبي الأحوص. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٠٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي =

وقيل: المعنى: لست من السؤال عنهم في شيء.

وقال السدي: لست من قتالهم في شيء[1].

فعلى هذا؛ تكون الآية في المشركين وفي أهل الكتاب، وتكون منسوخة بآية السيف.

﴿إنما أمرهم﴾ المجازاة والمكافأة ﴿إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ إذا وردوا القيامة.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها﴾ وقرأت ليعقوب الحضرمي: «عَشْرٌ» بالتنوين، «أَمْثَالُهَا» بالرفع[2].

فمن قرأ بالإضافة؛ فعلى معنى: فله عشر حسنات أمثالها.

ومن رفعها؛ فعلى معنى: فله حسنات عشر أمثالها، وهذا أقلّ الجزاء، والله يضاعف لمن يشاء ما يشاء.

وفي صحيح مسلم من حديث أَبِي ذَرٍّ عن النبي ﷺ قال: يقول الله عز وجل:

= الشيخ عن أبي الأحوص.

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٥٩). والسيوطي في الدر (٣/ ٤٠٣) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وانظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٣٧).

(٢) النشر (٢/ ٢١٦-٢١٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٠).

«مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ [فَجَزَاؤُهُ][1] سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أغفر»[2].

وقال سفيان الثوري: لما نزلت: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها»، قال النبي ﷺ: «ربي زدني، فنزلت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ... الآية﴾ [البقرة:٢٦١]، قال: رب زد أمتي، فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، قال: رب زد أمتي، فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]»[3].

والظاهر: عموم الآية في كل حسنة وسيئة.

وقال ابن مسعود ومجاهد والنخعي: «الحسنة»: لا إله إلا الله، و«السيئة»: الشرك[4].

---

(١) في الأصل: فجزاء. والمثبت من صحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٨ ح٢٦٨٧).

قال النووي في شرحه على مسلم (١٧/ ١٢): قوله تعالى: «فله عشر أمثالها وأزيد» معناه: أن التضعيف بعشرة أمثالها لا بد بفضل الله ورحمته ووعده الذي لا يخلف، والزيادة بعد بكثرة التضعيف إلى سبعمائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة، يحصل لبعض الناس دون بعض على حسب مشيئته سبحانه وتعالى.

(٣) انظر: العجاب في بيان الأسباب (١/ ٦٠٦).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٠٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٠٤) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الحلية عن ابن مسعود. وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٢١).

﴿وهم لا يظلمون﴾ بالنقصان من الثواب والزيادة على العقاب، فإنه سبحانه وتعالى قدَّرَ لكل حسنة وسيئة جزاءً معلوماً عنده.

قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم﴾ وهو دين الإسلام.

﴿دِيناً﴾ بدل من محل «إلى صراط مستقيم»[1] لأن التقدير: هداني صراطاً مستقيماً، كما قال: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢].

وقوله: ﴿قَيِّماً﴾ [فَيْعِل][2]، من قَامَ، أصله: قَيْوِم، ثم أدغمت الياء في الواو؛ كسَيِّد ومَيِّت[3].

وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة: «قِيَماً» بكسر القاف وفتح الياء وتخفيفها[4].

فعلى هذا: هو مصدر بمعنى القيام وصف به.

﴿ملة إبراهيم﴾ عطف بيان، ﴿حنيفاً﴾: حال من «إبراهيم»[5]، تقديره: هداني ربي ملة إبراهيم في حال حنيفيته.

---

(١) انظر: التبيان (١/ ٢٦٧)، والدر المصون (٢/ ٢٢٧).

(٢) في الأصل: فعيل. وانظر: (اللسان، مادة: قوم).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (قوم).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٨-٢٧٩)، والكشف (١/ ٤٥٨)، والنشر (٢/ ٢٦٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٢٠)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٧٤).

(٥) انظر: التبيان (١/ ٢٦٧)، والدر المصون (١/ ٣٨٣).

قوله تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ قال الزجاج[1]: النُّسك: كلُّ مَا يتقرب به إلى الله تعالى، إلا إنَّ الغالبَ عليه أمر الذَّبح.

﴿ومحياي ومماتي﴾ قرأ الأكثرون بتحريك الياء وبالفتح من «محيايَ»؛ لالتقاء الساكنين، وبإسكانها من «مماتيْ»؛ لنقل الحركة على الياء.

وقرأ نافع بإسكان الياء من «محيايْ» للعلة المذكورة في «مماتي» في جعل المَدَّة حائلة بين الساكنين، وقرأ بإسكانها في: «مماتي»[2]؛ لأنَّ حقَّ الياء في مثل هذا أن تكون مفتوحةً، مثل الكاف من: رأسكَ، والتاء في: قمتَ.

والمعنى: إن صلاتي ونسكي من جميع ما أتقرب به إلى الله وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

﴿لله رب العالمين﴾ خالصاً لوجهه.

﴿وبذلك﴾ الإخلاص ﴿أمرت وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة.

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣١١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٢٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٩)، والكشف (١/ ٤٥٩)، والنشر (٢/ ٢٦٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢١)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٤).

﴿قل أغير الله أبغي رباً﴾ أي: قل لهم يا محمد مجيباً لهم عن دعائهم إياك إلى عبادة آلهتهم: ﴿أغير الله أبغي رباً﴾ إلهاً وسيداً، ﴿وهو رب كل شيء﴾ فكيف أبغي سواه.

﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من صالح وطالح، ﴿إلا عليها﴾ عقابه، ولها ثوابه.

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي: لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى، وهو جواب لقولهم: ﴿اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ [العنكبوت:١٢].

قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ قال ابن مسعود: يخلف حكم بعضكم بعضاً[(١)].

وقال الزجاج[(٢)]: خلفتم سائر الأمم.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في العلم والرزق والشرف، وغير ذلك.

﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي: ليختبركم فيما أعطاكم، فيظهر منكم ما تستحقون الجزاء عليه.

﴿إن ربك سريع العقاب﴾ قال عطاء: سريع العقاب لأعدائه، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لأوليائه[(٣)].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي وأبو الحسن بن روزبة البغداديان قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا أبو الحسن الداودي، أخبرنا ابن حمويه

---

(١) زاد المسير (٣/ ١٦٣) من قول ابن قتيبة.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣١٢).

(٣) الوسيط (٢/ ٢٤٦) بلا نسبة.

السرخسي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن عمرو بن أبي عمرو، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ خَلقَ الرَّحْمَةَ يوْمَ خَلقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعة وَتِسْعِينَ، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنْ [الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنْ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنْ](١) العذابِ لم يأمنْ مِن النَّارِ»(٢).

والحمد لله على إحسانه.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٧٤ ح ٦١٠٤).

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مائتا آية وست آيات[1].

وعامة المفسرين يقولون: نزلت بمكة. واستثنى قوم من قوله: ﴿واسألهم عن القرية﴾ إلى قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾[2].

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

وقد ذكرنا أقوال العلماء في أول البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقد روى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله: ﴿المص﴾ قال: معناه أنا الله أعلم وأفصل[3].

قوله تعالى: ﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف[4]، أي: هذا كتاب، ﴿أنزل إليك﴾ صفته، ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾.

---

(١) انظر: البيان في عدّ آي القرآن (ص:١٥٥).

(٢) انظر: الماوردي (٢/ ١٩٨)، وزاد المسير (٣/ ١٦٤)، وتفسير مقاتل (١/ ٣٨٣).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤١٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٤) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٦٧)، والدر المصون (٣/ ٢٢٩).

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين: الحرج هاهنا: الشك[١].

وقال الحسن والزجاج[٢]: الحرج: الضيق[٣]. وهذا هو الأصل، واستعماله بمعنى الشك لما يُخامر الشاكّ من الضيق والحرج.

والضمير في "منه" يعود إلى الكتاب. فعلى القول الأول معناه: فلا يكن عندك شك أن الكتاب منزل من عند الله، ويكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾ [يونس:٩٤-٩٥]، النهي للنبي ﷺ في ظاهر الأمر، والمراد غيره، وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في سورة البقرة.

وعلى القول الثاني معناه: لا يكن عندك ضيق وحرج من إبلاغ ما أُرسلتَ به، فإنه كان يخاف أذى قومه وإعراضهم عنه وتكذيبهم له.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «أي رب! إني أخاف أن يثلغوا[٤] رأسي فيجعلوه كالخبزة»[٥].

قوله تعالى: ﴿لتنذر به﴾ إما أن يتعلق بـ«أُنزِلَ»، فيكون معناه: أنزل إليك لكي تنذر به. وإما أن يتعلق بالنهي، فيكون معناه: لا يكن في صدرك حرج منه لتتمكن

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١١٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٣٨)، ومجاهد (ص:٢٣١). وانظر: الماوردي (٢/ ١٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤١٣) وعزاه لابن جرير عن ابن عباس. ومن نفس الطريق عزاه أيضاً لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣١٥).

(٣) الماوردي (٢/ ١٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤١٣) وعزاه لأبي الشيخ عن الضحاك.

(٤) الثَّلْغ: الشَّدْخ (لسان العرب، مادة: ثلغ).

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٧ ح٢٨٦٥).

من الإنذار[١].

قوله تعالى: ﴿وذكرى﴾ إما أن يكون مرفوعاً، عطفاً على "كتاب"، أو خبر مبتدأ محذوف. وإما أن يكون منصوباً بإضمار فعل، على معنى: لتنذر به وتُذَكِّر تذكيراً. وإما أن يكون مجروراً عطفاً على محل "لتنذر"، تقديره: للإنذار والذكرى[٢].

وإنما خص المؤمنين؛ لموضع انتفاعهم.

قوله تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني: القرآن والسنة، وهذا دليل واضح على وجوب تعلم العلم، خصوصاً علم التفسير، فإن المراد بالاتباع: العمل، وذلك يستدعي العلم قبله.

قال الحسن البصري رحمه الله: يا ابن آدم! أمرتَ باتباع كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وما معناها[٣].

﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: من دون الله. وقيل: من دون المُنَزَّل، ﴿أولياء﴾ يعني: شياطين الإنس والجن، فيحملوكم على عبادة الأوثان واتباع الأهواء والبدع.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ هو كقوله: ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ [الحاقة:٤١]، وقد سبق القول عليه في البقرة.

قرأ ابن عامر بياء وتاء. وقرأ الباقون بتاء واحدة، وخفف الذال أهل الكوفة

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٦٧)، والدر المصون (٣/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٦٨)، والدر المصون (٣/ ٢٣٠-٢٣١).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٤٨).

إلا أبا بكر[١].

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

قوله تعالى: ﴿وكم من قرية أهلكناها﴾، قال الزجاج[٢]: المعنى: كم من أهل قرية، إلا أن [أهل][٣] حذفت؛ لأن في الكلام دليلاً عليه.

وقوله: ﴿فجاءها بأسنا بياتاً﴾ محمولٌ على لفظ القرية.

قال الزمخشري[٤]: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في "فجاءها" لقوله: ﴿أوْ هم قائلون﴾.

و"بياتاً" مصدر واقع موقع الحال[٥]، يعني: بائتين. يقال: بات بياتاً حسناً وبيتةً

---

(١) مَنْ خفّف حذف إحدى التاءين وهي الثانية، وهما زائدتان، إلا أن الأولى تدل على معنى الاستقبال، والثانية إنما دخلت على معنى: (فعلت الشيء) على تمهل، نحو قولك: تفهمت الشيء، أي: أخذت على مهل. ومن شدد أدغم التاء في الذال لقرب مكان هذه من مكان هذه. انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٢٣١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٧٩)، والكشف (١/ ٤٦٠)، والنشر (٢/ ٢٦٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٧٨).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣١٧).

(٣) في الأصل: أهلاً. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) الكشاف (٢/ ٨٣).

(٥) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٦٨)، والدر المصون (٣/ ٢٣٣).

حسنة[١].

وقوله: "هم قائلون" حال معطوفة على "بياتاً"[٢]، كأنه قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

والبيتوتة بالليل، والقَيْلُولة: الاستراحة نصف النهار من اشتداد الحر وإن لم يكن معها نوم[٣]. والمعنى: جاءهم عذابنا غير متوقعين له في وقت الدّعة والغفلة؛ إما ليلاً؛ كقوم لوط، وإما نهاراً؛ كقوم شعيب.

فإن قيل: نظمُ الآية يدل على تقدم الهلاك على البأس، وهو العكس؟

قلت: المراد: أردنا إهلاكها؛ كقوله: ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا﴾ [المائدة:٦]، وقوله: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ﴾ [النحل:٩٨].

وقال الفراء[٤]: وقع الإهلاك والبأس معاً، كما تقول: أعطيتني فأحسنت إليّ.

وذكر ابن الأنباري عن ذلك جوابين[٥]:

أحدهما: أن الكون مضمر في الآية، تقديره: أهلكناها وكان بأسنا قد جاءها، كما أضمر في قوله: ﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين﴾ [البقرة:١٠٢] أي: ما كانت تتلوه.

الثاني: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وكم من قرية جاءها بأسنا [بياتاً][٦] أو هم قائلون فأهلكناها، كقوله: ﴿إني متوفيك ورافعك إليّ﴾.

(١) انظر: اللسان (مادة: بيت).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٦٨)، والدر المصون (٣/ ٢٣٣).

(٣) انظر: اللسان (مادة: قيل)، والصحاح (٥/ ١٨٠٨).

(٤) معاني الفراء (١/ ٣٧١).

(٥) ذكرهما ابن الجوزي في: زاد المسير (٣/ ١٦٨).

(٦) زيادة من زاد المسير (٣/ ١٦٨).

والأول هو الجواب الذي ينبغي أن يُعتمد عليه.

فإن قيل: لا يقال: جاءني زيد هو فارس، بغير واو، فكيف قال: "أو هم قائلون"؟

قلت: قال الفراء(١): الواو مضمرة، تقديره: أو وهم قائلون، فاستثقلوا نَسَقاً على نسق(٢).

وردّ هذا القول الزجاج فقال(٣): لو قلتَ: جاءني زيدٌ راجلاً أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس، لم تحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد [إلى](٤) الأول(٥).

قال الزمخشري(٦): والصحيح أنها إذا عطفت على حال قبلها حذفت الواو استثقالاً؛ لاجتماع حرفي عطف؛ لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل، فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، كلام فصيح وارد على حده، وقولك: جاءني زيد هو فارس فخبيث.

قوله تعالى: ﴿فما كان دعواهم﴾ أي: تضرعهم ودعاهم ودعاؤهم.

---

(١) معاني الفراء (١/ ٣٧٢).

(٢) أي اجتماع عطفين متتالين.

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣١٧).

(٤) في الأصل: على. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٥) قال السمين الحلبي في الدر المصون (٣/ ٢٣٤): أما امتناعها في المثال الأول؛ فلأن النحويين نصُّوا على أن الجملة الحالية إذا دخل عليها حرف عطف امتنع دخول واو الحال عليها، والعلة فيه المشابهة اللفظية، ولأن واو الحال في الأصل عاطفة.

(٦) الكشاف (٢/ ٨٤).

حكى سيبويه[١]: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين، أي: دعائهم، وأنشد على ذلك:

.... وَلَّت ودَعْواها كثيرٌ صَخَبُه[٢]

وأنشد ابن الأنباري:

إذا مَذِلَتْ رِجْلي دَعوتُكِ أَشْتفي بدَعْواكِ مِنْ مَذْلٍ بها فيَهُون[٣]

وقيل: المعنى: فما كان استغاثتهم، كقوله:

.... دَعَوا: يا لكَعْبٍ واعْتَزَيْنا لعامر[٤]

وقال الزجاج[٥]: المعنى -والله أعلم-: أنهم لم يحصلوا مما كانوا ينتحلونه من المذهب والدّين ويدعونه إلا على الاعتراف بأنهم كانوا ظالمين. والدعوى: اسم لما ندّعيه.

وكل واحد من «دعواهم» و«أن قالوا» يصلح أن يكون اسماً لـ«كان» والآخر

---

(١) انظر: الكتاب لسيبويه (٤/ ٤٠).

(٢) عجز بيت، لبشير بن النِّكْث. انظر: اللسان (مادة: دعا، نكث)، وتاج العروس (مادة: نكث).

(٣) البيت لكثير عزة. انظر: ديوانه (ص:١٧٦)، والطبري (٨/ ١٢٠)، واللسان (مادة: مذل)، وتاج العروس (مادة: مذل)، وتهذيب اللغة (١٤/ ٤٣٥)، والدر المصون (٣/ ٢٣٥).

ومَذِلَتْ رِجْلُه مَذْلاً، بفتح وسكون، وأمذت: خَدِرَتْ (اللسان، مادة: مذل). وكانوا يزعمون أن المرء إذا خدرت رجله، ثم دعا باسم من أحب، زال خدرها.

(٤) عجز بيت، للراعي النميري وهو عبيد بن حصين، من قبيلة نمير التي هجاها جرير، سمي الراعي؛ لكثرة نعته الإبل وجودة وصفه إياها. وصدر البيت: (فَلَمَّا الْتَقَتْ فُرْسانُنا ورِجالُهم) وهو في: الطبري (١/ ١٦٧)، وزاد المسير (١/ ٥٠)، واللسان (مادة: عزا).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٣١٨).

خبراً.

قوله تعالى: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسألنهم هل بلَّغتكم الرسل، ﴿ولنسئلن المرسلين﴾ ماذا أجبتم؟ يسألهم سبحانه وتعالى مع أنه أعلم منهم بما قالوا، وقيل لهم: إظهاراً للعدل والنَّصَفَة، فإنهم ينكرون تبليغ الرسل ما أرسلوا به إليهم، فتشهد هذه الأمة أن الرسل بلغت رسالات ربهم، وفي ضمن ذلك توبيخهم وتقريعهم.

قوله تعالى: ﴿فلنقصن عليهم بعلم﴾ أي: على المرسلين وأممهم ما كان منهم وبينهم.

قال ابن عباس: يوضع الكتاب فيتكلم بما كانوا يعملون[1].

﴿وما كنا غائبين﴾ عما جرى لهم.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ "الوزن" مبتدأ، خبره: "يومئذ"، "الحق": صفته[2]، على معنى: الوزن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم الوزن "الحق"، أي: العدل.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤١٤) وعزاه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث.

(٢) التبيان للعكبري (١/ ٢٦٩)، والدر المصون (٣/ ٢٣٦).

فصل

ذهب قوم إلى أن نصب الميزان يوم القيامة مجاز عن إرصاد الحساب السوي، والجزاء على حسب الأعمال بالعدل والنصفة، فمَثَّل ذلك بنصب الموازين تحقيقاً لمعنى العدل.

والصحيح الذي عليه علماء النقل وأئمة الحديث وأعلام الفقهاء من الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة فمن بعدهم: أنه ميزان ذو لسان وكفَّتين[1]؛

لما أخبرنا به الشيخان الحافظ عبدالقادر بن عبدالله الرهاوي[2] قراءة عليه وأنا أسمع بحران، وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان الدُّنبلي[3] بقراءتي عليه بالموصل غير مرة ولا مرتين، قالا: أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني[4] بثغر الإسكندرية، حدثنا أبو عبدالله محمد بن أحمد بن

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤١٨) وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) عبد القادر بن عبد الله الرهاوي الحنبلي، الإمام الحافظ الرحال، محدث الجزيرة. ولد بالرهاء سنة ست وثلاثين وخمسمائة، ونشأ بالموصل، وكان مملوكاً لبعض المواصلة السفارين فأعتقه، فطلب العلم وأقبل على الحديث. كان عالماً ثقةً مأموناً، صالحاً ناسكاً، خشن العيش، إلا أنه عسراً في الرواية لا يكثر عنه إلا من أقام عنده، توفي بحران في جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وستمائة، وله ست وسبعون سنة (سير أعلام النبلاء ٢٢/ ٧١-٧٤، وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٨٨).

(٣) علي بن أبي بكر بن سليمان، أبو الحسن الدنبلي الموصلي. قدم بغداد حاجاً، وحدّث بها عن الحافظ أبي طاهر السلفي. وكان مولده بالموصل سنة ثمان وأربعين وخمسمائة (تكملة الإكمال ٢/ ٥٩٥).

(٤) أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهاني الجرواني، أبو طاهر السلفي، الإمام العلامة المحدث، الحافظ المفتي شيخ الإسلام، ولد في سنة خمس وسبعين وأربعمائة، وسمع الكثير، وكان أول سماع حضره مجلس رزق الله التميمي الحنبلي، وحدث عن الكثير أيضاً، ورحل، فدخل بغداد ثم الشام، ثم ارتحل منها إلى خراسان، وحج وسمع بمكة والمدينة، وارتحل إليه خلق كثير جداً، =

إبراهيم الرازي[١] المعدل بالإسكندرية، أخبرنا أبو الحسن علي بن عمر بن حمصة الحراني[٢] بمصر، حدثنا أبو القاسم حمزة بن محمد بن علي الكناني[٣] الحافظ إملاءً، أخبرنا عمران بن موسى الطبيب، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير[٤]، حدثني الليث بن سعد[٥]، عن عامر بن يحيى المعافري، عن أبي عبدالرحمن الحبلي قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «يُصاح برجل من

=

فارتحل إليه السلطان صلاح الدين وإخوته وأمراؤه فسمعوا منه. وتوفي صبيحة يوم الجمعة خامس ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥-٣٩).

(١) محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الرازي الإسكندري، أبو عبد الله، المعروف بابن الحطاب، ولد سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، واعتنى به والده، فسمع الكثير في سنة أربعين وما بعدها، مات في سادس جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وخمسمائة، وله إحدى وتسعون سنة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٨٣-٥٨٤).

(٢) علي بن عمر بن حمصة الحراني الصواف، ما سمع شيئاً سوى مجلس البطاقة، وتفرد عن حمزة الكناني. ولد في رمضان سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، ومات في ثالث رجب سنة إحدى وأربعين وأربعمائة عن ثمان وتسعين سنة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٠١-٦٠٢).

(٣) حمزة بن محمد بن علي بن العباس، أبو القاسم الكناني المصري، مملي مجلس البطاقة، كان حافظاً ثبتاً، مات في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وثلاثمائة (طبقات الحفاظ ص:٣٧٨).

(٤) يحيى بن عبد الله بن بكير، الإمام المحدث الحافظ الصدوق، أبو زكريا القرشي المخزومي. ولد سنة خمس وخمسين ومائة، وسمع من الإمام مالك والليث وابن لهيعة وحماد بن زيد، وعنه البخاري وابن معين وخلق، مات سنة إحدى وثلاثين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦١٢-٦١٥، وطبقات الحفاظ ص:١٨٤).

(٥) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، أبو الحارث المصري، ثقة كثير الحديث، مات في يوم الجمعة نصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة (تهذيب التهذيب ٨/ ٤١٢-٤١٧، والتقريب ص:٤٦٤).

أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كُلُّ سِجِلٍّ منها مدَّ البصر، ثم يقول الله تبارك وتعالى له: أتنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب، فيقول عز وجل: لك عذر أو حسنة؟! فيهاب الرجل فيقول: لا يا رب، فيقول عز وجل: بلى! إن لك عندنا حسنات، وإنه لا ظُلم عليك، فتُخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلاَّت؟ فيقول عز وجل: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كِفَّة، والبطاقة في كِفَّة، فطاشت السِّجِلاَّت وثقلت البطاقة»[١].

قال حمزة: ولا نعلمه روى هذا الحديث غير الليث بن سعد، وهو من أحسن الحديث، وبالله التوفيق.

قال أبو الحسن الحراني: لما أملى علينا حمزة هذا الحديث صاح غريب من الحلقة صيحة [فاضت][٢] نفسه معها، وأنا فيمن حضر جنازته وصَلَّى عليه، رحمه الله.

وقال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكِفَّتان، فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة، فيوضع في كفة الميزان، فتثقل حسناته على سيئاته. وأما الكافر فيؤتى بعمله في أقبح صورة، فيوضع في كفة الميزان، فيخف وزنه[٣].

---

(١) وهو المشهور بحديث البطاقة. أخرجه الترمذي (٥/ ٢٤) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٧)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وابن حبان (١/ ٤٦١)، والحاكم (١/ ٧١٠) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٢) في الأصل: فاظت.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٢٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٠) بأطول منه وعزاه إلى البيهقي في الشعب.

وقال حذيفة: صاحب الميزان يوم القيامة جبريل، فيقول له ربه: زِن بينهم، ورُدّ من بعضهم على بعض، فيرد على المظلوم من الظالم ما وجد له من حسنة، فإن لم تكن له حسنة، أخذ من سيئات المظلوم فرد على سيئات الظالم[١].

ويروى: أن داود عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يُريه الميزان، فلما رآه غشي عليه، ثم أفاق فقال: إلهي! من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟ فقال: يا داود، إني إذا رضيت عن عبدي، ملأتها بتمرة[٢].

فصل

واختلفوا في كيفية الوزن وما الذي يوزن؟

فقال قوم: توزن صحائف الأعمال؛ لحديث عبدالله بن عمرو[٣].

وقال قوم: يوزن الإنسان؛ لما أخرج في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة وقال: اقرأوا إن شئتم: ﴿فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ [الكهف:١٠٥]»[٤].

وقال قوم: تجعل في كِفّة الحسنات جواهر بيض، وفي كِفّة السيئات جواهر سود مُظْلِمَة.

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤١٨) وعزاه لابن أبي الدنيا وابن جرير واللالكائي.

(٢) ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير (٣/ ١٧١).

(٣) السابق قبل قليل.

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٥٩ ح٤٤٥٢)، ومسلم (٤/ ٢١٤٧ ح٢٧٨٥).

فإن قيل: ما الحكمة في نصب الميزان والله سبحانه وتعالى يعلم مقادير الأعمال؟

قلت: فيه حِكَم، منها: تأكيدُ الحجة وإظهارُ العدل وقطع المعذرة، ولأجل ذلك أثبتت أعمالهم في الصحائف، وشهدت عليهم الملائكة والأنبياء والجوارح[(١)].

قوله تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ هو من باب إطلاق الجمع على الواحد، كقوله: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ [آل عمران:١٧٣].

وقال الواحدي[(٢)] وأبو الفرج ابن الجوزي رحمهما الله[(٣)]: إنما قال: ﴿موازينه﴾ على الجمع؛ لأن «من» في معنى الجمع، ألا ترى أنه قال: ﴿فأولئك هم المفلحون﴾.

وقال الفراء[(٤)]: المراد بموازينه: وزنه. والعرب تقول: هل لك في درهم بميزان درهمك، ووزن درهمك.

---

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ١٧١). وفيه ذكر ابن الجوزي خمس حكم في نصب الميزان:

أحدها: امتحان الخلق بالإيمان بذلك في الدنيا.

والثانية: إظهار علامة السعادة والشقاوة في الأخرى.

والثالثة: تعريف العباد ما لهم من خير وشر.

والرابعة: إقامة الحجة عليهم.

والخامسة: الإعلام بأن الله عادل لا يظلم. ونظير هذا أنه أثبت الأعمال في كتاب، واستنسخها من غير جواز النسيان عليه.

(٢) الوسيط (٢/ ٣٥٠).

(٣) زاد المسير (٣/ ١٦٩).

(٤) معاني الفراء (٣/ ٢٨٧).

قال الشاعر:

.... عندي لكلِّ مُخاصِمٍ ميزانُه[١]

يعني: مثل كلامه ولفظه.

وقوله: ﴿بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾ أي: يكذبون بها ظلماً.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الحق وثقله عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفّت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم في الدنيا الباطل وخفته عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف[٢].

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض﴾ أي: وطأناها لكم وسهلناها لكم قراراً.

وقال ابن عباس: ملكناكم في الأرض[٣]، على أن الخطاب لقريش.

﴿وجعلنا لكم فيها معايش﴾ أي: ما تعيشون به من المطاعم والمشارب، أو ما

---

(١) جاء في اللسان: الميزان: المقدار. وهو عجز بيت. وصدره: (قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَائِكُمْ ذَا مِرَّة) انظر: اللسان (مادة: وزن)، والطبري (٣٠/ ٢٨٢)، والقرطبي (١٠/ ١٣، ١٧/ ٨٦، ٢٠/ ١٦٦)، وزاد المسير (٣/ ١٧٠)، وتاج العروس (مادة: وزن).

(٢) أخرجه الطبري (٢٦/ ١٨). وانظر: الوسيط (٢/ ٣٥١). وذكره السيوطي في الدر (٧/ ٤٤٣) وعزاه لابن جرير عن مجاهد قال: دعا أبو بكر عمر رضي الله عنهما فقال له: إني موصيك بوصية أن تحفظها ... إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه... فذكره.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٥٢).

تتوصَّلون به إلى ذلك من أنواع المكاسب.

واتفق القُرّاء على ترك الهمز في "معايش"، وروى خارجة عن نافع همزها[١].

قال الزجاج[٢]: جميع النحويين البصريين يزعمون أن همزها خطأ؛ لأن الهمز إنما يكون في الياء الزائدة، مثل صحيفة وصحائف، فأما «معايش» فمن العَيْش، الياء أصلية، وصحيفة من الصُّحُف، فالياء زائدة، وإنما همزت الياء الزائدة؛ لأنه لا حَظَّ لها في الحركة، وقد قَرُبَتْ من آخر الكلمة ولزمتها الحركة فأوجبوا فيها الهمز.

فأما ما رواه نافع من «معائش» بالهمز فلا أعرف له وجهاً، إلا أن لفظ هذه الياء التي من نفس الكلمة أُسْكِنَ في معيشة، فصار على لفظ: صحيفة، فحمل الجمع على ذلك، ولا أحب القراءة بذلك.

وقوله: ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ مثل قوله: ﴿قليلاً ما تؤمنون﴾ [الحاقة:٤١] وقد سبق القول فيه.

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٢)، والسبعة (ص:٢٧٨).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٢٠-٣٢١).

﴿شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٨﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾ قال ابن عباس في رواية سعيد بن جبير: «خلقناكم» في الأصلاب، «ثم صورناكم» في الأرحام(١).

وقال في رواية أخرى: «خلقناكم» في ظهر آدم، «ثم صورناكم» في الأرحام(٢).

وقال في رواية العوفي: «ولقد خلقناكم» يعني: آدم، «ثم صورناكم» يعني: ذريته من بعده(٣).

وقال معمر: خلقناكم في بطون أمهاتكم، ثم صورناكم فيها بعد الخلق بشق السمع والبصر(٤).

وقال مجاهد: «خلقناكم» يعني: آدم، «ثم صورناكم» في ظهره(٥).

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٧) عن ابن عباس، من رواية عكرمة، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٢)، والحاكم (٢/ ٣٤٩ ح٣٢٤٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٣٢ ح١٠٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٤) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٤) وعزاه للفريابي.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٢). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٢٢). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٧) عن معمر عن رجل لم يصرح باسمه. وانظر: الماوردي (٢/ ٢٠٣)، وزاد المسير (٣/ ١٧٣).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٢)، ومجاهد (ص:٢٣٢). وذكره السيوطي =

وقيل: «خلقناكم» يعني: الأرواح، «ثم صورناكم» يعني: الأجساد[١]. حكاه القاضي أبو يعلى في كتاب المعتمد.

وقال الزجاج[٢]: زعم الأخفش[٣] أن «ثم» هاهنا في معنى الواو، وهذا خطأ لا يجيزه الخليل ولا سيبويه وجميع من يوثق بعلمه، إنما «ثم» للشيء الذي يكون بعد المذكور قبله لا غير، وإنما المعنى في هذا الخطاب ذكر ابتداء الخلق أولاً، فإنما المعنى: بدأنا خلق آدم عليه السلام ثم صورناه، فابتداء خلق آدم التراب، الدليل على ذلك قوله: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾ [آل عمران:٥٩]، فبدأ الله خلق آدم تراباً، وبدأ خلق حواء من [ضلع][٤] من أضلاعه، ثم وقعت الصورة بعد ذلك، فهذا معنى: ﴿خلقناكم ثم صورناكم﴾، أي: هذا أصل خلقكم، ثم خلق ولده نطفاً ثم صُوِّرُوا. وهاهنا تمّ كلام الزجاج.

فإن قيل: فما تصنع بقوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ على الأقوال المروية عن ابن عباس وقول معمر؟

قلت: إما أن يقال بأن فيه تقديماً وتأخيراً، وإما أن يكون التقدير: ثم كنا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم. ﴿فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين﴾ لآدم تعظماً وتكبراً عليه وحسداً له.

في الدر (٣/ ٤٢٤) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(١) ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير (٣/ ١٧٣).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٢١-٣٢٢).

(٣) معاني القرآن للأخفش (ص:١٨٩).

(٤) في الأصل: ظلع. والتصويب من معاني الزجاج (٢/ ٣٢١).

﴿قال ما منعك﴾ «ما» رفع بالابتداء وما بعده الخبر، و«أن» في موضع نصب بـ"منعك"، تقديره: أي شيء منعك السجود لآدم[١]، وإنما سأله -وهو أعلم بحاله منه-؛ توبيخاً له وإظهاراً لعناده وكفره وتعظمه في نفسه وكبره.

و«لا» في قوله: ﴿أن لا تسجد﴾ صلة، بدليل قوله في موضع آخر: ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي﴾ [ص:٧٥] ومثلها: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد:٢٩] بمعنى: لِيَعْلَمَ. وفائدة زيادتها: توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ما منعك أن تلزم نفسك السجود وتحققه لآدم. وكذا لـ"يعلم"، أي: يتحقق علم أهل الكتاب[٢].

﴿قال أنا خير منه﴾ كأنه قال: منعني فضلي عليه. ثم ذكر ما ظنه موجباً لفضله عليه فقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾.

قال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس، فعصى ربه وقاس، وأول من قاس إبليس وكفر بقياسه. فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس[٣].

وقال ابن سيرين: ما عُبِدَتِ الشمس والقمر إلا بالمقاييس[٤].

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٤٠)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١١٦).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ٨٦).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٥٣)، والسيوطي في الدر (٣/ ٤٢٥) وعزاه لابن جرير عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٣١). قال ابن كثير (٢/ ٢٠٤): إسناده صحيح.

وحجة إبليس لعنه الله في قوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ هي باطلة؛ لأنه عارض النص بالقياس. قال الإمام القرطبي (٧/ ١٧١): الطين أفضل من النار من وجوه أربعة: =

وقال جماعة من أهل العلم: وقع الخطأ من إبليس حيث قاس مع وجود النص[(١)].

﴿قال فاهبط منها﴾ أي: من السماء إلى الدار التي هي مقر العاصين والمتكبرين، ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ أي: ما يصلح لك أن تتكبر في السماء التي هي مقر ملائكتي الخاضعين لجلالي، الخاشعين من هيبتي، ﴿فاخرج إنك من الصاغرين﴾ الأذلاّء، جُوزي اللعين بالصَّغار والخلود في النار، حيث عصى ربه بالاستكبار.

قال سفيان بن عيينة: من كانت معصيته في شهوة فارجُ له التوبة، فإن آدم عصى مشتهياً فغفر له. وإذا كانت معصيته في كِبْر فاخْشَ على صاحبه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلُعن[(٢)].

وأخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما

= أحدها: أن جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم، والحياء، والصبر. وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعي لإبليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء. الثاني: إن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن في الجنة ناراً وأن في النار تراباً. الثالث: أن النار سبب العذاب، وهي عذاب الله لأعدائه، وليس التراب سبباً للعذاب. الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

قلت: ويحتمل قولاً خامساً وهو أن التراب مسجد وطهور، كما جاء في صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب، كما قال تعالى: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾. اهـ.

(١) انظر: الوسيط (٢/ ٣٥٣)، وزاد المسير (٣/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٩٥ ح٨٢١٧). وأبي نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢).

تواضع أحد لله إلا رفعه»(١).

وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمة يمسكانها، فإن هو رفع نفسه جبذاها، ثم قالا: اللهم ضعه، وإن وضع نفسه جبذاها ثم قالا: اللهم ارفعه»(٢).

وفيما أوحى الله تعالى إلى موسى: إني إنما أَقْبَلُ صلاةَ من تواضع لعظمتي، ولم يَعْظُمْ على خلقي، وأَلْزَمَ قلبَه خوفي(٣).

وقال عمر رضي الله عنه: من تواضع لله رفع الله حكمته، وقال: انتعش نعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره وهصه الله إلى الأرض(٤).

﴿قال أنظرني﴾ أي: أمهلني، ﴿إلى يوم يبعثون﴾ سأل الإنظار إلى غاية رام ببلوغها النجاة من المهات، فأنظر المغرور إلى النفخة الأولى في الصور، فذلك قوله: ﴿قال إنك من المنظرين﴾، وقد بيّن ذلك في الحِجر بقوله: ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [الحجر:٣٨].

﴿قال فبما أغويتني﴾ أي: فبسبب إغوائك لي إياي ﴿لأقعدن لهم﴾، وقيل: هي باء القسم(٥)، كأنه أقسم بسلطان الله عليه ونفاذ قدرته فيه حتى أغواه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠٠ ح٢٥٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (ص:٩٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (ص:١١٦).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٩ ح٢٦٥٨٣، ٧/ ٩٦ ح٣٤٤٦١)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٢٧٥ ح٨١٣٩).

(٥) للباء أربعة عشر معنى انظرها في: مغني اللبيب لابن هشام (ص:١٣٧) وما بعدها، والإتقان في علوم القرآن (٢/ ١٨٢) وما بعدها.

ومعنى "أغويتني": أضللتني عن الهدى[١]. وقيل: أهلكتني[٢]، من قول العرب: غَوِيَ الفصيلُ يَغْوَى؛ إذا فَقَدَ اللبن فمات[٣].

فعلى هذا سمي التزيين إغواء؛ لإفضائه بصاحبه إلى الهلاك.

قال أبو [معاوية][٤] الضرير: حدثنا رجل ولم يُسَمِّه قال: كنت عند طاووس في المسجد الحرام، فجاء رجل ممن يُرْمَى بالقدر من كبار الفقهاء، فجلس إليه، فقال [له طاووس][٥]: تَقوم أو تُقام، فقام الرجل، فقلت لطاووس: تقول هذا لرجل فقيه؟! فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي[٦].

فإن قيل: ما موقع «ما» في قوله: ﴿فبما أغويتني﴾؟

قلت: الجزاء؛ على المعنى الأول، ومصدرية في موضع القسم؛ على المعنى الثاني.

---

(١) وهو قول ابن عباس والجمهور. أخرجه الطبري (٨/ ١٣٣). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم واللالكائي في السنة.

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ١٧٥). وهو قول ابن الأنباري.

(٣) انظر: لسان العرب (مادة: غوى).

(٤) في الأصل: معواية. وهو خطأ. وأبو معاوية هو محمد بن خازم. انظر ترجمته في: التقريب (ص:٤٧٥).

(٥) زيادة من القرطبي (٧/ ١٧٥).

(٦) ذكره القرطبي (٧/ ١٧٥).

وقد قيل: إنها استفهامية[١]، المعنى: فبأي شيء أغويتني.

ثم ابتدأ فقال: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ قال الزجاج[٢]: هو مثل قولهم: ضُرِبَ زيد الظَّهْرَ والبَطْن.

والصراط المستقيم: هو الطريق المفضي بسالكه إلى الجنة. ويدخل في هذا قول ابن مسعود والحسن: هو طريق مكة[٣].

وقول جابر ومحمد ابن الحنفية: هو دين الإسلام[٤].

وقول مجاهد: هو الحق[٥].

وفي الحديث: عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الشيطان قَعَدَ لابن آدم بأَطْرُقِه، فَقَعَدَ له بطريق الإسلام، فقال له: أتُسْلِمُ وَتَذرُ دينكَ ودينَ آبائك، فَعَصَاهُ فأَسْلَم. ثم قَعَدَ له بطريق الهِجْرة، ثم قال له: أَتُهاجِرُ وتَذَر أرضكَ وسماءك، وإنما مَثَلُ المُهاجِرِ مثل الفرس في الطِّوَل[٦]، فعَصَاهُ فَهَاجَر. ثم قَعَدَ له بطريق الجِهاد، قال: فهو جَهْدُ

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٤١).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٢٤).

(٣) الماوردي (٢/ ٢٠٦)، وزاد المسير (٣/ ١٧٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٦) وعزاه لأبي الشيخ عن ابن مسعود.

(٤) زاد المسير (٣/ ١٧٦).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٦) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٦) الطِّوَل والطِّيَل -بالكسر-: الحبل الطويل يُشَدُّ أحدُ طَرَفَيْه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى، ولا يذهب لوجهه. وطوّل وأطال بمعنى: أي شدّها في الحبل (النهاية في غريب الحديث ٣/ ١٤٥، ولسان العرب، مادة: طول).

النَّفْسِ والمال فتُقاتل فتُقْتَل وتنكَحُ المرأة ويُقَسَّمُ المال، فعَصاهُ فجَاهَد. قال رسول الله ﷺ: فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[(١)].

ومقصود الخبيث إبليس بهذا: إفساد بني آدم وإهلاكهم. المعنى: لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسد بسببي كما فسدت بسببهم.

ثم توعدهم بأنواع التحيل على [إضلالهم][(٢)] من جميع جهاتهم فقال: ﴿لآتينهم من بين أيديهم﴾ فأشككهم في الآخرة، وأقول: لا بعث ولا نشور، ﴿ومن خلفهم﴾ فأرغبهم في الدنيا وأعدهم وأمنيهم، ﴿وعن أيمانهم﴾ فأثبطهم عن الحسنات، ﴿وعن شمائلهم﴾ فأزين لهم السيئات[(٣)].

وقيل: ﴿لآتينهم من بين أيديهم﴾ أي: من قبل دنياهم، ﴿ومن خلفهم﴾: من قبل آخرتهم. رُويا عن ابن عباس[(٤)].

قال قتادة: أتاك يا ابن آدم من كل جهة، غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله[(٥)].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٥ ح٤٣٤٢)، والصغرى (٦/ ٢١ ح٣١٣٤)، وأحمد (٣/ ٤٨٣).

(٢) في الأصل: إظلالهم.

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٤-١٤٤٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٦-٤٢٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس. وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٢٣).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٤-١٤٤٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٧) وعزاه لابن أبي حاتم. وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٢٣).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٧) وعزاه لأبي الشيخ عن عكرمة.

﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ قال ابن عباس: يريد: أن أكثرهم لإبليس طائعون ولله عاصون[١].

وقال أيضاً: "شاكرين": مُوحِّدين[٢].

وقيل: لا تجد أكثرهم شاكرين لسوابغ نعمك وسوائغ منّتك[٣].

﴿قال اخرج منها مذءوماً﴾ أي: اخرج من الجنة أو من السماء مذءوماً.

قال الفراء[٤]: يقال: ذأَمْتُ الرّجلَ، أَذأَمُهُ ذأماً؛ وذممته، أذُمُّه ذمّاً، وذِمْتُهُ، أَذيمُه ذَيْماً[٥].

قال المبرد: المذءوم: المعيب.

قال امرؤ القيس:

وبدا له وجه يردُّ الليل منجاباً ظلامُه
شهدت محاسنه التي كانت تصون وغاب ذامه

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٥٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٤٦). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٢٦-٤٢٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) فائدة: قال الماوردي (٢/ ٢٠٧): فإن قيل: كيف علم إبليس ذلك؟ فعنه جوابان: أحدهما: أنه ظنّ ذلك فصدق ظنّه، كما قال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظَنَّهُ﴾ [سبأ: ٢٠]، وسبب ظنه: أنّه لما أغوى آدم واستزله قال: ذرية هذا أضعف منه. والثاني: أنه يجوز أن يكون علم ذلك من جهة الملائكة بخبر من الله.

(٤) لم أقف عليه في معاني الفراء. وانظر قول الفراء في: زاد المسير (٣/ ١٧٨).

(٥) انظر: لسان العرب (مادة: ذأم).

وقال الكسائي: الذّؤم: المقبوح.

وقيل: الذَّأْم والذَّيْم: أشد العيب، وهو أبلغ من الذمّ.

والدّحر: الطرد والإبعاد، فمعنى ﴿مدحوراً﴾: مبعداً من رحمة الله.

﴿لمن تبعك منهم﴾ هذه لام التوكيد دخلت موطئة للقسم[١]، ﴿لأملأن جهنم﴾ جواب القسم، وهو ساد مسد جواب الشرط[٢]، والمعنى: لمن تبعك من أولاد آدم، ﴿لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾. جعله ابن الأنباري من باب الرجوع من الغيبة إلى الخطاب.

وقال صاحب الكشاف[٣]: المعنى منكم[٤] ومنهم، فغلّب [ضمير][٥] المخاطب.

ويجوز عندي أن يقال: صاروا باتباع إبليس ومشايعته وتلبسهم بطاعته كالجزء منه ومن ذريته، ولذلك شملهم اسم الشيطنة، فيسلم الكلام بهذا التقرير من الإضمار والتقدير.

وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٤٥)، وإعراب القرآن للنحاس (٢/ ١١٧).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٤٥).

(٣) الكشاف (٢/ ٩٠).

(٤) في الكشاف: منك.

(٥) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى: ﴿فوسوس لهما الشيطان﴾، الوَسْوَسَة: حديث النفس. يقال: وَسْوَسَتْ إليه نفسه وَسْوَسَة ووِسْواساً -بكسر الواو-. والوَسْواسُ -بفتح الواو-: الاسم، ووَسْوَسَ الرجل؛ إذا تكلم كلاماً خفياً، ووَسْوَسَ الحلي(١)، قال الشاعر:

تَسْمَعُ للحَلْيِ وَسْواساً إذا انْصَرَفَتْ كما اسْتَعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ(٢)

وهو فعل غير متعد؛ كَوَلْوَلَت المرأة، ووَعْوَعَ الذئب. والمعنى: ألقى الشيطان إليهما ذلك في خفية. وقد ذكرنا في البقرة كيفية توصله إليهما.

واللام في قوله: ﴿ليبدي لهما﴾ لام العاقبة(٣)؛ لأن مراد الشيطان معصيتهما لا إبداء سوأتهما. ويجوز أن يكون إبداء سوأتهما غرضاً له ليسوؤهما إذا رأيا ما يواريان ستره، وقوله: ﴿ما ووري﴾ أي: ما ستر، من المواراة، ومنه: ﴿ليواري سوأة أخيه﴾ [المائدة:٣١].

وفي قراءة ابن مسعود: «ما أُوري» على قلب الواو المضمومة همزة(٤).

﴿وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا﴾ وقرأت شاذاً: «هذي الشجرة» على الأصل، فإن الأصل: الياء، والهاء بدل منها.

---

(١) انظر: لسان العرب (مادة: وسس).

(٢) البيت للأعشى. انظر: القرطبي (٧/ ١٧٨)، واللسان، مادة: (وسس، عشرق، زجل).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٤٧).

(٤) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٢٧٩)، والدر المصون (٣/ ٢٤٧).

﴿إلا أن تكونا﴾ أي: كراهة أن تكونا ﴿ملكين﴾ فلا تموتان إلى يوم القيامة.

وقرأ ابن عباس: «مَلِكين» بكسر اللام[1]، لقوله: ﴿وملك لا يبلى﴾ [طه:١٢٠].

﴿أو تكونا من الخالدين﴾ فلا تموتان أبداً.

﴿وقاسمهما﴾ أي: حلف لهما، ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾.

قال ابن عباس وقتادة: حلف لهما بالله حتى خدعهما، وإنما يخادع المؤمن بالله. قال: إني خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما[2].

فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) وهي قراءة يحيى بن كثير، والضحاك، والحسن بن علي، والزهري، وابن حكيم أيضاً. وقد أنكر أبو عمرو بن العلاء كسر اللام، قال: لم يكن قبل آدم ﷺ مُلك فيصيرا مَلِكين (انظر: الطبري ٨/ ١٤٠، والبحر المحيط ٤/ ٢٨٠).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٤١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

﴿فدلاّهما﴾[١] هذا مجاز عن إلقائهما في هوة ﴿بغرور﴾ وكل واقع في مثل ذلك، فإنه نازل من علو إلى استفال، ومن كرامة إلى إذلال.

قال الأزهري[٢]: أصله: تدلية العطشان في البئر ليَرْوى من الماء فلا يَجِد الماء، فيكون مُدَلًّى بالغرور، ثم وضعت التَّدْلِيَةُ موضع الإطماع فيما لا يُجْدي نفعاً، فيقال: دلَّاه إذا أطمعه في غير مطمع.

قال ابن عباس: غرّهما باليمين، وكان آدم يظن أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً[٣].

﴿فلما ذاقا الشجرة﴾ أي: أكلا منها، قال الزجاج[٤]: قوله: «ذاقا» يدل على أنهما لم يُبالِغَا في الأكل.

﴿بَدَتْ لهما سوآتهما﴾ قال وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر[٥].

﴿وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾ أي: أقبلا، يقال: طَفِقَا وطَفَقَا، بفتح الفاء وكسرها[٦]. وبالفتح قرأ أبو [السَّمَّال][٧].

قال قتادة: أقبلا يرقعان ويصلان عليهما من ورق الجنة، وهو ورق التين، حتى

---

(١) في الأصل زيادة قوله: ﴿بغرور﴾. وستأتي بعد.

(٢) تهذيب اللغة (١٤/ ١٧٢).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٥٧)، وزاد المسير (٣/ ١٨٠).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٢٨).

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٠) وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

(٦) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٢٨١)، والدر المصون (٣/ ٢٥١).

(٧) في الأصل: السماك. والصواب ما أثبتناه. انظر ترجمته في: لسان الميزان (٤/ ٤٧٥)، والمغني في الضعفاء (٢/ ٧٨٩).

صار كهيئة الثوب[١].

﴿وناداهما ربهما﴾ على وجه التوبيخ والعتاب: ﴿ألم أنهكما عن تلكما الشجرة... الآية﴾.

ويروى أنه قال: ألم يكن لك فيما أبحتك ومنحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة؟ فبعزتي حلفتُ لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كداً. فأُهبط وعُلِّم صنعة الحديد، وأمر الحرث فحرث وزرع، وسقى وحصد، وداس وذرى، وعجن وخبز[٢].

ومعنى قوله: ﴿فيها تحيون﴾ أي: في الأرض تعيشون، ﴿وفيها تموتون﴾ أي: فيها قبوركم، ﴿ومنها تخرجون﴾ للبعث. وما لم أذكره هاهنا مُفسّر في البقرة.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً﴾ سبب نزولها: أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت عراة؛ تنزهاً عن الطواف في ثياب تدنست بالمعاصي، وتفاؤلاً

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٢) من حديث ابن عباس.

بالتعري من الذنوب[1].

وقيل: إنه لما ذكر عري آدم امتنّ علينا فأنزل اللباس.

فإن قيل: اللباس غير منزل، فكيف أوقع عليه لفظ الإنزال؟

قلتُ: عنه جوابان:

أحدهما: أن المعنى: أنزلنا عليكم الحكم به، كما يقال: أنزل الله الصلاة.

الثاني: أنه لما كان اللباس متخذاً من النبات الذي سببه المطر أوقع عليه لفظ الإنزال.

ومثله: ﴿وريشاً﴾. وقرأتُ لعاصم من رواية أبان والمفضل: «ورياشاً» بزيادة ألف[2]، قيل: هو جمع ريش؛ كشعب وشعاب.

قال سفيان: الريش: المال، والرياش: الثياب[3].

والأكثرون على أنهما بمعنى واحد.

قال قطرب: هما واحد[4].

قال ابن قتيبة[5]: الرِّيش والرِّياش: ما ظهر من اللباس.

---

(١) انظر: الماوردي (٢/ ٢١٣)، وزاد المسير (٣/ ١٨١).

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٣)، والطبري (٨/ ١٤٧)، والبحر المحيط (٤/ ٢٨٣)، وزاد المسير (٣/ ١٨١).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٨) عن ابن عباس ومجاهد والسدي وعروة والضحاك، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ من طرق عن ابن عباس.

(٤) انظر قول قطرب في: زاد المسير (٣/ ١٨٢).

(٥) تفسير غريب القرآن (ص:١٦٦).

وقيل: هو الجمال والزينة، استعير من ريش الطائر، فكأنه قيل: أنزلنا عليكم لباسين، لباساً يواري سوآتكم، ولباساً يزينكم.

وقال الزجاج[١]: الرِّيش: اللباس، والرياش: كل ما ستر الرجل في جِسْمِه ومعيشتِه. يقال: قد تريَّش فلان، أي: صار له ما يعيش به، أنشد سيبويه وغيره:

فَرِيشِي مِنْكُمُ وهَوَايَ مَعْكُمْ   وإِنْ كَانَتْ زيارَتُكُمْ لِمَاما[٢]

قوله تعالى: ﴿ولباس التقوى﴾: مبتدأ، ﴿ذلك﴾: صفته، ﴿خير﴾: خبره[٣]، كأنه قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير.

وقيل: خبره الجملة، كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير.

ومعنى الكلام: ولباس التقوى خير لصاحبه عند الله من لباس الثياب.

وقيل: لباس التقوى هو اللباس الأول، فـ﴿لباس التقوى﴾ على هذا: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو لباس التقوى[٤].

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي: "ولباسَ التقوى" بالنصب[٥]، عطفاً على

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٢٨).

(٢) البيت لجرير. انظر: ديوانه (ص: ٤١٠)، والكتاب لسيبويه (٣/ ٢٨٧) ونسبه للراعي، وانظر: شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ١٢٨)، والعيني (٣/ ٤٣٢)، وأمالي ابن الشجري (١/ ٢٤٥)، والأشموني (٢/ ٢٥٦)، والتصريح (٢/ ٤٨)، والقرطبي (٧/ ١٨٤)، وزاد المسير (٣/ ١٨٢)، والدر المصون (٣/ ٢٥٣)، ولسان العرب (مادة: معع).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧١)، والدر المصون (٣/ ٢٥٣).

(٤) مثل السابق.

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٤)، والحجة لابن زنجلة (ص: ٢٨٠)، والكشف (١/ ٤٦٠)، والنشر (٢/ ٢٦٨)، والإتحاف (ص: ٢٢٣)، والكشف (١/ ٤٦٠)، والسبعة في القراءات (ص: ٢٨٠).

«لباساً» و«رياشاً» و«ريشاً».

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لباس التقوى: هو السمت الحسن[١].

وقيل: العمل الصالح[٢]. رُويا عن ابن عباس.

وقال قتادة: الإيمان[٣].

وقال عروة بن الزبير: خشية الله[٤].

وقال معبد الجهني: الحياء[٥].

وقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الهديَ الصالح والسمتَ

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٧).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٤) وعزاه لابن جرير.

(٥) أخرجه الطبري (٨/ ١٤٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٥٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٥) وعزاه لأبي عبيد وعبد بن حميد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

قلت: ولا منافاة بين هذه الأقوال، فهي مندرجة تحت تقوى الله. ولهذا قال ابن جرير الطبري (٨/ ١٥١): وأولى الأقوال بالصحة في تأويل قوله: ﴿ولباس التقوى﴾ استشعار النفوس تقوى الله، في الانتهاء عما نهى الله عنه من معاصيه، والعمل بما أمر به من طاعته، وذلك يجمع الإيمان، والعمل الصالح، والحياء، وخشية الله، والسمت الحسن، لأن مَنْ اتقى الله كان به مؤمناً، وبما أمره به عاملاً ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن أن يُرَى عند ما يكره من عباده مستحييًا. ومَنْ كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سَمْته وهَدْيه، ورُئِيَتْ عليه بهجة الإيمان ونوره. اهـ.

الصالح والاقتصاد جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»[١].

قال الخطابي: هديُ الرجل: حاله ومذهبه وكذلك سمته، والاقتصاد: سلوك القصد في الأمر والدخول فيه برفق[٢].

والمعنى: أن هذه الخلال من شمائل الأنبياء فاقتدوا بهم فيها، وليس المعنى: النبوة تتجزأ، فإنها غير مكتسبة.

وفيه وجه آخر: أن يكون معنى النبوة هاهنا: ما جاءت به النبوة ودعت إليه الأنبياء عليهم السلام.

قال: ويحتمل وجهاً ثالثاً: أن من اجتمعت له هذه الخصال لقيه الناس بالتعظيم وألبسه الله لباس التقوى الذي يلبسه الأنبياء، وكأنها جزء من النبوة.

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من إنزال اللباس والرياش ﴿من آيات الله﴾ الدالة على فضله ونعمته ورحمته لعباده، ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيعرفوا عظيم نعمته عليهم وإحسانه إليهم.

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾ أي: لا يخدعنكم بغروره فيزين لكم كشف عوراتكم في الطواف، كما فتن أبويكم من قبل فخدعهما حتى أخرجهما من الجنة.

﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ وهو النور، في قول ابن عباس[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٧ ح٤٧٧٦)، وأحمد (١/ ٢٩٦).

(٢) انظر: عون المعبود (١٣/ ٩٤).

(٣) زاد المسير (٣/ ١٨٤).

ولباس التقوى، في قول مجاهد[(١)].

وذكر القاضي أبو يعلى: أنه كان من ثياب الجنة[(٢)]. وأضيف الإخراج والنزع إلى الشيطان؛ لكونه السبب في ذلك.

وقوله: "ينزع" في محل الحال[(٣)]، ﴿ليريهما سوآتهما﴾ أي: يرى كل واحد منهما سوأة صاحبه.

ثم حذرهم كيده فقال: ﴿إنه يراكم هو وقبيله﴾ يعني: جنوده من الشياطين، ﴿من حيث لا ترونهم﴾.

قال ابن عباس: جعلهم الله يجرون من بني آدم مجرى الدم، وصدور بني آدم مساكن لهم، فهم يرون بني آدم وبنو آدم لا يرونهم[(٤)].

قال قتادة: والله إن عدواً يراك من حيث لا تراه لشديد المؤنة، إلا من عصمه الله[(٥)].

وقال ذو النون المصري: إن كان هو يراك من حيث لا تراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله، فاستعن بالله عليه، فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً[(٦)].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٦) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) زاد المسير (٣/ ١٨٤).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧١)، والدر المصون (٣/ ٢٥٥).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٦٠)، وزاد المسير (٣/ ١٨٤).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٠). وانظر: الوسيط (٢/ ٣٦٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٦) وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٦) ذكره النسفي في تفسيره (٢/ ٨).

﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ قال الزجاج[١]: سلَّطناهم عليهم يزيدون في غيِّهم.

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة﴾ يعني: ما عظم قبحه من الذنوب.

وقال ابن عباس: يريد: طوافهم بالبيت عراة رجالاً ونساءً[٢].

وقال عطاء: يريد: الشرك[٣].

﴿قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها﴾ فاعتذروا بتقليد آبائهم، وهو جهل محض، ونسبوا الأمر بها إلى الله، وهو كذب صراح براح؛ لأن الله عز وجل لا يأمر بالقبيح.

﴿قل﴾ لهم يا محمد راداً عليهم ما اختلقوه ونسبوه إلى الله، ﴿أمر ربي بالقسط﴾ وهو العدل المستحسن عند ذوي البصائر لا بالفاحشة القبيحة، ﴿وأقيموا

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٦٠)، وزاد المسير (٣/ ١٨٥).

وجوهكم عند كل مسجد﴾.

قال مجاهد والسدي وابن زيد: وجهوا وجوهكم حيث كنتم إلى الكعبة(١).

وفي هذا القول نظر؛ لأن الآية مكية، والأمر بالتوجه إلى الكعبة كان على رأس ستة عشر شهراً في المدينة، وقد ذكرنا ذلك في البقرة.

وقال الربيع: المعنى: اجعلوا سجودكم لله خالصاً دون ما سواه من الآلهة(٢).

﴿وادعوه﴾ أي: اعبدوه، ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: مفردين له الطاعة والعبادة، ﴿كما بدأكم تعودون﴾.

قال ابن عباس: كما بدأكم سعداء وأشقياء، فكذلك تبعثون(٣).

وقال في رواية أخرى: كما خلقكم بقدرته كذلك يعيدكم(٤).

فيكون احتجاجاً على منكري الإعادة بابتداء الخلق. وهذا قول الحسن ومجاهد واختيار الزجاج(٥).

﴿فريقاً هدى﴾ أرشد إلى دينه، ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ بالإرادة السابقة

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٢)، ومجاهد (ص:٢٣٤). وانظر: الوسيط (٢/ ٣٦١)، وزاد المسير (٣/ ١٨٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٧) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٥). وانظر: الماوردي (٢/ ٢١٦)، وزاد المسير (٣/ ١٨٥).

(٣) أخرج نحوه الطبري (٨/ ١٥٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٢). وانظر: الماوردي (٢/ ٢١٧)، وزاد المسير (٣/ ١٨٥). وذكر نحوه السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٥٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٨٦).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٣٣١)، والوسيط (٢/ ٣٦١).

والكلمة الأزلية.

وانتصاب "فريقاً" على الحال من الضمير في "تعودون"[١]، تقديره: تعودون مختلفين مهتدين وضالين.

ويؤيد ذلك قراءة أبي بن كعب: «تعودون فريقين فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة»[٢].

وجائز أن يكون "فريقاً" الأولى منصوباً بـ "هَدَى"، والثاني بفعل مضمر يدل عليه ما بعده[٣]، تقديره: وأضل فريقاً حَقَّ عليهم الضلالة.

فعلى هذا؛ يجوز الوقف على "تعودون". وعلى الأول؛ لا يجوز.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أخرج مسلم في صحيحه من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تطوف

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧١)، والدر المصون (٣/ ٢٥٩).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٢٩٠)، والدر المصون (٣/ ٢٥٩).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧١)، والدر المصون (٣/ ٢٥٩).

بالبيت عريانة فتقول: من يعيرني تطوافاً؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليومَ يبدُو بعضُهُ أو كُلُّه   وما بَدَا منْه فلا أُحِلُّه[١]

فنزلت: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾»[٢].

قال طاووس: لم يأمرهم بالحرير ولا بالديباج، ولكن كان أهل الجاهلية يطوف أحدهم بالبيت عرياناً، ففي ذلك قال: ﴿خذوا زينتكم﴾[٣].

قال مجاهد: ما وارى عورتك، ولو عباءة[٤].

والمعنى: استروا عوراتكم عند كل مسجد في الطواف والصلاة.

وأخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله العطار وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة الصوفي قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى بن شعيب، أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد، أخبرنا عبدالله بن أحمد، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني حميد بن عبدالرحمن، أن أبا هريرة قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه فيمن يؤذن

---

(١) انظر البيت في: البحر (٤/ ٢٩١)، والقرطبي (٧/ ١٨٩)، والطبري (٨/ ١٥٤، ١٦٠، ١٦١)، وزاد المسير (٨/ ١٨٦). والقائلة هي: ضباعة بنت عمرو بن محصن النجّارية.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٣٢٠ ح٣٠٢٨).

وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٢٨)، ولباب النقول (ص:١٠٥)، وتفسير الطبري (٨/ ١٦٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٧). وانظر: الوسيط (٢/ ٣٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٤٠) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٦١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٦٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٣٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

يوم النحر بمنى: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان»[١]. هذا حديث متفق على صحته. أخرجه مسلم عن حرملة بن يحيى، عن ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب.

قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا﴾ كانت بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم دسماً، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، فقال المسلمون: نحن أحق بذلك، فأنزل الله: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ بتحريم ما أحل الله لكم[٢].

وقيل: لا تسرفوا بأكل الحلال فوق الحاجة[٣].

ويروى: أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن حسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء؟ فقال علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ فقال النصراني: ولا يؤثر عن رسولكم شيء في الطب؟ فقال علي: قد جمع رسولنا علم الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: «المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وعوّدوا كل بدن بما اعتاد». فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[٤].

قوله تعالى: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ نزلت في إنكار المشركين على المسلمين لبس الثياب في الطواف، وأكل الطيبات من

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١٦٠ ح٣٠٠٦)، ومسلم (٢/ ٩٨٢ ح١٣٤٧).

(٢) انظر: الوسيط (٢/ ٣٦٣)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٢٨)، وزاد المسير (٣/ ١٨٧).

(٣) وهو قول الزجاج. انظر: معاني الزجاج (٢/ ٣٣٣).

(٤) ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير (٣/ ١٨٨).

اللحم والألبان والأدهان في زمن الإحرام، ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ يعني: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ولغيرهم.

وإنما اقتصر على ذكر المؤمنين؛ تنبيهاً على أنها خلقت لهم بطريق الأصالة، والكفار في حكم التبعية، ألا ترى إلى قوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ إلى قوله: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨]، يريد: أنه خلقهم للتوحيد ورزقهم.

وقال الزجاج[١]: المعنى: قل هي حلال للذين آمنوا.

قرأ نافع: "خالصةٌ" بالرفع، وقرأ الباقون: بالنصب[٢].

فمن رفع جعله خبراً بعد خبر، كما تقول: زيد عاقل لبيب، فالمعنى: قل هي ثابتة للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة.

ومن نصب فعلى الحال، على أن العامل في قولك «في الحياة الدنيا» في تأويل الحال، كأنك قلت: قل هي ثابتة للمؤمنين مستقرة في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة. هذا كلام الزجاج.

وقال أبو علي[٣]: من قرأ «خالصةٌ» بالرفع، جعله خبراً للمبتدأ الذي هو «هي»، ويكون «للذين آمنوا» تثبيتاً للخلوص، واللام متعلقة بالخبر الذي هو "خالصة". ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، ويكون حينئذ في المجرور الذي هو خبر

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٣٣).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨١)، والكشف (١/ ٤٦١)، والنشر (٢/ ٢٦٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٣)، والسبعة في القراءات (١/ ٢٨٠).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٥).

ذكره يعود إلى المبتدأ[١].

ومن نصب «خالصةً» كان حالاً مما في قوله: "للذين آمنوا"؛ لأن فيه ذكراً يعود إلى المبتدأ الذي هو «هي»، فـ"خالصةً" حال عن ذلك الذكر، والعامل في الحال مافي اللام من معنى الفعل، واللام على هذا متعلقة بمحذوف، وفيها الذكر الذي كان يكون في المحذوف لو ذكر، وليست متعلقة بالخلوص، كما تعلقت به في قول من رفع.

وقال ابن الأنباري: «خالصةً» نصب على الحال من لام مضمرة، تقديرها: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة، فحذفت اللام لوضوح معناها، كما تحذف العرب أشياء لا يلبس سقوطها[٢].

قال الشاعر:

تقولُ ابنتي لما رأتْنِي شَاحِباً كأنَّكَ يحميكَ الطعامَ طَبيب

تَتَابُعُ أَحْداثٍ تَخَرَّمْنَ إِخْوتي فشيَّبْن رأسي والخُطُوبُ تُشِيب[٣]

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ نبيّنها ونوضحها، ﴿لقوم يعلمون﴾ يعقلون سرّ الله ما أحل وحرم، فأما من تولى الشيطان وأطاعه، فهو بمعزل عن هذا البيان الواضح.

قوله تعالى: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾ هي جمع: فاحشة. وقد ذكرنا أن الفاحشة: ما اشتد قبحه من الذنوب، فيدخل في ذلك جميع ما ذكره المفسرون من

(١) انظر: مشكل إعراب القرآن (١/ ٢٨٨).

(٢) انظر قول ابن الأنباري في: زاد المسير (٣/ ١٨٩)

(٣) البيتان لكعب بن سعد الغنوي، يرثي أخاه. وهما في: زاد المسير (٣/ ١٨٩).

الزنا، ونكاح ذوات المحارم، وكشف العورة في الطواف والصلاة.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي وأبو الحسن بن روزبة قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا عبدالرحمن بن محمد، أخبرنا عبدالله بن أحمد، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مرة، عن أبي وائل، عن عبدالله قال: قلت: أنت سمعت هذا من عبدالله؟ قال: نعم، ورفعه قال: «لا أحد أغْير من الله، فلذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، فلذلك مدح نفسه»[(١)].

وأخبرنا به عالياً أبو علي بن عبدالله المذكر في كتابه، أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن الحصين، أخبرنا الحسن بن علي الواعظ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان، أخبرنا عبدالله بن الإمام أحمد، حدثني أبي، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ فذكر الحديث إلا أنه قال: «أحب إليه المدح»[(٢)]. أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين.

قوله تعالى: ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ قال مجاهد: الإثم: المعاصي كلها[(٣)].

وقال الحسن وعطاء: الخمر[(٤)].

وأنشدوا قول الشاعر:

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٩٩ ح٤٣٦١).

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٠٠٢ ح٤٩٢٢)، ومسلم (٤/ ٢١١٤ ح٢٧٦٠)، وأحمد (١/ ٣٨١ ح٣٦١٦).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٦٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩١).

(٤) الماوردي (٢/ ٢٢٠) بلا نسبة، والوسيط (٢/ ٣٦٤) عن عطاء، وزاد المسير (٣/ ١٩١) عن الحسن وعطاء.

نَشْرَبُ الإِثْمَ بالصُّواعِ جِهارا ونرى المُتْك بيننا مُسْتَعَارا[(١)]

وقول الآخر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي كَذَاكَ الإِثْمُ يَذْهَبُ بالعُقُولِ[(٢)]

وأنكر ثعلب وابن الأنباري ذلك، وقالا[(٣)]: لم تسم العرب الخمر إثماً قط.

فإن قيل: هل بين قول الحسن وعطاء: الإثم الخمر، وبين قول ثعلب وابن الأنباري تناقض؟

قلت: إن صح قول ثعلب وابن الأنباري أن العرب لم تسم الخمر إثماً قط، فيكون قول الحسن وعطاء تفسيراً لما به حصل الإثم، لا تسميةً للخمر بالإثم، وحينئذ لا تناقض بين القولين، فإن المنكر إنما هو كون العرب وضعت لها الاسم، لا أنها يحصل بشربها الإثم[(٤)].

والبغي: الكبر والظلم.

---

(١) لم أهتد إلى قائله، وهو في: القرطبي (٧/ ٢٠١)، وزاد المسير (٣/ ١٩١)، وروح المعاني (١٢/ ٢٢٨)، ولسان العرب (مادة: أثم). والصواع: هو المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه (انظر: اللسان، مادة: أثم).

وأصل المتك: الزُّماوَرْد. وقيل: الأُتْرُجّ (اللسان، مادة: متك).

(٢) قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ١٩١): قال أبو بكر: وما هذا البيت معروفاً في شعر من يحتج بشعره. انظر: الغريبين (١/ ١٨)، وتهذيب اللغة (١٥/ ١٦١)، والدر المصون (١/ ٢٨٥)، والبغوي (٢/ ١٥٨)، والقرطبي (٧/ ٢٠٠)، وزاد المسير (٣/ ١٩١)، وروح المعاني (٨/ ١١٢)، ولسان العرب (مادة: أثم)، والماوردي (٢/ ٢٢٠).

(٣) انظر: الوسيط (٢/ ٣٦٤)، ولسان العرب (مادة: أثم).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ١٩١).

فإن قيل: إذا كان الفواحش ما اشتد قبحه من الذنوب كما ذكرت، والإثم جميع المعاصي كما حكيت عن مجاهد، فما باله خص البغي والشرك والقول على الله بغير علم بالذكر؟

قلت: خصَّ هذه الجنايات بالذِّكر وإن اندرجت تحت عموم اللفظ؛ لعظم إثمها وشدة قبحها وتضمنها فرط الاجتراء على الله وقبح الافتراء عليه، فصارت هذه الجنايات بسبب زيادة قبحها وضررها كأنها جنس آخر، فلذلك خصصت بالذكر.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولكل أمة أجل﴾ أي: وقت معلوم لهلاكهم، ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ الذي لهم ﴿لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ المعنى: لا يستأخرون قليلاً ولا كثيراً، وإنما خصَّ الساعة بالذكر؛ لأنها أقل أسماء الأوقات في غالب استعمال الناس.

وقيل: إنها نزلت في استعجالهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم﴾ سبق الكلام على «إما» وجواب الشرط في سورة البقرة عند قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾[١].

وما بعده ظاهر ومفسر إلى قوله: ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أي: ما كتب لهم في اللوح المحفوظ من الخير والشر والأرزاق والأعمار وغير ذلك، ﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم﴾ حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، المعنى: أولئك ينالون نصيبهم ويستوفونه إلى وقت وفاتهم، وهذه «حتى» هي التي يبتدأ بعدها الكلام، والكلام هاهنا الجملة الشرطية، و«يتوفونهم» حال من «الرسل»[٢].

والمراد بالتوفي: الموت. وقيل: الحشر إلى النار.

فعلى الأول؛ المراد بالرسل: مَلَك الموت وأعوانه، وعلى الثاني: ملائكة العذاب.

﴿قالوا﴾ يعني: الرسل على وجه التوبيخ لهم، ﴿أينما كنتم تدعون من دون الله﴾ من الآلهة، ﴿قالوا ضلوا عنا﴾ أي: غابوا فلا نراهم، وبطل ما كنا نرجوه من النفع بهم، فاعترفوا بأنهم لم يكونوا على شيء حين لا ينفعهم الاعتراف، ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ عند معاينة الموت. وقيل: لدى الحشر، ﴿أنهم كانوا كافرين﴾.

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ

---

(١) عند الآية رقم: ٣٨.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٦٤-٢٦٥).

﴿لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿قال ادخلوا في أمم﴾ أي قال الله للكفار: «ادخلوا في أمم» في محل الحال، أي: كائنين في جملة أمم أو مع أمم[1]، ﴿قد خلت﴾ أي: سبقتكم وتقدمتكم في الزمان، ﴿من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها﴾ التي اقتدت بها في الضلال. والمعنى: لعنت أختها في الدين لا في النسب، ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾ أصله: «تَدَارَكُوا» فأدغمت التاء في الدال، ثم اجتلب لها ألف الوصل توصلاً إلى النطق بالساكن، والمعنى: حتى إذا تلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿قالت أخراهم﴾ آخرهم دخولاً النار وهم الأتباع ﴿لأولاهم﴾ الرؤساء القادة الذين دخلوا النار قبلهم، والمعنى: لأجل أولاهم؛ لأن قولهم لله لا لأولاهم، ﴿ربنا هؤلاء أضلونا﴾.

قال ابن عباس: لأنهم شرعوا لنا أن نتخذ من دونك إلهاً[2].

﴿فآتهم عذاباً ضعفاً﴾ أي: مضاعفاً ﴿من النار﴾؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، ﴿قال لكل ضعف﴾ أي: عذاب مضاعف[3]، ﴿ولكن لا تعلمون﴾.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٦٦).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٦٦)، وزاد المسير (٣/ ١٩٥).

(٣) الضعف على ما قال أبو عبيد، ونص عليه الشافعي في الوصايا: مِثْل الشيء مرة واحدة. وعن الأزهري: أن هذا المعنى عرفي، والضعف في كلام العرب وإليه يرد كلام الله تعالى: المثل إلى ما زاد، ولا يقتصر على مثلين، بل هو غير محصور، واختاره هنا غير واحد. وقال الراغب: الضعف بالفتح =

قرأ أبو بكر عن عاصم: «يعلمون» بالياء. وقرأ الباقون بالتاء على المخاطبة[١].

فمن قرأ بالتاء فعلى معنى: لا تعلمون أيها المخاطبون ما لكل فريق منكم من العذاب.

وقال الزجاج[٢]: يجوز أن يكون -والله أعلم-: ولكن لا تعلمون يا أهل الدنيا [مقدار][٣] ذلك.

ومن قرأ: «يعلمون» فعلى معنى: لا يعلم كل فريق منهم ما للآخر من العذاب.

﴿وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل﴾ يقتضي في حقكم

= مصدر، وبالكسر اسم كالثني، والثني هو الذي يثنيه، ومتى أضيف إلى عدد اقتضى ذلك العدد مثله، نحو أن يقال: ضعف عشرة، وضعف مائة، فذلك عشرون ومائتان بلا خلاف، وعلى ذلك قول الشاعر:

جزيتك ضعف الود لما اشتكيته ... وما أن جزاك الضعف من أحد قبلي

وإنما قيل: اعطه ضعفي واحد، اقتضى ذلك الواحد ومثليه، وذلك ثلاثة، لأن معناه الواحد واللذان يزاوجانه. هذا إذا كان الضعف مضافاً، فإذا لم يكن مضافاً فقلت: الضعفين، فقد قيل: يجري مجرى الزوجين في أن كل واحد منهما يزاوج الآخر، فيقتضي ذلك اثنين، لأن كل واحد منهما يضاعف الآخر، فلا يخرجان منهما. (انظر: روح المعاني ٨/ ١١٦)، ولسان العرب (مادة: ضعف)، وترتيب القاموس (٣/ ٢٦-٢٧)، والصحاح (٤/ ١٣٩٠-١٣٩١)، ومفردات الراغب (ص:٤٣٨) وما بعدها، ومجاز القرآن (١/ ٢١٤).

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨١)، والكشف (١/ ٤٦٢)، والنشر (٢/ ٢٦٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٤)، والسبعة في القراءات (١/ ٢٨٠).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٣٧).

(٣) في الأصل: بمقدار. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

التخفيف بالنسبة إلينا والتضعيف علينا، كأنهم التمسوا التسوية في العذاب؛ لاشتراكهم في سببه.

قال الله تعالى: ﴿فذوقوا العذاب﴾ أيها القادة والأتباع، ﴿بما كنتم تكسبون﴾ من الكفر والتكذيب.

ويجوز أن يكون هذا من تمام قول القادة للأتباع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ قرأ حمزة والكسائي: «يُفْتَحُ» بالياء والتخفيف[1]، وقرأ أبو عمرو: بالتاء، لتأنيث الأبواب، وبالتخفيف، ووافقه الباقون في القراءة بالتاء، لكنهم شددوا التاء. ومن قرأ بالياء؛ فلأن تأنيث الأبواب غير حقيقي[2].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٢)، والكشف (١/ ٤٦٢)، والنشر (٢/ ٢٦٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٠).

(٢) حجة من قرأ بالتاء: قوله تعالى: ﴿وفُتِحَتْ أبوابها﴾ ذهبوا إلى جماعة الأبواب. وحجة من قرأ بالياء: هي أنه لما فصل بين المؤنث وبين فعله بفاصل صار الفاصل كالعوض من التأنيث والتذكير، والتأنيث في هذا النوع قد جاء بهما التنزيل؛ فمن الأول قوله تعالى: ﴿لن ينالَ الله لحومُها ولا دماؤها﴾، ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه﴾ ولو ذكّر أو أنّث فعل اللحوم كان جائزاً حسناً، فأما التشديد فإنه من التفتح مرة بعد مرة أخرى، وهذا هو المختار لأنه =

والمعنى: لا يفتح لأعمالهم ولدعائهم ولأرواحهم، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ينتهى بها إلى السماء فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل بين السماء والأرض فتصير إلى الأرض»(١).

وقد قيل: المعنى: لا تفتح لهم أبواب الجنة؛ لأن الجنة في السماء، ويدل عليه قوله: ﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾. وقرئ بالحركات الثلاث على السين، فالفتح قراءة الأكثرين، والضم قراءة ابن مسعود وأبي رزين وأبي مجلز وقتادة، والكسر قراءة أبي عمران وأبي نهيك، ورواه الأصمعي عن نافع(٢).

قال الزجاج(٣): الخِياط: الإبرة، وسُمُّها: ثقبها.

وقال الثعلبي(٤): الخياط والمخيط: الإبرة.

قلت: وقد قرأ «المِخْيَط» جماعة، منهم: ابن مسعود وأبو رزين وأبو مجلز(٥).

وقال الواحدي(٦): الخِيَاط: ما يُخاط به.

= عن جماعة، وحجتهم قوله: ﴿مُفَتَّحةً لهم الأبواب﴾ ولم يقل: (مفتوحة)، وقال: ﴿وغَلَّقت الأبواب﴾، ومن خفف دل على المرة الواحدة.

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٤ ح٨٧٥٤).

(٢) انظر هذه القراءات في: زاد المسير (٣/ ١٩٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٣٨).

(٤) الثعلبي (٤/ ٢٣٣).

(٥) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٩٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٦) الوسيط (٢/ ٣٦٧).

والمعنى: لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في ثقب الإبرة، أي: حتى يكون ما لا يكون من ولوج الجمل -الذي يضربون بـه المثـل في عظـم الأجـرام وامتـداد الأجسام، حتى قال الشاعر:

.... جِسْمُ الجِمَالِ وأَحْلامُ العَصَافِيرِ (١)

وسمّوا الرجل العظيم الخَلْق: جُمالياً- في خَرْت الإبرة الذي يضربون به المثل في ضيق المسلك، فيقولون: أضيق من خُرْت الإبـرة. وقـالوا للماهـر في الدلالـة: خِرِّيت؛ لاهتدائه في المضائق المشتبهة، المشبّهة بأخرات الإبر (٢).

وقرأت على الشيخين أبي البقـاء اللغـوي وأبي عمـرو اليـاسري رحمهـما الله لعاصم من رواية أبان عنه: «الجُمّل» بضم الجيم وتشديد الميم، وبها قـرأ جماعـة، منهم: ابن عباس في رواية شهر بن حوشب عنـه، وأبـو رزيـن، ومجاهـد، وابـن محيصن (٣)، وهو: القَلْس الغليظ. ورجح ابن عباس هذه القراءة؛ لما بـين الحبـل وسم الخياط من الارتباط.

وقرأ قتادة: «الجُمَل» بضم الجيم وفتح الميم وتخفيفها، وهي رواية مجاهد عن

---

(١) هذا عجز بيت لحسان بن ثابت. ورواية الديوان:

لا عيب في القوم من طول ولا عظم جسم البغال وأحلام العصافير

انظر: الكتاب (٢/ ٧٤)، والخزانة (٤/ ٧٢)، والدر المصون (٣/ ٢٦٩).

(٢) حَرَت الشيء يَحْرُته حَرْتاً: قطعه قطعاً مستديرة. قال الأزهري: وأظنه تصحيفاً، والصواب: خَرَتَ الشيء يَخْرُته، بالخاء. والخُرتة: هي الثقب المستدير (لسان العرب، مادة: حرت).

(٣) انظر هذه القراءة في: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٤)، وزاد المسير (٣/ ١٩٧-١٩٨)، والـدر المصون (٣/ ٢٧٠).

ابن عباس[١].

وقرأ سعيد بن جبير وعكرمة: «الجُمْل» بضم الجيم وسكون الميم[٢].

قال ابن الأنباري: الجُمَل يحتمل أمرين: يجوز أن يكون بمعنى الجَمَل، ويجوز أن يكون بمعنى جملة من الجمال قيل في جمعها جمل، كما يقال حُجْرة وحُجَر، وظُلْمة وظُلَم. وكذلك من قرأ الجُمْل يسوغ له أن يقول: الجُمْل بمعنى الجَمَل، وأن يقول الجُمْلُ جمع جملةٍ، مثل: بسرة وبسر[٣].

وقرأ ابن عباس في رواية عطاء بن السائب[٤] والضحاك والجحدري: بضم الجيم والميم والتخفيف[٥].

وقال ابن جني[٦]: الجُمَّلُ بالتثقيل، والجُمُل بالتخفيف، فكلاهما: الحَبْل الغليظ.

وأما الجُمْل فيجوز أن يكون جمع جَمَل كأَسَدٍ وأُسْد، وكذلك المضموم الميم أيضاً كأُسُد.

وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء وأبو [السَّمَّال][٧]: «الجَمْل» بفتح الجيم

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٩٧-١٩٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٢) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٩٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٣) زاد المسير (٣/ ١٩٨).

(٤) في زاد المسير: عطاء بن يسار.

(٥) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٩٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٦) المحتسب (١/ ٢٤٩).

(٧) في الأصل: السماك. والصواب ما أثبتناه. انظر ترجمته في: لسان الميزان (٤/ ٤٧٥)، والمغني في الضعفاء (٢/ ٧٨٩).

وبسكون الميم خفيفة[١].

قال ابن جني[٢]: بعيد أن يكون مخففاً من المفتوح؛ لخفة الفتحة، وإن كان قد جاء عنهم قولهم:

وما كلُّ مُبْتاعٍ ولو سَلْفَ صَفْقُهُ بِراجِعِ ما قد فاته بِرِدَادِ[٣]

وقال شيخنا أبو البقاء: الأحسن أن يكون لغة، والقراءة المشهورة أرجح في النقل وأوضح في نظر العقل.

قال الزجاج[٤]: سئل ابن مسعود عن الجمَل؟ قال: هو زوج الناقة، كأنه استجهل من سأله عن الجمَل.

﴿وكذلك﴾ أي: ومثل ذلك الجزاء الفظيع ﴿نجزي المجرمين﴾ الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها.

قوله تعالى: ﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش، وهو ما يمهد، أي: يفرش ويبسط، ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: أغطية من النار، وهو جمع غاشية.

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ١٩٧-١٩٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٢) المحتسب (١/ ٢٤٩).

(٣) البيت للأخطل. انظر: ديوانه (ص:١٨)، واللسان (مادة: سلف)، وشرح شواهد الشافية (ص:١٨-٢١).

والمبتاع: المشتري. والصفق: مصدر صفق البائع؛ إذا ضرب بيده على يد صاحبه عند المبايعة. والمراد: إيجاب البيع. وضمير (صفقه) للمبتاع أو المغبون. والرِّداد -بكسر الراء-: مصدر راد البائع صاحبه؛ إذا فاسخه البيع.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٣٨).

قال ابن عباس: هي اللحف[١].

وقال عكرمة: ما يغشاهم من فوقهم من الدخان[٢].

وقيل: غاشية فوق غاشية من النار[٣]. وفي هذا إشعار بإحاطة العذاب بهم.

وفي حديث طويل عن النبي ﷺ: «يبعث الله ملائكة معهم مسامير من نار وأطباق من نار فيطبقونها على من بقي فيها، فيسمرونها بتلك المسامير، ثم ينساهم الجبار عز وجل على عرشه من رحمته»[٤].

قوله تعالى: ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ يعني: المشركين.

قال الزجاج[٥]: وقوله: «غواش» يزعم سيبويه والخليل جميعاً: أن النون هاهنا عوض من الياء[٦]؛ لأن غواش لا ينصرف، والأصل فيها: «غواشيْ» [بإسكان الياء][٧] والضم، إلا أن الضمة تحذف لثقلها في الياء، فيبقى «غواشي» بسكون الياء، فإذا ذهبت الضمة أُدْخِلَتِ التنوينُ عوضاً منها، كذلك فسّر أصحاب سيبويه، وكأن سيبويه ذهب إلى أن النون عوَضٌ من ذهاب حركة الياء، والياءُ سقطت لسكونها وسكون النون، فإذا وقفت فالاختيار أن تقف بغير ياء فتقول:

---

(١) زاد المسير (٣/ ١٩٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٥٧) وعزاه لابن المنذر.

(٢) زاد المسير (٣/ ١٩٩).

(٣) وهو قول الزجاج. انظر: معاني الزجاج (٢/ ٣٣٨)، وزاد المسير (٣/ ١٩٩).

(٤) ذكره السيوطي في الدر (٥/ ٦٤-٦٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن شاهين في السنة من حديث طويل عن علي بن أبي طالب.

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٦) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٣)، والدر المصون (٣/ ٢٧٠).

(٧) في الأصل: ياهذا بالياء. والتصويب من معاني الزجاج (٢/ ٣٣٨).

«غواشٍ»، لتدل أن الياء كانت تحذف في الوصْل، وبعض العرب إذا وقف على «غواش» وقف بإثبات الياء، ولا أرى ذلك في القرآن، لأن الياء محذوفة في المصحف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ معناه: عملوا الصالحات بقدر طاقتهم؛ لأن معنى الوسع ما تقدر عليه.

قوله: ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ «أولئك» رفع بالابتداء، و«أصحاب الجنة»: خبره[1]. والجملة خبر "الذين"، ويرجع على «الذين» اسم الإشارة، أعني: "أولئك".

قوله تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي: أزلنا الأحقاد التي كانت كامنة في صدورهم. قيل: المراد بذلك أحقاد الجاهلية أذهبها الله بالإسلام.

والأظهر في التفسير: أن المراد بذلك: الإعلام بصفة أهل الجنة. وإليه أشار علي عليه السلام بقوله، فيما أخبرنا به الثقة العدل أبو القاسم عبدالله بن الحسين بن

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٣)، والدر المصون (٣/ ٢٧١).

رواحة [١] بالموصل، أخبرنا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصبهاني بثغر الإسكندرية، أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن الحسين بن المهند بسلماس، أخبرنا جدي القاضي أبو بكر أحمد بن جرير بن خميس السلماسي، أخبرنا أبي -جرير بن أحمد-، حدثنا أبو سعيد عمران بن موسى بن هلال التميمي، حدثنا علي القصر، حدثنا عبدالله بن عمر بن أبان، حدثنا عبثر، عن مفضل بن مهلهل، عن سفيان الثوري، عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: قال علي رضي الله عنه: «إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ [الحجر:٤٧]» [٢].

وعلى هذا أيضاً أحمل قول علي عليه السلام: «فينا أهل بدر نزلت» [٣].

أخبر الله عنهم بما يؤول أمرهم إليه في الجنة، والصفة التي يكونون عليها، وأخبر عنه بصيغة الماضي لتحقق حصوله.

فإن قيل: على هذا القول جميع أهل الجنة بهذه الصفة، فما وجه اختصاصهم بالذكر؟

---

(١) عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن رواحة، أبو القاسم الأنصاري الحموي، سمع على الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي كتاب "السيرة النبوية" لابن إسحاق، وحدث، سمع منه الحافظ عبد العظيم المنذري، توفي سنة ست وأربعين وستمائة في يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة، ومولده سنة ستين وخمسمائة بجزيرة مسينى بالمغرب (سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٦١-٢٦٣، وذيل التقييد ٢/ ٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٥٤٤ ح٣٧٨٢١)، والبيهقي في سننه (٨/ ١٧٣).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٧٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٥٧) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

قلتُ: لئلا يظنّ ظانّ أو يتوهّم متوهّم أن ما جرى بين هذه السادة الذين هم أفاضل الصحابة من الحروب والتنازع موهن لمراتب فضلهم في الآخرة، وموجب لاستنزالهم عن أعلى منازل الجنة، كما ظن الغواة الغلاة من الرافضة، وإلى ذلك أشار ﷺ بقوله: «وما يدريك أن الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١].

أنبأنا حنبل بن عبد الله بن الفرج، أخبرنا هبة الله بن الحصين، أخبرنا ابن المذهب، أخبرنا القطيعي، حدثنا عبدالله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا روح، عن [سعيد][٢]، عن قتادة، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتصّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزلته في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»[٣]. هذا حديث صحيح، انفرد بإخراجه البخاري.

واسم أبي الصديق: بكر بن عمرو.

قرأتُ على قاضي القضاة أبي صالح نصر بن عبدالرزاق بن عبدالقادر الجيلي الحنبلي رحمه الله، أخبرتكم شهدة بنت أحمد بن الفرج فأقرَّ به، حدثنا أبو الفضل محمد بن عبد السلام الأنصاري، حدثنا الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٩٥ ح٢٨٤٥)، ومسلم (٤/ ١٩٤١ ح٢٤٩٤).

(٢) في الأصل: شعبة. والتصويب من مسند أحمد (٣/ ١٣)، وسعيد هذا هو ابن أبي عروبة.

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٩٤ ح٦١٧٠)، وأحمد (٣/ ١٣ ح١١١١٠).

الخوارزمي البرقاني، سمعت أبا القاسم الأبندوني الجرجاني(١) يقول: أخبرني محمد بن سعيد بن هلال الرسعني(٢)، حدثنا المعافى بن سليمان(٣)، حدثنا فليح(٤)، عن هلال بن علي(٥)، عن عبدالرحمن بن أبي عمرة(٦)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة من أمتي تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على إثْرهم كأحسن كوكب دُرّي في السماء إضاءة، قلوبهم على قلبٍ واحد، لا تباغض بينهم ولا تحاسد، لكل امرئ منهم زوجتان من الحور العين يُرى مخّ سوقهما من

---

(١) عبد الله بن إبراهيم بن يوسف الجرجاني، أبو القاسم الأبندوني، وآبندون من قرى جرجان، نزل بغداد وحدّث بها، وكان ثقةً ثبتاً، له تصانيف، وكان عسراً في الحديث، مات سنة ثمان وستين وثلاثمائة (تذكرة الحفاظ ٣/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٢) محمد بن سعيد بن هلال الرسعني ابن البناء، تُكُلِّم فيه لدخوله في أعمال الظَّلَمَة، وكان يعمل في المتقدم أعمال السلطان من البندر وغيرها، وإلى هذا أشار أبو عروبة بقوله: ليس بمؤتمن في نفسه (ميزان الاعتدال ٦/ ١٦٨، والمغني في الضعفاء ٢/ ٥٨٦).

(٣) المعافا بن سليمان الجزري، أبو محمد الرسعني، ثقة صدوق، مات سنة أربع وثلاثين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١١/ ١٢١-١٢٢، وتهذيب التهذيب ١٠/ ١٧٩، والتقريب ص:٥٣٧).

(٤) فليح بن سليمان بن أبي المغيرة الخزاعي أو الأسلمي، أبو يحيى المدني، مولى آل زيد بن الخطاب، ويقال: فليح لقب، واسمه عبد الملك، صدوق كثير الخطأ، مات سنة ثمان وستين ومائة (تهذيب التهذيب ٨/ ٢٧٢-٢٧٣، والتقريب ص:٤٤٨).

(٥) هو هلال بن علي بن أسامة، ويقال له: هلال بن أبي ميمونة، العامري المدني، مولى آل عامر بن لؤي، ثقة مشهور. قال النسائي: ليس به بأس، وقال أبو حاتم: شيخ يكتب حديثه. مات سنة بضع وعشرين ومائة (سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٥-٢٦٦).

(٦) عبد الرحمن بن أبي عمرة عمرو بن محصن الأنصاري النجاري، من أهل المدينة، ثقة كثير الحديث، (تهذيب التهذيب ٦/ ٢١٩، والثقات ٥/ ٩١).

وراء العظم»[1]. هذا حديث صحيح أخرجه البخاري عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن فليح، عن أبيه، وكأنني سمعته من طريق البخاري من أبي الوقت شيخ شيوخنا.

وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين، فيذهب الله تعالى ما في قلوبهم من غل وغيره مما كان في الدنيا، ثم يدخلون إلى العين الأخرى فيغتسلون منها، فتشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم[2].

قوله تعالى: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ في محل الحال من الضمير «في صدورهم». ويجوز أن يكون إخباراً عن صفة حالهم، فيكون كلاماً مستأنفاً[3].

﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ قال سفيان الثوري: معناه: الحمد لله الذي هدانا لعملٍ هذا ثوابه[4].

قال علي عليه السلام: تستقبلهم الولدان كأنهم لؤلؤ منثور، فيطوفون بهم كإطافتهم بالحميم جاء من الغَيْبة، ويُبشرونهم بما أَعَدَّ الله تعالى لهم، ويذهبون إلى أزواجهم فيبشرونهنّ فيستخفهن الفرح، فيقمن على أسكفة الباب فيقلن: أنت رأيته أنت رأيته!! قال: فيجيء إلى منزله فينظر إلى أساسه فإذا صخره من لؤلؤ، ثم يرجع بصره، فلولا أن الله ذلله لذهب بصره، ثم ينظر أسفل من ذلك فإذا هو

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١٨٧ ح٣٠٨١).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٠٠).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٤)، والدر المصون (٣/ ٢٧١).

(٤) ذكره البغوي (٢/ ١٦١).

بالسُّرُر الموضوعة، والفرش المرفوعة، والزرابي المبثوثة، فعند ذلك قالوا: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾[١].

وقرأ ابن عامر: «ما كنا» بغير واو[٢]؛ لالتباس القصة بما قبلها.

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ كلامٌ حملهم عليه سرورهم بما صاروا إليه من الكرامة والنعيم، وإلا فقد كانوا يعلمون ذلك من قبل.

﴿ونودوا أن تلكم الجنة﴾ قال الزجاج[٣]: «أن» في موضع نصب، وهاهنا الهاء مضمرة، وهي مخففة من الثقيلة. والمعنى: نودوا بأنه تلكم الجنة[٤].

قال[٥]: والأجود عندي: أن تكون «أن» في معنى تفسير النداء[٦]، كأن المعنى: ونودوا أن تلكم الجنة، المعنى: قيل لهم: تلكم الجنة. وإنما قال: «تلكم»؛ لأنهم وُعدوا بها في الدنيا، فكأنه قيل لهم: هذه تلكم الجنة التي وعدتم بها. ويجوز أن يكونوا عاينوها فقيل لهم من قبل دخولها، إشارة إلى ما يرونه: تلكم الجنة، كما تقول لما تراه: ذلك الرجل أخوك، ولو قلت: هذا الرجل أخوك، جاز؛ لأن «هذا وهؤلاء» لما قَرُبَ منك، «وذاك وتلك» لما بَعُدَ عنك، رأيته أو لم تره.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٤-٣٥ ح٣٤٠٠٤) بأطول منه من حديث عاصم بن ضمرة، والطبري (٨/ ١٨٤). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٠١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٩)، والكشف (١/ ٤٦٤)، والنشر (٢/ ٢٦٩).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٤٠).

(٤) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٤)، والدر المصون (٣/ ٢٧٢).

(٥) أي: الزجاج.

(٦) وهو جيد؛ لأن "أن" المفسّرة تأتي بعد ما فيه معنى القول دون حروفه.

﴿أورثتموها﴾ قرأ ابن كثير ونافع وعاصم: بالإظهار، وأدغم الباقون[١]، وكذلك خلافهم في الزخرف[٢]. فمن أَظْهَرَ فعلى الأصل، وزاده قوةً؛ تباين مخرجي الثاء والتاء، ومن أدغم؛ فلتقارب المخرجين، وزاده جودةً؛ كونهما مهموسين، والثاني أقوى من الأول، فيزداد بالإدغام قوة.

والمعنى: أورثتموها من الكفار، يدل عليه ما روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد إلا وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار. فأما الكافر فإنه يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة، فذلك قوله: ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾»[٣].

فصل

قال الزمخشري[٤]: ﴿أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة.

قلت[٥]: هذا كلام خبيث تقشعر منه الجلود، فإن النعم بأسرها وإن نيطت بأسبابها الظاهرة تفضلٌ من الله. قال الله تعالى: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾

---

(١) فقرؤوا: «أورتموها» وهي قراءة أبي عمرو وابن ذكوان وهشام وحمزة والكسائي. انظر: النشر (٢/ ٢٦٩)، والحجة للفارسي (٢/ ٢٤٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨١).

(٢) في قوله تعالى: ﴿وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون﴾ (آية رقم: ٧٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨١). وذكره السيوطي في الدر (٧/ ٣٩٤) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) الكشاف (٢/ ١٠١).

(٥) أي المصنف رحمه الله.

[النحل:٥٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل منه»[١].

وأخرج الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه في كتاب الحدائق[٢] بإسناده عن جابر بن عبدالله قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: «خرج من عندي جبريل آنفاً فقال: يا محمد، والذي بعثني بالحق إن لله عبداً من عباده عَبَدَ الله خمسمائة سنة على رأس جبل عرضه [وطوله][٣] ثلاثون ذراعاً، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله له عيناً عذبة بعرض الأصبع تبضّ بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج في كل يوم رمانة فتغذيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام لصلاته، فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً، وأن لا يجعل للأرض [ولا][٤] لشيء يفسده عليه سبيلاً حتى يبعثه وهو ساجد، ففعل، ونحن نمرّ به إذا هبطنا وإذا عرجنا، فنجده في العلم: يُبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيقول له الرب: أَدخِلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يا رب بل بعملي،

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢١٤٧ ح٥٣٤٩) من حديث أبي هريرة، ومسلم (٤/ ٢١٧١ ح٢٨١٨) من حديث عائشة.

(٢) الحدائق (٣/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٣) في الأصل: بطوله. والتصويب من الحدائق (٣/ ٢٥٩).

(٤) زيادة من الحدائق (٣/ ٢٥٩).

فيقول: أَدخِلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: بل بعملي. فيقول الله للملائكة: [قايسوا][(١)] عبدي بنعمتي عليه، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نِعَمُ الجسد كلها فضلاً عليه، فيقول: [أَدخِلوا][(٢)] عبدي النار، فيُجرّ إلى النار، فينادي: رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوا عبدي، فيوقف بين يديه فيقول: يا عبدي! من خلقك ولم تَكُ شيئاً؟ فيقول: أنت يا رب. فيقول: أكان ذلك من قبلك أم برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك. فيقول: من قوّاك لعبادة خمسمائة سنة؟ فيقول: أنت يا رب. فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللُّجَّة[(٣)] وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك في كل يوم رمانة، وإنما تخرج في السنة مرة، وسألتني أن أقبضك ساجداً ففعلت [ذلك][(٤)] بك؟ فيقول: أنت يا رب. قال: ذلك برحمتي، أَدخِلوا عبدي الجنة برحمتي إياه، فنعْمَ العبدُ كنتَ يا عبدي، فأدخله الجنة. وقال جبريل: إنما الأشياء برحمة الله يا محمد»[(٥)].

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم

---

(١) في الأصل: ناقشوا. والتصويب من الحدائق، الموضع السابق.

(٢) في الأصل: أخدلوا. والتصويب من الحدائق (٣/ ٢٥٩).

(٣) قال في اللسان: لُجُّ البحر: الماء الكثير الذي لا يُرى طرفاه (لسان العرب، مادة: لجج).

(٤) زيادة من الحدائق (٣/ ٢٥٩).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٨ ح٧٦٣٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٥٠)، والحكيم الترمذي (١/ ٩٥).

بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ أي: نادوهم اغتباطاً بما أفضوا إليه من النعيم وتقريعاً لأولئك بمسيرهم إلى الجحيم، ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا﴾ على الإيمان والطاعة ﴿حقاً﴾.

وأَنْ في قوله: «أَنْ قد» مخففة من الثقيلة[1]، كقول الشاعر:

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا ... أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ[2]

وقول الآخر:

أُكَاشِرُهُ وأَعْلَمُ أن كِلانَا ... على ما سَاءَ صَاحِبُهُ حَرِيص[3]

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٤)، والدر المصون (٣/ ٢٧٢).

(٢) البيت للأعشى. انظر: ديوانه (ص:١٠٩)، وتخليص الشواهد (ص:٣٨٢)، وخزانة الأدب (٥/ ٤٢٦، ٨/ ٣٩٠، ١٠/ ٣٩٣، ١١/ ٣٥٣، ٣٥٤)، وشرح أبيات سيبويه (٢/ ٧٦)، والكتاب (٢/ ١٣٧، ٣/ ٧٤، ١٦٤، ٤٥٤)، والمحتسب (١/ ٣٠٨)، ومغني اللبيب (١/ ٣١٤)، والمقاصد النحوية (٢/ ٢٨٧)، ورصف المباني (ص:١١٥)، وشرح المفصل (٨/ ٧١)، والمقتضب (٣/ ٩)، وهمع الهوامع (١/ ١٤٢)، وشرح القصائد العشر (ص:٤٩٤)، والإنصاف (١/ ١٩٩)، وأوضح المسالك (١/ ١٧١).

(٣) البيت لعدي بن زيد، وليس في ديوانه. انظر: الكتاب (٣/ ٧٤)، ومعاني الأخفش (ص:١٩٢)، وشرح المفصل (١/ ٥٤)، والمقتضب (٣/ ٢٤١)، وحماسة البحتري (ص:١٨) ونسبه فيه لعمرو بن جابر الحنفي.

ويجوز أن تكون مفسرة، وكذلك «أن لعنة الله».

﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعصية ﴿حقاً قالوا نَعَم﴾ وقرأ الكسائي وحده: «نَعِم» بكسر العين حيث جاء[(١)]، ﴿فأذن مؤذن بينهم﴾ وهو مَلَك يأمره الله تعالى فينادي نداء يسمع أهل الجنة والنار: ﴿أن لعنةُ الله﴾. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «أنّ» بالتشديد، «لعنةَ الله» بالنصب[(٢)]. ﴿على الظالمين﴾ يعني: الكافرين.

ثم وصفهم فقال: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله... الآية﴾ وقد سبق تفسيرها.

قوله تعالى: ﴿وبينهما حجاب﴾ أي: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين حجاب، وهو السور المذكور في قوله: ﴿فضرب بينهم بسور﴾ [الحديد:١٣].

﴿وعلى الأعراف﴾ أي: أعراف الحجاب، وهي أعاليه، واحدها: عُرف، ومنه عُرْف الديك والفرس[(٣)]. قال الشاعر:

---

(١) وحجته في ذلك؛ ما رُوي في الحديث: أن رجلاً لقي النبي ﷺ بمنى، فقال: أنت الذي يزعم أنه نبي؟ فقال: نَعِمْ -بكسر العين-. وروي أيضاً أن عمر سأل رجلاً شيئاً فقال: نَعَمْ. فقال: قل: نَعِمْ، إنما النَّعَم الإبل. انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٢)، والكشف (١/ ٤٦٢)، والنشر (٢/ ٢٦٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٣٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٣)، والكشف (١/ ٤٦٣)، والنشر (٢/ ٢٦٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨١).

(٣) انظر: لسان العرب (مادة: عرف).

ورثت بناء آباء كرام علوا بالمجد أعراف البناء[١]

وقال أبو هريرة: هي جبال بين الجنة والنار، فهم على أعرافها[٢].

﴿رجال﴾ قال ابن مسعود وحذيفة وابن عباس وجمهور العلماء: هم قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار وقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة[٣]. ويشهد بصحة هذا ما روي عن النبي ﷺ «أنهم قوم قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم»[٤].

ويندرج فيه قول إبراهيم: هم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم، أو أمهاتهم دون آبائهم[٥].

وروي عن ابن عباس: أنهم أولاد الزنا[٦].

وقيل: إنهم أولاد المشركين[٧].

وقيل: إنهم قوم عملوا لله لكنهم راؤوا في أعمالهم[٨].

وقال الحسن ومجاهد: أصحاب الأعراف رجال صالحون[٩].

---

(١) انظر البيت في: زاد المسير (٣/ ٢٠٥).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٥) كلاهما عن حذيفة. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٢) وعزاه لابن جرير عن حذيفة.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٥/ ١٤٣ ح٩٥٤). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٣).

(٥) زاد المسير (٣/ ٢٠٦).

(٦) زاد المسير (٣/ ٢٠٥).

(٧) زاد المسير (٣/ ٢٠٦).

(٨) مثل السابق.

(٩) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٦)، وهناد في الزهد (١/ ١٥٢ ح٢٠٣) كلهم عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٦) وعزاه لابن أبي شيبة وهناد وابن المنذر وابن =

فعلى هذا القول يكون الله تعالى قد أكرمهم بالإشراف على الأعراف ليعرفوا تفاوت ما بين المنزلتين ويتعجلوا السرور بالنجاة من العذاب والفوز بالثواب.

وقال أبو مجلز: هم ملائكة، فقيل له: إنهم رجال، فقال: إن الملائكة ذكور وليسوا بإناث[١].

وحكى ابن الأنباري والزجاج[٢]: أنهم أنبياء.

والأول أظهر وأكثر في التفسير.

قوله تعالى: ﴿يعرفون﴾ أي: يعرف أهل الأعراف ﴿كلاً﴾ من أهل الجنة والنار ﴿بسيماهم﴾ أي: بعلامتهم.

قال الحسن: علامة أهل النار سواد الوجوه وزرقة العيون، وعلامة أهل الجنة بياض الوجوه وحسن العيون[٣].

﴿ونادوا﴾ يعني: أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم بالتسليم عليهم.

ثم أخبر الله عز وجل عن حالهم فقال: ﴿لم يدخلوها﴾ يعني: الجنة ﴿وهم

= أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(١) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٦) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الأضداد وأبي الشيخ والبيهقي في البعث.

وردّ الطبري (٨/ ١٩٤) هذا القول بقوله: هو قول لا معنى له.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٧). وانظر: الماوردي (٢/ ٢٢٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٦) وعزاه لابن جرير.

يطمعون﴾ مبتدأ وخبر لا موضع له من الإعراب[١].

المعنى: لكنهم يطمعون في دخول الجنة.

قال الحسن: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدها بهم[٢].

وقال سعيد بن جبير: الطمع في قلوبهم؛ لأن الله سلب نور المنافقين وهم على الصراط، وبقي نورهم فلم يطفأ.

وقيل: المبتدأ والخبر في محل الحال[٣]. المعنى: لم يدخلوها طامعين في دخولها بل على يأس من ذلك.

﴿وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار﴾ يعني: حيالهم، وهو نصب على الظرف[٤].

﴿قالوا﴾ يعني: أصحاب الأعراف حين عاينوا قبح منظر أهل النار، تعوذاً بالله من مثل حالهم ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

فعلى هذا؛ يكون التسليم على أهل الجنة والدعاء بالنجاة من عذاب النار إذا نظروا إلى أهلها بعد دخول الفريقين إلى الجنة والنار.

وإن قلنا إن أصحاب الأعراف رجالٌ صالحون أو ملائكة أو أنبياء، فالحكمة

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٧٥).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٨٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٦) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٥)، والدر المصون (٣/ ٢٧٥).

(٤) مثل السابق.

في جعلهم على الأعراف؛ ليبشروا أهل الجنة ويوبخوا أهل النار.

وقال ابن عباس في رواية الضحاك: الأعراف: موضع عال من الصراط، عليه العباس، وحمزة، وعلي، وجعفر ذو الجناحين عليهم السلام، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه [ومبغضيهم][(١)] بسواد الوجوه[(٢)].

ويجوز على هذا القول أن تكون هذه السيماء لأهل الجنة والنار قبيل الدخول، ألا تراه يقول: ﴿يعرفون كلاً بسيماهم﴾ فلو كان ذلك بعد استقرار كل فريق في مستقره لم يحتاجوا إلى السيماء، فيكون ضمير الفاعل في قوله: "لم يدخلوها" راجعاً إلى جميع أهل الجنة وإلى الصالحين أو الأنبياء الذين هم على الأعراف، وهم جميعهم يطمعون في دخولها.

﴿وإذا صرفت أبصارهم﴾ في الصالحين الذين هم على الأعراف ينظرون إلى النار وما أعدّ فيها للكفار، ﴿قالوا﴾ خوفاً منها وخضوعاً لله عز وجل: ﴿ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم﴾ قال ابن عباس: ينادون يا وليد بن المغيرة! يا أبا جهل بن هشام! يا عاص بن وائل! يا أمية

(١) في الأصل: ومبغظيهم.

(٢) ذكره القرطبي (٧/ ٢١٢).

بن خلف! يا أُبيّ بن خلف! يا سائر رؤساء الكفار! ﴿ما أغنى عنكم﴾ اليوم ﴿جمعكم﴾ في الدنيا الأموال والأولاد والأتباع، ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ عن الإسلام والاستسلام لمحمد ﷺ[١].

ثم يشيرون إلى ضعفة المؤمنين؛ كصهيب، وبلال، وعمار، وخبّاب بن الأرتّ، فيقولون على وجه الإنكار والتوبيخ للكفار: ﴿أهؤلاء﴾ الضعفاء ﴿الذين أقسمتم﴾ في الدنيا ﴿لا ينالهم الله برحمة﴾ استهزاء بهم وازدراء بحالهم واستصغاراً لشأنهم.

ثم يقول الله تعالى لأصحاب الأعراف محققاً لطمعهم: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم﴾ حين يخاف أهل النار، ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ قال حذيفة: بينا أصحاب الأعراف هنالك اطلع عليهم ربهم فقال لهم: ادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم[٢].

وقال ابن عباس: أقسم أهل النار أن أصحاب الأعراف لا يدخلون الجنة[٣]، فذلك قوله: ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم ... الآية﴾.

وقيل: هو خطاب لجميع أهل الجنة.

وقيل: هو من تمام كلام أصحاب الأعراف، على معنى: استديموا الدخول،

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ١٩٠)، والحاكم (٢/ ٣٥٠ ح٣٢٤٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٢-٤٦٣) وعزاه لعبد الرزاق وسعيد بن منصور وهناد بن السري وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في البعث.

(٣) زاد المسير (٣/ ٢٠٧).

أو على معنى: ادخلوا قصوركم ومنازلكم التي أعدت لكم.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة﴾ قال ابن عباس: لما صار أصحاب الأعراف إلى الجنة، طمع أهل النار بفرج بعد اليأس فقالوا: يا رب، إن لنا قرابات من أهل الجنة، فأْذن لنا حتى نراهم ونكلمهم، فنظروا إلى قراباتهم في الجنة وما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلى قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، قد اسودّت وجوههم، وصاروا خَلْقاً آخر، فنادى أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وعرّفوهم قراباتهم[(١)]: ﴿أن أفيضوا علينا من الماء﴾ يعنون: الشراب ﴿أو مما رزقكم الله﴾.

قال السدي وابن زيد: يعنون: الطعام[(٢)].

فعلى هذا هو مثل قول الشاعر:

ورأيتُ زَوْجَكِ في الوَغَى مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحا[(٣)]

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٧٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٠٨).

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٩١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٦٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) البيت لعبدالله بن الزبعرى. انظر: الخصائص (٢/ ٤٣١)، وأمالي ابن الشجري (٢/ ٣٢١)، =

وقول الآخر:

وعَلَفْتُها تِبْناً وماءً بَارِداً ....[1]

وقد سبق تقدير مثله.

ويجوز أن يكون المعنى: أفيضوا علينا من الماء، أو أفيضوا علينا مما رزقكم الله من سائر الأشربة غير الماء التي يحسن إطلاق الإفاضة عليها.

وقال الزجاج[2]: أَعْلَمَ اللهُ عز وجل أن ابن آدم غير مُستغنٍ عن الطعام والشراب وإن كان معذّباً، وهو قول عامة المفسرين.

فإن قيل: كيف سألوا الممتنع وهو تنعّمهم بما اختص به أهل الجنة؟

قلت: ما هذا بأول أطماعهم الكاذبة، وأمانيهم الخائبة، فإنهم مع إياسهم وقنوطهم يستغيثون من شدة عذابهم: ﴿يا مالك ليقض علينا ربك﴾ [الزخرف:٧٧] وينادون: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا

= والإنصاف (٢/ ٦١٢)، وشرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٥٠)، والكامل (١/ ٣٣٤)، ومجاز القرآن (٢/ ٦٨)، وتأويل المشكل (ص:٢١٤)، وشرح القصائد العشر (ص:٢٤٧)، والمقتضب (٢/ ٥٠)، والطبري (١/ ٦١)، والقرطبي (٦/ ٩٥)، والبغوي (٣/ ٣٦٣)، وزاد المسير (٨/ ١٣٨).

(١) صدر بيت لذي الرمة، وعجزه: (حتى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْناها). انظر ملحقات ديوانه (٣/ ١٨٦٢)، ومعاني الفراء (١/ ١٤ن ٣/ ١٢٤)، وتأويل المشكل (ص:٢١٣)، والخصائص (٢/ ٤٣١)، وشرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٨)، والإنصاف (٢/ ٦١٣)، وأوضح المسالك (١/ ٢٩٨)، والخزانة (١/ ٤٩٩)، والهمع (٢/ ١٣٠)، والعيني (٣/ ١٠١)، وشرح المفضليات (١/ ١٢٦)، وأمالي ابن الشجري (٢/ ٣٢١)، واللسان (مادة: قلد).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٤٤).

أخرجنا منها﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٧]، وهذا شأن المُتَجَنّ، يتعلَّل ما لا يجدي عليه نفعاً، ويستغيث بمن لا يستطيع عنه دفعاً.

﴿قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ يعني: الطعام والشراب في الآخرة على الكافرين في الدنيا، وهذا تحريم منع [١] لا تحريم تعبد وتكليف.

ثم وصف الكافرين فقال: ﴿الذين اتخذوا دينهم﴾ يعني: دينهم الذي شرع لهم وأُمروا بالاعتصام به، ﴿لهواً ولعباً﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد: المستهزئين [٢].

وقيل: اتخذوا دينهم الذي كانوا عليه من أمر البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وغير ذلك من الخصال المنكرة شرعاً وعقلاً.

﴿فاليوم ننساهم﴾ أي: نتركهم في العذاب أو نفعل بهم فعل الناسين، ﴿كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ أهملوه ولم يستعدوا للقائه كفراً به واستخفافاً بشأنه.

وقد روى أبو هريرة وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟

---

(١) كقول القائل:

حَرامٌ على عَيْنَيّ أَنْ تَطْعَمَا الكَرَى ....

(انظر: البحر المحيط ٤/ ٣٠٧). وقال الآلوسي (٨/ ١٢٦): أي منع كلا منهما، أو منعهما منع المحرم عن المكلف، فلا سبيل إلى ذلك قطعاً ولا يحمل على معناه الشائع، لأن الدار ليست بدار تكليف.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٧٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٠٩).

فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»[١].

قال الترمذي: هذا حديث صحيح غريب.

و«ما» في قوله: ﴿وما كانوا﴾ في موضع جر عطفاً على «ما» التي قبلها[٢].

والمعنى: وما كانوا بآياتنا التي ظهرت دلائل إعجازها وبهرت الفصحاء بدائع حقائقها وأساليب مجازها، ﴿يجحدون﴾ أي: ينكرونها مع العلم بصحتها.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتاب﴾ وهو القرآن، ﴿فصّلناه على علم﴾ أي: بينا أحكامه ومواعظه.

«على علم»: في محل الحال من ضمير الفاعل في «فصّلناه»[٣].

والمعنى: على علم منا بما يصلحكم، أو على علم بما فصلناه، فجاء سليماً قوياً غير ذي عوج، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٦١٩ ح٢٤٢٨).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٧٨).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٥)، والدر المصون (٣/ ٢٧٨).

وقرأ جماعة -منهم: ابن السميفع-: «فَضَّلْنَاه»[١]، على سائر الكتب.

﴿هدى ورحمة﴾ حالان من المفعول في «فَصَّلْنَاه»[٢].

قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا تأويله﴾ أي: هل ينظرون إلا عاقبة ما وعدهم به من العذاب والعقاب والحساب وبعث الأجساد يوم المعاد.

﴿يوم يأتي تأويله﴾ وهو يوم القيامة، ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ وهم الذين تقدم ذكرهم، ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: بالصحة والصدق، وهو اعترافٌ حملهم عليه فرط ما عندهم من الندامة، ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾ قالوا ذلك حين رأوا انتفاع الموحدين الذين عذبوا بذنوبهم الذي كانت عليهم، ثم أخرجوا بالشفاعة، ﴿أو نرد﴾ أي: أو هل [نرد][٣] إلى الدنيا ﴿فنعمل﴾ جواب الاستفهام بالفاء[٤].

وقرأ ابن أبي إسحاق: «أو نُردَّ» بالنصب، عطفاً على "فيشفعوا لنا"[٥]، أو تكون «أو» بمعنى حتى.

وقرأ الحسن: بنصب «نُردُّ»، ورفع «فنعملَ»[٦]، أي: فنحن نعمل ﴿غير الذي كنا نعمل﴾.

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢١٠)، والدر المصون (٣/ ٢٧٨).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٦)، والدر المصون (٣/ ٢٧٩).

(٣) في الأصل: ترد.

(٤) انظر التبيان (١/ ٢٧٦)، والدر المصون (٣/ ٢٧٩).

(٥) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٠٨)، والدر المصون (٣/ ٢٧٩).

(٦) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٥).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ في مقدار ستة أيام؛ لأن اليوم عبارة عن الزمان الكائن من طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن إذ ذاك شمس ولا سماء، ولا فلك دوار، ولا ليل ولا نهار.

وقد روي عن ابن عباس: أن مقدار كل يوم من الستة: ألف سنة. وإليه ذهب كعب ومجاهد والضحاك(١).

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه(٢): ولو قال قائل إنها كأيام الدنيا كان قوله بعيداً، من وجهين:

أحدهما: خلاف الآثار.

والثاني: الذي يتوهمه المتوهم من الإبطاء في ستة آلاف سنة يتوهم في ستة أيام عند تصفح قوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [يس:٨٢].

قلت: وقد قيل أنها كأيام الدنيا، وهو الذي يقوى في نظري. ويدل على صحته وجوه:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٦١ ح٣٥٨٩٤)، والطبري (٨/ ٢٠٥) كلاهما عن مجاهد، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٩٦) عن ابن عباس. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٧٢) وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد.

(٢) زاد المسير (٣/ ٢١١-٢١٢).

أحدها: ما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: «أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل»(١).

وجه الحجة من الحديث: أنه ﷺ أخبر بأن الله تعالى خلق المخلوقات المذكورة في هذه الأيام، فإما أن يريد هذه الأيام التي نعرفها أو زماناً يماثلها في قدرها، على معنى: خلق الله التربة في مثل يوم السبت، وكذلك التقدير في سائر الأيام، وأياً ما كان فمقصودنا حاصل.

الثاني: أن الذي ذكرناه هو المتبادر إلى الأذهان والأفهام عند إطلاق الأيام، وهو الظاهر فيجب المصير إليه ما لم يُصرف عنه دليل نقلي أو عقلي. وقول بعض العلماء معارض بمثله.

الثالث: أن المقصود تعريف العباد مقدار زمن الخلق بما يتعارفونه من الأزمان المعبّر عنها بالأيام، فوجب صرف اللفظ إلى ما يعرفونه.

الرابع: أنه سبحانه وتعالى نبّه عباده بما ذكره على عظيم قدرته جلّت عظمته. ومعقولٌ أن حمل الأيام على ما نتعارفه أدل على القدرة العظيمة من حملها على ستة آلاف سنة.

الخامس: قوله تعالى في موضع آخر: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٤٩ ح٢٧٨٩).

بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق:٣٨] أي: نصب وتعب، نفى سبحانه وتعالى عن نفسه اللغوب حين ذكر ما دلّ على عظيم اقتداره وبديع صنعته من خلق السموات والأرض في ستة أيام، ولا مرية أن هذا المعنى بالأيام المعلومة أشبه.

فإن قيل: ما الحكمة في إنشاء الخلق في هذا الزمن المتطاول، والله تعالى قادر على إيجاده في أقرب الأزمان؟

قلت: فيه حِكَم؛ منها: إظهار عظمته للملائكة بما يبدي في كل يوم من عجائب قدرته وبدائع صنعته ولطائف حكمته، وتنبيههم على شرف من ابتدع هذه المخلوقات لأجلهم، واخترع هذه المصنوعات لمصالحهم، فإن إنشاء هذه الأشياء شيئاً فشيئاً أبلغ في الحكمة وأوقع في الصدور من وقوعها جملة واحدة.

ومنها: تعليم العباد الرفق والتثبت في الأمور؛ لأنه إذا تثبت من لا يجوز تطرق الزلل إليه، فتثبت من يجوز عليه أولى.

قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ قال الخليل بن أحمد: العرش: السرير، وكل سرير لملك يسمى عرشاً[١].

قال مجاهد: ما السموات والأرض في العرش إلا مثل حلقةٍ بأرض فلاة[٢].

وقال كعب: إن السموات والأرض في العرش كالقنديل معلقاً بين السماء

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٣٥) وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

والأرض[١].

وقيل: إن العرش ياقوتة حمراء[٢].

وضلّ قوم فقالوا: العرش بمعنى: المُلْك[٣]، وهو قول يشهد ببطلانه الكتاب والسنة والإجماع واللغة، وقد ذكر أمية بن أبي الصلت في شعره فقال:

احمدوا الله فهو للحمد أهلٌ ربُّنا في السماء أمسى كبيرا

بالبناء الأعلى الذي سبق النا س، وسوَّى فوق السماء سريرا

شَرْجَعاً[٤] لا ينالُه ناظر العَيْـ ـن، ترى دونه الملائكُ صُورا[٥]

يشير إلى معنى قوله: ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش﴾ [الزمر:٧٥].

فصل

مذهب أهل الحق في هذه الآية وأمثالها من آيات الصفات وأخبار الصفات: الإقرار والإيراد، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل. وإلى هذا وأمثاله أشار النبي ﷺ بقوله: «وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تبحثوا عنها»[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١٢)، والسيوطي في الدر (٤/ ٣٣٥) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٤٩٧، ٦/ ١٩٢٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨١ ح٢٦) كلاهما من حديث سعد الطائي. وانظر: زاد المسير (٣/ ٢١٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٣٣٤) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ في العظمة عن سعد الطائي.

(٣) انظر: الماوردي (٢/ ٢٣٠)، وزاد المسير (٣/ ٢١٣).

(٤) الشَّرْجَعُ: الطويل (لسان العرب، مادة: شرجع).

(٥) انظر الأبيات في: تأويل مختلف الحديث (١/ ٦٧، ٢٧٣)، وزاد المسير (٣/ ٢١٢).

(٦) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢)، والدارقطني (٤/ ١٨٤).

وقيل للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: كيف استوى؟ فقال: الكيف مجهول، والاستواء معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة[١].

ولو استقصيت ما ورد في الزجر عن الخوض في آيات الصفات عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الأئمة الأربعة وغيرهم لطال ذلك، ويكفي الإنسان في هذا الثابت.

ولك قول الشافعي رضي الله عنه: آمنت بالله وما جاء من عند الله على مراد الله، وآمنت برسول الله ﷺ وما جاء عن رسول الله ﷺ على مراد رسول الله ﷺ[٢].

فإن قيل: فما تقول فيما روي عن الفراء وأبي العباس والزجاج: أن المعنى: عمد إلى خلق العرش وأقبل إليه بعد خلق السموات والأرض، وقول قوم: أن استوى بمعنى: استقر، وقول بعضهم: أنه بمعنى: استولى[٣]، وأنشدوا فيما زعموا قول الشاعر:

حَتَّى اسْتَوى بِشْرٌ عَلى العِرَاق ... مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ ودَمٍ مِهْرَاقِ[٤]

وقول الآخر:

---

(١) انظر: البغوي (٢/ ١٦٥)، والقرطبي (١/ ٢٥٤)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٠-٣١١).

(٢) انظر: ذم التأويل (ص:١١، ٤٤).

(٣) وهو قول المعتزلة وجماعة من المتكلمين. انظر: الماوردي (٢/ ٢٢٩)، والبغوي (٢/ ١٦٥)، وزاد المسير (٣/ ٢١٣).

(٤) البيت للبعيث، وهو خداش بن بشر. انظر البيت في: رصف المباني (ص:٤٣١)، والقرطبي (٧/ ٢٢٠)، والوسيط (٢/ ٣٧٦)، وزاد المسير (٣/ ٢١٣)، والدر المصون (١/ ١٧٢)، وروح المعاني (٨/ ١٣٥)، والماوردي (٢/ ٢٢٩).

هُمَا اسْتَوَيَا بِفَضْلِهِمَا جَمِيعاً عَلَى سُرُرِ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ زُورِ[(١)]

قلت: أما قول أهل اللغة؛ فغايته أن العرب تستعمل هذه الكلمة بالمعنى الذي ذكروه ثمّ، وهو مسلَّم، فلم قالوا بأنه هاهنا هو المراد مع تجويز غيره من المعاني، ولأن قالوا بأنه معنى جائز الإرادة فيكون مراداً فعارضهم بمثله.

وأما قول الذين قالوا أنه بمعنى: استقر، فنقول لهم: ما معنى الاستقرار هاهنا؟ فإن فَسَّره بالمعنى المتبادر إلى الأفهام، فلا يخفى ما في ذلك من المحذور، حيث أثبتوا لله صفة لم ينطق بها كتابٌ ولا سُنَّة، ولم يساعد عليها دليل العقل، وإن لم يُفَسِّروه بالمعنى المتبادر إلى الأفهام، فلا يخلو: إما أن يفسّروا الاستقرار بشيء معلوم أو لا، وإن فسروه بشيء معلوم وَرَدَ عليهم من الكلام ما ورد عليهم في تفسير الاستقرار بالمعنى المتبادر إلى الأفهام من كونهم أثبتوا لله صفة من غير كتاب ولا سُنَّة، وإن لم يفسروه بشيء فليقتصروا أولاً على تلاوة الآية، والإيمان بالاستواء على المعنى الذي أراده الله كما قلنا.

وأما قول الذين قالوا أنه بمعنى: استولى، فغير صحيح من جهة نقل اللغة ومن جهة المعنى.

قال ابن الأعرابي: العرب لا تعرف استوى بمعنى استولى، ومن قال ذلك فقد أعظم[(٢)].

وقال ابن فارس: البيتان لا يعرف قائلها[(٣)].

---

(١) البيت في: البحر المحيط (٤/ ٣١٠)، وزاد المسير (٣/ ٢١٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٣١٠)، وزاد المسير (٣/ ٢١٣).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٢١٣).

وقال جماعة من حُذَّاق العلماء: إنما يقال: استولى فلان على كذا؛ إذا كان بعيداً عنه غير متمكن منه، [ثم تمكن][١] منه، والله تعالى لم يزل مستولياً على الأشياء[٢].

قال الأستاذ أبو إسحاق الثعلبي رحمه الله[٣]: قال أهل الحق من المتكلمين: أحدث الله فعلاً سمّاه: استواء، وهو كالإتيان والمجيء والنزول، كلها من صفات أفعاله.

سأل رجل الأوزاعي عن قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه:٥] فقال: هو على العرش كما وصف نفسه، وإني لأراك رجلاً ضالاً.

قال الثعلبي[٤]: وبلغني أن رجلاً سأل إسحاق بن إبراهيم الحنظلي فقال: كيف استوى على العرش؟ أقائم هو أم قاعد؟ فقال: يا هذا إنما يقعد من يملّ القيام، ويقوم من يملّ القعود، وغير هذا أولى بك أن تسأل عنه.

قال الشريف القاضي أبو علي بن أبي موسى الهاشمي -من علمائنا- رضي الله عنه: اختلف أصحابنا هل الاستواء من صفات الذات أو من صفات الفعل؟ على طريقين:

منهم: من قال إنه من صفات الفعل، غير أنه لا يعلم كيفيته، ولا نقول أنه انتقال من مكان إلى مكان، ولكنا نسلمه ونقول فيه كما نقول في حديث النزول.

ومنهم من قال: إنه من صفات الذات، لم يزل مستوياً قبل خلق العرش من

---

(١) في الأصل: فلم يتمكن. والمثبت من زاد المسير (٣/ ٢١٣).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٢١٣).

(٣) الثعلبي (٤/ ٢٣٩).

(٤) الثعلبي، الموضع السابق.

غير تكييف.

ومن أصحابنا من تأول الاستواء على معنى الارتفاع.

قال الشريف رحمه الله: فأنا لا أقول في ذلك إلا ما قال أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه: استوى كما قال، بلا حَدٍّ ولا كيف.

قلت: وعلى هذا القول الذي قاله الشريف وارتضاه، وجدت علماءنا وأشياخنا الذين بالشام والعراق، وله نعتقد، وعليه نعتمد، وبه نقول.

وقد صنّف شيخنا الإمام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي كتاباً سمعناه عليه، يخص هذه المسألة، وجمع فيه ما صح في الأخبار والآثار الدالة على أن الله تعالى مستوي على عرشه فوق سبع سماواته، وذكر فيه ما لا يجد المسلم المُتَّبع لشريعة محمد ﷺ بُدّاً من الانقياد إلى تسليمه والإيمان به، فمن أراد الوقوف على دلائلنا السمعية وبراهيننا القطعية فليقف عليه؛ ليستبين له الصواب، ويعرف المبتدع من المتبع للسنة والكتاب. نسأل الله أن يُعافينا مما ابتُلي به فرق الضلال من أمراض الشك في عقائدهم، وأن يُثبت قلوبنا على سنة نبيه، وأن يُلهمنا العمل بكتابه، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار﴾ وقرأ أهل الكوفة إلا حفصاً: «يُغَشِّي» بالتشديد. وقرأ الباقون: بالتخفيف[1]، وكذلك في الرعد[2].

والمعنى: يلبس الليل النهار حتى يذهب بضيائه، أو يلبس النهار الليل حتى

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٤)، والكشف (١/ ٤٦٤)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٦٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٥)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٢).

(٢) عند الآية رقم: ٣.

يذهب بظلامه، فإن اللفظ يحتمل المعنيين، والأول أكثر وأشهر عند علماء التفسير.

قال أبو علي الفارسي(١): إنما لم يقل: يغشي النهار الليل؛ لأنه معلوم من فحوى الكلام، كقوله: ﴿سرابيل تقيكم الحر﴾ [النحل:٨١].

﴿يطلبه حثيثاً﴾، سريعاً من غير فتور، ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات﴾ رفعهنَّ ابن عامر على الاستئناف، ونصبهنَّ الباقون على النسق(٢)، تقديره: خلق السموات وخلق هذه الأشياء، ونصب «مسخرات» على الحال(٣)، والمعنى: مُذلَّلات لما يراد منهن، ﴿بأمره ألا له الخلق﴾ فله تسخيره وتدبيره، ﴿والأمر﴾ فله قضاؤه وتقديره.

وقيل: المعنى: ألا إليه إعادة الخلق وعليه مجازاتهم.

﴿تبارك الله﴾ قال الضحاك: تَعَظَّمَ(٤).

وقال مجاهد: تَمَجَّدَ(٥).

وقال أبو العباس: «تبارك الله»: ارتفع، والمتبارك: المرتفع(٦).

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤١).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٤)، والكشف (١/ ٤٦٥)، والنشر (٢/ ٢٦٩)، والإتحاف (ص:٢٢٥)، والسبعة (ص:٢٨٢-٢٨٣).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٨١).

(٤) ذكره البغوي (٣/ ٣٦٠).

(٥) ذكره الآلوسي في: روح المعاني (١٨/ ٢٣٠) من قول الخليل.

(٦) الوسيط (٢/ ٣٧٦)، وزاد المسير (٣/ ٢١٤). وقال الأزهري: تبارك: تعالى وتعاظم وارتفع (انظر: تهذيب اللغة ١٠/ ٢٣٠).

وقال ابن قتيبة والزجاج[1]: تفاعلَ، من البَرَكَة.

واعلم أن أصل البركة: زيادة الخير وكثرته. فقوله: "تبارك الله" يحتمل معنيين:

أحدهما: تزايد خيره وتكاثر.

والثاني: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله، وإلى هذين المعنيين تؤول أقوال المفسرين.

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً﴾ انتصبا على المصدر أو الحال[2]، بمعنى: ذوي تضرع وخفية، وكذلك ﴿خوفاً وطمعاً﴾.

والتضرع: التذلل والخضوع.

والمعنى: سلوا ربكم واطلبوا منه ما يصلحكم في الدنيا والآخرة متضرعين متملّقين محقين ذلك.

قال الحسن البصري رضي الله عنه: إن الله يحب القلب التقي والدعاء الخفي، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر، فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان، إلا همساً بينهم وبين

---

(١) معاني الزجاج (٤/ ٥٧).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٦)، والدر المصون (٣/ ٢٨٢).

ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً﴾، وأن الله تعالى ذكر عبداً صالحاً ورضي فعله فقال تعالى: ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾[1] [مريم:٣].

أخبرنا حنبل بن عبدالله بن الفرج كتابة، أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن الحصين، أخبرنا أبو علي ابن المذهب، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي، حدثنا عبدالله بن أحمد، حدثني أبي، حدثنا عبدالوهاب الثقفي، حدثنا خالد الحذاء، عن أبي عثمان النهدي، عن أبي موسى الأشعري قال: «كنا مع النبي ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نهبط وادياً، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس! أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. يا عبدالله بن قيس: ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»[2]. هذا حديث متفق على صحته، أخرجه البخاري عن محمد بن المقاتل، عن ابن المبارك. وأخرجه مسلم عن ابن راهويه، عن عبدالوهاب، كلاهما عن خالد الحذاء.

قوله تعالى: ﴿إنه لا يحب المعتدين﴾ يعني: ذوي الاعتداء في الدعاء؛ كاللاعنين والداعين بالشر للمسلمين.

وقال ابن جريج: الاعتداء هاهنا: رفع الصوت[3].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٦-٢٠٧)، وابن المبارك في الزهد (ص:٤٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٧٦) وعزاه لابن المبارك وابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤٣٧ ح٦٢٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٧ ح٢٧٠٤)، وأحمد (٤/ ٤٠٢).

(٣) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٧٦) وعزاه لابن جرير.

وقال أبو مجلز: هو أن يسأل ما لا يستحقه من منازل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[(١)].

وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أنه سمع ابناً له يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحواً من ذلك، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها، فقال: لقد سألت الله خيراً كثيراً، وتعوذت بالله من شر كثير، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون قوم يعتدون في الدعاء وقرأ هذه الآية: ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ وإن بحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل»[(٢)].

قوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ يعني: بالكفر والمعاصي وسفك الدماء، ﴿بعد إصلاحها﴾ يعني: بعد إصلاح الله إياها بإرسال الأنبياء وبيان الشرائع. هذا قول جمهور المفسرين.

وقال عطية: لا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم[(٣)].

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٠٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٧٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٧٢ ح١٤٨٣).

(٣) الوسيط (٢/ ٣٧٧)، وزاد المسير (٣/ ٢١٥).

قال أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ٣١٣): هذا نهي عن إيقاع الفساد في الأرض، وإدخال ماهيّته في الوجود، فيتعلق بجميع أنواعه من إفساد النفوس والأنساب والأموال والعقول والديان. وقال: وما رُوي عن المفسرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح، ينبغي أن يحمل ذلك على =

فعلى هذا معنى قوله: "بعد إصلاحها": بعد إصلاح الله إياها بالمطر والخصب.

﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ قال ابن عباس: خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه[١].

﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ قال سعيد بن جبير: الرحمة هاهنا: الثواب[٢].

وقال الزجاج[٣]: إنما قيل «قريبٌ»؛ لأن الرحمة والغفران والعفو بمعنى واحد.

وقال الأخفش[٤]: الرحمة بمعنى الإنعام، فلذلك ذَكَّر.

وقال النضر بن شميل[٥]: الرحمة مصدر، ومن حق المصادر التذكير، كقوله: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى﴾ [البقرة:٢٧٥].

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

= التمثيل، إذ ادّعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه.

(١) الوسيط (٢/ ٣٧٧) من قول ابن عباس، والطبري (٨/ ٢٠٧)، وزاد المسير (٣/ ٢١٦) بلا نسبة.

(٢) الوسيط (٢/ ٣٧٨).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٤٤).

(٤) انظر: معاني الأخفش (ص:١٩٣).

(٥) هذا قريب من قول الزجاج؛ لأن الموعظة بمعنى الوعظ. انظر: الوسيط (٢/ ٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿وهو الذي يرسل الرياح نُشُراً بين يدي رحمته﴾ قرأ الحرميان وأبو عمرو: بضم النون والشين، وافقهم ابن عامر إلا أنه أسكن الشين، ومثله حمزة والكسائي، إلا أنهما فتحا النون. وقرأ عاصم: «بُشْراً» بالباء المضمومة وسكون الشين[(١)]، وهكذا اختلافهم في التي في الفرقان[(٢)] والنمل[(٣)]، فالقراءة الأولى والثانية جمع نشور، كرسول ورُسُل. والنَّشْر: الريح الطيبة الهبوب، تهب من كل جانب[(٤)].

قال أبو عبيدة[(٥)]: النَّشْر: المتفرقة من كل جانب.

وقيل: النشور بمعنى المنشور، كالركوب بمعنى المركوب. يقال: أنشر الله الريح فنشرت، أي: أحياها فحييت.

وأما ابن عامر فإنه خفف الشين، مثل: كُتْب ورُسْل.

وأما القراءة الثالثة فمصدر، أو مصدر في موضع الحال[(٦)].

قال أبو علي[(٧)]: يحتمل النشر أن يكون خلاف الطيّ، كأنها كانت بانقطاعها

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤٢-٢٤٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٥-٢٨٦)، والكشف (١/ ٤٦٥)، والنشر لابن الجزري (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٣).

(٢) عند الآية رقم: ٤٨.

(٣) عند الآية رقم: ٦٣.

(٤) انظر: اللسان (مادة: نشر).

(٥) مجاز القرآن (١/ ٢١٧).

(٦) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٨٥).

(٧) الحجة (٢/ ٢٤٥-٢٤٦).

كالمطوية، ويحتمل أن يكون معناها المتفرقة في الوجوه، ويحتمل أن يكون من النشر الذي هو الحياة، كقول الشاعر:

.... يا عجباً للميِّت الناشر[١]

قال[٢]: وهذا هو الوجه.

وأما القراءة الرابعة فجمع بشير؛ كرغيف ورُغُف، وسكنت الشين تخفيفاً، والنصب فيها على الحال[٣]، والمعنى: أرسلها مبشرة ليجيء الغيث، وهو قوله: ﴿بين يدي رحمته حتى إذا أقلت﴾ يعني: حملت الريح.

﴿سحاباً﴾ قال الزجاج[٤]: جمع سحابة.

قال ابن فارس[٥]: سُمِّي بذلك؛ لانسحابه في الهواء.

﴿ثقالاً﴾ بما فيها من الماء، ﴿سقناه﴾ أي: سقنا السحاب، رد الكناية إلى لفظه وهو واحد، ﴿لبلد﴾ أي: إلى بلد أو لأجل بلد، ﴿ميت﴾ [بالجدب][٦]، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بالسحاب أو بالسوق أو بالبلد، ﴿فأخرجنا به﴾: يحتمل الوجوه المذكورة

---

(١) عجز بيت للأعشى، من قصيدة يهجو فيها علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل، في المنافرة التي جرت بينهما. وصدر هذا البيت: (حتى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا). انظر: ديوانه (ص:١٩١)، ومعاني الفراء (١/ ١٧٣)، ومجاز القرآن (٢/ ٧٠، ١٥٣، ٢٠٢، ٢٨٦)، والأمالي للزجاج (ص:٧٩)، وتهذيب اللغة (١١/ ٣٣٨)، والخصائص (٣/ ٣٢٥)، واللسان (مادة: نشر).

(٢) أي: أبو علي الفارسي.

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٨٥).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٤٥).

(٥) معجم مقاييس اللغة (٣/ ١٤٢).

(٦) في الأصل: بالجذب.

في الضمير الذي قبله.

والأحسن -والله أعلم- أن يكون المعنى: فأنزلنا بذلك البلد الماء، فأخرجنا بالماء ﴿من كل الثمرات كذلك﴾ أي: مثل ذلك الإخراج الذي أشرنا إليه ﴿نخرج الموتى﴾ من قبورهم أحياء، ﴿لعلكم تذكرون﴾ فتستدلوا بأحد الإخراجين على الآخر.

قال ابن عباس: يرسل الله بين النفختين مطراً كمَنِيّ الرجال، فينبت الناس في قبورهم كما نبتوا في بطون أمهاتهم[١].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم السلمي وأبو بكر الصوفي قالا: أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا أبو الحسن الداودي، أخبرنا ابن أعين، أخبرنا الفربري، حدثنا البخاري، حدثني محمد، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون. قال: أربعون يوماً. قال: أبيت. قال: أربعون شهراً. قال: أبيت. قال: أربعون سنة. قال: أبيت. قال: ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عَجْب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»[٢]. هذا حديث متفق على صحته. أخرجه مسلم عن محمد بن العلاء عن أبي معاوية أيضاً.

والعَجْب: العظم الذي في أسفل الصلب، وهو العَسِيب[٣].

قوله تعالى: ﴿والبلد الطيب﴾ أي: الأرض الطيبة التربة ﴿يخرج نباته بإذن

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢١٩، ٥/ ٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٨١ ح٤٦٥١)، ومسلم (٤/ ٢٢٧٠ ح٢٩٥٥).

(٣) انظر: اللسان (مادة: عجب).

ربه﴾ خروجاً حسناً سريعاً من غير كَدٍّ ولا تعب، ﴿والذي خبث﴾ وهو الأرض السبخة، ﴿لا يخرج إلا نكداً﴾ عسراً قليل النفع والخير، وأنشدوا:

لا تُنْجِزِ الوَعْدَ إنْ وَعَدْتَ وإنْ ... أَعْطَيْتَ أَعْطَيْتَ تافِهاً نَكِداً[(١)]

و«نكداً» حال من الضمير في «يخرج»[(٢)].

وقرأت لأبي جعفر[(٣)]: «نَكَداً»[(٤)] بفتح الكاف، على المصدر[(٥)]، أي: ذا نكد.

وقرأت لأبان عن عاصم: «لا يُخرِج» بضم الياء وكسر الراء[(٦)]، «نَكَداً» بفتح الكاف.

وفي الآية إضمار، تقديره: لا يخرج نباته إلا نكداً، أو نبات الذي خبث لا يخرج إلا نكداً.

فصل

وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر، فالبلد الطيب مثل قلب المؤمن،

---

(١) البيت لم أعرف قائله. وهو في: الطبري (٨/ ٢١١)، ومجاز القرآن (١/ ٢١٧)، والبحر المحيط (٤/ ٣١٧)، ولباب التأويل (٢/ ٢٠١)، وحاشية الشهاب (٤/ ١٧٧)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٠)، وروح المعاني (٨/ ١٤٧)، ولسان العرب (مادة: تفه).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٧)، والدر المصون (٣/ ٢٨٦).

(٣) هو يزيد بن القعقاع، أبو جعفر، القارئ المديني، مولى عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي، وهو أحد الأئمة العشرة في حروف القراءات. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة (الجرح والتعديل ٩/ ٢٨٥، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٢٨٧، والثقات ٥/ ٥٤٣-٥٤٤، ولسان الميزان ٧/ ٤٥٧، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٦١، وتقريب التهذيب ص:٦٢٩).

(٤) النشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦).

(٥) قال الزجاج (٢/ ٣٤٦): وهي قراءة أهل المدينة.

(٦) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢١٩).

إذا سمع القرآن وعاه وعقله وانتفع به، وظهرت بركته وأثره عليه، كالبلد الطيب إذا أصابه المطر، يمرع ويخصب ويحسن أثره. والبلد الخبيث مثل قلب الكافر، إذا وردت عليه المواعظ، أو سمع القرآن لا يعيه ولا يعقله، ولا ينتفع به ولا يظهر عليه أثره، كالبلد الخبيث إذا أصابه المطر، لا يحسن أثره ولا يخرج نباته.

﴿كذلك نصرف الآيات﴾ أي: مثل ذلك التصريف، ﴿نصرف الآيات﴾ نرددها ونكررها أو نكونها ونوضحها فنخرج لهم المعلومات في صور المشاهدات، ﴿لقوم يشكرون﴾ نعم الله عليهم وإحسانه إليهم.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ -وهو إدريس عليه السلام- بن مهلائيل بن يرد بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم ﷺ. وهو أول نبي بعثه الله تعالى بعد إدريس، وولد بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة، وأبوه لمك ولد في حياة آدم.

﴿فقال يا قوم اعبدوا الله﴾ وحِّدُوه ﴿ما لكم من إله غيره﴾ قرأ الكسائي:

«غَيْرِه» بالجرّ حيث وقع، وكذلك ﴿هل من خالق غير الله﴾ [فاطر:٣]، وافقه حمزة في «هل من خالق غير الله»، وقرأ الباقون بالرفع فيهما[١].

وقرأ محمد بن السميفع: «ما لكم من إله غيرَهُ» بالنصب[٢]. فالجر على اللفظ، فهو صفة لـ«إله»، والرفع على المحل؛ لأن موضع «من إله» الرفع، أو جَعَلَ «غير» بمعنى إلا، فأعربها بمثل إعراب ما يقع بعدها، وهو الرفع على البدل «من إله» على الموضع، والنصب على الاستثناء[٣].

قال الفراء[٤]: بعض بني أسد وقضاعة إذا كان معنى «غير»: إلا، نصبوها، تمّ الكلام قبلها أو لم يتم، فيقولون: ما جاءني غيرك، وما أتاني أحد غيرك. وأنشد المفضل:

لم يمنعِ الشُّرْبَ [منها][٥] غيرَ أنْ نطقتْ ... حمامةٌ في غُصُونٍ ذاتِ ألْوَان[٦]

وقال الزجاج[٧]: يكون النصب من وجهين:

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٦)، والكشف (١/ ٤٦٧)، والنشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٤).

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٧)، والدر المصون (٣/ ٢٨٧).

(٤) معاني الفراء (١/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٥) في الأصل: مني. والتصويب من مصادر البيت.

(٦) من قصيدة لأبي قيس بن رفاعة الأنصاري، في وصف ناقته. انظر: اللسان (مادة: نطق)، والقرطبي (٧/ ٢٣٤)، ومعاني الزجاج (٢/ ٣٤٩)، وروح المعاني (١٢/ ١٢٢، ١٨/ ٢٤٠، ١٩/ ٤٦، ١٧١، ٢٣/ ١٦٥). وفي كل المصادر: «ذات أوْقال» بدل: «ذات ألوان».

وأوقال: جمع وقل، وهو المقل، أي: الدوم إذا يبس.

(٧) معاني الزجاج (٢/ ٣٤٨-٣٤٩).

أحدهما: الاستثناء من غير جنسه.

الثاني: الحال من قوله: "اعبدوا الله"؛ لأن «غيره» نكرة وإن أضيف إلى المعارف.

﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة.

وقيل: يوم نزول العذاب عليهم في الدنيا إن أصرّوا على الكفر، وهو الطوفان الذي أخذهم.

﴿قال الملأ من قومه﴾ وهم أشراف رجاله، ﴿إنا لنراك في ضلال﴾ ذهاب عن طريق الصواب، ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد.

﴿قال يا قوم ليس بي ضلالة﴾ أي شيء من الضلالة، فهو أبلغ من قوله: ليس بي ضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت: ما لي تمرة.

ثم بالغ في نفي الضلال عنه بالاستدراك بما لا يجوز أن يجاء معه الضلال بوجه من الوجوه، فقال: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾.

﴿أبلغكم رسالات ربي﴾ صفة لـ«رسول»، أو كلام مستأنف[(١)].

وكان أبو عمرو يقرأ: «أُبْلِغُكُمْ» بالتخفيف حيث وقع[(٢)]؛ كقوله: ﴿لقد أبلغتكم﴾ [الأعراف:٧٩] و﴿ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ [الجن:٢٨].

ولأن كتب الأنبياء لم تنزل مفرقة كالقرآن، بل كان الكتاب ينزل جملة واحدة على الرسول عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٧)، والدر المصون (٣/ ٢٨٨).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٦-٢٨٧)، والكشف (١/ ٤٦٧)، والنشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٤).

وقرأت على شيخنا أبي البقاء اللغوي: "أَبْلِّغْكُم" بسكون الغين، من طريق الزهري عن أبي زيد عن أبي عمرو، وشدده الباقون؛ كقوله: ﴿بلِّغ ما أنزل إليك﴾ [المائدة:٦٧].

فإن قيل: الرسالة واحدة، فكيف جمع؟

قلت: أراد ما أوحي إليه في الأوقات المتطاولة والأزمان المختلفة، والمعاني المتكررة في الأوامر والنواهي والمواعظ والبشائر والنذائر، أو يريد رسالة الله إليه وإلى الأنبياء من قبله من صحف جده إدريس، وهي ثلاثون صحيفة، وصحف شيث، وهي خمسون صحيفة.

﴿وأنصح لكم﴾ بمعنى: أنصحكم، وزيدت اللام للمبالغة، ﴿وأعلم من الله﴾ من عظمته وجلاله وثوابه لمن أطاعه وعقابه لمن عصاه وانتقامه ممن خالفه ﴿ما لا تعلمون﴾.

وقيل: إنهم لم يسمعوا بقوم عذبوا قبلهم، فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح من نزول العذاب بمن عاند الرسل وأصر على معاداتهم وتكذيبهم.

قوله تعالى: ﴿أوَ عجبتم﴾ هذه واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكذبتم وعجبتم ﴿أن جاءكم﴾ أي: من أن جاءكم ﴿ذكر﴾ موعظة وبيان ﴿من ربكم على رجل﴾ أي: مع رجل، أو على لسان رجل ﴿منكم﴾ من البشر ﴿لينذركم﴾ ليعلمكم مخوفاً لكم من عاقبة كفركم ﴿ولتتقوا﴾ أي: ليوجد منكم الخشية بسبب الإنذار ﴿ولعلكم ترحمون﴾ إن اتقيتم.

﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه﴾ يريد: الذين آمنوا به واتبعوه على دينه ﴿في الفلك﴾ وهي السفينة.

ويجوز أن يكون قوله: «في الفلك» متعلقاً بـ«معه» كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك. ويجوز أن يكون متعلقاً بفعل الإنجاء، أي: أنجيناهم في السفينة[١]. ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين﴾ أي: جاهلين عُمْي البصائر. يقال: رجل عَميّ القلب، أي: جاهل، وامرأة عَمِيَة -على وزن فَعِلَة-، وقوم عَمُون، والنسبة إلى عَمٍ: عموي[٢].

قال زهير:

وَأَعْلَمُ ما في اليومِ والأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّني عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ[٣]

ونقول في ذهاب البصر: أَعْمَى، وقوم عُمْيٌ، والنسبة إليه: أَعْمَوِي[٤].

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٨٩).

(٢) انظر: اللسان (مادة: عمي).

(٣) البيت من قصيدة قالها في الصلح بين عبس وذبيان. انظر: ديوانه (ص:٢٩)، وتهذيب اللغة (٣/ ٢٤٥)، والدر المصون (٣/ ٢٨٩)، وشرح القصائد العشر للتبريزي (ص:١٥٣)، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٢٥)، واللسان (مادة: عمي)، وشرح القصائد التسع لابن النحاس (١/ ٣٥٥)، والمعلقات العشر للشنقيطي (ص:٧٩)، وروح المعاني (٨/ ١٥٤).

(٤) انظر: اللسان (مادة: عمي).

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً
فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ
وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ
ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وإلى عاد﴾ أي: وأرسلنا إلى أولاد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، وكانوا بالشِّحْر[(١)]، بوادٍ يقال له: مغيث، من أرض اليمن، فتجبّروا وعتوا وعبدوا الأوثان، فأرسل الله إليهم هود بن عبدالله بن رياح بن الخلود -بفتح الخاء المعجمة، ويروى بضمها، ويروى بالجيم المكسورة وبفتح اللام- بن عاد بن عوص بن إرم. ومن العلماء بالنسب من يقول: هو هود بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام.

---

(١) الشحر: إحدى كبريات مدن ساحل حضرموت، تقع على سطح متسع من الشاطئ الذي ينحدر تدريجياً إلى البحر، ولهذا ترسوا السفن بعيداً عنه لضحولته. وسميت الشحر بهذا الاسم؛ لأن سكانها كانوا جيلاً من المهرة يُسمون الشَّحْرَات، فحذفوا الألف وكسروا الشين. والشحر اليوم عاصمة لأكبر مديريات محافظة حضرموت، حيث تضم أربعة مراكز متباعدة مترامية الأطراف هي: الشحر، الديس والحامي، الريدة وقصيعر، غيل بن يُمَيْن (معجم البلدان والقبائل اليمنية ١/ ٨٥٢-٨٥٣).

قوله تعالى: ﴿أخاهم هوداً﴾ يريد: أخاهم في النسب. وقوله: «هوداً» عطف بيان[١].

﴿قال يا قوم﴾ إنما حذف العاطف هاهنا ولم يقل: «فقال يا قوم» كقصة نوح؛ لأنه على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾، ﴿أفلا تتقون﴾ أي: تخافون وتخشون بطش الله وانتقامه، وأن ينزل بكم من العذاب ما نزل بقوم نوح.

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ إن قيل: لم وصف الملأ هاهنا بالكفر، ولم يصف ملأ قوم نوح به؟

قلت: عنه جوابان:

أحدهما: أنه خصَّهم بالوصف بالكفر ذمّاً لهم؛ لفرط عتوهم وشدة تجبّرهم وإصرارهم على كفرهم، مع أنهم قد علموا سُنَّةَ الله في المكذّبين قبلهم، وهم قوم نوح، فكانوا أجدر منهم بالتقوى، لعلمهم بما لم يعلموه واقعاً من عذاب المكذبين.

الثاني: أن الملأ من قوم نوح كانوا كلهم كفاراً لم يؤمن منهم أحد، بخلاف الملأ من قوم عاد فإنه آمن منهم مرثد بن سعد، فوصفهم بالكفر ليخرج المؤمنون منهم.

قوله تعالى: ﴿إنا لنراك في سفاهة﴾ أي: في جهلٍ وخفةِ حلم، نسبوه إلى ذلك حيث فارق دينهم، ﴿وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ في قولك: «ما لكم من إله غيره»، وفي نزول العذاب بنا.

﴿قال يا قوم ليس بي سفاهة﴾ هذا من أحسن الآداب وألطف الأخلاق، فإنه

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٩٠).

-عليه السلام- لحلمه الراجح وحسن احتماله وجميل عشرته، لم يزدهم على نفي ما نسبوه إليه. وفي قصصه علينا إشارة إلينا بالاقتداء بأخلاق الأنبياء، والإغضاء عن مقابلة السفهاء، واسأل نيل العفو على ما عساه يصدر من جاهل يريد إنقاذه من هلكة وقع فيها.

﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾ فيما أدعوكم إليه، أمين عليه.

وقال الكلبي: كنت فيكم قبل النبوة أميناً[(١)].

ثم ذكّرهم بنعم الله عليهم تصريحاً، وحذّرهم من انتقامه منه تلويحاً، فقال: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾ يعني: استخلفكم في الأرض من بعدهم. وخلفاء: جمع خليفة، على التذكير لا على اللفظ، مثل: طريف وطرفاء. وجائز أن يكون جمع خلائف على اللفظ، مثل: طريفة وطرائف، و «إذ» مفعول به لا ظرف[(٢)].

﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾ اختلف القراء في «بسطة» هاهنا، وفي «يبسط» في البقرة[(٣)]، فقرأهما هشام وقُنْبُل وأبو عمرو وحمزة بالسين، وقرأهما الباقون بالصاد، غير أن حفصاً روي عنه الوجهان، وكلهم قرأ: «بسطة» في البقرة بالسين، وقد قرأت في «بسطة» في البقرة بالصاد لابن كثير ولحمزة من غير طرقهما المشهورة[(٤)].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٢).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٩٠).

(٣) عند الآية رقم: ٢٤٧.

(٤) انظر: الحجة للفارسي (١/ ٤٥٢-٤٥٣)، والنشر (٢/ ٢٢٨-٢٣٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦)، والسبعة في القراءات (ص:١٨٥-١٨٦).

وحجة من قرأ ذلك كله بالسين: أنه الأصل؛ لأن ما كانت الصاد فيه أصلية لا ترد إلى السين، إذ لا ينقل الحرف إلى أضعف منه، والصاد أقوى من السين بكثير؛ لاستعلائها وإطباقها. وحجة من قرأ بالصاد أقوى مما بين الحرفين من الاتفاق في معنى الاستعلاء والإطباق، فيعمل اللسان عملاً واحداً متصعداً منطبقاً بالحرفين معاً، وأكثر القراء يختارون ما عليه خط المصحف، وهو الصاد.

والبَسْطة: الفضيلة في الجسم وامتداد القامة[(١)].

قال ابن عباس: كان أطولهم مائة ذراع، وأقصرهم ستون ذراعاً[(٢)].

قال وهب: كان رأس أحدهم مثل القبة[(٣)].

ولقد رأيت مصداق ذلك وشاهدت صحته حين أرسل الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين رئيس الأصحاب محيي الدين أبا محمد يوسف بن أبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي إلى صاحب مصر، فرجع في بعض سفراته ومعه ضرس جبار من الجبارة الأول قد استخرج من بعض مدافنهم، وزنه أربعة عشر رطلاً، وقد انكسرت منه فلقة، هذا مع ما نقصه تطاول الأزمان ومرّ السنين والأحقاب عليه.

قوله تعالى: ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ يعني: نعمه الجسام من الاستخلاف وبسط الأجسام. وواحد الآلاء: إِلاَ وأَلاَ، بفتح الهمزة وكسرها، مثل: مِعا وقَفا.

﴿قالوا أجئتنا﴾ استفهام في معنى الإنكار والاستبعاد لما أمرهم به من التوحيد

(١) انظر: اللسان (مادة: بسط).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٢).

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٨٥) وعزاه لابن عساكر.

ورفض الأنداد.

فإن قيل: كأنه لم يكن بينهم حتى قالوا: «أجئتنا»؟

قلتُ: ساغ ذلك وإن كان بين أظهرهم؛ لكونه أقبل عليهم يأمرهم بما لم يعرفوه، وينهاهم عما ألفوه، منفصلاً عمّا هم عليه من الضلالة، مُتّصلاً بعالم الرسالة، أو لعله قد كان مبايناً لهم يتحنّث[١]، كما كان رسول الله ﷺ، فلما أُمِرَ بالتبليغ وكلّف أداء الرسالة جاءهم فقالوا له ذلك.

﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب، ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تدعيه من إنزاله علينا وإرسالك إلينا.

﴿قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب﴾ جعل سبحانه وتعالى المتوقع واقعاً لتحقق حصوله وقرب نزوله.

قال أبو عمرو بن العلاء: الرجس والرجز واحد، قلبت السين زاياً[٢].

قال الفراء[٣]: لعل الرجس والرجز لغتان، أبدلت السين زاياً، كما قيل للأسد: أزد.

قال ابن عباس: «رجس وغضب»: عذاب وسخط[٤].

﴿أتجادلونني في أسماء﴾ فارغة من المعاني ﴿سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ آلهة

---

(١) التحنّث: التَّعَبُّد الليالي ذوات العدد (انظر: اللسان، مادة: حنث).

(٢) انظر قول أبي عمرو هذا في: الطبري (٨/ ٢٢٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٣).

(٣) معاني الفراء (١/ ٤٨٠).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ٢٢٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥١١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٨٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وعبدتموها من دون الله، ﴿ما نزل الله بها من سلطان﴾ أي حجة وبرهان نيّر، ﴿فانتظروا﴾ أي: ارتقبوا نزول العذاب بكم، ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ ذلك لكم.

الإشارة إلى قصتهم

ذكر ابن إسحاق وغيره: أن عاداً لما تمادوا في طغيانهم وأصروا على عبادة أوثانهم، وقهروا أهل الأرض باستحكام قواهم واستفحال ملكهم وسلطانهم، بعث الله تعالى إليهم هوداً من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً، نبياً، فأمرهم بالتوحيد، ورفض الأنداد، والكفّ عن الظلم، ولم يأمرهم بشيء سوى ذلك، فكذبوه وقالوا له: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ [الشعراء:١٣٦] فحبس الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا، فبعثوا إلى مكة وفداً يستسقي، منهم: قَيْل، ولُقيم، وجلهمة -خال معاوية بن بكر-، ومرثد بن سعد -وكان يكتم إيمانه-، ولقمان بن عاد بن صد بن عاد الأكبر، فنزلوا على معاوية بن بكر سيد العمالقة، وكانت مكة شرفها الله تعالى إذ ذاك في قبضة العمالقة، وكان مع كل واحد من هؤلاء رهط من قومه، حتى بلغوا -فيما رُوي- سبعين رجلاً، فأكرمهم معاوية بن بكر -وكانوا أخواله وأصهاره-، وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان -قينتان لمعاوية بن بكر-، فلهوا عما جاؤوا له، فقال معاوية: هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء على ما هم عليه، وهم ضيفي وأكره أن أذكرهم بما جاؤوا له، فشكا ذلك إلى قينتيه الجرادتين، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به، فقال:

أَلا يا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيْنِمْ ... لعلَّ اللهَ يُسقينا غَماما

فيَسْقِي أرضَ عادٍ إنَّ عاداً ... قدْ أمْسُوا ما يُبينون الكلاما

مِنَ العطش الشديد فليسَ نرجُوا ... بـه الـشيخَ الكبـيرَ ولا الغُلامـا
وقـد كانـتْ نـساؤهمُ بخـيرٍ ... فقـدْ أمـستْ نـساؤهمُ عَيَـامَى
وإنَّ الـوحشَ يـأتيهم جِهَـاراً ... ولا يخـشى لعَـادِي سِـهَاما
وأنـتم هاهنـا فـيما اشـتهيتُم ... نهـارُكُمُ ولـيلُكُمُ التَّمَامَـا
فقـبِّحْ وفْـدُكُم مـنْ وَفْـدِ قَـوْم ... ولا لُقُّـوا التحيـةَ والـسَّلاما

فلما سمعوا ذلك قال بعضهم لبعض -وكان منزل معاوية ظاهر مكة-: ويحكم ادخلوا الحرم فاستسقوا لقومكم، فقال مرثد: والله إنكم لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سُقيتم، فأظهر إسلامه عند ذلك، فقال [جلهمة][1] حين سمع كلامه وعرف أنه قد اتبع دين هود[2]:

أبَـا سـعدٍ فإنـكَ مـن قَبِيـل ... ذَوِي كَـرَم وأمُّـكَ مـن ثمـود
أتـتْرُكَ ديـنَ آبـاءٍ كـرامٍ ... ذوي رأيٍ وتتبـعَ ديـنَ هُـود

ثم قال لمعاوية -وكان حيياً شيخاً كبيراً-: احبس عنا مرثد بن سعد فلا يقدمن معنا مكة، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا. ثم خرجوا يستسقون بمكة لعاد، فخرج مرثد بن سعد حتى أدركهم بمكة قبل أن يدعو الله بشيء مما خرجوا له. فلما انتهى قام يدعو الله ويقول: اللهم أعطني سؤلي ولا تدخلني في شيء مما يدعونك به، فلما استسقوا نشأت سحائب، بيضاء وحمراء وسوداء، فنادى منادٍ: يا قَيْل -وكان قَيْل رأس الوفد-: اختر لنفسك ولقومك واحدة منها، فقال: اخترت

---

(١) في الأصل: جهلمة.
(٢) البيتان في: الطبري (٨/ ٢١٩).

السوداء، فإنها أكثر ماءً، فنادى:

اخـــترتَ رَمَـــاداً رمْـــدِدَا لا يبقـــي مـــن آل عَـــادٍ أحَـــدَا

لا والـــــداً ولا ولـــــدَا إلا جعلـــــتُهم هَمِـــــدَا

ثم ساق الله تعالى السحابة إليهم حتى خرجت عليهم من واديهم، فلما رأوها استبشروا بها وقالوا: هذا عارض ممطرنا، وكان أول من أبصر ما فيها امرأة منهم يقال لها: مَهْدَد، فصاحت وصعقت، فقيل لها: ما رأيت؟ قالت: رأيت ريحاً فيها شهب النار، أمامها رجال يقودونها، فسخّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسوماً، واعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم منها إلا ما تلين منه الجلود وتلتذ عليه النفوس، فكانت تقلع الشجر وتهدم البيوت، ومن لم يكن في بيته هبت به الريح حتى تقطعه بالجبال، وكانت ترفع الظعن ما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة، وخرج وفد عاد من مكة فنزلوا على معاوية بن بكر، فبينما هم عنده إذ أقبل رجل على ناقة في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر، فقالوا له: أين فارقت هوداً وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر، فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به، فقالت هذيلة بنت بكر: صدق والله[1].

وذكروا: أن مرثد بن سعد، ولقمان بن عاد، وقَيْل بن عنز، حين دعوا قيل لهم: قد أُعْطيتُم مُناكم لدعائكم فاختاروا لأنفسكم، إلا أنه لا سبيل إلى الخلود ولا بد من الموت، فقال مرثد: يا رب أعطني براً وصدقاً، فأعطي ذلك. وقال قَيْل: أختار أن يصيبني ما أصاب قومي، فقيل له: الهلاك، فقال: لا أبالي، لا حاجة لي في البقاء

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٨/ ٢١٨-٢٢٠)، وتاريخه (١/ ١٣٤-١٣٦).

بعدهم، فأصابه ما أصاب قومه فهلك. وأما لقمان فقال: أعطني يا رب عمراً، فقيل له: اختر لنفسك، فاختار عمر سبعة أنسر، وكان يأخذ الفرخ حين يخرج من بيضته، فيأخذ الذَّكَر لقوته، حتى إذا مات أخذ غيره، فلم يزل يفعل ذلك حتى أتى على السابع، فكان كل نسر يعيش ثمانين سنة، فلما لم يبق غير واحد قال له ابن أخيه: يا عم ما بقي من عمرك إلا هذا النسر، فقال لقمان: هذا لُبَد، ولُبَد بلسانهم: الدهر، فلما انقضى عمر النسر طارت النسور ولم ينهض فمات، ومات لقمان[(١)].

وقد ذكر ذلك النابغة في شعره فقال:

أَضْحَتْ خَلاءً وأَضْحَى قومها احْتُمِلُوا ... أَخْنَى عليها الذي أَخْنَى على لُبَدِ[(٢)]

يريد: آخر نسور لقمان. وسنذكر إن شاء الله تعالى الريح التي أرسلت عليهم في موضعها وما جاء فيها.

ثم إن هوداً عليه السلام لحق بمكة فعبد الله بها هو وأصحابه حتى لحقوا بالله عز وجل.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) ذكره البغوي (٢/ ١٧٢-١٧٣)، والطبري في تاريخه (١/ ١٣٦-١٣٧).

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في: ديوانه (ص:٣١)، والقرطبي (١٩/ ٢٥)، ولسان العرب (مادة: لبد)، والأغاني (١١/ ٣٣)، والمستقصى في أمثال العرب (١/ ٣٧)، وتاج العروس (مادة: لبد).

تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ
ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾
قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ
ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا
تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿وإلى ثمود﴾ أي: وأرسلنا إلى ثمود، ﴿أخاهم صالحاً﴾، وثمود هاهنا: القبيلة، ولذلك لم يصرفه؛ لأنه اجتمع فيه سببان؛ وهما: التعريف والتأنيث.

وقرأ يحيى بن وثاب: «ثمودٍ» بالجر والتنوين(١)، يريد: وإلى بني ثمود. أو يريد الحي، وهو أجود، وكانوا يسكنون الحِجْر [إلى](٢) وادي القرى بين الحجاز والشام.

وصالح هو: ابن عبيد بن [آسف](٣) بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن حائر -ويقال: جاثر، بالثاء المثلثة- بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح.

(١) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٣٠)، والدر المصون (٣/ ٢٩٢).

(٢) في الأصل: وإلى.

(٣) في الأصل: أنيف. والصواب ما أثبتناه. انظر: القرطبي (٧/ ٢٣٨)، والبغوي (٢/ ١٧٤).

وقيل: سميت ثمود؛ لقلة مائها، من الثَّمْد، وهو الماء القليل[1]، وهم من العرب العاربة.

﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ أي: علامة ظاهرة شاهدة بصدقي ونبوتي، فكأنه قيل له: ما هذه البينة؟ فقال: ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ أضيفت الناقة إلى الله إضافة تكريم وتشريف؛ تفخيماً لشأنها وتعظيماً لأمرها، ولكونها جاءت من عنده تبارك وتعالى من غير فحل وطروقه.

و«آية» نصب على الحال، والعامل في الحال: ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل[2]، كأنه قيل: أشير إليها آية.

فإن قيل: هي آية لهم ولغيرهم، فلم قال: ﴿لكم آية﴾؟

قلت: المعنى لكم ولسائر الناس آية، غير أنه غلّب المخاطبون، لأنهم هم المقصودون بتكوينها، وهم الذين [اقترحوها][3].

وكان من حديثها قصة هلاكهم على ما نقله أهل العلم بالتواريخ والسير؛ كابن إسحاق، والسدي، ووهب، وغيرهم: أنه لما أهلكت عاد وتَقَضَّى أمرها، استخلف الله ثمود في الأرض، وأطال أعمارهم، وأمدّ لهم بالأموال والبنين، وكان أحدهم يبني السكن من المدر فينهدم، وهو حي مراراً، فلما طال ذلك عليهم اتخذوا من الجبال بيوتاً، فجابوها ونحتوها وسكنوها، وكانوا في سعة من معايشهم، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض، وكفروا نعمة الله، وعبدوا الأصنام،

---

(١) انظر: اللسان (مادة: ثمد).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٨)، والدر المصون (٣/ ٢٩٢).

(٣) في الأصل: اقتروحها.

فبعث الله إليهم صالحاً عليه السلام شاباً، فدعاهم إلى التوحيد، وحذّرهم وأنذرهم، حتى كبر وشَمِط[١]، فلم يتبعه إلا قليل، وتمادوا في غيّهم، واقترحوا عليه أن يخرج معهم في يوم عيد لهم، وكانوا يخرجون فيه أصنامهم، وقالوا: ندعوا آلهتنا وتدعو إلهك، فإن استجيب لنا اتبعتنا، وإن استجيب لك اتبعناك. فقال لهم صالح: نعم، فخرجوا في ذلك اليوم وخرج صالح عليه السلام، فدعوا أوثانهم وسألوها الاستجابة، فلم تجبهم إلى شيء، فاقترح جندع بن عمرو -وكان سيد قومه- على صالح أن يسأل ربه أن يخرج لهم من الكاثبة -وهي صخرة معروفة عندهم في ناحية الحِجْر- ناقة مخترجة جوفاء وبراء عشراء، -والمخترجة: المشاكلة للبخت-، فأخذ صالح عليهم الميثاق إن فعل ليصدّقن، قالوا: نعم. فصلّى صالح ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض الحامل بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله، وهم ينظرون، ثم نتجت فصيلاً يناسبها في العِظَم، فآمن به جندع ورهطه، وأراد أشراف ثمود أن يؤمنوا به ويصدقوه، فنهاهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد، والحباب صاحب أوثانهم، ورباب -وكانوا من أشراف ثمود-، وكان لجندع بن عمرو ابن عم يقال له: شهاب بن خليفة، فأراد أن يسلم، فنهاه أولئك الرهط، فأطاعهم، فقال رجل من ثمود[٢]:

وكانت عصبة من آل عمرو إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً فهمّ بأن يجيب ولو أجابا

---

(١) الشَّمَط: الشيْب، وهو بياض شعر الرأس يُخالط سواده (انظر: اللسان، مادة: شمط).

(٢) يقال له: مهوس بن عنمة بن الدميل. انظر الأبيات في: الطبري (٨/ ٢٢٦).

لأصبح صالح فيهم عزيزاً   وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

ولكن الغواة من آل حِجْر   تولوا بعد رشدهم ربابا

فلما خرجت الناقة قال لهم صالح: هذه ناقة الله، لها شربٌ ولكم شربُ يوم معلوم، فمكثت الناقة ومعها فصيلها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، فكانت تَرِدُ الماء غِبّاً(١)، فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحِجْر يقال لها: بئر الناقة، فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ويحتلبونها في يوم وِرْدها ما شاؤوا من لبن عوضاً عن الماء، فيشربون ويدّخرون حتى يملؤا [أوانيهم](٢) كلها، وكانت لا تصدر من حيث تَرِد منه لعظمها.

قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً(٣).

فَهُمْ في ذلك في رفاهية ودعة. وكانت الناقة في حمارَّة القيظ(٤) إذا تصيّفت بموضع هربت منه مواشيهم، فشقّ ذلك عليهم، فانتدّ لعقرها الشقي قدار بن سالف -وكان عزيزاً منيعاً، قصيراً، أحمر، أزرق- بتزيين امرأة منهم كثيرة المواشي، أطمعته في تزويج بنتها، -وقيل: إنه كان يهواها، فرضي ثمود أجمعين، حتى إنهم كانوا يدخلون على المرأة في خدرها فيقولون: أرضيت؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم-، وكَمَنَ لها في أصل شجرة فرماها بسهم، فانتظم به عضلة ساقها، ثم

---

(١) الغِبُّ من وِرْدِ الماء: هو أن تشرب يوماً ويوماً لا (انظر: اللسان، مادة: غبب).

(٢) في الأصل: أوانهم.

(٣) قول أبي موسى هذا أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٣٠).

(٤) حمارّة القيظ: أي شدة الحرّ (انظر: اللسان، مادة: حمر).

شد عليها بسيف فقطع عُرْقُوبها[١]، فخَرَّتْ ورَغَتْ، ثم نحرها واقتسموا لحمها وطبخوه، فجاء الخبر إلى صالح فأقبل، فأخذوا يعتذرون إليه ويقولون: إنما عقرها فلان، فقال: انظروا هل تدركون فصيلها، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب، فوجدوه قد رقى رأس جبل اسمه: قارة، فذهبوا ليأخذوه، فمنعتهم القدرة الإلهية، وخالف بينهم وبينه بأن تطاول الجبل حتى لا تناله الطير، فأقبل صالح نحوه، فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه، ثم رغا ثلاثاً، وانصدعت الصخرة فدخل فيها، وكان عقر الناقة يوم الأربعاء، فقال صالح: تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام، لكل رغوة أجل يوم. وآية ذلك: أنكم تصبحون غداة «مُؤْنِس» ووجوهكم مصفرّة، ثم تصبحون غداة «عَروبة» ووجوهكم محمرّة، ثم تصبحون غداة «شِيار» ووجوهكم مسودّة، ثم يصبحكم العذاب غداة «أول»، فأصبحوا في غداة مؤنس كأن وجوههم طُليت بالخَلُوق[٢]، وفي يوم عَروبة كأنها خضبت بالحِنّاء، وفي يوم شِيار كأنها طُليت بالقَار[٣]، فأيقنوا بالعذاب. وخرج صالح بمن آمن معه من بين أظهرهم، وتحنطوا وتكفنوا وألقوا أنفسهم بالأرض لا يدرون من أين يأتيهم العذاب، يلقون أبصارهم إلى السماء تارة، وإلى الأرض أخرى، فلما أصبحوا في اليوم الرابع وارتفع الضحى أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل

---

(١) العُرْقوب: هو ما ضمّ ملتقى الوظيفين والساقين من مآخرهما من العَصَب (اللسان، مادة: عرقب).

(٢) الخَلُوق: الزعفران (اللسان، مادة: خلق).

(٣) القارُ: هو صُعُدٌ يذاب فيستخرج منه القار، وهو شيء أسود تطلى به الإبل والسفن يمنع الماء أن يدخل (اللسان، مادة: قير).

صاعقة، فتقطعت [قلوبهم][١] في صدورهم، فهلكوا[٢].

فصل

قلت لشيخنا [أبي][٣] البقاء إمام عصره في العلوم الشرعية والأدبية: قول الشاعر[٤]:

أُؤمّلُ أَنْ أَعِيشَ وَإِنّ يَوْمِي ... لأَوّلَ أَوْ لأَهْوَنَ أو جُبارِ

أو التالي دُبَار فَإِنْ أَفُتْهُ ... فَمُؤْنِس أو عَروبة أو شِيارِ

ولا يبقى على الحدثان شخص ... ستطوينا الليالي والنهار

هل هذه الأبيات من شعر العرب؟ وما معناها؟

فقال لي: قال ابن دريد[٥]: هي مقولة في الجاهلية، ونظم فيها قائلها أسماء الأسبوع، ولا معنى للام هاهنا، وإنما هي «بأول» أو «بأهون» والباء بمعنى «في»، المعنى: وأن موتي في أول أو في أهون. وأراد «بأول»: الأحد، لأنه أول الأسبوع، و«أهون»: يوم الاثنين، وأهون بمعنى أقرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾ [الروم:٢٧] أي: أقرب، فهو أقرب إلى اليوم الأول، و«جُبار»: يوم الثلاثاء؛ لأن به انجبر أول الجميع وهو العلامة، و«دُبار»: يوم الأربعاء؛ لأنه أول النصف الثاني

(١) في الأصل: قوبهم. والتصويب من المصادر التالية.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٢٥) وما بعدها. وانظر: البغوي (٢/ ١٧٥-١٧٨).

(٣) في الأصل: أبو، وهو لحن.

(٤) انظر البيت الأول والثاني في: الإنصاف (٢/ ٤٩٧)، والأغاني (٢/ ٣٩١)، واللسان وتاج العروس (مادة: جبر، دبر، شير، أنس، وأل، هون).

(٥) انظر: جمهرة اللغة (٣/ ٤٨٩).

من الأسبوع، ودُبُر الشيء: آخره، وأَدْبَر الشيء: تولى[١]، و«مؤنس»: يوم الخميس؛ لأنه فيه يحصل الأنس بقرب الجمعة، والجمعة عندهم عظيمة. ويجوز أن يكون من أنست الشيء، أي: أبصرته وعلمته[٢]، و«عَروبة»: يوم الجمعة، وأصله من قولهم: امرأة عَروب، أي: متحببة إلى زوجها[٣]، وكانوا يحبون يوم الجمعة؛ لاجتماعهم فيه. وأما «شِيار» -بالشين المعجمة والياء الواقعة آخر حروف التهجي-: فيوم السبت، واشتقاقه من شوار البيت، وهو نجده وزينته[٤]، فكأن هذا اليوم به تكمل الأحوال الواقعة في الأسبوع.

وأما البيت الثالث فغير معروف عند أهل اللغة.

قوله تعالى: ﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي: دعوها ترعى في أرض الله، فليست مؤنتها عليكم، إنما تأكل من رزق الله، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: لا تنالوها بشيء من الأذى تكريماً لها وتعظيماً لحقها، لكونها آية ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض﴾ أعطاكم منها مساكن ومنازل، ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾.

قال ابن عباس: تبنون القصور بكل موضع[٥].

﴿وتَنْحِتُونَ الجبال بيوتاً﴾ وقرأ الحسن البصري: «وتَنْحَتُون» بفتح الحاء[٦]؛

(١) انظر: اللسان (مادة: دبر).

(٢) انظر: اللسان (مادة: أنس).

(٣) انظر: اللسان (مادة: عرب).

(٤) انظر: اللسان (مادة: شور).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨٣).

(٦) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦).

لأن فيه حرفاً من حروف الحلق.

قال ابن عباس: اتخذوا القصور في سهول الأرض للصيف، ونقبوا في الجبال للشتاء[١].

قال وهب: كان أحدهم يبني البنيان فيمرّ عليه مائة سنة فيخرب، ثم يجدده، فيمرّ عليه مائة سنة فيخرب، ثم يجدده، فيمرّ عليه مائة سنة فيخرب، ثم يجدده، فأضجرهم ذلك، فاتخذوا من الجبال بيوتاً[٢].

وجائز أن يكون المراد بقوله: ﴿تتخذون من سهولها﴾ ما يُتّخذ من تراب أرضها ويُعمل لَبِناً وآجُرّاً.

و«بيوتاً» حال مقدّرة[٣]؛ لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، فهو كقولهم: خطّ هذا الثوب قميصاً.

وباقي الآية تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿لمن آمن منهم﴾ بدل من قوله: «للذين استضعفوا»[٤]. والضمير في قوله: «منهم» عائد إلى «قومه»، فيكون الاستضعاف مقصوراً على المؤمنين، ويكون قوله: «من آمن» مفسر لمن استضعف منهم. وجائز أن يكون عائداً إلى «الذين استضعفوا»، فلا يكون الاستضعاف مقصوراً عليهم، فإن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٢٥).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٢٥).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٩٣).

(٤) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٩)، والدر المصون (٣/ ٢٩٤).

﴿أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ استفهام في معنى الهزء والطَّنْز[١]، كما تقول للمعتزلة: أتعلمون أن المؤمنين لا ينظرون إلى ربهم في الجنة!.

قوله تعالى: ﴿فعقروا الناقة﴾ أسند العقر إلى جميعهم وإن كان العاقر واحداً؛ لرضاهم به.

قال الأزهري[٢]: العقر عند العرب: قطع عُرقوب البعير، ثم جُعِلَ العقر نحراً؛ لأن ناحر البعير يَعْقِره ثم ينحره.

﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: جاوزوا الحد في كفرهم وغلوا في باطلهم.

والمعنى: عتوا عما أمرهُم به ربهم على لسان صالح من التوحيد وتركوا أمره في الناقة وكذبوا نبيهم، ﴿وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت من المرسلين﴾.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وهي [الزلزلة][٣] الشديدة والحركة العنيفة. يقال: رَجَفَ الشيء يرجُف رَجْفاً ورجفَاناً[٤]؛ إذا تحرك، ﴿فأصبحوا في دارهم﴾ أي: في أرضهم ﴿جاثمين﴾ هامدين لا يتحركون موتى. هذا قول ابن عباس وجمهور

---

(١) الطّنْزُ: السخرية (اللسان، مادة: طنز).

(٢) تهذيب اللغة (١/ ٢١٥).

(٣) في الأصل: الزلزة.

(٤) أصل الرجف: حركة مع صوت، ومنه قول الله تعالى: ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ [النازعات:٦]. وقال الشاعر:

ولما رأيت الحج قد آن وقتُهُ وظلت مطايا القوم بالقوم تَرْجُفُ

(انظر: القرطبي ٧/ ٢٤٢).

المفسرين[١].

وقال أبو عبيدة[٢]: بعضهم على بعض جثوم.

والجثوم للناس والطير بمنزلة البروك للإبل.

وقال ابن قتيبة[٣]: الجثوم: البروك على الركب.

وقال الزجاج[٤]: أصبحوا أجساماً ملقاة في الأرض كالرماد الجاثم.

قوله تعالى: ﴿فتولى عنهم﴾ أي: أعرض عنهم بعد نزول العذاب، وكره المُقام بأرض غضب الله تعالى على أهلها، فلحق بمكة، فأقام بها حتى توفاه الله تعالى، وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين». ثم قنّع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي[٥].

وفيهما أيضاً من حديث ابن عمر: «أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحِجْر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة»[٦].

---

(١) انظر: الطبري (٨/ ٢٣٣)، والوسيط (٢/ ٣٨٤)، والدر المنثور (٣/ ٤٩٤).

(٢) مجاز القرآن (١/ ٢١٨).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٦٩).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٥١).

(٥) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣٧ ح٣٢٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦ ح٢٩٨٠).

(٦) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٣٧ ح٣١٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦ ح٢٩٨١).

وروى جابر: «أن رسول الله ﷺ لما مَرَّ بالحِجْر قال: لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح فأخذتهم الصيحة، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله. قالوا: من هو؟ قال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»(١).

ويروى: «أن النبي ﷺ مرّ بقبره فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فذكر قصة أبي رغال وأنه دفن هاهنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن»(٢).

قوله تعالى: ﴿وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي﴾ قال قتادة: ذكر لنا أن صالحاً أسمع قومه، وأن شعيباً أسمع قومه، كما أسمع نبيكم قومه(٣). يشير بذلك إلى مناداة النبي ﷺ أهل القليب يوم بدر حين وقف على مصارعهم، فقال مُوبّخاً لهم: وجدنا ما وعد ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً!.

﴿ونصحت لكم﴾ قال ابن عباس: خوّفتكم بالله من عقابه(٤)، ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ لا تجيبونهم إلى ما يدعونكم إليه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥١ ح٣٢٤٨)، وابن حبان (١٤/ ٧٧ ح٦١٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ١٨١ ح٣٠٨٨)، والبيهقي في الكبرى (٤/ ١٥٦ ح٧٤٤١).

(٣) زاد المسير (٣/ ٢٢٧).

(٤) الوسيط (٢/ ٣٨٥).

مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولوطاً﴾ أي: وأرسلنا لوطاً، أي: واذكر لوطاً.

قال بعض أهل اللغة: هو مشتق من لطتُ الحوضَ؛ إذا مَلَّسته بالطين[(١)].

قال الزجاج[(٢)]: وهذا غلط؛ لأن لوطاً من الأسماء الأعجمية ليس من العربية. فأما لطت الحوض، وهذا ألوط بقلبي من هذا، فمعناه: ألصق بقلبي[(٣)]، واللِّيط: القشر، فهذا صحيح في اللغة، ولكن الاسم أعجمي؛ كإبراهيم وإسحاق، لا تقول إنه مشتق من السُّحْق وهو البعد، وهو كتاب الله الذي لا ينبغي أن يقدم على تأويله إلا برواية صحيحة أو حجة واضحة.

وقد ذكرنا في آل عمران[(٤)] أيضاً: أن نوحاً سمي بذلك؛ لنَوْحه، والظاهر أنهما اسمان أعجميان، ولزمهما الصرف مع العجمة والتعريف لخفتهما، وهو: لوط بن هاران -ويقال: هازان، بالزاي المعجمة- بن تارح، والد إبراهيم عليه السلام، وقد ذكرنا نسبه في الأنعام.

﴿إذ قال لقومه﴾ «إذ» ظرف لـ«أرسلنا»، أو بدل من «واذكر»[(٥)]، أي: واذكر

---

(١) انظر: اللسان (مادة: لوط).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٥١-٣٥٢).

(٣) انظر: اللسان (مادة: لوط).

(٤) عند الآية رقم: ٣٣.

(٥) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٩)، والدر المصون (٣/ ٢٩٦).

وقت قال لوط لقومه. ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أتفعلون السيئة القبيحة، وهي إتيان الرجال في الأدبار.

قال مجاهد: كان بعضهم يجامع بعضاً في المجلس[(١)].

﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر في الدنيا حتى كان قوم لوط[(٢)].

و«مِنْ» في قوله: ﴿من أحد﴾ زائدة لتوكيد النفي وزيادة معنى الاستغراق، والتي تليها للتبعيض[(٣)].

﴿أئنكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله: ﴿أتأتون الفاحشة﴾، والهمزة فيهما للإنكار والتوبيخ العظيم.

وقرأ نافع وحفص: «إنكم لتأتون» على لفظ الخبر[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبري (٢٠/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٥٥). وذكره السيوطي في الدر (٦/ ٤٦١) وعزاه للفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٣٤، ٢٠/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥١٧)، وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي (١/ ١٦٥ ح١٥٤)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٥٩ ح٥٤٠٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٤٩٥) وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٢٩٧).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢٤٨-٢٤٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٧)، والكشف (١/ ٤٦٨)، والنشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٦-٢٢٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٥-٢٨٦).

﴿شهوة من دون النساء﴾ مفعول له[١]، أي: للاشتهاء فقط، لا حامل لكم على ذلك سوى مجرد الشهوة وميل الطبع، وهذا غاية ما يكون من الذم، حيث جُعلوا كالبهائم المنقادة مع الشهوة، لا يزجرها عقل، ولا يحملها على الفعل طلب مصلحة، ولا خوف مفسدة.

ويجوز أن يكون «شهوةً» نصباً على الحال[٢]، بمعنى: مشتهين تابعين للشهوة.

﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بما هم عليه من الإسراف في ارتكاب القبائح، وانتهاك المحارم، وتجاوز الحدود.

﴿وما كان جواب قومه﴾ حين زجرهم عن هذه الفاحشة الشنيعة ووبخهم على فعلها، ﴿إلا أن قالوا﴾ ضجراً وتهوراً ﴿أخرجوهم﴾ يعنون: لوطاً وأتباعه، ﴿من قريتكم﴾ سَدُوم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي: يتنزهون عن إتيان الرجال، قالوا ذلك استهزاءً وسخرية بلوط وأصحابه.

﴿فأنجيناه وأهله﴾ يريد: أهل دينه. وقيل: ابنتيه، واسم الكبرى: رمثا، والصغرى: زعرثا.

وقيل: الكبرى: رية، والصغرى: عروبة.

﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ الباقين في العذاب، أو من الذين غبروا في ديارهم، أي: بقوا فهلكوا. وإنما قال: «الغابرين» ولم يقل «الغابرات»؛ تغليباً لمن هلك معها من الذكور، والفعل منه: غَبَرَ يَغْبُرُ غُبوراً[٣].

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٧٩)، والدر المصون (٣/ ٣٣٧).

(٢) مثل السابق.

(٣) انظر: اللسان (مادة: غبر).

قال الشاعر:

وأبي الذي فَتَحَ البلادَ بسيْفِهِ … فأذَلَّها لبَنِي أبَانَ الغَابرِ[(١)]

يريد: الباقي[(٢)].

---

(١) البيت ليزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي. وكان شريفاً عزيزاً، وأبوه الحكم بن أبي العاص الثقفي، أحد أصحاب الفتوح الكثيرة في فارس وغيرها، وكذلك عمه عثمان بن أبي العاص صاحب رسول الله ﷺ، دعاه الحجاج بن يوسف الثقفي فولاه فارس، فلما جاء يأخذ عهده، قال له الحجاج: يا يزيد أنشدني بعض شعرك، وإنما أراد أن ينشده مديحاً له، فأنشده قصيدة يفخر فيها يقول:

وأبي الذي فتح البلاد بسيفه … فأذلها لبني أبان الغابر

وأبي الذي سلب ابن كسرى راية … بيضاء تخفق كالعقاب الكاسر

وإذا فخرت فخرت غير مكذب … فخراً أدقّ به فخار الفاخر

فنهض الحجاج مغضباً، وخرج يزيد من غير أن يودعه، فأرسل الحجاج حاجبه وراءه يرتجع منه العهد، ويقول له: أيهما خير لك؟ ما ورثك أبوك أم هذا؟ فقال يزيد: قل له:

ورثت جدي مجده وفعاله … وورثتَ جدّك أعنزاً بالطائف

ثم سار ولحق بسليمان بن عبدالملك وهو ولي للعهد، فضمه إليه وجعله من خاصته. وانظر: البيت في: الطبري (٨/ ٢٣٦).

(٢) وقد أوضح هذا المعنى الطبري (٨/ ٢٣٦) فقال: فإن قال قائل: فكانت امرأة لوط ممن نجا من الهلاك الذي هلك به قوم لوط؟

قيل: لا بل كانت فيمن هلك.

فإن قال: فكيف قيل: ﴿إلا امرأته كانت من الغابرين﴾، وقد قلت إن معنى "الغابر" الباقي؟ فقد وجب أن تكون قد بقيت؟

قيل: إن معنى ذلك غير الذي ذهبتَ إليه، وإنما عنى بذلك، إلا امرأته كانت من الباقين قبلَ الهلاك، والمعمَّرين الذين قد أتى عليهم دهرٌ كبيرٌ ومرّ بهم زمن كثيرٌ، حتى هرِمت فيمن هرِم من الناس، فكانت ممن غبرَ الدهرَ الطويلَ قبل هلاك القوم، فهلكت مع من هلك من قوم لوط حين جاءهم =

وقال أبو ذؤيب الهذلي:

فَغَبَرْتُ بَعْدَهُم بعَيْشٍ ناصِبٍ ... وإِخَالُ أَنِّي لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ[١]

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ يريد: الحجارة التي أرسلت عليهم.

قال مجاهد: نزل جبريل فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط ورفعها ثم قلبها، فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا الحجارة[٢]. وسنذكر إن شاء الله تعالى قصتهم مستوفاة بكمالها في موضعها من سورة هود[٣].

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وإلى مدين﴾ أي: وأرسلنا إلى مدين ﴿أخاهم شعيباً﴾ أكثر العلماء =

العذاب.

(١) انظر البيت في: اللسان (مادة: نصب)، والدر المصون (٣/ ٢٩٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٢/ ٩٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٤٦٣) وعزاه لابن جرير.

(٣) عند الآية رقم: ٨٢.

بالنسب يقولون: إنه شعيب بن عيفاء بن يوبب بن مدين بن إبراهيم، ويقال: إنه ابن بنت لوط.

قال سعيد بن جبير: كان شعيب عليه الصلاة والسلام رجلاً أعمى[١].

وقال أبو روق: لم يبعث الله نبياً أعمى ولا به زمانة[٢].

قال أبو الحسين بن المنادي: وهذا القول أَلْيط بالقلوب من قول سعيد.

قلت: والجمع بين القولين ممكن، بأن يكون عمي في آخر عمره، كما عمي يعقوب عليه السلام. وكان عليه السلام يسمى خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه.

قال قتادة وغيره: وابتعثه الله إلى أُمّتين؛ إلى مدين -وهو ابن عشرين سنة- فعتوا وكفروا به فأخذهم عذاب يوم الظلة. -وقال قتادة: أخذتهم الصيحة والرجفة- وإلى أصحاب الأيكة[٣]، فمكث فيهم باقي عمره فكفروا به، فسلّط الله عليهم الحر سبعة أيام، ثم بعث الله عليهم ناراً فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلة، فتكون الأمّتان -على قول قتادة- قد اتفقتا في التعذيب.

واختلفوا في مدين؛ فقال قتادة: ماء كان عليه قوم شعيب[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (١٢/ ١٠٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ١٥٢)، والسيوطي في الدر (٤/ ٤٧٠) وعزاه لأبي الشيخ وابن عساكر.

(٢) زاد المسير (٤/ ١٥٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٩/ ١١٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١١). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٩٢) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٢٠/ ٥٤)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٦١). وذكره السيوطي في الدر (٦/ ٤٠٣) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال مقاتل[١]: هو ابن إبراهيم الخليل لصلبه.

فعلى هذا هو اسم أعجمي، وإن كان عربياً فالياء فيه زائدة، من قولك: مَدَنَ بالمكان؛ إذا أقام به[٢].

قال الزجاج[٣]: و«مدين» لا ينصرف؛ لأنه اسم للقبيلة أو للبلدة[٤]. وجائز أن يكون أعجمياً.

﴿قد جاءتكم بينة من ربكم﴾ قال الفراء[٥]: لم تكن له آية إلا النبوة. وليس هذا القول بشيء؛ لأنه يستلزم إيجاب التصديق والانقياد إلى دعوى النبوة من غير بينة أو شاهد بصحة الدعوى.

ولأن ذلك يفضي إلى التباس الحق بالباطل.

ولأنه يفضي إلى محال، وما يفضي إلى المحال محال.

فبيان أنه يفضي إلى المحال: أنا لو فرضنا وجود شخصين كل واحد منهما يدعي النبوة، ويشهد بكذب الآخر، من غير أن يكون لكل واحدٍ منهما بينة، فلا يخلو إما أن يجب تصديقهما، أو تكذيبهما، أو تصديق أحدهما دون الآخر. الأول ممتنع؛ لأنه يلزم من تكذيبهما تصديقهما، الثالث ممتنع أيضاً؛ لأنه ترجيح من غير مرجح، ولأن لفظ البينة يشعر بالمعجزة.

---

(١) تفسير مقاتل (١/ ٤٠١).

(٢) انظر: اللسان (مادة: مدن).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٣).

(٤) في معاني الزجاج: البلدة.

(٥) معاني الفراء (١/ ٣٨٥).

قوله تعالى: ﴿فأوفوا الكيل والميزان﴾ أي: آلة الكيل، أو سمي ما يكال به: بالكيل؛ كالعيش: اسم لما يُعاش به، وكانت عادتهم التطفيف في المكيال والميزان، فأُمروا بإيفاء الكيل والميزان ونُهوا عن البخس فقال: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾. يقال: بَخَسَهُ حَقَّه؛ إذا انتقصه[1].

وقيل: كانوا مكّاسين، فنهوا عن ذلك بقوله: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾.

﴿ولا تفسدوا في الأرض﴾ بالكفر والجور والمعاصي، ﴿بعد إصلاحها﴾ أي: بعدما أصلح فيها الأنبياء وأتباعهم القائمون مقامهم بإحياء العدل، وإماتة الجَوْر، ونشر ألوية الشرع.

والإضافة في قوله: "بعد إصلاحها" على الوجه المذكور كالإضافة في قوله: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ [سبأ:٣٣]، يريد: بل مكركم في الليل والنهار.

وقيل: المعنى: بعد إصلاح أهلها، على حذف المضاف.

﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من إيفاء الكيل والميزان، وترك البخس والإفساد في الأرض.

وقيل: إشارة إلى ما تقدم ذكره مما أمروا به من العبادة وغيرها ونهوا عنه.

﴿خير لكم﴾ لما يستلزم من صلاح دنياكم وآخرتكم.

وقيل: ذلكم الوفاء، وترك البخس والفساد، خير لكم؛ لأن من اتصف بهذا الوصف رزق ظاهراً وغالباً حسن الذِّكْر، وجميل الأحدوثة، فرغب في معاملته ثقة بأمانته. وهو قول محتمل، إلا أن قوله: ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ يأْباهُ؛ لأن جميل

(١) انظر: اللسان (مادة: بخس).

الأحدوثة وما يترتب عليه من الرغبة في معاملة المتصف بالإنصاف والأمانة لا يتوقف على الإيمان.

ويحتمل أن يقال في دفع هذا الإشكال: المعنى: ذلكم خير لكم إن كنتم مصدقين لي في قولي: «ذلكم خير لكم»، ويكون ذلك خارج مخرج التهييج والإلهاب، والحض على إيفاء الكيل والميزان بما أرشدهم إليه من تحصيل مآربهم، ولا يكون ذلك على وجه الشك منه في علمهم وتصديقهم بذلك.

ومثاله: قول الرجل لابنه إذا رام منه امتثال ما يأمره به وينهاه عنه، وأراد ترغيبه في ذلك وتهييجه عليه: إن كنت ابني وتعلم أن الله فرض طاعتي عليك فأطعني، وهو لا يشك أنه ابنه، ولا يرتاب أن الله فرض عليه طاعته.

قوله تعالى: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ قال قتادة وجمهور المفسرين: كانوا يقعدون على الطريق يحذرون الناس ويخوفونهم العذاب ويهدّدونهم إن اتبعوا شعيباً(١).

وقال السدي: كانوا عشّارين(٢).

فعلى هذا؛ يكون ذلك نهياً لهم عن أخذهم بمجامع الطرق المكس.

وقيل: هذا نهي لهم عن قعودهم على سبيل الحق يصدون الناس عنه.

فإن قيل: سبيل الحق واحد. قال الله: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا

---

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٣٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٨/ ٢٣٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:١٥٣] فكيف قال: ﴿بكل صراط﴾؟

قلت: السبيل المشار إليه واحد، لكنه يتشعّب إلى أنواع كثيرة من الفرائض والحدود والأحكام، فكانوا إذا رأوا أحداً يتمسك بشيء منها أو يسلك بعض شعبها توعدوه.

قوله تعالى: ﴿وتصدون عن سبيل الله من آمن به﴾ قال صاحب الكشاف[١]: الضمير في «آمن به» يعود إلى «كل صراط»، تقديره: توعدون من آمن به وتصدون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير؛ زيادة في تقبيح أمرهم، ودلالة [على][٢] عظم ما يصدون عنه.

ويجوز عندي -والله تعالى أعلم-: أن يعود الضمير إلى الله تعالى؛ لأنه أقرب المذكورين.

﴿وتبغونها عوجاً﴾ سبق تفسيره وتقريره في آل عمران[٣].

قوله تعالى: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثَّركم﴾ أي: اذكروا على وجه الشكر لله إذ كنتم قليلاً عددكم، أذلاء فقراء، فكثّر عَدَدكم وعُدَدكم، وأعزكم وأغناكم.

قال ابن السائب: كان مدين بن إبراهيم وزوجتُه بنت لوط، فولدتْ له حتى كثر عدد أولادها[٤].

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ قبلكم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح،

---

(١) الكشاف (٢/ ١٢١).

(٢) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٣) عند الآية رقم: ٩٩.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٨٧).

ولوط.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ أي: إن اختلفتم في رسالتي فصرتم طائفتين ﴿فاصبروا﴾ أيها المصدقون [والمكذبون][1] ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ بتعذيب أهل التكذيب والمعصية، وإنجاء أهل التصديق والطاعة، ﴿وهو خير الحاكمين﴾ لأنه عدلٌ لا يجور في حكمه وقضائه.

وفي ضمن هذا بشارة للمؤمنين [ونذارة][2] للكافرين.

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: الأشراف الذين تعظموا وانتفوا من متابعته، ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أي: لا نقرّكم على المخالفة ولا بد من أحد الأمرين؛ إما إخراجكم من القرية، أو عودكم إلى الملة.

فإن قيل: كيف خاطبوا شعيباً بالعود إلى ملّتهم، وكيف أجابهم بقوله: ﴿إن عدنا في ملتكم﴾ ولم يكن شعيب في ملتهم قط؟

(١) في الأصل: والمذبون.

(٢) في الأصل: نذارة.

قلت: عنه أجوبة:

أحدها: أن العود هاهنا بمعنى الصيرورة، تقول: عاد عَلَيَّ من فلان مكروه، وإن لم يكن له بذلك سابقة، وأنشدوا قول أمية بن أبي الصلت:

هذي الكرامُ لا قَعْبَانَ من لبنٍ ... شِيبَا بماءٍ فَعَادَا بعدُ أبْوَالا[1]

وقول الآخر:

فإنْ تكن الأيامُ أحْسَنَّ مَرَّةً ... إليَّ فقد عادتْ إليَّ ذنوب[2]

الثاني: أن العود على ظاهره، والمشار إليهم بالعَوْد: الذين آمنوا معه، لكنه أجري معهم في الخطاب ونظم نفسه في جملتهم في الجواب؛ إجراء للكلام على التغليب.

الثالث: أنه عليه الصلاة والسلام[3] كان قبل أن يختصه الله بالنبوة ويشرفه بالرسالة، داخل في غمار قومه، مخالطاً لهم، وإن كان مبايناً لهم في الشرك والكبائر وما يوجب التنفير من الرذائل والصغائر مما لا يجوز على من أهَّلَه الله لمنصب النبوة والرسالة، فخاطبوه وأجابهم على نحو ما كانوا يعتقدون، كما كانت كفار قريش تقول للنبي ﷺ، إذا عاتبتهُ: تركت دين آبائك ورغبتَ عن ملتهم، وأمثال ذلك من

---

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت. انظر: ديوانه (ص:٥٢)، وتاج العروس (مادة: قعب)، والعين (١/ ١٨٢)، وتهذيب الأسماء (٢/ ٣٦٩)، وابن الشجري (١/ ١٧٠)، وشرح المفصل لابن يعيش (٨/ ١٠٤)، والقرطبي (٧/ ٤٠٣)، والدر المصون (٣/ ٣١٢)، وزاد المسير (١/ ٢٢٦)، والإصابة (٥/ ٤١٧)، وتاريخ الطبري (١/ ٤٤٩)، وسيرة ابن هشام (١/ ١٨٧)، والأغاني (٥/ ١٩، ٢٠، ١٧/ ٣٠٢، ٣١٣).

(٢) البيت لكعب الغنوي، يرثي أخاه.

(٣) في الأصل زيادة: أنه.

الألفاظ الموهمة ما لا يجوز وقوع مثله من الأنبياء.

قوله تعالى: ﴿قال أو لو كنا كارهين﴾ معناه: أو تجبروننا على ملتكم وإن أكرهنا ذلك.

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم﴾ كلام مستأنف يتضمن معنى التعجب، تقديره: ما أكذبنا على الله إن عدنا في ملتكم، أو هو قسم بتقدير حذف اللام. المعنى: والله لقد افْتَرَيْنا[(١)].

﴿وما يكون لنا﴾ أي: ما ينبغي ولا يصلح لنا ﴿أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: إلا أن يريد ربنا إهلاكنا، ويكون ذلك في سابق علمه.

قال الزجاج[(٢)]: اختلف الناس في تأويل هذه الآية، وأولى التأويلات باللفظ أن يكون: ما يكون لنا أن نعود فيها إلا بمشيئة الله؛ لأنه ما يكون غير ما يشاء الله، وهذا مذهب أهل السُّنَّة. قال الله تعالى: ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ [الإنسان:٣٠] والمشيئة في اللغة بيّنة لا تحتاج إلى تأويل.

والمعنى: ما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون الله تعالى قد سبق في علمه ومشيئته أن نعود فيها. وتصديق ذلك قوله: ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾. ثم قال: ﴿على الله توكلنا﴾، وفي موضع آخر: ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت﴾ [هود:٨٨].

وقال قوم: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: فالله لا يشاء الكفر، قالوا: وهذا مثل قولك: لا أكلِّمك حتى يَبْيَضَّ القار، ويَشِيب الغراب،

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٠٣).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٥-٣٥٦).

والقار لا يَبْيضّ، والغراب لا يشيب. قالوا: فكذلك تأويل الآية.

قال الزجاج[١]: وهذا خطأ؛ لمخالفته أقل من ألف موضع في القرآن لا يحتمل تأويلين؛ أنه لا يكون شيء ولا يحدث شيء إلا بمشيئة الله تعالى وعن علمه، وسُنَّة الرسل تشهد بذلك، ولكن الله تعالى غيب عن الخلق علمه فيهم، ومشيئته من أعمالهم، فأمرهم ونهاهم؛ لأن الحجة إنما ثبتت من جهة الأمر والنهي، وكل ذلك جَارٍ على ما سبق من العلم وجَرَتْ به المشيئة. هذا كله مختصر من كلام الزجاج، وهو اعتقادنا، وبه ندين الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ أي: علم ما كان ويكون. و«عِلْماً» منصوب على التمييز[٢].

﴿على الله توكلنا﴾ في الثبات على الإيمان وحصول الأمان مما تتوعدوننا به من الإخراج، ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾.

قال ابن عباس: كنت لا أدري ما معنى: «افتح بيننا وبين قومنا بالحق» حتى سمعت ابنة ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفاتحك، تريد: أقاضيك[٣].

قال الفراء والزجاج[٤] وغيرهما[٥]: أهل عُمَان يُسمّون القاضي: الفاتح

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٦).

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٥٠)، والدر المصون (٣/ ٣٠٤).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٠ ح٢٦٠٧٦، ٦/ ١٢٢ ح٢٩٩٨٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٣) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في الوقف والابتداء والبيهقي في الأسماء والصفات.

(٤) معاني الفراء (١/ ٣٨٥)، ومعاني الزجاج (٢/ ٣٥٧).

(٥) وهي لغة حمير. وقيل: مراد.

والفتّاح. وأنشد أبو عبيدة[(١)]:

أَلا أَبْلِغْ بَنِي عُصْمٍ رَسُولاً   بأَنِّي عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِيُّ[(٢)]

قال الزجاج[(٣)]: وجائز أن يكون المعنى: أظهرْ أمرنا حتى ينفتح ما بيننا وبين قومنا وينكشف. فجائز أن يكونوا سألوا بهذا نزول العذاب بقومهم ليظهر أن الحق معهم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٢٠).

(٢) البيت ينسب للأسعر الجعفي، ومحمد بن حمران بن أبي حمران. انظر: إصلاح المنطق (ص:١١٢)، وأمالي القالي (٢/ ٢٨١)، ومعجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٦٩)، والصحاح (٤/ ١٧٠٩)، والبحر المحيط (٤/ ٣٤٦)، واللسان (مادة: فتح، رسل)، والدر المصون (٣/ ٣٠٤)، والماوردي (٢/ ٢٤٠)، والطبري (١/ ٣٧١، ٩/ ٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٢).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً﴾ هذه لام القسم.

وقوله: ﴿إنكم إذاً لخاسرون﴾ سدّ مسدّه جوابي الشرط والقسم(١).

قال ابن عباس: إنكم إذاً لمغبونون(٢).

وقال عطاء: جاهلون(٣).

والمعنى متقارب؛ لأنهم باستبدال الضلالة بالهدى مغبونون جاهلون.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ قد ذكرنا معناها في قصة صالح.

وقال ابن عباس وغيره: فتح الله تعالى عليهم باباً من أبواب جهنم، فأرسل عليهم ريحاً ومِدَّة وحراً شديداً فأخذ أنفاسهم، فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم البيوت، فلم ينفعهم ظل ولا ماء، وأنضجهم الحر، فبعث الله سبحانه وتعالى سحابة فيها ريح طيبة، فوجدوا برد الريح وطيبها وظل السحابة، فتنادوا: عليكم بها، فخرجوا إلى البرية، فلما اجتمعوا تحت السحابة رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله تعالى عليهم، ورجفت بهم الأرض، فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً(٤)، وهو عذاب يوم الظلة، فذلك قوله تعالى: ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ [هود:٩٤].

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٠٥).

(٢) انظر: الطبري (٩/ ٣)، والبغوي (٢/ ١٨٢) كلاهما بلا نسبة.

(٣) ذكره البغوي (٢/ ١٨٢).

(٤) أخرجه الطبري (١٩/ ١١٠)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١٤-٢٨١٥)، والحاكم (٢/ ٦٢٠ ح٤٠٧٤). وذكره السيوطي في الدر (٦/ ٣٢٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس.

قال أبو العالية: في منازلهم.

قال ابن إسحاق: بلغني أن رجلاً من أهل مدين يقال له: عمرو بن جلها، لما رأى الظلة فيها العذاب قال شعراً:

يَا قَوْمِ إِنَّ شُعَيْباً مُرْسَلٌ فَدَعُوا عَنْكُمْ سَمِيراً وعِمْرانَ بْنَ شَدَّادِ

إِنِّي أَرَى غَيْثَةً يَا قَوْمِ قَدْ طَلَعَتْ تَدْعُو بِصَوْتٍ عَلى صِمَّانَةِ الوادي

وَإِنَّهُ لَمْ يَرَوْا فِيها صِحَاءَ غَدٍ إِلاَّ الرَّقِيمَ يَمْشي بَيْنَ أَنْجادِ

وسَمِير وعِمْران: كاهنان، والرقيم: كلب لهم(١).

وقال أبو عبدالله [البجلي](٢): أبو جاد، وهَوَّز، وحُطِّي، وكَلَمُن، وصعْفَص، وقرشت، أسماء ملوك مدين، وكان ملكهم يوم الظلة: كَلَمُن، فقالت أخت كلمن تبكيه:

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٤)، وابن أبي حاتم (٩/ ٢٨١٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٤-٥٠٥) وعزاه لابن أبي حاتم والحاكم.

(٢) في الأصل: البلخي. والتصويب من المصادر التالية. ولم أجد من يكنى بهذا، ولكن روى الطبري في تاريخه مثل هذا الخبر، في ذكر هؤلاء الملوك (١/ ١٢١)، وإسناده يفسّر هذا الإسناد، قال: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن يحيى بن العلاء، عن القاسم بن سلمان، عن الشعبي قال: "أبجد، وهوز، وحطي، وكلمن، وسعفص، وقرشت، كانوا ملوكًا جبابرة".

ويحيى بن العلاء البجلي كنيته: أبو سلمة، ويقال: أبو عمرو. ولم أجد كنيته: أبو عبد الله، ولكن ظاهر هذا الإسناد يرجح أن: أبا عبد الله البجلي، هو نفسه: يحيى بن العلاء البجلي، والله أعلم.

كَلَمُــــن هَـــدَّ رُكْنــــي [هَلْكُــهُ][١] وَسْــطَ المُحَلَّــهْ
سَـــيِّدُ الْقَـــوْمِ أَتَـــاهُ الحَتْــفُ نــار وَسْــطَ ظُلَّــهْ
جَعَلَـــتْ نَـــارٌ عَلَـــيْهِمْ دَارُهُــــمْ كَالُمــــضْمَحِلَّهْ[٢]

قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ مبتدأ، خبره: ﴿كأن لم يغنوا فيها﴾[٣].

قال الأصمعي والزجاج[٤] وغيرهما: المغاني: المنازل، يقال: غَنينا بمكان كذا، أي: نزلناه[٥]. فالمعنى: كأن لم يقيموا بها ولم يسكنوا فيها.

وقال ابن عباس: كأن لم يعيشوا في ديارهم[٦].

قال الزجاج[٧]: يجوز أن يكون المعنى: كأن لم يعيشوا فيها مستغنين، كما قال حاتم طيء[٨]:

---

(١) في الأصل: ملكه. والتصويب من المصادر التالية.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٤). وانظر: البغوي (٢/ ١٨٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٤٨).

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٠)، والدر المصون (٣/ ٣٠٥).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٨).

(٥) انظر: اللسان (مادة: غنا).

(٦) أخرجه الطبري (٩/ ٥)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠٥٢). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٣٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٧) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٨).

(٨) البيت في ديوانه هكذا:

غنينا زماناً بالتصعلك والغنـــى كما الدهر في أيامه العسر واليسرُ
كسينا صُروف الدهر ليناً وغلظة وكلا سقاناه بكأسيها الدهـــرُ

انظر: ديوانه (ص:٥١)، والقرطبي (٧/ ٢٥٢)، والبحر المحيط (٤/ ٣٤٨)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٢)، وروح المعاني (٩/ ٦)، واللسان (مادة: صعلك).

غَنِينا زَمَاناً بالتَّصَعْلُكِ والغِنَـى   فَكُلاًّ سَقاناهُ بكَأْسَيْهِمَا الـدَّهْرُ
فَـمَا زَادَنَـا بَغْيـاً عَـلى ذِي قَرَابَـةٍ   غِنانا وَلا أَزْرَى بِأَحْسابِنَا الفَقْرُ

قال: معنى غنينا: عشنا زماناً بالتصعلك، وهو الفقر، والعرب تقول للفقير: صُعْلُوك.

ثم استأنف الله تعالى ذكر شعيب وكرره، ولم يُكَنِّ عنه مبالغة في تفخيمه وتعظيمه وتضليل مكذّبيه فقال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ أي: المخصوصين بالخسران العظيم.

قوله تعالى: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ الأسى: شدة الحزن[(١)].

قال العَجَّاج:

وانْحَلَبَتْ عَيْنَاهُ منْ فَرْطِ الأَسَى[(٢)]

قال الزجاج[(٣)]: تقول: أَسِيتُ على الشيء آسَى أسىً؛ إذا اشتد حزنُك عليه.

قال ابن إسحاق: أصاب شعيباً على قومه حزن شديد، ثم عاتب نفسه فقال: ﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾[(٤)]. فيكون منكراً على نفسه فرط حزنه على قومه.

ويجوز أن يكون قوله: "فكيف آسى" خارجاً مخرج الاعتداد، كأن قائلاً قال له: أحزنتَ على قومك، أو هلا حزنتَ على قومك، فقال معتذراً: فكيف آسى على

---

(١) انظر: اللسان (مادة: أسا).

(٢) الرجز للعجاج، وقبله: (يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً * قال نعم أعرفه وأبلسا)
انظر: اللسان وتاج العروس (مادة: حلب، كرس).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٩). وانظر: مجاز القرآن (١/ ٢٢٢).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٣٣).

قوم بالغتُ في إنذارهم وبذلتُ جهدي في مناصحتهم فكذبوني وآذوني.

وقرأت لأبي عمرو من رواية القزاز عن عبدالوارث عنه: «أسى» بقصر الهمزة[١].

قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ قال الزجاج[٢]: يقال لكل مدينة قرية؛ لاجتماع الناس فيها.

وقال أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج.

وفيه إضمار، تقديره: فكُذِّبَ النبي.

﴿إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء﴾ قال الزجاج[٣]: قيل: البأساء كل ما نالهم من شدة في أموالهم، والضراء: ما نالهم من الأمراض. وقد سبق تفسيرهما في البقرة.

﴿لعلهم يضرعون﴾ أي: يستكينون ويخشعون لعظمتي، ويخضعون لعزتي، ويخلعون أردية الكبر والأنفة من اتباع رسلي.

قوله تعالى: ﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ أي: حولناهم من البأساء والضراء إلى الصحة والرخاء، ونزعنا عنهم لبوس البؤس ﴿حتى عَفَوْا﴾ أي: كثروا وكثرت أموالهم وحسنت حالهم.

قال الشاعر:

عفَوْا من بعد إقلالٍ وكانوا ... زماناً ليسَ عندهُمُ بعيرُ

---

(١) لم أجد هذه القراءة فيما تيسير لي من المراجع.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٩).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٥٩).

وقالوا جهلاً واغتراراً وأشراً وبطراً: ﴿قد مس آباءنا الضراء والسراء﴾ يريدون: أن الذي نزل بهم إنما هو من غير الدهر وتصاريف الزمان، فليست الضراء لعقوبة، ولا السراء لمثوبة ﴿فأخذناهم﴾ بعد أن بلوناهم بالخير والشر والنفع والضر، فلم يتعظوا ولم يرجعوا عن عنادهم وكفرهم، ﴿بغتة﴾ أي: فجأة، آمنَ ما كانوا، وذلك أشد الأخذ. ﴿وهم لا يشعرون﴾ في محل الحال من الضمير المنصوب في "أخذناهم"[1].

والمقصود: تحذير هذه الأمة من مثل ذلك، وتخويف العصاة المستدرجين بالنِّعَم من حلول النِّقَم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ قال الزجاج[2]: المعنى: أتاهم الغيث من السماء، والنبات من الأرض، وجعل ذلك زاكياً كثيراً.

وقيل: هو مجيء الخير، وتيسير أسباب الرزق من كل وجه.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٠٨).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٠).

﴿ولكن كذبوا﴾ ما جاءت به رسلي وجحدوا وحدانيتي، ﴿فأخذناهم﴾ بقطع أسباب البركة في الرزق ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والفسق.

قوله تعالى: ﴿أفأمن أهل القرى﴾ هذه الفاء والواو التي بعدها في قوله: ﴿أو أمن﴾ حرفا عطف، والهمزة فيهما للإنكار، والمعطوف عليه: ﴿فأخذناهم بغتة﴾، وما بين المعطوف والمعطوف عليه اعتراض[١]، والمعنى: أفأمن أهل القرى الذين كذبوا الرسل، ﴿أن يأتيهم بأسنا بياتاً﴾ ليلاً ﴿وهم نائمون﴾.

﴿أو أمن﴾ وقرأ الحرميان وابن عامر: «أوْ أمن» بإسكان الواو على العطف بـ«أو»[٢].

المعنى: أفأمنوا أن يأتيهم بأسنا نائمين أو لاعبين وممكوراً بهم، فعلى العاقل أن يكون وجلاً دائم الحذر من الله.

قيل لابن عباس: أي رجل كان عمر بن الخطاب؟ فقال: كان كالطير الحذر، الذي كان له بكل طريق شَرَكاً[٣].

وأخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد[٤] بإسناده عن جعفر قال: قالت بنت الربيع بن خثيم لأبيها: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه، إن أباك يخاف البيات.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٠٨).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٥٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٩)، والكشف (١/ ٤٦٨)، والنشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٦).

(٣) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٣٢)، والمناوي في فيض القدير (٦/ ٢٥٧).
والشَّرَك: حبائل الصائد، وكذلك ما ينصب للطير (انظر: اللسان، مادة: شرك).

(٤) الزهد (ص:٤٠٦).

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

قوله تعالى: ﴿أو لم يهد﴾ أي: يتّضح ويتبين، ولذلك عُدِّي باللام، ﴿للذين يرثون الأرض من بعد أهلها﴾ وهم كفار مكة ومن حولها الذين استُخلفوا في أثر من كان قبلهم.

وقوله: ﴿أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم﴾ في موضع رفع بإسناد «يهد» إليه، المعنى: أو لم يتبينوا أنا لو شئنا أصبناهم بذنوبهم وكفرهم، فأهلكناهم كما أهلكنا من كان قبلهم بذنوبهم وكفرهم.

وقال الزجاج[1]: المعنى: أو لم يبيّن الله لهم أنه لو يشاء.

وقرأت ليعقوب الحضرمي: «أو لم نَهْد» بالنون[2]، على معنى: أو لم نبين لهم.

قوله تعالى: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ معطوف على ﴿يرثون الأرض﴾، أو على ما دلّ عليه معنى: «أو لم يهد»[3]، تقديره: يغفلون عن الهداية، ونطبع على قلوبهم، أو هو منقطع، على معنى: ونحن نطبع.

فإن قيل: هل يجوز أن يكون معطوفاً على "أصبناهم"، على معنى: وطبعنا؟

قلت: لا يساعد عليه المعنى؛ لأنهم كانوا مطبوعاً على قلوبهم من قبل، وهذا التفسير يقتضي خلوّهم عن هذه الصفة.

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٦١).

(٢) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢٣٥).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣١٠).

فإن قيل: فهل يجوز العطف على «أصبناهم» إذا جعلته في تأويل: نُصيبهم؟

قلت: نعم؛ لصحة المعنى وانتظامه، لا سيما ومعنى الاستقبال في الماضي هاهنا واضح، ونظيره قوله تعالى: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ [الفرقان:١٠]، ثم عطف عليه: ﴿ويجعل لك قصوراً﴾[1] [الفرقان:١٠]، وأنشد من ذلك قول الشاعر:

إن يسمَعُوا ريبةً طَارُوا بها فَرَحاً عَني وما سَمِعُوا من صَالحٍ دَفَنُوا[2]

أي: يدفنوا.

﴿فهم لا يسمعون﴾ نَفْيُ السماع عنهم هاهنا في معنى إثبات الصمم لهم في قوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:١٨] وقد سبق تأويله.

وقيل: المعنى فهم لا يقبلون، كقوله: «سمع الله لمن حمده»، وقد سبق تقديره فيما مضى.

تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣١٠).

(٢) البيت لقعنب بن أم صاحب. وهو في: المثل السائر (١/ ١١٧)، وديوان الحماسة (٢/ ١٨٧)، وروضة العقلاء (ص:١٧٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٥، ٦/ ٤٧٦)، وروح المعاني (١٠/ ١٢٦)، واللسان، مادة: (شور، أذن)، وتاج العروس (مادة: أذن).

قوله تعالى: ﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ قال الزمخشري[(١)]: هو كقوله: ﴿وهذا بعلي شيخاً﴾ [هود:٧٢] في أنه مبتدأ وخبر وحال. ويجوز أن يكون «القرى» صفة [لـ«تلك»][(٢)]، و«نقصّ» خبراً، وأن يكون «القرى نقصّ» خبراً بعد خبر[(٣)].

فإن قلت: ما معنى "تلك القرى" حتى تكون كلاماً مفيداً؟

قلت: هو كلام مفيد، لكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم.

فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بـ«نقص عليك»؟

قلت: معناه: أن تلك القرى المذكورة نقصّ عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصّها عليك.

﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ وهي الدلائل والبراهين، ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ عند مجيء الرسل إليهم، وظهور البينات والمعجزات، ﴿بما كذبوا من قبل﴾ ذلك.

وقيل: المراد بالقبليّة: ما سبق في العلم والمشيئة. وهو قول أبي بن كعب[(٤)].

وقيل: المعنى: ما كان الخلف ليؤمنوا بما كذب به السلف من قبل.

---

(١) الكشاف (٢/ ١٢٧-١٢٨).

(٢) في الأصل: لذلك. والتصويب من الكشاف (٢/ ١٢٧).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣١٢).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وقال ابن عباس: المعنى: فما كانوا ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذبوا به يوم أخذ ميثاقهم، حين أخرجهم من صلب آدم، فآمنوا كرهاً، حيث أقروا بالألسنة وأضمروا التكذيب[١].

وقال مجاهد: المعنى: فما كانوا لو رددناهم إلى الدنيا بعد موتهم ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل هلاكهم، فهو نظير قوله: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾[٢] [الأنعام:٢٨].

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك الطبع الشديد ﴿نطبع على قلوب الكافرين﴾.

قوله تعالى: ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ أي: ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بالعهد الذي أخذناه عليهم حين أخرجناهم من ظهر آدم. هذا هو قول ابن عباس وأكثر المفسرين[٣].

وقال الحسن البصري: المراد بالعهد هاهنا: ما عهده إليهم مع الأنبياء أن لا يشركوا به شيئاً[٤].

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٠)، ومجاهد (ص:٢٤١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٧) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٠-١٥٣١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٠٨-٥٠٩) وعزاه لابن أبي حاتم عن الحسن. ومن طريق آخر عن أبي العالية وعزاه لابن أبي حاتم. ومن طريق آخر عن أبي بن كعب، وعزاه لابن جرير. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) زاد المسير (٣/ ٢٣٦).

﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ قال أبو عبيدة(١): المعنى: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

والقاعدة التي راعيناها في هذا الباب من هذا الكتاب، ما عليه حذّاق البصريين: من أنّ «إنْ» هي المخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية(٢)، على معنى: وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين مارقين من الطاعة.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ
جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن
قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا
لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٢٣).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣١٣).

قوله تعالى: ﴿ثم بعثنا من بعدهم﴾ أي: من بعد الرسل المذكورين ﴿موسى بآياتنا﴾ وهي المعجزات الخارقة التي أعطيها؛ كالعصا وانفلاق البحر، ﴿إلى فرعون وملأه فظلموا بها﴾ أي: جعلوا بدل الإيمان بها الكفر، فظلموا بذلك غاية الظلم، ﴿فانظر﴾ بعين قلبك ﴿كيف كان عاقبة المفسدين﴾.

قوله تعالى: ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ قرأ نافع: بالتشديد، بمعنى: واجب عَلَيّ أن لا أقول إلا الحق.

وبها قرأتُ أيضاً لأبان عن عاصم.

وقرأ عبدالله: «حقيق أن لا» بإسقاط «على»[(١)].

وقرأ أُبيّ بن كعب: «حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق» بإسقاط «على» وإقامة الباء مقامها[(٢)].

وقرأ الأكثرون: «حقيق على أن لا أقول» بتخفيف وحذف الباء[(٣)].

قال الفراء[(٤)]: العرب تجعل الباء في موضع «على»، فتقول: رميت بالقوس وعلى القوس، وجئت بحالٍ حسنة وعلى حالٍ حسنة.

وقال أبو عبيدة[(٥)]: «حقيق» بمعنى: حريص.

---

(١) وهذه القراءة شاذة؛ لمخالفتها الرسم العثماني. انظر: مختصر شواذ القرآن لابن خالويه (ص:٥٠)، والدر المصون (٣/ ٣١٦).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر (٤/ ٣٥٦)، والدر المصون (٣/ ٣١٥).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٥٤-٢٥٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٩)، والكشف (١/ ٤٦٩)، والنشر (٢/ ٢٧٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٧)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٧).

(٤) معاني الفراء (١/ ٣٨٦) وبه قال أبو الحسن والفارسي.

(٥) مجاز القرآن (١/ ٢٢٤).

﴿قد جئتكم ببينة من ربكم﴾ قال ابن عباس: يعني: العصا[١].

﴿فأرسل معيَ بني إسرائيل﴾ أي: أطلق عنهم يدك العادية حتى يذهبوا إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وكان اللعين قد استعبدهم واستذلّهم بعزّ سلطانه، واستخدمهم في الأعمال الشاقة بعد موت يوسف عليه السلام، [وانقراض][٢] الأسباط، فاستنقذهم الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.

وكان بين اليوم الذي دخل فيه يوسف مصر وبين اليوم الذي دخلها فيه موسى رسولاً؛ أربعمائة سنة.

﴿قال إن كنت جئت بآية فأت بها﴾ أي: فأتني بها وأظهرها لي ﴿إن كنت من الصادقين﴾ فيما تقول.

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ ظاهر لا لبس فيه. والثعبان: الحية الضخم الذّكر.

قال ابن عباس والفراء[٣]: الثعبان: أعظم الحيات، وهو الذَّكَر[٤].

قال ابن السائب: [ملأت][٥] الحية دار فرعون، ثم فتحت فاها، فإذا شدقها ثمانون ذراعاً، ثم شدت على فرعون لتبتلعه، فوثب عن سريره وهرب، وقام به

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٣٧).

(٢) في الأصل: وانقراط.

(٣) معاني الفراء (١/ ٣٨٧).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) في الأصل: ملأ. والتصويب من الوسيط (٢/ ٣٩٢).

بطنه ذلك اليوم أربعمائة مرة، ولم يستمسك بطنه بعد ذلك حتى هلك(١).

ويروى: أن الناس ازدحموا حين انهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً(٢).

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ قال ابن عباس: أدخلها في جيبه ثم أخرجها فإذا هي تبرق مثل البرق، لها شعاع غلب نور الشمس، فخروا على وجوههم، ثم أدخلها إلى جيبه فعادت كما كانت(٣).

فلما شاهدوا هذه الخوارق نسبوه إلى السحر، فذلك قوله حاكياً عنهم: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾.

فإن قيل: القصة واحدة، فكيف عزا هذا القول هاهنا إلى الملأ، وعزاه في الشعراء إلى فرعون فقال: ﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾؟

قلت: إما أن يكون القول صدر منه ومنهم، فحكاه سبحانه تعالى في أحد الموضعين عنه، وفي الآخر عنهم. وإما أن يكون ابتداء القول من فرعون، فتلقّاه الملأ فقالوه لمن دونهم في الرتبة على قبيل التبليغ.

والمعنى: إن هذا لساحر حاذق يعلم السحر، يأخذ بأعين الناس بخداعه إياهم حتى يخيل إليهم الشيء بخلاف ما هو عليه، ومنه: سحر المطر الأرض؛ إذا قلع

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٢).

(٢) انظر: الطبري (٩/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٢).

(٣) أخرج نحوه الطبري (٩/ ١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٣). وانظر نص المصنف في: زاد المسير (٣/ ٢٣٨).

نباتها من أصوله، وقلب الأرض ظهراً لبطن[(١)].

﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ يعني: يريد أن يخرجكم أيها القبط من أرض مصر ﴿فماذا تأمرون﴾ أي: ماذا تشيرون به عليّ، من قولك: أمرته فأمرني بكذا، أي: استشرته فأشار عليّ بكذا. وهذا من تمام كلام فرعون.

وقيل: من تمام كلام الملأ لفرعون وخاصته، أو له وحده، على مذهب التعظيم، أو لمن دونه في الرتبة يستخرجون ما عندهم من الرأي.

والأول -وهو اعتقاد كونه من قول فرعون- أجود؛ توفيقاً ما بين هذا الموضع وبين ما في سورة الشعراء، ولقوله عقيبه: ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾.

قرأ نافع وأهل الكوفة: «أَرْجِهِ» بغير همز، هنا وفي الشعراء[(٢)]، غير أن عاصماً وحمزة سكّنا الهاء، وكسرها قالون. ووصلها بياء في الوصل: ورش والكسائي، وهمزها الباقون، غير أن أبا عمرو يضم الهاء، وابن ذكون يكسرها[(٣)]، وهشاماً وابن كثير يصلانها بواو في الوصل والهمز[(٤)]، وتركه لغتان صحيحتان. تقول: أَرْجَأْته وأَرْجَيْتُه، بمعنى: أَخَّرْته[(٥)].

---

(١) انظر: اللسان (مادة: سحر).

(٢) عند الآية رقم: ٣٦.

(٣) قال أبو بكر: وقول ابن ذكوان هذا وهم؛ لأن الهاء لا يجوز كسرها وقبلها همزة ساكنة، وإنما يجوز إذا كان قبلها ياء ساكنة أو كسرة، وأما الهمز فلا.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢٥٥-٢٥٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٨٩-٢٩١)، والكشف (١/ ٤٧٠)، والنشر (٢/ ١٠٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٧-٢٢٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٧-٢٨٩).

(٥) انظر: اللسان (مادة: رجأ).

قال الفراء[١]: بنو أسد يقولون: أرجيت الأمر بغير همز، وكذلك عامة قيس، وبعض بني تميم يقولون: أرجأت الأمر بالهمز، والقراء مولعون بهمزها، وترك الهمز أجود.

وجميع القراءات التي فيها جيدة، غير أن الزجاج قال[٢]: من قرأ: «أرجهْ» بإسكان الهاء فلا [يعرفها][٣] الحذاق بالنحو، ويزعمون أن هاء الإضمار اسمٌ لا يجوز إسكانها.

قال[٤]: وزعم بعض النحويين أن إسكانها جائز، وقد رُويت لعمري في القراءة، إلا أن التحريك أكثر وأجود.

ومعنى الكلام: أخِّرْهما عنك حتى ترى رأيك فيهما.

﴿وأرسل في المدائن﴾ أي: مدائن مصر، ﴿حاشرين﴾ رجالاً يحشرون حذّاق السحرة ويجمعونهم إليك، ألا تراه يقول: ﴿يأتوك بكل ساحر عليم﴾.

قرأ حمزة والكسائي: «سحّار» بلفظ المبالغة هنا وفي يونس[٥]، على وزن [فعّال][٦]، وقرأهما الباقون: «ساحر» بوزن فاعل. واتفقوا على التي في الشعراء[٧]

---

(١) لم أقف عليه في معاني الفراء. وانظر قول الفراء في: زاد المسير (٣/ ٢٣٩).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٥).

(٣) في الأصل: يعرفه. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) أي: الزجاج.

(٥) عند الآية رقم: ٧٩.

(٦) في الأصل: فاعل. وهو خطأ. والصواب ما أثبتناه.

(٧) عند الآية رقم: ٣٧.

فقرؤوها: «سحّار» بتشديد الحاء بلفظ المبالغة[١].

قوله تعالى: ﴿وجاء السحرة فرعون﴾ قال المفسرون: لم يترك في سلطانه ساحراً إلا أحضره، وكانوا إذ ذاك متوافرين.

وقد اختلفوا في عدد السحرة الذين جمعهم فرعون اختلافاً متنافراً؛ فروي عن ابن عباس ثلاث روايات:

إحداها: أنهم اثنان وسبعون. والثانية: سبعون. والثالثة: اثنان وسبعون ألفاً[٢].

وقال عطاء: سبعون ألفاً[٣]. وروي مثله عن وهب وقال: فاختار منهم سبعة آلاف[٤].

وقال الحسن: خمسة وعشرون ألفاً[٥].

وقال ابن إسحاق: خمسة عشر ألفاً[٦].

وقيل: غير ذلك. والله تعالى أعلم بعددهم.

قال ابن إسحاق: رؤوس السحرة: ساتور، وعاذور، وحُطْحُط، ومصفى،

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٥٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩١-٢٩٢)، والكشف (١/ ٤٧١)، والنشر (٢/ ٢٧٠-٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٩).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٤٠).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) زاد المسير (٣/ ٢٤١).

(٥) مثل السابق.

(٦) مثل السابق.

وهم الذين آمنوا[١]. كذا حكاه ابن ماكولا[٢].

قال مقاتل[٣]: واسم أكبرهم: شمعون.

﴿قالوا أئنّ لنا لأجراً﴾ قرأ الحرميان وحفص: «إن لنا» بهمزة واحدة مكسورة على الخبر[٤]. وقرأ الباقون بالاستفهام، على ما عرف من تفاصيل مذهبهم.

قال أبو علي الفارسي في هذه القراءة[٥]: هو أشبه بهذا الموضع؛ لأنهم لم يقطعوا على أن لهم الأجر، وإنما استفهموا عنه.

﴿قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾ فضمن لهم الأجر عليه وزادهم قربهم إليه.

والمعنى: إنكم لمن المقربين عندي في المنزلة إن غلبتم موسى.

ويروى: أن السحرة قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعل، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر؛ [لأن الساحر][٦] إذا نام بطل سحره، [فأبى][٧] إلا أن يعارضوه[٨].

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٥) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) الإكمال (٤/ ٢٤٩).

(٣) تفسير مقاتل (١/ ٤٠٨).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢٥٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٢)، والكشف (١/ ٤٧٢)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٨٩).

(٥) الحجة (٢/ ٢٥٨).

(٦) زيادة من الكشاف (٣/ ٧٨).

(٧) في الأصل: فأبوا. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ٧٨). وانظر: البغوي (٣/ ٢٢٥).

أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي﴾ عصاك ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ حبالنا وعصينا، وهذا الإقدام منهم والاجتراء على التخيير في الابتداء بالإلقاء، يدل على وثوقهم من أنفسهم بإتقان صنعة السحر والمهارة فيه.

ويروى: أن رأس السحرة ومعلمهم قال لفرعون: لقد علمتُهم سحراً لا يطيقه أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السماء، فإنه لا طاقة لهم به[(١)].

وقال السدي: قال أمير السحرة لموسى: لآتينك غداً بسحر لا يغلبه السحر، ولئن غلبتني لأؤمنن بك[(٢)].

﴿قال ألقوا﴾[(٣)] إن قيل: كيف استجاز موسى عليه السلام أن يأمرهم بالسحر؟

قلت: إن كان السحر محرماً في شريعته، فهذا كان في مبادئ رسالته قبل نزول التوراة عليه، وتفصيل الأحكام تبين الحلال والحرام، على أن أمرهم بالإلقاء ليس

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٩) عن ابن عباس. وانظر: البغوي (٢/ ١٨٧).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٤١).

(٣) في الأصل: "قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون". وهو خطأ.

مقصوداً لذاته، وإنما لم يستلزم من إظهار معجزته وإبطال سحرهم وإقامة الحجة عليهم، والحرام قد يصير حلالاً، بل واجباً في بعض الصور؛ إذا استلزم مصلحة عامة، أو أمداً مطلوباً في نظر الشرع. ألا ترى أن أكل الميتة حرام، ثم في حالة الاضطرار يصير واجباً؛ حفظاً للنفس من التلف، والكفار إذا تترسوا بالمسلمين ولم يكن لنا وصول إلى قتلهم إلا بهلاك الذين تترسوا بهم من المسلمين، فإنا نقاتلهم وننوي قتل الكفار، ويقع قتل المسلمين بطريق الضمن والتبع؛ نظراً إلى تحقيق المصلحة العامة.

وذكر الماوردي[1] عن هذا السؤال جوابين:

أحدهما: أن مضمون أمره: إن كنتم محقين فألقوا.

الثاني: ألقوا على ما يصح، لا على ما يفسد ويستحيل.

فإن قيل: ما الحكمة في اختيار موسى عليه السلام تقدمهم عليه في الإلقاء؟

قلت: عنه أجوبة:

أحدها: أنه رأى لهم حرصاً على التقدم ورغبة فيه، ألا ترى إلى قولهم: ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ فأكدوا الضمير وعرفوا الخبر، فسوغ موسى لهم ذلك استحالة لهم إلى الإيمان والإنصاف.

الثاني: أنهم خَيَّرُوه، وكان من تمام الأدب وحسن العشرة وكمال المروءة أن يجازيهم بالأحسن والأجمل، فقدَّمهم لذلك.

الثالث: أن في تثبته عليه السلام وكونه لم يعجل ويبادر إلى الإلقاء عقيب

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٢٤٦).

التخيير احتقاراً وازدراء بشأنهم الذي قد حشدوا وحشروا الناس لأجله، وإظهاراً لقلة المبالاة به.

والرابع: أنه عليه السلام أراد دفع باطلهم بالحق الذي جاء به، وأن يقروا ذلك في نفوسهم. فلو ألقى قبلهم لخامر قلوبهم من الوجل الذي لزم منه اختلال النظر ما خامرهم أوّلاً حين ازدحموا حتى مات منهم خمسة وعشرون ألفاً، فأمرهم بالإلقاء قبله ليروا بأبصارهم الناظرة، وبصائرهم الحاضرة، أَثَرَ معجزته في سحرهم العظيم الذي جاؤوا به، فيكون ذلك أبلغ في تحقيق معجزته وتحصيل مقصوده وإقامة حجته.

قوله تعالى: ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس﴾ قلبوها عن صحة إدراكها حتى رأوا الحبال والعصي حيات غلاظاً قد ملأت الأرض، ﴿واسترهبوهم﴾ قال الزجاج[1]: استدعوا رهبَتَهُم حتى رهبهم الناس.

ويجوز أن تكون السين زائدة كما سبق، على معنى: أرهبوهم[2].

﴿وجاؤوا بسحر عظيم﴾ في بابه.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فيه إضمار، تقديره: فألقاها، ﴿فإذا هي تلقف﴾. قرأ حفص: بإسكان اللام وتخفيف القاف حيث وقع. وقرأ الباقون: بفتح اللام وتشديد القاف[3]. يقال: لَقِفْتُ الشيء وألْقَفه لَقْفاً وتَلَقَّفْته

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٦).

(٢) وهو قول المبرد.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٥٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٢)، والكشف (١/ ٤٧٣)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٠).

والْتَقَفْته[١]، والمعنى: فإذا هي تبتلع ﴿ما يأفكون﴾ أي: يكذبون ويزوّرون على الناس.

قال جماعة من المفسرين: كانوا جعلوا في حبالهم وعصيّهم الزئبق[٢] وصوروها على صور الحيات، فاضطرب الزئبق؛ لأنه لا يستقر[٣].

وفي هذا بُعد؛ لأن الله تعالى سماه سحراً، [ووصفه][٤] بكونه عظيماً وكونه كيداً.

قال ابن عباس: ألقى موسى عصاه فإذا هي أعظم من حبالهم وعصيّهم قد سدّت الأفق، ثم فتحت فاها ثمانين ذراعاً فابتلعت ما ألقوا، وجعلت تأكل جميع ما وردت عليه من صخرة وشجرة والناس ينظرون، وفرعون يضحك تجلداً، فأقبلت الحية نحو فرعون فصاح: يا موسى يا موسى، فأخذها، وعرفت السحرة أن هذا من السماء، فَخَرُّوا سُجَّداً[٥].

قوله تعالى: ﴿فوقع الحق﴾ أي: حصل وثبت، ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ من السحر لما فقدوا حبالهم وعصيّهم.

﴿فغلبوا هنالك﴾ في ذلك الجمع العظيم، ﴿وانقلبوا﴾ يعني: فرعون وملأه، ﴿صاغرين﴾ ذليلين.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: لقف).

(٢) الزئبق: عنصر فلزي سائل في درجة الحرارة العادية (المعجم الوسيط ١/ ٣٨٧).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٥).

(٤) في الأصل: ووصوفه.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٤١).

﴿وألقي السحرة﴾ لعظيم ما شاهدوه من المعجز الذي اضطرهم إلى الإيمان ﴿ساجدين﴾.

قال ابن عباس: خَرُّوا لله سامعين مطيعين[1].

وقال ابن عباس أيضاً: لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل[2].

﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾ فقال لهم فرعون: إياي تعنون، فقالوا: ﴿رب موسى وهارون﴾.

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى
ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ
وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا
مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ
مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ
أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ
ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ
وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٧) وعزاه لابن جرير.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

﴿قال فرعون آمنتم به﴾ قرأ حفص ووَرْش: «آمنتم» بهمزة واحدة على الخبر، والباقون بالاستفهام، على تفصيلٍ لهم[1]، وكذلك الذي في طه[2] والشعراء[3].

والمعنى: أصدقتم موسى ﴿قبل أن آذن لكم﴾.

ثم أخذ الخبيث عند ظهور الحق يموّه على الخلق فقال: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة﴾ أي: تصنيع صنعتموه في المدينة فيما بينكم وبين موسى في مصر قبل خروجكم إلى الصحراء ﴿لتخرجوا منها أهلها﴾ يعني: القبط، وتسكنوها بني إسرائيل. ثم هدّدهم فقال: ﴿فسوف تعلمون﴾.

ثم فصّل ما أجمله من الوعيد فقال: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ يريد: قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

قال ابن عباس: أول من قطع ذلك وصلب فرعون[4].

﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فيجازى كلاًّ بعمله.

﴿وما تنقم منا﴾ أي: ما تعيب منا ﴿إلا أن آمنا بآيات ربنا﴾ التي جاء بها موسى

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٠-٢٦١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٣)، والكشف (١/ ٤٧٣)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٨)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٠).

(٢) عند الآية رقم: ٧١.

(٣) عند الآية رقم: ٤٩.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٢٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

من عند الله ﴿لما جاءتنا﴾ وهذا مثل قول الشاعر:

ولا عَيْبَ فِيهِم ....

وقد سبق.

ثم سألوا الله الصبر على ما توعدهم به والثبات على الدين، فقالوا: ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾.

قال مجاهد: أُصبب علينا الصبر عند القطع والصلب حتى لا نرجع كفاراً، ﴿وتوفنا مسلمين﴾ مخلصين على دين موسى[١].

قال ابن عباس: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء[٢].

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ أي: أرض مصر، بإظهار تضليلك وتجهيلك، والدعاء إلى غير سبيلك، والاستيلاء على ملكك، والتسبب إلى هلكك.

﴿ويذرك وآلهتك﴾ عطف على «ليفسدوا»، وهو جواب للاستفهام بالواو[٣]. وهو قول ابن الأنباري والزجاج[٤].

وقرأ أنس بن مالك: «ونَذَرَكَ» بالنون والنصب[٥].

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٦)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٣).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢٤، ١٦/ ١٨٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٣٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٣) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٢)، والدر المصون (٣/ ٣٢٤-٣٢٥).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٧).

(٥) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٦٧)، والدر المصون (٣/ ٣٢٥).

وقرأ الحسن: «ويذرُك» بالرفع[1]، على معنى: وهو يذرك، أو هو عطف على «أتذر موسى».

فإن قيل: هو في اعتقادهم ربهم الأعلى، فكيف قالوا: «وآلهتك»؟

قلت: قد روي عن ابن عباس أنه قال: صنع فرعون أصناماً لقومه وأمرهم بعبادتها وقال: أنا ربكم ورب هذه الأصنام، فذلك قوله: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾[2] [النازعات:٢٤]، فيكون المعنى: ويذرك وآلهتك التي صنعتها ونصبتها للعبادة.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس والحسن في آخرين: «ويذرك وإلاهتك» بكسر الهمزة وقصرها وفتح اللام وألف بعدها[3]. المعنى: ويذرك وربوبيتك وعبادة الناس إياك.

فحملته الحمية حين غرّوه وأغروه بموسى وقومه فقال: ﴿سنقتّل أبناءهم﴾ وخفّفها ابن كثير ونافع، وشدّدها الباقون[4].

والمعنى: سنعيد عليهم قتل الأبناء، واستحياء النساء، أراد اللعين بذلك إيلام بني إسرائيل واستذلالهم، واجتثاث أصلهم، واستئصال نسلهم، وإيهام أغمار[5] القبط وطغامهم أن موسى ليس هو ذلك المولود الموعود به على ألسنة الكهنة، فإنه خاف انخزالهم عن عادتهم في عبادتهم إياه، فتداخلَ بني إسرائيل روعةُ الوعيد

(١) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٩).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٤٢).

(٣) انظر هذه القراءة في: الطبري (٩/ ٢٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٤).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٤)، والكشف (١/ ٤٧٤)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٢).

(٥) الغمر: الرجل الجاهل بالأمور، والجمع: أغمار (الغريب لابن سلام ١/ ٢٤٩).

والتهديد، فعادوا إلى صاحب الآية، فهداهم إلى الاعتصام بأوثق أسباب النصر، فقال: ﴿استعينوا بالله واصبروا﴾ أي: اصبروا على دينكم.

وقال الواحدي والإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمهما الله(١): المعنى: اصبروا على ما يُفعل بكم، فإنه عليه السلام خاف عليهم الردة عند تفاقم الشدة.

﴿إن الأرض لله﴾ مُلْكاً وخَلْقاً، واللام في الأمرين للعهد أو للجنس، ﴿يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾.

قال ابن عباس: العاقبة: الجنة لمن اتقى(٢).

وقيل: العاقبة هاهنا: النصر والظفر(٣).

﴿قالوا﴾ يعني: قوم موسى له ﴿أوذينا من قبل أن تأتينا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء واستحياء النساء والاستعباد، والاستخدام في الأعمال الشاقة والمهن، وضرب الجزية، ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ بإعادة ذلك علينا، ﴿قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ فرعون وقومه.

﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ قال ابن عباس: أرض مصر(٤).

وقيل: أرض الشام(٥).

ويجوز عندي: أن يريد جنس الأرض، على معنى: يجعلكم أيها المؤمنون خلفاً

---

(١) الوسيط (٢/ ٣٩٧)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٧).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٣٩٧)، وزاد المسير (٣/ ٢٤٥).

(٤) زاد المسير (٣/ ٢٤٦).

(٥) مثل السابق.

فيها، ﴿فينظر كيف تعملون﴾ أي: فيرى الكائنَ منكم من صالح وطالح.

وروي: أن بعض الزُّهَّاد[١] دخل على المنصور قبل أن يلي الخلافة وعلى مائدته رغيفان، فطلب زيادة لأجله فلم يجد، فقرأ الزاهد هذه الآية: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم... الآية﴾، ثم دخل عليه بعد الخلافة فذكر له ذلك، وقال: قد بقي ﴿فينظر كيف تعملون﴾.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي: ابتلينا أهل دينه بالجدب.

قال الزجاج[٢]: يقال: مَسَّتهم السَّنَة، ومعناه: جدْب السنة.

وقال غيره: يقال منه: أسنت القوم؛ إذا أجدبوا[٣].

قال الشاعر:

عَمْرو العُلى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ ... ورِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[٤]

---

(١) وهو عمرو بن عبيد بن باب، التميمي بالولاء، أبو عثمان البصري. أحد كبار المعتزلة وزهادهم وشيخهم في عصره، كان جده من سبي فارس، وأبوه نساجاً، ثم شرطياً للحجاج في البصرة. مات سنة ١٤٤هـ (وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٠، وأخبار أصفهان ٢/ ٣٣، والبداية والنهاية ١٠/ ٧٨، والأعلام ٥/ ٨١).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٨).

(٣) انظر: اللسان (مادة: سنت).

(٤) البيت لعبدالله بن الزبعرى. وهو في: تاريخ الطبري (١/ ٥٠٤)، واللسان وتاج العروس (مادة: =

قال قتادة: أما السَّنَة: فكانت في بواديهم ومواشيهم. وأما نقص الثمرات: فكان في أمصارهم وقراهم[(١)].

وقال ابن عباس في رواية الضحاك: يبس لهم كل شيء، وذهبت مواشيهم، حتى يبس نيل مصر، فاجتمعوا إلى فرعون فقالوا: إن كنت رباً كما تزعم فاملأ لنا نيل مصر، فقال: [غدوة][(٢)] يصبحكم الماء. فلما خرجوا من عنده قال: أي شيء صنعت! أنا أقدر أن أجيء بالماء في نيل مصر، أُصبحُ فيكذبوني. فلما كان جوف الليل اغتسل، ثم لبس مدرعة من صوف، ثم خرج حافياً حتى أتى بطن نيل مصر، فقام في بطنه فقال: اللهم إنك تعلم أني أعلم أنك تقدر [أن][(٣)] تملأ نيل مصر، فاملأه، فما علم إلا بخرير الماء، لِمَا أراد الله به من الهلكة[(٤)].

قوله تعالى: ﴿لعلهم يذكرون﴾ أي: فعلنا بهم ذلك لعلهم يذكرون؛ لأن أحوال الشدة ترقق القلب وتوجب الخضوع والخشوع، وتكشف أغطية الغفلة.

قوله تعالى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ وهي الغيث والخصب والعافية وسعة الأرزاق، ﴿قالوا لنا هذه﴾ يعنون بجهة الاستحقاق، نظراً إلى ما ألفوه من الرفاهية،

= هشم، سنت)، والعين (٣/ ٤٠٥)، والدر المصون (٣/ ٣٢٧)، والقرطبي (٧/ ٢٦٤، ٢٠/ ٢٠٥)، والإنصاف (٢/ ٦٦٣)، وصبح الأعشى (١/ ٤١٢).

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) في الأصل: غدة. والتصويب من المصادر التالية.

(٣) زيادة من المصادر التالية.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٤٧)، والسيوطي في الدر (٣/ ٥١٨) وعزاه للحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم.

فلم يشكروا مولاها، بل أصروا على كفرهم وتمادوا في غيّهم، ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ وهي نقيض الحسنة المذكورة ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ فيتشاءموا بهم.

قال الزجاج[1]: إنما قالت العرب الطيرة؛ لأنهم كانوا يزجرون الطائر، فإذا كان ذلك على جهة ما يكرهون على ما اصطلحوا عليه بينهم، جعلوا ذلك أمراً يتشاءمون به.

﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: شؤمهم الذي جاءهم من عند الله بسبب كفرهم، أو يكون المقصود من قوله: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ تقليل ما تشاءموا به في الدنيا بالنسبة إلى ما ادخر لهم من الشؤم في الدار الآخرة. وهو قول الزجاج[2].

﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أن الكل من عند الله.

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ
مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ
قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ
بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٨).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٦٩).

كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

﴿وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ الذي عليه حذّاق النحاة: أن «مهما» كلمة تستعمل للشرط والجزاء، أصلها «ما ما» الأولى للجزاء، والثانية زيدت للتوكيد، كما في سائر حروف الجزاء، نحو: ﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ [الأنفال:٥٧]، ومتى ما، ثم إنهم قلبوا الألف في الأولى هاء؛ فراراً من تكرير المتجانسين، وهذا قول الخليل وسيبويه وسائر البصريين[١].

قال ابن زيد: معناه: ما تأتنا به، والثانية زائدة[٢].

وقال الكسائي: «مَهْ» للزجر، و«ما» للجزاء[٣].

قال الواحدي[٤]: ومعنى الآية: أنهم قالوا لموسى: متى ما أتيتنا بآية، مثل: اليد والعصا، لتسحرنا بها فإنا لن نؤمن لك.

وهذا كلام مدخول فيه على الواحدي، فإن «مهما» ليست من أسماء الزمان.

---

(١) انظر: العين (٣/ ٣٥٨)، والكتاب لسيبويه (٣/ ٥٩). وانظر: المفصل لابن يعيش (٤/ ٨). وحكى الرازي في تفسيره عن الكسائي: أن الأصل (مه) التي بمعنى الكفّ؛ أي: اكفف، دخلت على (ما) التي للجزاء، كأنهم قالوا: اكفف ما تأتنا به من آية فهو كذا وكذا.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٣٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٢٩).

(٤) الوسيط (٢/ ٣٩٨).

وإلى هذا أشار صاحب الكشاف بقوله[(١)]: وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرّفها مَنْ لا يد له في العربية، فيضعها غير موضعها، ويحسب «مهما» بمعنى «متى ما»، ثم يذهب فيفسر ﴿مهما تأتنا به﴾ بمعنى الوقت، فيُلحد في آيات الله وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو[(٢)] بين يدي الناظر في كتاب سيبويه. وإنما سمّوها آية على طريق الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ المشهور: أن ذلك كان بعد أن فرغ أمر السحرة.

وقال السدي: كان قبل أمر السحرة.

قال الأخفش[(٣)]: والطوفان: جمع طُوفَانة، وهو السيل الطاغي.

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: أرسل الله عليهم المطر ليلاً ونهاراً ثمانية أيام، فكان الرجل لا يقدر على الخروج، وامتلأت بيوت القبط ماء دون بيوت بني إسرائيل حتى خافوا الغرق[(٤)].

وقيل: أرسل الله عليهم الطاعون والمَوْتان[(٥)].

وروي عن النبي ﷺ: «أنه الموت الذريع الجارف». وهو قول جماعة، منهم:

---

(١) الكشاف (٢/ ١٣٨).

(٢) في الأصل زيادة قوله: في. وانظر: الكشاف (٢/ ١٣٨).

(٣) معاني القرآن للأخفش (ص:١٩٧).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٣٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٩) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن عباس.

(٥) الموتان: الموت الكثير الوقوع (اللسان، مادة: موت).

مجاهد، وعطاء[١].

قال ابن عباس وغيره: فاستغاثوا بموسى وقالوا: سل ربك أن يكشف عنا الطوفان ونحن نؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فنبت في ذلك العام من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله، فقالوا: هذا ما كنا نتمنى، فأصروا على كفرهم وعنادهم، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم، ثم أكل كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه شيء، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة، فدعا ربه عز وجل فكشفه عنهم، فلم يتوبوا، فسلّط الله على ما بقي عندهم من أقواتهم القمّل[٢].

قال سعيد بن جبير: فأكل ما أبقاه الجراد ولحس الأرض، وكان يدخل بين ثوب الرجل وجلده فيمصّه، وكان أحدهم يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلا يردّ منها إلا شيئاً يسيراً[٣].

واختلفوا في القُمّل؛ فقيل: هو السوس الذي يكون في الحنطة[٤]، وهو معنى

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٣١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥١٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ عن مجاهد. ومن طريق آخر عن عطاء، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٣٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٥-١٥٤٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٢٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: التخريج السابق.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٣٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٧)، ومجاهد (ص:٢٤٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٢٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم. وهذا هو قول ابن عباس في رواية سعيد بن جبير.

قول الحسن وسعيد بن جبير: هو دواب سود صغار[١].

وقال مجاهد وعطاء وقتادة: هو الدَّبا، وهو الجراد إذا تحرك قبل نبات أجنحته[٢]. والقولان عن ابن عباس[٣].

وقيل: القُمَّل: الحمنان، والواحد حمنانة.

قال أبو عبيدة[٤]: هو ضرب من القِرْدان.

وقيل: القُمَّل: القَمْل. قاله جماعة، منهم: زيد بن أسلم[٥]، وكذا قرأها الحسن، بفتح القاف وسكون الميم.

قال المفسرون: فعجّوا من ذلك وشكوا إلى موسى وأعطوه عهد الله وميثاقه إن كشف عنهم هذا ليؤمنن وليرسلن معه بني إسرائيل، فدعا لهم موسى فكشف الله تعالى ما بهم، فقالوا: تحققنا الآن أنك ساحر. وقال فرعون: لا نصدقك أبداً، فأرسل الله عليهم الضفادع ولم يكن عليهم شيء أشدَّ منها[٦].

قال المفسرون: أوحى الله تعالى إلى موسى أن يقوم على ضفة النيل ويشير بعصاه إلى أدناه وأقصاه، ففعل ذلك موسى، فتداعت الضفادع بالنقيق من كل جانب، حتى أعلم بعضها بعضاً، ثم خرجت مثل الليل الدامس، حتى دخلت

---

(١) انظر: المصادر السابقة.

(٢) انظر: الطبري (٩/ ٣٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٧)، ومجاهد (ص:٢٤٤).

(٣) انظر القول الثاني في: تفسير ابن عباس (ص:٢٣٣).

(٤) مجاز القرآن (١/ ٢٢٦).

والقِرْدان: دُوَيْبَة تعضُّ الإبل، واحدته: قُراد (اللسان، مادة: قرد).

(٥) انظر: الطبري (٩/ ٣٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٧)، ومجاهد (ص:٢٤٤).

(٦) انظر: الطبري (٩/ ٣٩).

بيوتهم بغتة، وامتلأت منها آنيتهم وأفنيتهم وأطعمتهم، فكان لا يكشف أحد ثوباً ولا إناء ولا طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع. وكان الرجل إذا فتح فاه ليتكلم تثب الضفدع فيه، وكانت تلقي أنفسها في القدور وهي تفور، وفي التنور وهو يَسْجُرُ[(١)]، وفي العجين فيشدخ[(٢)] فيه، ومنعهم القرار والنوم، حتى إن الواحد منهم كان إذا نام فاستيقظ، وجد الضفادع قد ركبته ذراعاً بعضها فوق بعض، فاستغاثوا بموسى وأعطوه العهد المؤكد على الإيمان به وإرسال بني إسرائيل معه، فدعا الله عز وجل فكشفها عنهم، وأراحهم منها فلم يؤمنوا ولم يفوا له بالعهد، فأرسل الله عليهم الدّم فصارت أنهارهم وآبارهم ومياههم كلها دماً[(٣)].

قال قتادة: ذكر لنا أن فرعون كان يجمع بين الرجلين في إناء واحد، القبطي والإسرائيلي، وكان ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً[(٤)].

وقال مجاهد: كان يستقي الإسرائيلي من النيل ماء طيباً، ويستقي الفرعوني دماً[(٥)].

وقيل: كانت القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية: اجعلي الماء في فيك ثم مُجّيه[(٦)]

---

(١) سَجَرَ التنور يَسْجُرُه سَجْراً: أوقده وأحماه. وقيل: أشبع وقوده (اللسان، مادة: سجر).

(٢) الشّدخ: الكسر في شيء رطب. وقيل: هو التهشيم (اللسان، مادة: شدخ).

(٣) انظر: الطبري (٩/ ٣٩)، والوسيط (٢/ ٤٠١-٤٠٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٠).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٢٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ٣٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٤٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٢٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) مَجَّ الماء من الفم: صبَّه من فمه قريباً أو بعيداً (انظر: اللسان، مادة: مجج).

في فيّ، فيصير الماء في فمها دماً[١].

فقال فرعون: يا موسى قسمٌ لئن [كشفت][٢] عنا الرجز لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فدعا موسى ربه فكشف عنهم، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه قومه، فلذلك قوله: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾.

قال ابن قتيبة[٣]: بين الآية والآية فصلٌ.

قال المفسرون: كانت الآية تمكث فيهم من السبت إلى السبت، ثم يبقون عقيب رفعها شهراً في عافية، ثم تأتيهم الآية الأخرى[٤].

قال وهب بن منبه: بين الآية والآية أربعون يوماً[٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكث موسى عليه السلام في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات[٦].

وقيل: «آيات مفصلات» أي: مبيناتٍ واضحاتٍ لذوي العقول.

والنصب في «آيات» على الحال[٧].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٣٧-٣٨).

(٢) في الأصل: شكفت.

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٧١).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٤٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٥١)، والسيوطي في الدر (٣/ ٥٢٤) وعزاه لابن المنذر عن ابن عباس.

(٥) زاد المسير (٣/ ٢٥١).

(٦) مثل السابق.

(٧) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٣)، والدر المصون (٣/ ٣٣١).

﴿فاستكبروا﴾ عن الإيمان بموسى، ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾.

قوله تعالى: ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: وجب عليهم العذاب المذكور.

وقيل: هو طاعون أهلك منهم سبعين ألفاً.

وأصل الرَّجَز: تتابع الحركات، ومنه: ناقة رَجْزاء، وهي التي ترتعد قوائمها عند قيامها[(١)].

فسمي العذاب رجزاً؛ لما يوجب من شدة القلق.

﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك﴾ «ما» مصدرية، والباء في «بما» إما أن تتعلق بما قبلها أو بما بعدها، فإن تعلقت بما قبلها كان المعنى: ادع لنا ربك متوسلاً إليه بعهده عندك وبما أوصاك أن تدعو به، أو هو قسم، تقديره: ادع لنا ربك بحق عهده عندك.

وإن تعلقت بما بعدها فهي قسم، جوابه ما بعده وهو: ﴿لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه﴾ وهو أجل غرقهم.

وقوله: ﴿إذا هم ينكثون﴾ جواب «لمّا»[(٣)]، والمعنى: إذا هم ينقضون العهد.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: عاقبناهم، والاسم منه: النقمة، والجمع: نقمات ونقم، مثل: كلمة وكلمات وكلم.

ثم فسَّر العقوبة فقال: ﴿فأغرقناهم في اليم﴾ وهو البحر الذي لا يدرك قعره.

---

(١) انظر: اللسان (مادة: رجز).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٣١).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٣٢).

وقيل: لُجّة البحر.

قال الزمخشري[١]: واشتقاقه من التيمم، وهو القصد؛ لأن المستنفعين به يقصدونه، وقد ذكرنا قصة إغراقهم في سورة البقرة.

﴿بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بها وغفلتهم عنها.

قوله تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ بقتل الأبناء والاستعباد والاستخدام في الأرض، يعني: أرض مصر، ﴿مشارق الأرض ومغاربها﴾ يعني: أرض الشام ومصر.

وقال الزجاج[٢]: كان منهم داود وسليمان صلى الله عليهما، مَلكُوا الأرض.

يريد بذلك: أن الألف واللام في الأرض للاستغراق، والأول أظهر لقوله: ﴿التي باركنا فيها﴾ يعني: بالماء والشجر والزرع، وسعة الأرزاق، وهي أرض العمالقة والفراعنة، وليس كل موضع من الأرض قد بارك فيه بذلك، ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهي قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾ إلى قوله: ﴿يحذرون﴾ [القصص:٥-٦].

ثم وصف الكلمة فقال: ﴿الحسنى﴾ تأنيث الأحسن ﴿بما صبروا﴾ أي: بصبرهم على أذى فرعون وقومه، أو بصبرهم على الطاعة. وفي هذا أوضح دليل على اقتران النصر بالصبر.

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ اسم «كان» مستكن فيها، وهو العائد

---

(١) الكشاف (٢/ ١٤٠).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٧١).

على «ما»، والجملة الخبر. وقيل: اسمها: «فرعون» وخبرها: «يَصْنَعُ»[(١)]. ولم يجزه بعضهم؛ لأن الفعل الثاني أولى برفع الاسم الذي بعده.

وقيل: «كان» زائدة[(٢)]، والمعنى: أهلكنا ما كانوا يصنعون من العمارات ﴿وما كانوا يعرشون﴾. وقرأ ابن عامر وأبو بكر: «يَعرُشون»[(٣)] بضم الراء هنا وفي النحل[(٤)]، أي: وما كانوا يبنون.

قال ابن عباس: أي: يسقفون من القصور والبيوت[(٥)].

قال الزجاج[(٦)]: يقال: عَرَش يَعْرِشُ ويعرُش؛ إذا بنى.

ويجوز أن يكون المعنى: وما كانوا يعرشون من الجنات. قال الله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات﴾ [الأنعام:١٤١].

وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٣)، والدر المصون (٣/ ٣٣٣-٣٣٤).

(٢) انظر: المصدرين السابقين.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٣)، والحجة لابن زنجلة (١/ ٢٩٤)، والكشف (١/ ٤٧٥)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٢).

(٤) عند الآية رقم: ٦٨.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٠٣).

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٣٧١).

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

ثم إن الله تعالى قصَّ علينا خبر بني إسرائيل وما قالوه وفعلوه من عبادة العجل، وسؤال الرؤية في الدنيا، وقولهم: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾، واعتداءهم في السبت، وغير ذلك من أقوالهم الشنيعة وأفعالهم المنكرة الفظيعة عقيب هذه النعم الذي اختصهم بها من إنقاذهم من رقّ العبودية، وذل الاستخدام، وجعلهم بعد أن كانوا مملوكين ملوكاً، واستعلائهم على أعدائهم ومشاهدتهم تلك الآيات المفصلات، ومعافاتهم من العذاب الذي نزل بالقبط، مع كونهم ملابسيهم في منازلهم ومآكلهم ومشاربهم، وفلق البحر لإنجائهم وإهلاك أعدائهم، ليعلم أن الإنسان كفور لنعم الله كنود، جحود ظلوم، وليسلّي رسوله ﷺ، لئلا يتعاظم ما لقي منهم من البهت والعناد والتكذيب، مع العلم الرصين بحقيقة حاله، وأنه الرسول الموعود به على لسان نبيهم موسى بن عمران وغيره من الأنبياء، فقال تعالى: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي: قطعناه بهم، وكان ذلك يوم عاشوراء، ﴿فأتوا على قوم يَعْكُفُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «يَعْكِفُونَ» بكسر الكاف[1]، والمعنى: يلازمونها ويواظبون على عبادته، ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً﴾ يعنون صنماً نعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ يعكفون عليها.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٤)، والكشف (١/ ٤٧٥)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٢).

قال ابن جريج: كانت آلهتهم تماثيل البقر[١].

﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ حيث تطلبون معبوداً غير الله، وقد أراكم من تلك الآيات العظام، وأنعم عليكم بتلك النعم الجسام، وجعل أيديكم بنواصي الجبابرة آخذة، وأوامركم في صياصي الفراعنة نافذة.

قوله تعالى: ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه﴾ يعني: الذين يعكفون على أصنامهم مهلك ما هم فيه من عبادتها؛ لأنها لا تجلب لهم ثواباً ولا تدفع عنهم عقاباً ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أي: يذهب ضياعاً بغير نفع؛ لأنه لغير الله.

ويروى: أن يهودياً قال لعلي عليه السلام: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه. فقال له علي عليه السلام: اختلفنا في الدنيا، وأنتم لم تجف أقدامكم من البحر حتى قلتم: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾[٢].

﴿قال أغير الله أبغيكم إلهاً﴾ استفهام في معنى الإنكار، لعظيم ما قالوه من الكفر، والتعجب من طلبهم إلهاً لا يضر ولا ينفع، ولا يبصر ولا يسمع، بعدما شاهدوا من آيات الله لديهم وآلائه عليهم، ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ بالنعم التي اختصكم بها.

قوله تعالى: ﴿وإذ أنجيناكم﴾ قرأ ابن عامر: «أنجاكم»[٣].

فمن قرأ: «أنجيناكم» فهو على مذهب التعظيم، ومن قرأ: «أنجاكم» فعلى لفظ

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٤٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٣٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ١٤١).

(٣) الحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٤)، والنشر (٢/ ٢٧١)، والكشف (١/ ٤٧٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٢٩)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٣).

الواحد، حملاً على قوله: ﴿أغير الله أبغيكم إلهاً﴾، والمعنى: اذكروا إذ أنجاكم من آل فرعون.

وقوله: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ استئناف لا محل له. ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين، أو «من آل فرعون»[(١)]، ﴿يقتلون أبناءكم﴾ بدل من «يسومونكم»، أو حال من الضمير المرفوع في «يسومونكم»[(٢)]. وقد أسلفنا في سورة البقرة ما تركنا ذكره هاهنا.

۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾ أي: تمام أو انقضاء ثلاثين ليلة.

قال أبو العالية: مكث موسى على الطور أربعين ليلة، فبلغنا أنه لم يحدث حتى هبط منه[(٣)].

﴿وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة﴾.

فإن قيل: هذا معلوم، فإن كل أحد يعلم أن الثلاثين مع انضمام عشر إليها تصير أربعين، فما الفائدة في ذكره؟

---

(١) انظر: الدر المصون (١/ ٢١٨).

(٢) انظر: الدر المصون (١/ ٢١٩).

(٣) أخرجه الطبري (١/ ٢٨٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٥٧). وذكره السيوطي في الدر (١/ ١٦٧-١٦٨، ٣/ ٥٣٥) وعزاه في الموضع الأول لابن جرير، وفي الموضع الثاني لابن أبي حاتم.

قلتُ: فائدته زوال اللبس ورفع الوهم، فإن من الجائز أن تكون العشر ساعات، أو تكون داخلة في الثلاثين، فلما قال: «أربعين ليلة» نفى هذين الجائزين، وعُلم أن العشر ليال، وأنها غير الثلاثين.

فإن قيل: «أربعين» نصب أو جرّ؟

قلتُ: نصب على الحال[1]، على معنى: تم ميقات ربه بالغاً هذا العدد.

﴿وقال موسى لأخيه هارون﴾ «هارون» عطف بيان[2]. وقرئ بالرفع على النداء[3]، والمعنى: وكان موسى قال لأخيه عند انطلاقه إلى الجبل: ﴿اخلفني في قومي﴾، أي: كن خليفتي فيهم، ﴿وأصلح﴾ في الخلافة، ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾.

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ أي: للوقت الذي حددنا له، واللام للاختصاص، كأنه قيل: واختصّ مجيئه بميقاتنا.

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٤)، والدر المصون (٣/ ٣٣٧).

(٢) مثل السابق.

(٣) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٧٩)، والدر المصون (٣/ ٣٣٨).

﴿وكلمه ربه﴾ أسمعه كلامه من غير واسطة، وإلا فأي مزية[١] كانت له بوصف التكليم.

قال المفسرون: لما أراد الله أن يكلمه أهبطه إلى الأرض ظلمة سبع فراسخ[٢]، فلما دنا موسى من الظلمة تنحى عنه ملكان، وطرد عنه شيطانه، وطرد هوام الأرض، ثم كلّمه الله وأدناه، فرأى الملائكة قياماً في الهواء، ورأى العرش بارزاً، وسمع صريف الأقلام[٣]، وتغشّاه نورٌ لم يزل على وجهه إلى أن مات ﷺ، وكان لا يزال متبرقعاً، وكان لا يستطيع أحد أن ينظر إلى وجهه لما غشيه من النور، فقالت له زوجته: أنا أيِّم[٤] منك مذ كلمك ربك، فكشف لها عن وجهه، فأخذها مثل شعاع الشمس، فوضعت يدها على وجهها وخَرَّت لله ساجدة، وقالت: ادع الله أن يجعلني زوجتك في الجنة، قال: ذاك إن لم تتزوجي بعدي، فإن المرأة لآخر أزواجها.

وروى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام كلها وصايا، فكان فيما ناجاه أن قال له: يا موسى! لم يتصنَّع المتصنِّعون بمثل الزهد في الدنيا، ولم يتقرَّب المتقرِّبون بمثل الورع عمّا حرّمت عليهم، ولم يتعبّد المتعبّدون بمثل البكاء من خيفتي. قال موسى: يا إله البرية كلها، ماذا أعددت لهم؟ قال: أما الزاهدون في

(١) في الأصل زيادة قوله: ميزة.

(٢) الوسيط (٢/ ٤٠٥).

(٣) صريف الأقلام: أي صوت جريانها بما تكتبه من أقضية الله ووحيه، وما يَنْسَخُونه من اللوح المحفوظ (اللسان، مادة: صرف).

(٤) الأيِّم في الأصل هي: التي لا زوج لها، بكراً كانت أم ثيباً، مطلقة كانت أو متوفى عنها (اللسان، مادة: أيم).

الدنيا فأُبيحهم جنتي يتبوؤا فيها حيث شاؤوا، وأما الورعون عما حرّمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشتُه الحساب، إلا الورعين فإني أجلّهم وأكرمهم وأدخلهم الجنة بغير حساب. وأما البكّاؤون من خيفتي فأولئك لهم الرفيق الأعلى لا يُشارَكون فيه»[1].

قال المفسرون: طمع موسى حينئذ في الرؤية فقال: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾. مفعول «أرني» الثاني محذوف[2]. قال الزجاج[3]: تقديره: أرني نفسك أنظر إليك.

والمعنى: مَكِّنِّي من الرؤية بتَجَلِّيكَ لي.

وفي هذا دليلٌ واضحٌ على أن رؤية الله تعالى غير مستحيلة؛ لأنها لو كانت مستحيلة لما سألها موسى، ولأنكر الله عليه سؤالها. وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم ورفضهم صريح الكتاب وصحيح الأحاديث وتكذيبهم بما تتقاصر عقولهم السخيفة عن إدراكه حتى نسبوا موسى عليه السلام في سؤاله الرؤية لله إلى أحد أمرين؛ إما جهله بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، وأعظم بها فرية منهم. وإما إقدامه واجتراؤه على السؤال مع علمه بعدم الجواز على ظنهم الفاسد، فيالها جرأة على كليم الله وصفيّه. وزعم بعض غلاتهم أنه إنما سأل الرؤية لتبكيت السبعين الذين قالوا: ﴿أرنا الله جهرة﴾ حتى يشاهد، ولما عساه يحدث به فيعتبروا أو يسمعوا كلام الله لموسى بالنهي أو بالنفي فينزجروا، فما أحقهم وأولاهم بإنشاد ما

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٨٨-١٨٩). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٥-٢٩٦) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: فيه جويبر بن سعيد، وهو ضعيف.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٣٨).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٧٣).

قيل:

وجواب مثلك أن يعامل   بالسكوت عن الجواب

فإنهم جعلوا موسى مرشداً لأولئك بإضلال نفسه، ومصلحاً لهم بإفساد دينه، اللهم فاجعل إيماننا بما أوجبته مشفوعاً بتحقيق الرجاء، وارزقنا النظر إلى وجهك الكريم إذا حجبته عن أهل الاعتزال والإرْجاء.

قوله تعالى: ﴿قال لن تراني﴾ قال ابن عباس: لن تراني في الدنيا[1].

وقال غيره: هذا جواب لقول موسى: «أرني»، وهو عليه السلام لم يرد «أرني» في الآخرة، إنما أراد في الدنيا، فيجب أن يكون الجواب مطابقاً للسؤال.

فلئن قالوا «لن» لنفي الأبد؟

قلنا: وترد أيضاً لنفي الوقت والزمان المتطاول، كما في قوله تعالى مخبراً عن اليهود: ﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم﴾ [البقرة:٩٥] يعني: الموت، ثم أخبر أنهم يتمنونه في النار فقال: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك﴾ [الزخرف:٧٧].

قوله تعالى: ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ وهو جبل بالشام، يقال اسمه: زَبِير، بفتح الزاي وكسر الباء.

﴿فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾ قال مقاتل[2]: لما قال موسى: ﴿رب أرني أنظر إليك﴾، قال له ربه: ﴿لن تراني﴾، ولكن اجعل بيني وبينك ما هو أقوى منك، وهو الجبل، ﴿فإن استقر مكانه﴾ أي: سكن وثبت ﴿فسوف تراني﴾، وإن لم يستقر مكانه، فإنك لا تطيق رؤيتي.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٠٦)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٦).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٤١٣-٤١٤).

﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ قال الزجاج[1]: ظهر وبان.

﴿جعله دكاً﴾ قرأ حمزة والكسائي: «دكّاء» بالمد وفتح الهمزة من غير تنوين[2]، على معنى: جعله أرضاً دكّاء مستوية.

وقال المبرد: جعله أرضاً دكاء وهي التي لا تبلغ أن تكون تلاً[3].

وقال غيره: هو على حذف المضاف، تقديره: جعله[4]، مثل: دكّاء، وهي الناقة التي لا سنام لها.

وقرأ الباقون: «دكاً» بالقصر والتنوين، أي: جعله مدقوقاً. تقول: دككت الشيء أدكّه دكّاً؛ إذا دققته[5].

قال ابن السائب: جعله أجبالاً صغاراً[6].

ويروى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ «أنه قال في قوله: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾: صارت لعظمته ستة أجبل، فوقعت ثلاثة بالمدينة: أُحُد[7]،

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٧٣).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٥)، والكشف (١/ ٤٧٥)، والنشر (٢/ ٢٧١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٣).

(٣) انظر: معاني الزجاج (٢/ ٣٧٣)، والوسيط (٢/ ٤٠٧).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٣٩).

(٥) انظر: اللسان (مادة: دكك).

(٦) ذكره البغوي (٢/ ١٩٧).

(٧) أُحُد: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أُحد، وهو جبل أحمر، وبينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليها، وعنده كانت الوقعة التي قُتل فيها حمزة عم النبي ﷺ وسبعون من المسلمين، وكسرت رباعية النبي ﷺ، وشجّ وجهه الشريف (معجم البلدان ١/ ١٠٩).

ووَرِقان[(١)]، ورَضْوى[(٢)]. ووقع بمكة: ثَوْر[(٣)]، وثَبِير[(٤)]، وحِراء[(٥)]»[(٦)].

وقال ابن عباس: جعله تراباً[(٧)].

وقال سفيان: ساخ الجبل في الأرض[(٨)].

أخبرنا الشيخ أبو الفضل سليمان بن محمد بن علي الموصلي قراءة عليه وأنا أسمع ببغداد، قال: أخبرنا أبو محمد يحيى بن علي بن محمد بن الطرّاح، أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد النقور، أخبرنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن إسحاق بن حبابة البزاز، أخبرنا أبو القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي،

---

(١) ورقان: جبل أسود بين العَرْج والرويثة على يمين المصعد من المدينة إلى مكة، ينصب ماؤه إلى ريم (معجم البلدان ٥/ ٣٧٢).

(٢) رضوى: جبل بالمدينة، وهو من ينبع على مسيرة يوم، ومن المدينة على سبع مراحل، ميامنه طريق مكة، ومياسره طريق البريراء لمن كان مصعداً إلى مكة (معجم البلدان ٣/ ٥١).

(٣) ثور: اسم جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى فيه النبي ﷺ (معجم البلدان ٢/ ٨٦).

(٤) ثبير: جبل بمكة، وهي أربعة أثبرة بالحجاز، وهو الذي صعد فيه النبي ﷺ، فرجف به، فقال: اسكن ثبير، فإنما عليك نبي وصديق وشهيد (معجم ما استعجم ١/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٥) حراء: جبل من جبال مكة معروف، وهو على ثلاثة أميال منها، كان النبي ﷺ قبل أن يأتيه الوحي يتعبد في غار من هذا الجبل، وفيه أتاه جبريل عليه السلام (معجم البلدان ٢/ ٢٣٣).

(٦) أخرجه الأزرقي (٢/ ٢٨٠-٢٨١)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣١٤)، وابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٤٦) وقال: هذا حديث غريب، بل منكر.

(٧) أخرجه الطبري (٩/ ٥٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الرؤية.

(٨) أخرجه الطبري (٩/ ٥٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٦) وعزاه لابن أبي حاتم وابن المنذر وأبي الشيخ.

حدثنا أبو خالد هُدبة بن خالد البصري، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً﴾ قال: وضع إبهامه على قريب من طرف أنملة خنصره، فساخ الجبل. فقال حميد لثابت: تقول هذا، فرفع ثابت يده فضرب بها صدر حميد وقال: يقوله رسول الله ﷺ ويقوله أنس وأنا أكتمه»(١). هذا حديث لا يطعن في إسناده، رواه عن هدبة جماعة، منهم: علي بن أحمد بن بسطام، ورجاله رجال الصحيحين.

والواجب فيه وفي أمثاله الإيمان والتسليم من غير تشبيه ولا تمثيل، وعلى هذا درج السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾ يعني: مغشياً عليه من هول ما رأى. قاله ابن عباس(٢).

وقال قتادة: خرّ ميتاً(٣).

والأول أصح؛ لقوله: ﴿فلما أفاق﴾ يعني: من غشيته، ﴿قال سبحانك تبت إليك﴾ يعني: من سؤال الرؤية في الدنيا، أو من سؤال الرؤية قبل الإذن في ذلك، ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أنك لا تُرى في الدنيا. هذا قول ابن عباس وأبو العالية وعامة

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٥) من حديث عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي عن سليمان بن حرب وعن عبدالوهاب بن الحكم عن معاذ بن معاذ كلاهما عن حماد بن سلمة.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٥٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والبيهقي في الرؤية.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٥٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

المفسرين(١).

سمعت شيخنا أبا محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رضي الله عنه يقول: أخبرنا أحمد بن المبارك، أخبرنا جدي لأمي ثابت بن بندار(٢)، أخبرنا أبو علي بن دوما(٣)، أخبرنا مخلد بن جعفر(٤)، أخبرنا الحسن بن علوية، أخبرنا إسماعيل بن عيسى، أخبرنا إسحاق بن بشر، أخبرنا أبو إلياس، عن وهب بن منبه، قال: لما سمع موسى كلام ربه تبارك وتعالى طمع في رؤيته، ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني﴾.

قال محمد بن إسحاق: حدثني بعض من لا أتهم قال: قال الله تعالى: يا ابن

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٥٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٢). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٣٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن قتادة، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن أبي العالية، وعزاه لعبد بن حميد وأبي الشيخ.

(٢) ثابت بن بندار بن إبراهيم، أبو المعالي الدينوري البغدادي البقال، ولد سنة ست عشرة وأربعمائة، وطلب العلم في حداثته، توفي في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٣) هو الحسن بن الحسين بن العباس بن الفضل بن المغيرة، أبو علي، المعروف بابن دوما النعالي، كان كثير السماع، إلا أنه أفسد أمره بأن ألحق لنفسه السماع في أشياء لم تكن سماعه ولد سنة ست وأربعين وثلاثمائة، ومات يوم السبت ودفن يوم الأحد الخامس من ذي الحجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة (تاريخ بغداد ٧/ ٣٠٠، وتكملة الإكمال ٢/ ٥٦٦).

(٤) مخلد بن جعفر بن مخلد الباقرحي الدقاق، كان ثقة صحيح، توفي في ذي الحجة سنة تسع وستين وثلاثمائة (سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٥٤-٢٥٥).

عمران إنه لا يراني أحد فيحيا، قال موسى: رب لا شريك لك، إني أن أراك وأموت أحبّ إلي من أن لا أراك وأحيا، رب أتمم عليّ نعماك وفضلك وإحسانك بهذا الذي أسألك، وأموت على إثر ذلك.

قال: وأخبرنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: «لما رأى الله الرحيم بخلقه من حرص موسى على أن يعطيه سؤله، قال: انطلق فانظر الحجر الذي في رأس الجبل فاجلس عليه، فإني مهبط عليك جندي، ففعل. فلما استوى عليه عرض الله عليه جنود سبع سموات، فأمر ملائكة سماء الدنيا أن يعترضوا عليه، فمرّوا بموسى ولهم أصوات مرتفعة بالتسبيح والتهليل كصوت الرعد الشديد، ثم أمر ملائكة السماء الثانية أن يعترضوا عليه، ففعلوا، فمرّوا به على ألوانٍ شتى ذوو وجوه وأجنحة، منهم ألوان الأسد، رافعي أصواتهم بالتسبيح، ففزع موسى منهم، وقال: أي رب إني ندمت على مسألتي، رب هل أنت منجيّ من مكاني الذي أنا فيه؟ قال له رأس الملائكة: يا موسى اصبر على ما سألت، فقليل من كثير ما رأيت. ثم أمر الله ملائكة السماء الثالثة أن اهبطوا فاعترضوا على موسى، فأقبل ما لا يحصى عددهم على ألوان شتى ألوانهم كلهب النار، لهم زجل بالتسبيح والتهليل، فاشتد فزع موسى وساء ظنه وأيس من الحياة، فقال له رأس الملائكة: يا ابن عمران، اصبر حتى ترى ما لا تصبر عليه، ثم أوحى الله تعالى إلى ملائكة السماء الرابعة أن اهبطوا إلى موسى [بالتسبيح][1]، فهبطوا ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج، لهم أصوات عالية بالتسبيح والتقديس، لا تشبه أصوات الذين

---

(١) زيادة من التوابين (ص:١٤).

مروا به. فقال له رأس الملائكة: يا موسى اصبر على مَا سألت، فكذلك أهل كل سماء إلى السماء السابعة، ينزلون إليه بألوان مختلفة وأبدان مختلفة، وأقبلت ملائكة يخطف نورهم الأبصار ومعهم حراب، الحربة كالنخلة الطويلة العظيمة، [كأنها نار][1] أشد ضوءاً من الشمس، وموسى عليه السلام يبكي رافعاً صوته يقول: يا رب اذكرني ولا تنسني، أنا عبدك ما أظن أن أنجو مما أنا فيه، إن خرجت احترقت، وإن مكثت مُتّ. قال له رأس الملائكة: قد أوشكت أن تمتلئ خوفاً وينخلع قلبك، هذا الذي جلست لتنظر إليه. قال: ونزل جبريل وميكائيل وإسرافيل ومن في سبع سموات وحملة العرش والكرسي وأقبلوا عليه يقولون: يا خاطئ يا ابن الخاطئ، ما الذي رقاك إلى هاهنا؟ وكيف اجترأت أن تسأل ربك النظر إليه؟ وموسى عليه السلام يبكي وقد اصطكّت[2] ركبتاه وتخلعت مفاصله. فلما رأى الله عز وجل ذلك من عبده أراه قائمة عرشه، فتعلق بها فاطمأن قلبه، فقال له إسرافيل: يا موسى، والله لنحن رؤساء الملائكة ولم نرفع أبصارنا نحو العرش منذ خلقنا خوفاً وفرقاً، فما حملك أيها العبد الضعيف على هذا؟ فقال موسى: يا إسرافيل -وقد اطمأن-: أحببت أن أعرف من عظمة ربي ما عرفت، ثم أوحى الله عز وجل للسموات أَنِّي مُتَجَلٍّ للجبل، فارتعدت السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والنجوم والسحاب والجنة والنار والملائكة والبحار، وخرُّوا كلهم سُجَّداً، وموسى ينظر إلى الجبل. فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى صعقاً ميتاً من نور رب العزة جل وعلا، فوقع عن الحجر، وانقلب عليه، فصار عليه مثل القبة،

(١) في الأصل: كأنهار. والتصويب من التوابين (ص:١٤).

(٢) الصَّكَكُ: اضطراب الركبتين والعرقوبين من الإنسان وغيره (اللسان، مادة: صكك).

لئلا يحترق. -قال الحسن:- فبعث الله تعالى جبريل فقلب الحجر عن موسى وأقامه، فقام موسى فقال: سبحانك تبت إليك مما سألت، وأنا أول المؤمنين، أي: أنا أول من آمن أنه لا ينظر إليك أحد إلا مات. وقيل: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحد في الدنيا(١). فهذا آخر الحديث الذي سمعت من شيخنا رحمه الله.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس﴾ أي: اخترتك واجتبيتك على الناس، ﴿برسالاتي﴾ وقرأ الحرميان: «برسالتي» على التوحيد(٢)، ﴿وبكلامي﴾ قال الزجاج(٣): لو كان إنما سمع(٤) كلام غير الله لما قال: ﴿برسالتي وبكلامي﴾؛ لأن الملائكة تنزل على الأنبياء عليهم السلام بكلام الله تعالى.

﴿فخذ ما آتيتك﴾ أي: ما أعطيتك من النبوة والحكم والألواح، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لأنعمي.

---

(١) أخرجه ابن قدامة في: التوابين (ص:١٢-١٥).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٥)، والكشف (١/ ٤٧٦)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٣).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٧٥).

(٤) في معاني الزجاج: تبع.

قوله تعالى: ﴿وكتبنا له في الألواح﴾ يعني: أسفار التوراة.

واختلفوا في جوهرها وعددها؛ فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس: أنها سبعة ألواح(١).

وروى عنه أبو صالح: أنها لوحان(٢).

قال سعيد: من ياقوت(٣).

وقال مجاهد: من زمرد أخضر(٤).

وقال مقاتل(٥): من زمرد وياقوت.

وقال ابن السائب: من زبرجد أخضر(٦).

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قال: «الألواح التي أنزلت على موسى كانت من سدر الجنة، وكان طول اللوح اثني عشر ذراعاً»(٧).

وقوله: ﴿من كل شيء﴾ أي: من كل ما تحتاج إليه بنوا إسرائيل من تفاصيل الأحكام والحكم.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٣).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٥٨).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٦٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٩) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٩) وعزاه لابن المنذر.

(٥) تفسير مقاتل (١/ ٤١٤).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٠٩).

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٠٨)، والسيوطي في الدر (٣/ ٥٤٨) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

قال ابن عباس: مما افترض وأحلَّ وحرَّم[(١)].

قوله تعالى: ﴿موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾ بدل من «كل شيء»[(٢)]. والمعنى: وتفصيلاً لكل شيء من أمر الدين، ﴿فَخُذْهَا﴾ يعني: الألواح، ﴿بقوة﴾ بعزيمة وجد واجتهاد، وهو عطف على: ﴿وكتبنا له﴾، أي: وكتبنا له في الألواح فقلنا له: خذها بقوة.

ويجوز أن يكون قوله: «خذها» بدلاً من «فَخُذْ ما آتيتك»[(٣)].

﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾ أي: مُرهم يأخذوا بأحسن ما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ كالصبر، فإنه أحسن من الانتصار، وإن كانا مشروعين، والعفو فإنه أفضل من جواز الانتقام بالقصاص وغيره مما أذن الشرع فيه، وفعل الواجبات والمندوبات فإنه أحسن من المباحات.

وقال قطرب وابن الأنباري[(٤)]: ناب «أحسن» عن «حسن»، كما قال الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ[(٥)]

أي: دعائمه طويلة عزيزة.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٥٧) عن السدي.

(٢) الدر المصون (٣/ ٣٤٠).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٤٠).

(٤) انظر: الوسيط (٢/ ٤٠٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٥٩)، وتهذيب اللغة (٤/ ٣١٨).

(٥) البيت من قصيدة يفتخر فيها على جرير ويهجوه. انظر: ديوانه (٢/ ١٥٥)، وشرح المفصل (٦/ ٩٧-٩٩)، ومعاهد التنصيص (١/ ١٠٣)، والعمدة لابن رشيد (١/ ٢٥٢، ٢/ ١٤٤)، والصاحب (ص: ٥٣٤)، ومجاز القرآن (٢/ ٢١)، وتهذيب اللغة (١٠/ ٢١٥).

فالمعنى: وأمر قومك يأخذوا بها فإنها كلها حسنة.

ثم هدّد بني إسرائيل فقال: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾، قال الحسن ومجاهد: هي جهنم[١]، وهذا كقوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم:٧١].

وقيل: سأريكم دار فرعون وقومه -وهي مصر- كيف أصبحت معطلة منهم خالية عنهم، فيكون ذلك خارجاً مخرج التذكير بالنعم، والتحذير من النقم.

وقال قتادة وغيره: «سأريكم دار الفاسقين» يعني: منازل الجبارين والعمالقة من أرض الشام[٢]، فيكون ذلك خارجاً مخرج البشارة باستفحال أمرهم وعز سلطانهم والرجوع إلى أوطانهم.

وقرأ الحسن البصري: «سَأُورِيكم» بزيادة واو[٣]، وهي لغة فاشية بالحجاز، يقولون: أَوْرِني كذا.

وقرئ: «سأورثكم» من الميراث[٤]، كقوله: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ [الأعراف:١٣٧].

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٥٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٢) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٥٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٢) وعزاه لعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

(٣) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٨٨)، والدر المصون (٣/ ٣٤١).

(٤) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٨٨)، والدر المصون (٣/ ٣٤٢).

سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آيتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ يريد به صرفهم عن الإيمان بآياته المنزلة، وعن التفكر في عجائب مصنوعاته ومخلوقاته، وذلك بالطبع على قلوبهم.

وقيل: سأصرفهم عن إبطال آياتي، وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال آيات موسى، فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل.

وقوله: «بغير الحق» في محل الحال، على معنى: يتكبرون غير محقين(١).

﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً﴾، قرأ حمزة والكسائي: «الرَّشَد» بفتح الراء والشين. وقرأ الباقون: بضم الراء وسكون الشين(٢).

والمعنى: إن يروا سبيل الله لا يتخذوه سبيلاً، أي: لا يسلكوه تكبراً على رسلي وتعظماً عليهم.

﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ وهو طريق الشيطان، ﴿يتخذوه سبيلاً﴾ أي: فيسلكوه استسلاماً للشيطان، وذهاباً مع الهوى، ﴿ذلك﴾ الصرف، ﴿بأنهم كذبوا

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٤٢).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٥-٢٩٦)، والكشف (١/ ٤٧٦-٤٧٧)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٣).

بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بها وغفلتهم عن التفكير فيها والتدبر لها.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل لإعطاء التوراة، ﴿من حُليّهم﴾ وهو جمع حُلِيّ، كثَدْي وثُدِيّ.

وقرأ حمزة والكسائي: «حِليهم» بكسر الحاء(١).

[وقرأ يعقوب بفتحها](٢) وسكون اللام وتخفيف الياء على التوحيد(٣).

والحُلِيّ: اسم لما يتحسن به من النقدين والجواهر.

فإن قيل: كيف نسب الحلي إليهم وكان للقبط؟

قلت: الإضافة تكفي فيها أدنى ملابسة واختصاص، وقد حصل ذلك هاهنا بالعارية، لا سيما وقد هلك أصحابه وصار بيد بني إسرائيل على وجه الانفراد، على أنه قد قيل: إن الضمير في «حليهم» يعود إلى القبط. وقد تقدم ذكرهم في

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٦٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٦)، والكشف (١/ ٤٧٧)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٤).

(٢) زيادة من زاد المسير (٣/ ٢٦١).

(٣) النشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٠).

مواضع.

فإن قيل: المتخذ السامري وحده، فكيف نسب الفعل إلى الجميع؟

قلت: عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه نُسب إليهم لرضاهم به وإرادتهم له، فإن الفعل ينسب إلى الراضي به كما ينسب إلى فاعله، كما عيّر سبحانه اليهود الموجودين في عصر النبي ﷺ بقتل الأنبياء ونسب الفعل إليهم بقوله: ﴿ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ [البقرة:٨٧].

الثاني: أنه نسب إليهم لكون المتخذ منهم داخلاً في غمارهم، كما تقول: فعلت بنو تميم كذا، وإن كان الفاعل واحداً.

الثالث: أن المعنى: واتخذوه إلهاً وعبدوه، وهو الجواب المعتمد؛ لأنهم لم يصنعوا عجلاً جسداً خائراً؛ لأن هذا لا يدخل تحت وسعهم، إنما اتخذوه إلهاً.

وقوله: ﴿جسداً﴾ بدل من المفعول[١]. يريد: جسداً ذا لحم ودم، وهذا قول ابن عباس والحسن وقتادة ووهب وعامة المفسرين[٢]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿له خوار﴾ وهو صوت البقر.

وقرأ علي عليه السلام: «له جُؤَار» بالجيم مهموزاً[٣]، مِنْ جَأَرَ يَجْأَر؛ إذا صاح[٤].

(١) الدر المصون (٣/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٣) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(٣) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٩٠)، والدر المصون (٣/ ٣٤٤).

(٤) اللسان (مادة: جأر).

قال ابن عباس: كان العجل إذا خار سجدوا[١].

ويروى عن ابن عباس: أنه خار خورة واحدة[٢].

وقال مجاهد: خواره: حفيف الريح فيه[٣]، يشير إلى أنه كان لا روح فيه.

قال ابن الأنباري: ذكر الجسد دلالة على عدم الروح[٤].

وفي هذا بُعْد لوجوه:

أحدها: أنه خلاف الظاهر من قوله: "خوار"، أو "جؤار" على قراءة علي عليه السلام.

الثاني: افتتانهم إنما كان بانفعاله عجلاً خائراً من الحلي، ولو كان ذهباً مصوغاً تجري الريح في منافذه فيظهر له صوت لم يكن ذلك فتنة ولا عجباً.

الثالث: قوله: ﴿فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها﴾ فإنه كان رأى جبريل حين أتى موسى عليه السلام فقال: إن لهذا شأناً، فقبض القبضة من أثر حافر فرسه فألقاها على الحلي، فظهر العجل، فلو لم يكن فيه روح وله خوار حقيقة لم يحتج في وجوده إلى القبضة؛ لأن كل أحد من الصاغة يقدر على ذلك.

قوله تعالى: ﴿ألم يروا أنه لا يكلمهم﴾ أي: لا يقدر على إجابة دعائهم، ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ المعنى: فكيف اتخذوا إلهاً دون من لو كان ما في الأرض من شجرة

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٨). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٨٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٦/ ٢٠٥). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٥٩٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٦١-٢٦٢).

أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلماته، ولكن ما هذا بأول أضاليلهم وأباطيلهم وجهالاتهم وظلمهم، ألا تراه يقول: ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ أي: وكانوا قوماً عادتهم الظلم ووضع الأشياء في غير مواضعها.

قوله تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم﴾ كناية عن فرط الندم وشدة الحسرة.

قال الزجاج[١]: يقال للنادم على ما فَعَلَ، الحسير على ما فرط منه: قد سُقِطَ في يده وأُسْقِطَ.

قال الزمخشري[٢]: لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده [غماً][٣]، فتصير يده مسقوطاً فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها.

وقرأ ابن السميفع: «سَقَطَ في أيديهم»[٤] على تسمية الفاعل، أي: وقع العض فيها.

وقال الزجاج[٥]: معناه: سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد، تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد [ويرى][٦] بالعين. وكان هذا حين رجع موسى إليهم.

﴿ورأو﴾ أي: وتبينوا ﴿أنهم قد ضلوا﴾ عن طريق الهدى وصاروا أسوأ حالاً

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٣٧٨).

(٢) الكشاف (٢/ ١٥١).

(٣) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

(٤) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢٦٣)، والدر المصون (٣/ ٣٤٦).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٣٧٨).

(٦) في الأصل: ويروى. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

من القبط، ﴿قالوا لأن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا﴾ وقرأ حمزة والكسائي: «ترحمنا» و«تغفر» بالتاء فيهما، «ربَّنا» بالنصب على النداء والاستعانة والدعاء[1]، ﴿لنكونن من الخاسرين﴾.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ الأسيف: الشديد الغضب[2]، ومنه: ﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾ [الزخرف:٥٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٦)، والكشف (١/ ٤٧٧)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٠)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٤).

(٢) انظر: اللسان (مادة: أسف).

وقيل: الحزين[١].

﴿قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾ جائز أن تكون خطاباً للسامري وأشياعه الذين تلبسوا بعبادة العجل، وجائز أن تكون خطاباً لأخيه ووجوه بني إسرائيل.

والمعنى على الأول: بئسما خلفتموني من بعدي حيث اتخذتم العجل إلهاً.

والمعنى على الثاني: بئسما خلفتموني حيث لم تأخذوا على أيدي الكفرة الفجرة الذين عبدوا العجل وأعرضوا عن عبادة الله تعالى.

وفاعل «بئس» مضمر، يفسره: «ما خلفتموني»، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم[٢].

وفائدة قوله: "من بعدي" مع قوله: "خلفتموني" تذكيرهم ما شاهدوا من معجزاته الباهرة وآياته الظاهرة، كأنه قيل: بئسما خلفتموني من بعد ما رأيتم مني من المعجزات الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته ووحدانيته.

قوله تعالى: ﴿أعجلتم أمر ربكم﴾ تقول: [عجلت][٣] عن كذا؛ إذا تركته ناقصاً لم تتمه، ويتضمن معنى سبق، فيعدى تعديته، يقال: عجلت كذا. والمعنى: أعجلتم أمر ربكم وميقات الأربعين فلم تصبروا، وحدثتم أنفسكم بموتي، فعبدتم غير الله وغيّرتم كما غيّرت الأمم قبلكم.

---

(١) وهو قول ابن عباس والسدي والكلبي. أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٩). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٣٥). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٤) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، من طرق عن ابن عباس. وذكره من وجه آخر عن ابن عباس وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٤٧).

(٣) في الأصل: عجعلت. وكذا وردت في المواضع التالية.

وكان عليه [الصلاة والسلام][(١)] حديداً سريع الغضب، قوي البطش، عظيم الانتقام لله.

﴿وألقى الألواح﴾ التي فيها التوراة. قال ابن عباس: لما رمى الألواح فتحطمت رفع منها ستة أسباعها وبقي سُبع[(٢)].

قال المفسرون: وكان فيما رُفع تفصيل كل شيء، وفي ما بقي الهدى والرحمة[(٣)].

أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يُلْقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا، ألقى الألواح فانكسرت»[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ يعني: هارون عليه السلام وكان أكبر منه، وأحبّ إلى بني إسرائيل وألين عريكة[(٥)]، كما ذكرناه فيما مضى، ﴿يجرّه إليه﴾ بذؤابته[(٦)] ولحيته غضباً لله، وحميّة للدين، وظناً منه أنه أساء في خلافته وعصى

(١) في الأصل: السلام والصلاة.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٩). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٤٩) وعزاه لابن أبي حاتم. وذكره أيضاً (٣/ ٥٦٤) وعزاه لأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٦٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٤٢٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٥) وعزاه لأبي نعيم في الحلية عن مجاهد وسعيد بن جبير.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٧١).

(٥) العريكة: الطبيعة، يقال: فلان ليّنُ العريكة: إذا كان سَلِساً مطاوعاً قليل الخلاف والنُّفور (اللسان، مادة: عرك).

(٦) الذؤابة: هو الشعر المضفور من شعر الرأس (اللسان، مادة: ذأب، وترتيب القاموس ١/ ٢٤٥).

بإقامته بين أظهرهم، ألا تراه يقول: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني﴾، فقال له هارون معتذراً ومستعطفاً وباعثاً لدواعي شفقته ومرققاً له؛ بذكر من كان بطنها لهما وعاء، وثديها سقاء، وحجرها حواء، وممتّاً إليه بقرابة من لاقت الأهوال وقاست الشدائد في تربيته، ﴿ابن أمَّ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص: بفتح الميم، مِنْ أمَّ، هنا وفي طه، وكسرها الباقون[1].

فمن فتح جعل الاسمين اسماً واحداً لكثرة الاستعمال وبناه على الفتح؛ كخمسة عشر. ومن كسر فعلى حذف ياء الإضافة.

وقرأ ابن السميفع: بإثبات الياء على الأصل[2]. قال الشاعر:

يابنَ أُمِّي ويا شُقَيِّقَ نَفْسِي ... أَنْتَ خَلفتني لدهرٍ شَدِيدِ[3]

قال ابن عباس: كان أخاه لأبيه وأمه، وإنما قال: ﴿يا بن أم﴾ ليرققه عليه[4].

وحكى الثعلبي[5]: أنه كان أخاه من أمه فقط.

وليس بصحيح ولا فرضي من القول.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٧)، والكشف (١/ ٤٧٨)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣١)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٥).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٩٤)، والدر المصون (٣/ ٣٤٨).

(٣) البيت لأبي زبيد الطائي، من قصيدة يرثي بها أخاه. انظر: ديوانه (ص:٤٨)، وشرح التصريح (٢/ ١٧٩)، والكتاب (٢/ ٢١٣)، واللسان، مادة: (شقق)، والمقاصد النحوية (٤/ ٢٢٢)، وأوضح المسالك (٤/ ٤٠)، وشرح الأشموني (٢/ ٤٥٧)، وشرح قطر الندى (ص:٢٠٧)، وشرح المفصل (٢/ ١٢)، والمقتضب (٤/ ٢٥٠)، وهمع الهوامع (٢/ ٥٤).

(٤) زاد المسير (٣/ ٢٦٥).

(٥) الثعلبي (٦/ ٢٥٨).

﴿إن القوم استضعفوني﴾ فقهروني ﴿وكادوا يقتلونني﴾ لهواني عليهم، والمعنى: لم يكن ذلك لسوء خلافتي فيهم وتفريطي فيما يجب عليّ حفظه من قوانين الدين والسياسة، ﴿فلا تشمت بي الأعداء﴾ عبدة العجل فتفعل بي ما يتمنونه لي من الاستخفاف بي والانتهاك لحرمتي، ﴿ولا تجعلني﴾ في موجدتك[(١)] عليّ ونسبتك المعصية إليّ ﴿مع القوم الظالمين﴾ وأنا منهم بري وعنهم عري.

فلما استبان لموسى عليه السلام عذر أخيه وباينه غضبه ﴿قال رب اغفر لي ولأخي﴾ أي: اغفر لي ما صنعته بأخي مع براءته مما اتهمته به، ولأخي إن كان وجد منه تفريط خفي عليه أو عليّ ﴿وأدخلنا في رحمتك﴾ أي: في جنتك ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾.

قوله تعالى: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم﴾ وهو ما أمروا به من قتل أنفسهم، ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ قال ابن عباس: هي الجزية[(٢)].

وقال الزجاج[(٣)]: هي قتلهم أنفسهم.

والذي يظهر لي أن المراد بالذلة: ما لابسهم من العار والشنار بسبب عبادة العجل، فإنه حين سُقِطَ في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا، ذلوا واستحيوا القبيح ما ارتكبوه.

وجائز أن يراد بقوله: ﴿إن الذين اتخذوا العجل﴾ اليهود الموجودون في عصر النبي ﷺ، فيكون تعييراً لهم بصنيع أسلافهم، فيكون قوله: ﴿سينالهم غضب من

---

(١) الموجدة: الغضب (اللسان، مادة: وجد).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤١٣) بلا نسبة، وزاد المسير (٣/ ٢٦٥).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٧٩).

ربهم﴾ متمحضاً للاستقبال، بمعنى: ينالهم غضب الله في الآخرة، ﴿وذلة في الحياة الدنيا﴾ بالقتل والسبي والنفي، وضرب الجزية عليهم، ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾.

قال ابن عباس: وكذلك أعاقب من اتخذ إلهاً دوني[(١)].

قال مالك بن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذِلَّة، وقرأ هذه الآية[(٢)].

وقال سفيان بن عيينة: ليس في الأرض صاحب بدعة إلا وهو يجد ذِلَّةً تغشاه، وهو في كتاب الله. قالوا: وأين هي في كتاب الله؟ قال: أما سمعتم قول الله: ﴿إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم﴾ قالوا: يا أبا محمد! هذه لأصحاب العجل خاصة، فقال: اتلوا ما بعدها ﴿وكذلك نجزي المفترين﴾، وهي لكل مفتر ومبتدع إلى يوم القيامة[(٣)].

قوله تعالى: ﴿والذين عملوا السيئات﴾ قال ابن عباس: الشرك[(٤)].

وقيل: الشرك وغيره من الذنوب، ﴿ثم تابوا﴾ رجعوا من بعد ذلك، يشير إلى السيئات، ﴿وآمنوا﴾ بالوحدانية وما يجد الإيمان به، ﴿إن ربك من بعدها﴾ أي: من بعد السيئات ﴿لغفور رحيم﴾.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤١٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٦٦).

(٢) زاد المسير (٣/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٥-٥٦٦) وعزاه لأبي الشيخ.

(٤) الوسيط (٢/ ٤١٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ أي: [سكتت][(١)] فورته وخمدت ناره ﴿أخذ الألواح﴾ يريد: ما بقي منها ﴿وفي نسختها﴾ قال ابن قتيبة[(٢)]: أي: فيما نسخ فيها، ﴿هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون﴾ أي: يخافون، ودخلت اللام تقوية للفعل وجبراً لما كسبه تقديم معموله عليه من الضعف.

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا﴾ أي: من قومه، فلما سقط الحرف الجار تعدى الفعل فنصب[(٣)]، كقول الشاعر:

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ ما أُمِرتَ بهِ فَقَدْ تَركْتُكَ ذا مَالٍ وذا نَشَبِ[(٤)]

تقديره: أمرتك بالخير.

والنَّشَبُ: المال والعقار.

اختلف العلماء في سبب هذا الإخبار، فقال السدي: أمره الله أن يأتي في ناس

---

(١) في الأصل: سكت. والصواب ما أثبتناه.

(٢) تفسير غريب القرآن (ص:١٧٣).

(٣) انظر: الرازي (١٥/ ١٥)، وروح المعاني (٩/ ٧١-٧٢).

(٤) البيت لعمرو بن معدي كرب، انظر: ديوانه (ص:٦٣)، وخزانة الأدب (٩/ ١٢٤)، ومغني اللبيب (ص:٣١٥)، والدر المصون (١/ ٢١٠).

من بني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل، فاختار منهم سبعين رجلاً، فلما سمعوا كلام الله قالوا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة[١]. وقد ذكرنا ذلك في البقرة عند قوله: ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ [البقرة:٥٥].

قال ابن إسحاق: اختارهم [ليتوبوا][٢] إليه مما صنعوا ويسألوا التوبة على من تركوه وراءهم من قومهم[٣].

وقال وهب بن منبه: قالت بنو إسرائيل لموسى: إن طائفة يزعمون أن الله لا يكلمك، ولو كلمك ما قمت لكلامه، ألم تر أن طائفة منا سألوا النظر فماتوا، فأوحى الله تعالى إليه أن اختر من خيارهم سبعين رجلاً، ثم أرتق بهم الجبل، ففعل[٤].

وقال ابن السائب: اختارهم فلم يصب إلا ستين شيخاً، فأوحى الله تعالى إليه أن يختار من الشباب عشرة، فاختار فأصبحوا شيوخاً، واختار من كل سبط ستة، فصاروا اثنين وسبعين، فقال موسى: إنما أمرت بسبعين فليتخلف منكم رجلاً، فتشاحوا، فقال موسى: لمن قعد مثل أجر من خرج، فقعد رجلان؛ يوشع وكالب، وأمر موسى السبعين أن يصوموا ويطهروا ثيابهم، ثم خرج بهم لميقات ربه[٥].

واختلفوا في كيفية هذه الرجفة وسببها؛ فقال السدي وابن إسحاق: إنهم لما

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٧٢).

(٢) في الأصل: ليتوا. والتصويب من الطبري (٩/ ٧٢).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٧٢).

(٤) زاد المسير (٣/ ٢٦٨).

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ١٥٥).

سمعوا الكلام، قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً[١].

وقال ابن عباس: إن السبعين الذين قالوا: «لن نؤمن لك حتى نرى الله»، كانوا قبل السبعين الذين أخذتهم الرجفة، وإنما أمر الله تعالى موسى أن يختار منهم سبعين ليدعوا ربهم، فاعتدوا في الدعاء، فقالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا، ولا تعطه أحداً بعدنا، فكره الله ذلك منهم، وأخذتهم الرجفة[٢].

قال وهب: لم تكن الرجفة موتاً، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرعدة، فسكنوا واطمأنوا[٣].

وقال علي عليه السلام: إنما أخذتهم الرجفة من أجل دعواهم على موسى قتل هارون كما ذكرناه في وفاة هارون عليه السلام في التيه، فاختاروا سبعين منهم لينطلق بهم موسى فيشاهدوه، فلما انتهوا إلى القبر قال موسى: يا هارون قتلت أم متّ؟ فقال: ما قتلت، ولكن الله تعالى توفاني. فقالوا: يا موسى، لن نعصي بعد اليوم، فأخذتهم الرجفة فصعقوا فماتوا. فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم؟ يقولون: أنت قتلتهم، فأحياهم الله له جميعاً، وجعلهم أنبياء كلهم[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٧٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٤١٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٧٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧٤). وانظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٣٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ذكره البغوي (٢/ ٢٠٣)، والقرطبي (٧/ ٢٩٥).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٧٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٦٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب من عاش بعد الموت وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي =

قال المفسرون: خاف موسى عليه السلام أن يتهمه بنوا إسرائيل ولا يصدقوه إذا عاد إليهم فأخبرهم بالحال، وتضرع إلى الله وقال: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ يعني: من قبل خروجنا، أو من قبل هذا الميقات، أو من قبل أن تبتليهم بما استوجبوا به الرجفة، ﴿وإياي﴾ فكان بنوا إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموني[(١)].

﴿أتهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ قال المبرد: هذا استفهام استعطاف، أي: لا تهلكنا[(٢)]، وقد علم موسى أن الله أعدل من أن يؤاخذ بجريرة الجاني غيره، ولكن هذا كقول عيسى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ [المائدة:١١٨].

وقيل: استفهام في معنى الجحد، أي: لستَ تفعل ذلك[(٣)].

وقيل: أراد بالاستفهام: عبدة العجل، كأنه عليه السلام ظن أنهم إنما هلكوا باتخاذ أصحابهم العجل وإقامتهم بين أظهرهم، لم يزايلوهم ولم يأمروهم بالمعروف وينهوهم عن المنكر.

﴿إن هي إلا فتنتك﴾ أي: إن الفتنة التي وقع فيها السفهاء "إلا فتنتك" امتحانك وابتلاؤك، ﴿تضل بها من تشاء﴾ وهم الذين أصابتهم الفتنة، ﴿وتهدي من تشاء﴾ وهم الذين اعتصموا بدينهم وأقاموا على طاعة ربهم، ﴿أنت ولينا﴾ القائم بأمرنا وحفظنا ﴿فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾.

۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ

=

الشيخ.

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤١٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٦٩).

(٢) انظر: البغوي (٢/ ٢٠٤)، والقرطبي (٧/ ٢٩٥).

(٣) وهو قول ابن الأنباري. انظر: الوسيط (٢/ ٤١٥).

عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي: أوجب لنا في هذه الدنيا الأعمال الصالحة المفضية إلى رضاك، ﴿وفي الآخرة﴾ يعني: المغفرة والجنة، ﴿إنا هُدْنا إليك﴾ مِنْ هَادَ يَهُودُ؛ إذا رجع[1]. قال الشاعر:

قَدْ عَلِمَتْ هِنْد وجَارَتُها ... أَنِّي مِنَ الناسِ لَهَا هَائِدُ[2]

والمعنى: رجعنا إليك.

ومنه قول الشاعر:

يَا رَاكِبَ الذَّنْبِ هُدْ هُدْ ... واسْجُدْ كَأَنكَ هُدْهُدْ[3]

---

(١) انظر: اللسان (مادة: هود).

(٢) انظر البيت في: البحر المحيط (٤/ ٤٠٠)، والدر المصون (٣/ ٣٥٢) وفيهما: (سلمى) بدل: (هند)، و(الله) بدل: (الناس).

(٣) انظر البيت في: الكشاف (٢/ ١٥٦)، وروح المعاني (٩/ ٧٦)، والدر المصون (٣/ ٣٥٢).

وقرأ أبو وَجْزَة السعدي: «هِدنا» بكسر الهاء[١]، مِنْ هادَه يَهِيدُه؛ إذا حَرَّكَه[٢]، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنياً للفاعل والمفعول، بمعنى: حرّكنا إليك أنفسنا وأملناها إليك، أو حركنا إليك، على تقدير: فعلنا.

﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ وقرأ الحسن وابن السميفع: «من أساء» من الإساءة[٣]، ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾، قال الحسن وقتادة: وسعت البرّ والفاجر في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة فهي للمتقين خاصة[٤].

قال ابن عباس وقتادة: لما نزلت: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فنزعها الله منه فقال: ﴿فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾. -قال ابن عباس: يتّقون الشرك[٥]. وقال قتادة: الشرك والمعاصي[٦]-، فلما نزلت قالت اليهود والنصارى: نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات الله، فبرأها منهم وجعلها لهذه الأمة فقال: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي﴾ وهو محمد ﷺ[٧].

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢٧٠)، والدر المصون (٣/ ٣٥٣).

(٢) انظر: اللسان (مادة: هيد).

(٣) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣١)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٠)، والدر المصون (٣/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٨٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧١) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ٨١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٧٣) وعزاه لابن جرير.

(٦) أخرجه الطبري (٩/ ٨١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٨٠).

(٧) أخرجه الطبري (٩/ ٧٩-٨٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٧٩)، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٤٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٧٢)، والسيوطي في الدر (٣/ ٥٧٢-٥٧٣) وعزاه لعبد بن =

وسمي أمّياً؛ لما ذكرناه في البقرة.

وقيل: لأنه من أُمّ القرى[١].

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ منعوتاً فيهما، موصوفاً بما يأمرهم به وينهاهم عنه ويحلّه لهم ويحرّمه عليهم.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم وأبو الحسن البغداديان، أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا عبدالرحمن بن محمد، أخبرنا عبدالله بن أحمد، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا محمد بن سنان، حدثنا فليح، حدثنا هلال، عن عطاء بن يسار، قال: «لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، [وحرزاً][٢] للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظّ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يتوفاه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: (لا إله إلا الله)، ويفتح بها أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً»[٣]. هذا حديث صحيح.

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا مالك -وكان من علماء اليهود- عن صفة النبي ﷺ في التوراة، فقال: صفته في كتاب بني هارون عليه السلام الذي لم

=

حميد وأبي الشيخ عن قتادة.

(١) الماوردي (٢/ ٢٦٨)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٢).

(٢) في الأصل: وحزاً. والتصويب من الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٧٤٧ ح٢٠١٨).

يغير ولم يبدل: أحمد من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وهو آخر الأنبياء، وهو النبي العربي الذي يأتي بدين إبراهيم الحنيف، يتزر على وسطه، ويغسل أطرافه، في عينيه حمرة، وبين كتفيه خاتم النبوة مثل زِرّ الحَجَلة، ليس بالقصير ولا بالطويل، ويلبس الشَّمْلَة[(١)]، ويجتزئ بالبُلْغَة[(٢)]، ويركب الحمار، ويمشي في الأسواق، معه حرب وقتل وسبي، سيفه على عاتقه، لا يبالي من لقي من الناس، معه صلاة لو كانت في قوم نوح ما أهلكوا بالطوفان، ولو كانت في عاد ما أهلكوا بالريح، ولو كانت في ثمود ما أهلكوا بالصيحة، مولده بمكة، ومنشؤه بها، ودار هجرته يثرب، بين حرة ونخل وسبخة، وهو أُمِّيٌّ لا يكتب بيده، هو الحمّاد يحمد الله على كل شدة ورخاء، سلطانه بالشام، صاحبه من الملائكة جبريل، يلقى من قومه أذى شديداً، ثم يدال على قومه فيحصدهم حصد الجريد، تكون له وقعات بيثرب، منها له ومنها عليه، ثم تكون له العاقبة بعد، معه أقوام هم إلى الموت أسرع من الماء من رأس الجبل إلى أسفله، صدورهم أناجيلهم، قربانهم دماؤهم، ليوث[(٣)] النهار، رهبان الليل، يرعب منه عدوه مسيرة شهر، يباشر القتال بنفسه حتى يُجرح ويُكْلَم، لا شرطة معه ولا حرس يحرسه، ﷺ تسليماً[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾. قال الزجاج[(٥)]: ويجوز

---

(١) الشَّمْلَة: مئزر من صوف أو شعر يُؤْتَزَرُ به، فإذا لُفِّق لِفْقَيْن فهي مِشْمَلة يَشْتَمِل بها الرجل إذا نام بالليل (اللسان، مادة: شمل).

(٢) البُلْغَة: ما يُتَبَلَّغُ به من العيش (اللسان، مادة: بلغ).

(٣) جمع ليث، وهو الأسد (اللسان، مادة: ليث).

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ١٩٥).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٣٨١).

أن يكون مستأنفاً. ويجوز أن يكون يجدونه مكتوباً عندهم أنه يأمرهم بالمعروف.

قال ابن عباس: المعروف: مكارم الأخلاق وصلة الأرحام، والمنكر: عبادة الأوثان وقطع الأرحام[(١)].

وقال مقاتل[(٢)]: المعروف: الإيمان، والمنكر: الشرك.

وقيل: المعروف: الحق؛ لأن العقول تعرف صحته، والمنكر: الباطل؛ لأن العقول تنكر صحته[(٣)].

﴿ويحل لهم الطيبات﴾ وهي ما حُرّم عليهم من المستلذ؛ كالشحوم ولحم الإبل على اليهود، والبحائر والسوائب والوصائل والحوامي التي شرع تحريمها عمرو بن لحي.

وقيل: الطيبات: كل ما طاب في الشرع.

﴿ويحرم عليهم الخبائث﴾ كالميتة والدم ولحم الخنزير.

وقيل: كل ما خبث في حكم الشرع؛ كالزنا والرشوة وغيرهما من المكاسب المستخبثة.

﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ وقرأ ابن عامر: «آصارهم» على الجمع[(٤)].

والإِصْر: الثقل الذي يأصرهم، أي: يحبسهم عن الحركة. يقال: أَصَرَهُ يَأْصِرُهُ

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢٧٢).

(٢) تفسير مقاتل (١/ ٤١٨).

(٣) الماوردي (٢/ ٢٦٨)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٢).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٢٩٨)، والكشف (١/ ٤٧٩)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣١)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٥).

أَصْراً، والموضع مَأْصِرٌ ومَأْصَرْ، والجمع مآصير[١].

قال الزجاج[٢]: الإصر: ما عقدته من عَقْد ثقيل.

قال قتادة: يعني: التشديد الذي كان عليهم في الدين[٣].

وقال سعيد بن جبير: شدة العبادة[٤].

﴿والأغلال التي كانت عليهم﴾ وهي المشاق الشديدة؛ كقتل أنفسهم في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحتم القصاص. والإصر والأغلال متقارب في المعنى.

قال مسروق: ولقد كان الواحد من بني إسرائيل يذنب الذنب فيصبح قد كتب على باب بيته: إن كفارته أن تنزع عينيك فينزعهما[٥].

قال الزجاج[٦]: الأغلال تمثيل، ألا ترى أنك تقول: قد جعلت هذا طوقاً في عُنُقِك، وليس هنالك طوق، وإنما جعلت لزومه كالطوق في عنقك.

قلت: وقد حمله قوم على ظاهره.

قال عطاء: كانت بنوا إسرائيل إذا قامت تصلي لبسوا المسوح وغلّوا أيديهم إلى أعناقهم، وربما ثقب الرجل ترقوته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية

---

(١) انظر: اللسان (مادة: أصر).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٨١).

(٣) الماوردي (٢/ ٢٦٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٣).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٨٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٢-٥٨٣) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) زاد المسير (٣/ ٢٧٣).

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٣٨١).

يحبس نفسه للعبادة[١].

قوله تعالى: ﴿فالذين آمنوا به﴾ أي: بالرسول النبي الأمي محمد ﷺ، ﴿وعزّروه﴾ أي: منعوه من أعدائه، وأصل التعزير: المنع، ومنه: التعزير الذي هو بمعنى التأديب[٢]؛ لأنه يمنع من معاودة القبائح.

وقال ابن قتيبة[٣]: عظّموه ووقروه.

﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ وهو القرآن الكريم، سمي نوراً؛ لأنه يُهتدى به ويُستضاء في طريق النجاة.

فإن قيل: القرآن نزل مع جبريل، فكيف قال «معه»؟

قلت: منهم من فسر المعيّة بالمقارنة في الزمان، أي: النور الذي أنزل في زمانه.

وقال صاحب الكشاف[٤]: المعنى أنزل مع نبوته؛ لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به. ويجوز أن يتعلق بـ«اتبعوا» أي: اتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته، وبما أمر به ونهى عنه.

أو يكون المعنى: واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

وهذه الأوجه حسنة سديدة.

ويحتمل عندي إجراء اللفظ على ظاهره، وأن يكون المراد بالنور الذي أنزل معه: ما نزل به ليلة المعراج من القرآن، وهي خواتيم سورة البقرة -على ما ذكرناه

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف (٢/ ١٥٧).

(٢) انظر: اللسان (مادة: عزر).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٧٣).

(٤) الكشاف (٢/ ١٥٧).

في آخرها-، وما أوحاه الله إلى عبده في تلك الحضرة المقدسة، فإن بعض القرآن يسمى نوراً، قال الله تعالى: ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ [النساء:١٧٤].

ومعلوم أنه قد نزل بعد هذه الآية قرآن كثير.

إذا ثبت ذلك فنقول: إذا اتبع الإنسان خواتيم سورة البقرة واستضاء بنورها كان موافقاً لرسول الله ﷺ في الإيمان بما أنزل إليه من ربه، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله، وقارنه الفلاح والفوز الأبدي.

ويؤيد هذا: أن خواتيم سورة البقرة سميت نوراً؛ ففي صحيح مسلم من حديث ابن عباس، أن المَلَك قال للنبي ﷺ: «أبشر بنورين أوتيتهما: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة»[1]، وقد ذكرت الحديث في سورة الفاتحة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ أمر الله تعالى نبيه أن يبلغ الناس أنه رسوله إليهم أجمعين، عربهم وعجمهم، ودانيهم وقاصيهم، فحين باداهم بذلك وناداهم آمراً وناهياً، شَرِقُوا بذلك، فكذبوه وآذوه، ولم يسارع إلى تصديقه واتباعه ومعاضدته ومناصرته إلا الصديق الأكبر، شيخ الإسلام وخليفة

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٤ ح٨٠٦).

رسول الله أبو بكر بن أبي قحافة، رضي الله عنه وأرضاه، وأحسن جزاءه عن الإسلام وأهله.

أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد(١) بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من صلى أبو بكر رضي الله عنه، ثم تمثّل بأبيات حسان(٢):

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقةٍ فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خيرُ البرية أتقاها وأعدلها إلا النبي وأوفاها بما حملا
الثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس حقاً صدّق الرسلا

قرأتُ على الشيخ أبي الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة، أخبركم عبد الأول.

أخبرنا أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد العطار، أخبرنا عبد الأول بن عيسى، أخبرنا عبدالرحمن بن محمد، أخبرنا عبدالله بن أحمد بن حمويه، أخبرنا محمد بن يوسف [الفربري](٣)، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة بن خالد(٤)، حدثنا زيد بن واقد(٥)، عن بسر بن

---

(١) الزهد (ص:١٣٩).

(٢) انظر الأبيات في: القرطبي (٨/ ٢٣٦)، والمستدرك (٣/ ٦٧)، ومجمع الزوائد (٩/ ٤٣)، وسنن البيهقي الكبرى (٦/ ٣٦٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٤، ٣٣٦)، وتاريخ بغداد (١٤/ ٥١)، والاستيعاب (٣/ ٩٦٤)، وتاريخ الطبري (١/ ٥٣٩).

(٣) في الأصل: القريري. والصواب ما أثبتناه، وقد تقدمت ترجمته.

(٤) صدقة بن خالد الأموي، أبو العباس الدمشقي، مولى أم البنين أخت معاوية بن يزيد بن معاوية، وقيل: أخت عمر بن عبد العزيز، ثقة، توفي سنة سبعين أو إحدى وسبعين ومائة (تهذيب التهذيب ٤/ ٣٦٤، والتقريب ص:٢٧٥).

(٥) زيد بن واقد القرشي، أبو عمر -ويقال: أبو عمرو- الدمشقي الفقيه، وثقه ابن معين وغيره، (سير =

عبيدالله[1]، عن عائذ الله أبي إدريس[2]، عن أبي الدرداء، قال: «كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي ﷺ: أما صاحبكم فقد غامر فسلم، فقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليّ، فأقبلت إليك فقال: يغفر الله لك يا أبا بكر، ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر، فسأل أَثَمَّ أبو بكر؟ قالوا: لا، فأتى النبي ﷺ، فجعل وجه النبي ﷺ يَتَمَعَّر حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلم، مرتين. فقال النبي ﷺ: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بماله ونفسه، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي، مرتين. فما أوذي بعدها»[3]. انفرد بإخراجه البخاري.

قوله تعالى: ﴿جميعاً﴾ حال من "إليكم"[4]، ﴿الذي له ملك السموات

= أعلام النبلاء ٦/ ٢٩٦-٢٩٧، وتهذيب التهذيب ٣/ ٣٦٧).

(١) بسر بن عبيد الله الحضرمي، شامي جليل ثقة، من علماء دمشق، وكان أحفظ أصحاب أبي إدريس الخولاني، يروي عن واثلة بن الأسقع ورويفع وطائفة، وعنه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر وثور بن يزيد وزيد بن واقد. توفي في خلافة هشام بن عبد الملك (سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٩٢، والثقات ٦/ ١٠٩).

(٢) عائذ الله بن عبد الله بن إدريس بن عائذ بن عبد الله بن عتبة، أبو إدريس الخولاني، قاضي دمشق وعالمها، وواعظها، ولد في حياة النبي ﷺ يوم حنين، وحدّث عن أبي ذر وأبي الدرداء وحذيفة وأبي هريرة وغيرهم، وعنه أبو سلام الأسود ومكحول، وليس هو بالمكثر لكن له جلالة عجيبة، مات سنة ثمانين (سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٢-٢٧٦، والتقريب ص:٢٨٩).

(٣) أخرجه البخاري في (٣/ ١٣٣٩ ح٣٤٦١).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٥٥).

والأرض﴾ في موضع نصب على المدح[١]، أو في موضع جر على الوصف[٢].

والمراد بكلماته: كتبه ووحيه.

وقرأ شاذاً: «وكَلِمَتِهِ» على التوحيد[٣].

وقال مجاهد: أراد: عيسى بن مريم[٤].

وقيل: القرآن.

وقيل: اسم جنس.

ويجوز عندي والله أعلم: أن يراد بالكلمة: كلمة التقوى، وهي: (لا إله إلا الله).

﴿واتبعوه﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لعلكم تهتدون﴾.

قوله تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق﴾ أي: يعلمون به ويدعون إليه، ﴿وبه يعدلون﴾ يحكمون، وهم الذين اعتصموا بالهدى من بني إسرائيل.

قال ابن السائب[٥]: هم من آمن بالنبي ﷺ؛ كابن سلام وأصحابه.

وقال ابن عباس [و][٦] أكثر أهل التفسير: هم قوم وراء الصين، آمنوا بالنبي

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٧).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٥٥).

(٣) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٠٤)، والدر المصون (٣/ ٣٥٦).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٨٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٨٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٤) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤١٩)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٤).

(٦) زيادة على الأصل.

ﷺ وتركوا تحريم السبت يجمعون ولا يتظالمون(١).

قال ابن جريج: بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا تبرأ سبط منهم مما صنعوا، واعتذروا، وسألوا الله أن يفتح بينهم وبينهم، ففتح نفقاً في الأرض، فساروا فيه سنة ونصف سنة، حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمين يستقبلون قبلتنا(٢).

قال الربيع والضحاك وعطاء: ليس لأحد منهم مال دون صاحبه، يمطرون بالليل [ويسقون](٣) بالنهار ويزرعون، ولا يصل إليهم منا أحد ولا منهم إلينا(٤).

وذكر عن النبي ﷺ أن جبريل عليه السلام ذهب به ليلة أسري به وكلّمهم، فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد النبي الأمي، فآمنوا به، فقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا أن من أدرك منكم أحمد فليقرأ مني عليه السلام، فردّ محمد ﷺ على موسى وعليهم السلام، ثم [أقرأهم](٥) عشر سور نزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت(٦).

فإن قيل: الصلاة لم تفرض إلا ليلة المعراج، والزكاة فرضت بالمدينة، فكيف

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤١٨)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٨٧-٨٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣) في الأصل: ويصحبون. والتصويب من البغوي (٢/ ٢٠٦).

(٤) ذكره البغوي (٢/ ٢٠٦).

(٥) في الأصل: أقرأ. والتصويب من البغوي، الموضع السابق.

(٦) ذكره البغوي (٢/ ٢٠٦). ولم يذكر مستنده في النقل من وجه صحيح.

يتجه هذا النقل؟

قلت: كان النبي ﷺ يأمر بالصلاة والزكاة ومكارم الأخلاق قبل المعراج، وقبل أن يهاجر إلى المدينة، وكان مأموراً بذلك، فأراد بالزكاة هاهنا الصدقة التي كانت واجبة قبل شرعية الزكاة المعروفة المفروضة في المدينة، وأراد بالصلاة ما كان يتدين به قبل استقرار هذه الصلوات الخمس على الوجه المشروع الذي استقر الحكم عليه.

وَقَطَّعْنَاهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وقطعناهم﴾ يعني: بني إسرائيل ﴿اثنتي عشرة أسباطاً أمماً﴾ إن قيل: ما فوق العشرة من العدد لا يفسر بالجمع، فكيف قال: أسباطاً؟

قلت: جعله نعتاً لمحذوف، باعتباره وقع التأنيث في العدد، تقديره: اثنتي

عشرة فرقة أسباطاً. وقوله: "أمماً" بدل من "اثنتي عشرة"(١).

﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ يعني: في التيه ﴿أن اضرب بعصاك الحجر﴾ تقديره: فضرب، ﴿فانبجست﴾ أي: انفجرت ﴿منه اثنتا عشرة عيناً﴾ وقد سبق تفسير ما لم أذكره هاهنا في البقرة.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿واسألهم﴾ يعني: أحبار اليهود الموجودين في زمنك، سؤال تقرير وتقريع وتوبيخ ﴿عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾ أي: مجاورته، وهي أيلة(٢)، في قول جمهور المفسرين(٣).

وقال الزهري: هي طبرية(٤).

﴿إذ يعدون في السبت﴾ بدل من "القرية"، والمراد أهلها، كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم، وهو من بدل الاشتمال(٥). فعلى هذا محله من

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٧)، والدر المصون (٣/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٢) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام، وقيل: هي آخر الحجاز وأول الشام (مراصد الاطلاع ١/ ١٣٣).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٩٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٩٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٩٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٨٧) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٠).

الإعراب الجر.

ويجوز أن يكون محله من الإعراب: النصب بـ«كانت»، أو بـ«حاضرة».

ومعنى عدوانهم فيه: تجاوزهم حدود الله وانتهاكهم حرمته بالتسبب إلى استحلال الصيد فيه.

وقرأ أبو نهيك: «يُعِدّون» بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال[١]، يعني: يتهيّؤون ويعدّون آلات الصيد.

﴿إذ تأتيهم حيتانهم﴾ بدل بعد بدل، أو هو في موضع نصب بـ «يعدون»[٢].

وقوله: "شُرَّعاً" نصب على الحال[٣]، والمعنى: تأتيهم الحيتان يوم السبت ابتلاء وامتحاناً، ﴿شُرَّعاً﴾ ظاهرة على وجه الماء، ﴿ويوم لا يسبتون﴾ نصب بقوله: ﴿لا تأتيهم﴾[٤]، وأفصح اللغات أن ينتصب الظرف مع السبت والجمعة، فتقول: اليومَ السبت، واليومَ الجمعة، ولأن السبت والجمعة بينهما معنى الفعل؛ لأن السبت بمعنى: القطع والراحة، والجمعة بمعنى: الاجتماع. وترفع سائر الأيام فتقول: اليومُ الأحد، واليومُ الاثنين.

وقرأت لعاصم من رواية المفضل عنه: «يُسْبِتُونَ» بضم الياء الواقعة آخر حروف التهجي، وهي قراءة علي عليه السلام[٥].

(١) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٣٨٨)، والدر المصون (٣/ ٣٤١).

وفي بعض الروايات عنه: أنها بفتح العين وتشديد الدال.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٠).

(٣) مثل السابق.

(٤) مثل السابق.

(٥) انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٧٧)، والدر المصون (٣/ ٣٦٠).

والذي عليه أكثر العلماء: أن الوقف على قوله: ﴿لا تأتيهم﴾.

وقيل: الوقف على قوله: ﴿كذلك﴾، على معنى: لا تأتيهم الحيتان في غير يوم السبت شُرَّعاً كما تأتيهم في يوم السبت.

والأول أظهر وأشهر. على [معنى][1] مثل ذلك البلاء الشديد، ﴿نبلوهم﴾ أي: نختبرهم ﴿بما كانوا يفسقون﴾.

فإن قيل: ما الحكمة في سؤاله ﷺ إياهم؟

قلت: تقريرهم وتوبيخهم وتقريعهم وتذكيرهم وتحذيرهم من ارتكاب المعصية والمخالفة أن يصيبهم مثل ما أصاب أسلافهم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ قالت أمة منهم﴾ أي: جماعة من صالحيهم لم يتلبسوا بخطيئتهم، قالوا [للذين][2] شمروا عن ساق الجد والاجتهاد في الإنكار على المعتدين، علماً منهم بأنهم لا يرعوون ولا ينتفعون بالموعظة، ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ مستأصل شأفتهم بالمحق ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةٌ﴾ أي:

(١) زيادة على الأصل.

(٢) في الأصل: الذين.

موعظتنا معذرة، أي: إبداء عـذر إلى الله؛ لـئلا ننـسب إلى التفـريط بـترك الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿معذرةً﴾ بالنصب على المصدر[١]، أي: وعظناهم معذرة، ﴿إلى ربكم﴾ أي: اعتذرنا معذرة، ﴿ولعلهم يتقون﴾ وطمعاً في تقواهم.

قوله تعالى: ﴿فلما نسوا﴾ أي: تركوا ﴿ما ذكروا به أنجينا الـذين ينهـون عـن السوء﴾ وهم الذين أمروهم ونهوهم، ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ قرأ نافع: «بِيسٍ» بكسر الباء من غير همز، وكذلك ابن عامر إلا أنه همز، وقرأ الباقون: بفتح الباء وكسر الهمزة وياء بعدها، على وزن فَعِيل[٢].

وروي عن أبي بكر عن عاصم: بفتح الباء وياء ساكنة بعدها وهمزة مفتوحـة بعد الياء[٣]، على وزن [فَيْعَل][٤]. والمعنى: بعذاب شديد، وقـد ذكرنـا في البقـرة كيفية اعتدائهم وقصة مسخهم.

فإن قيل: ما صنع بالذين لم يعتدوا ولم ينهوا؟

قلت: قد روي عن ابن زيد أنه قال: نجت الناهية وهلكت الفرقتان[٥].

والصحيح: أنه لم يهلك إلا الفرقة الخاطئة الظالمة، وهـو قـول جماعـة، مـنهم

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٠)، والكـشف (١/ ٤٨١)، والنـشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٦).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧٦-٢٧٨)، والحجة لابـن زنجلـة (ص:٣٠٠)، والكـشف (١/ ٤٨١)، والنشر (٢/ ٢٧٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٦).

(٣) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢٧٨)، والدر المصون (٣/ ٣٦٢).

(٤) في الأصل: فعيل. والتصويب من زاد المسير (٣/ ٢٧٨).

(٥) الوسيط (٢/ ٤٢١).

الحسن البصري[١].

فإن قيل: الآية دلت على إنجاء الذين ينهون عن السوء فقط، وهذه الفرقة لم تنههم عن السوء؟

قلت: قد نهوهم عن السوء زماناً، ولم يسكتوا حتى يئسوا وعلموا أن الوعظ لا ينجع فيهم ولا ينفع، فسقط عنهم وجوبه، إذ لا فائدة فيه، ألا ترى أنك لو رأيت رجلاً مُصِرّاً على معصية قد خامرت عقله وأشربتها نفسه وصارت ديدناً له لا يراها عاراً وشناراً، بل ربما عدَّ تلبّسه بها شرفاً وفخاراً؛ لكونه يبسط ويقبض، ويرفع ويخفض، ويولي ويعزل، ويركب وينزل، على ما هي عادة الطغاة من الولاة الظلمة الفجرة المتلبسين بسخط الله المغمورين بغضبه، فأمرته بالمعروف ونهيته عن المنكر مراراً فلم يعرج على عظتك، وأعارك أذناً صُماً، وعيناً عُمْياً، فإن عامة العقلاء يعدونك بمعاودته بعد اليأس من صلاحه عابثاً، واضعاً للمواعظ في غير مواضعها، معرضاً نفسك لما لا يحل من العذاب والهوان والأذى، فإن أحسن إليك ذلك المستهتر المتهالك ولم يودك بذلك انخذل بتقبيحك له ما لا مزيد على استحسانه عنده سفيهاً، كما قال قوم شعيب: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ [هود:٨٧].

فإن قيل: هل تجد في الكتاب العزيز ما يدلك على أنهم لم يعذبوا؟

قلت: نعم، قوله عز وجل: ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ وهذه الفرقة لم تكن عاتية. وقوله عز وجل: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ وهؤلاء لم

---

(١) الوسيط (٢/ ٤٢١).

يكونوا معتدين؛ لأن المعتدي هو الذي يتجاوز الحدّ في الظلم والمعصية.

وقد روي: أن ابن عباس قال يوماً: ليت شعري ما فُعل بهؤلاء الذين قالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾؟ فقال له عكرمة: جعلني الله فداك، ألا ترى أنهم قد كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا: ﴿لم تعظون قوماً الله مهلكهم﴾، فلم أزل به حتى عرّفته أنهم قد نجوا، فكساني حلة[1].

وقد ذكرنا معنى العتو في قصة صالح.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ تأذن ربك﴾ تفعّل من الإيذان، وهو الإعلام[2]، والمعنى: عزم ربك وحتم وكتب على نفسه، وجاء بلفظ الإيذان؛ لأن العازم على الشيء يؤذن به نفسه مرة بعد مرة.

وقيل: أعْلَمَ أبناء بني إسرائيل[3].

وقال الزجاج[4]: قال بعضهم: تألّى ربك.

﴿ليبعثن عليهم﴾ أي: ليسلطن على اليهود لفرط عتوّهم وعلوّهم وتماديهم في غيّهم.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٩٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٠) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) يقال: أَذِنَ يَأْذَنُ به إِذْناً، إذا علم، والأذان: الإعلام (اللسان، مادة: أذن).

(٣) زاد المسير (٣/ ٢٧٩).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٨٧).

وقال مجاهد: على اليهود والنصارى[١].

﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ أشده وأقبحه، فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة والجزية فكانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن ضرب الإسلام بِجِرَانِه[٢] ورَسَتْ أوتاده، فاستنزلتهم سيوفهم من معاقلهم، فتفرق من أبقته منهم أيادي سبأ، وطوّقوا الصغار والمهانة طوق العمامة إلى يوم القيامة.

﴿إن ربك لسريع العقاب﴾ لمن أراد الانتقام منه من الملحدين، ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن أراد التجاوز عنه من الموحدين.

وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

قوله تعالى: ﴿وقطعناهم﴾ أي: مزّقناهم وفرقناهم، ﴿في الأرض أمماً﴾ قال ابن

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٠٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٠٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٢) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٢) أي: قوي الإسلام واستقر (لسان العرب، مادة: جرن).

عباس: ليس من بلد إلا وفيه منهم طائفة(١)، ﴿منهم الصالحون﴾ كالذين آمنوا بعيسى ومحمد والذين وراء الصين، ﴿ومنهم دون ذلك﴾ وهم الكفرة والفسقة.

و"دون ذلك" في محل الرفع صفة لموصوف محذوف، تقديره: ومنهم قوم منحطون عن الصلاح(٢).

﴿وبلوناهم بالحسنات﴾ كالعافية والخصب ترغيباً، ﴿والسيئات﴾ كالمرض [والجدب](٣) ترهيباً، ﴿لعلهم﴾ يتوبون إلى ربهم ويثوبون عن ذنبهم.

قوله تعالى: ﴿فخلف من بعدهم﴾ أي: من المذكورين الموصوفين، ﴿خَلْف﴾ وقرأ الجوني والجحدري: «خَلَف» بفتح اللام(٤).

قال أبو عبيدة(٥): هما واحد.

وقوم يجعلون الخَلَف -بالتحريك-: الصالح، وبالتسكين: الطالح.

قال ابن الأنباري(٦): وهو الأكثر في الاستعمال، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر. والمراد بالخَلْف هاهنا: الرديء. ومنه المثل السائر: «سَكَتَ أَلْفاً ونَطَقَ خَلْفاً»(٧).

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٠٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٠٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢٧٩)، والسيوطي في الدر (٣/ ٥٩٢) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٥).

(٣) في الأصل: والجذب.

(٤) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢٨٠)، والدر المصون (٣/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٥) مجاز القرآن (١/ ٢٣٢).

(٦) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٨٠).

(٧) قاله الأحنف لرجل أطال السكوت ثم نطق بالمحال (التمثيل والمحاضرة للثعالبي).

وقول لبيد:

ذَهَبَ الذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[(١)]

والمراد بهم: اليهود [الموجودون][(٢)] في زمن النبي ﷺ.

﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة، انتقلت إلى خلفهم من سلفهم كما ينتقل الميراث.

والخَلْف: إما جمع خالف؛ كراكب ورَكْب، وشارب وشَرْب، وإما مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، فلذلك قال: ﴿خَلْف﴾[(٣)].

﴿ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي: ما عرض لهم من حطام الدنيا؛ كالرشوة في الحكم وأمثالها، وسمّاه عَرَضاً؛ لقلة بقائه، وسمّاه أدنى؛ لدناءته وخساسته بالنسبة إلى عالم الآخرة ونفاسته، أو لدنوّه وقربه.

﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ أي: لا نؤاخذ بما أخذنا. وفاعل «سيغفر» هو الجار والمجرور وهو «لنا»، أو مصدر «يأخذون»، أي: سيغفر الأخذ لنا[(٤)].

﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الواو للحال[(٥)]، أي: يوجبون المغفرة على الله وهم مصرّون على الذنب، ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ وهو التوراة، ﴿أن لا يقولوا على الله إلا الحق﴾ عطف بيان لـ«ميثاق الكتاب»[(٦)]، والاستفهام تقرير

---

(١) البيت للبيد. انظر: ديوانه (ص:٣٦)، ، والطبري (٩/ ١٠٥)، والقرطبي (٧/ ٣١٠)، والبحر المحيط (٤/ ٤١٣)، وروح المعاني (٩/ ٩٦).

(٢) في الأصل: موجودن.

(٣) وهو قول ابن الأنباري.

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٦).

(٥) مثل السابق.

(٦) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٧).

وإنكار. والمعنى: قد أخذ عليهم الميثاق بقول الحق، فما بالهم يقولون الباطل ويتمنون على الله الأماني.

ثم أخبرهم عنهم أنهم خالفوه على علم فقال: ﴿ودرسوا ما فيه﴾ المعنى: فلم فعلوا ما ينافيه، وهو عطف على «ألم يؤخذ»[١]؛ لأنه في معنى: أخذ [عليهم][٢] كما ذكرناه، ﴿والدار الآخرة خير للذين يتقون﴾ الشرك والمعاصي، ﴿أفلا يعقلون﴾. قرئ بالياء والتاء[٣]، وقد ذكرناه في الأنعام[٤]. والمعنى: أفلا تعقلون تفاوت ما بين الدارين فتؤثرون النفيس الباقي على الخسيس الفاني.

قوله تعالى: ﴿والذين يُمَسِّكُون بالكتاب﴾ في موضع جرّ عطفاً «على الذين يتقون»، أو في موضع رفع بالابتداء، وخبره: «إنا لا نضيع»[٥].

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «يُمْسِكُون» بالتخفيف، من أمسك[٦].

وقرأه أُبيّ: «والذين تَمَسَّكوا» بالتشديد[٧]، وصيغة الماضي تقوّي قراءة الباقين.

قال المفسرون: نزلت في مؤمني أهل الكتاب؛ كابن سلام[٨]. ومعنى تمسّكهم

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٧).

(٢) في الأصل: غلبتهم.

(٣) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٠١)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٢).

(٤) عند الآية رقم: ٣٢.

(٥) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٦٧-٣٦٨).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠١)، والكشف (١/ ٤٨٢)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٢)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٧).

(٧) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤١٦)، والدر المصون (٣/ ٣٦٨).

(٨) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٢٣)، وزاد المسير (٣/ ٢٨٢).

به: عملهم بما فيه.

ثم خَصَّ الصلاة بالذكر مع دخولها في عموم التمسك بالكتاب؛ إظهاراً [لمنزلتها][(١)] وعظم شأنها، ولأنها عماد الإسلام، والفارقة بين الكفر والإيمان، فقال: ﴿وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين﴾.

۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

قوله تعالى: ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ أي: قلعناه من أصله. يقال: نَتَقَهُ يَنْتِقُهُ نَتْقاً[(٢)]، وهو الجبل المذكور في قوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ [النساء:١٥٤]، وكل ما أظل من سحاب أو سقف فهو ظُلَّة، وقد سبق ذكره.

﴿وظنوا أنه واقع بهم﴾ جائز أن يكون بمعنى العلم، وجائز أن يكون على أصله. وباقي الآية سبق تفسيره.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

---

(١) في الأصل: لمنزتها.

(٢) يقال: نَتَقَ الشيء يَنْتِقُهُ وينْتُقُه نَتْقاً: جذبه واقتلعه (اللسان، مادة: نتق).

قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم﴾ أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنَعْمان -يعني عرفة-، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، ثم نثرهم بين يديه كالذرّ، ثم كلمهم قُبُلاً قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ إلى قوله: ﴿المبطلون﴾»(١).

وأخرج مالك في الموطأ: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سُئِل عن قوله: ﴿وإذ أخذ ربك ... الآية﴾ فقال: سُئِل عنها رسول الله ﷺ فقال: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون. فقال رجل: يا رسول الله، ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»(٢). هذا حديث صحيح أخرجه أبو داود في سننه، والحاكم في صحيحه.

قال ابن عباس: لما خلق الله تعالى آدم مسح ظهره فأخرج من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فنودي يومئذ: أن القلم

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢ ح٢٤٥٥).

(٢) أخرجه مالك (٢/ ٨٩٨ ح١٥٩٣)، وأبو داود (٤/ ٢٦٦ ح٤٧٠٣)، والحاكم (١/ ٨٠ ح٧٤، ٢/ ٣٥٤ ح٣٢٥٦، ٢/ ٥٩٤ ح٤٠٠١).

جفّ بما هو كائن بي إلى يوم القيامة[(١)].

قوله تعالى: ﴿من ظهورهم﴾ بدل من ﴿بني آدم﴾، وهو بدل البعض من الكل[(٢)]، وفيه دليل على أن الأبناء أخرجوا من ظهور الآباء على نحو توالدهم.

قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو: «ذُرِّياتهم» على الجمع، وقرأ الباقون: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بفتح التاء على التوحيد[(٣)].

قال أبو علي[(٤)]: الذرية تكون واحداً وتكون جمعاً.

﴿وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ فأقرّوا جميعاً بربوبيته.

قال الزجاج[(٥)]: جائز أن يكون الله تعالى جعل لأمثال الذَّر فهْماً يعقل به [أمره][(٦)]، كما قال: ﴿قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم﴾ [النمل:١٨]، وكما قال: ﴿وسخّرنا مع داود الجبال يسبّحن والطير﴾ [الأنبياء:٧٩].

قال أبيّ بن كعب: جمعهم جميعاً فجعلهم أزواجاً، ثم صوّرهم ثم استنطقهم، ثم قال: ﴿ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ أنك إلهنا، قال: فإني أشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، ﴿أن تقولوا يوم

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١١١). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٨) وعزاه لابن المنذر.

(٢) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٩)، والدر المصون (٣/ ٣٦٩).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٧٩-٢٨٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠١)، والكشف (١/ ٤٨٣)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٨).

(٤) الحجة (٢/ ٢٨٠). وانظر: زاد المسير (٣/ ٢٨٤).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٠).

(٦) زيادة من معاني الزجاج، الموضع السابق.

القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ لم نعلم بهذا[١].

قال السدي: أجابت طائفة طائعين وطائفة كارهين تقية[٢].

وقوله: "شهدنا" جائز أن يكون من تمام كلام الذرية، فيكون قوله: ﴿أن تقولوا﴾ متعلقاً بفعل مضمر، تقديره: فعلنا ذلك، أو ذَكَّرناهم ذلك على ألسنة الرسل بعد أن أخرجناهم إلى الوجود، كراهة أن يقولوا أو لئلا يقولوا[٣]. ويجوز أن يكون الوقف على ﴿بلى﴾.

ثم أخبر الله تعالى عن شهادته وشهادة ملائكته على إقرار عباده فقال: ﴿شهدنا﴾، ويكون قوله: ﴿أن تقولوا﴾ متعلقاً بـ«شهدنا»، وهو العامل فيه النصب[٤]، وهذا قول الكلبي والسدي وأكثر المفسرين[٥].

قرأ أبو عمرو: ﴿أن يقولوا﴾، ﴿أو يقولوا﴾ بالياء فيهما. وقرأهما الباقون بالتاء على المخاطبة[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٥٥٩-٥٦٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٠) وعزاه لعبد بن حميد وعبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن منده في كتاب الرد على الجهمية واللالكائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات وابن عساكر في تاريخه.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١١٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٥٩٩) وعزاه لابن عبد البر في التمهيد من طريق السدي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وناس من الصحابة.

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٧٠).

(٤) مثل السابق.

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١١٨).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٢)، والكشف (١/ ٤٨٣-٤٨٤)، =

﴿إنا كنا عن هذا﴾ الإقرار ﴿غافلين﴾ لم نرشد إليه ولم ننبه عليه.

فإن قيل: قد خرجت الآية بأن أخذ الميثاق على الذرية إنما كان قطعاً لاحتجاجهم؛ لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، ونحن ما فينا من يذكر ذلك؟

قلت: قام إخبار الصادق مقام الذكر، فالمعرض عنه عما أخبر به مقطوع الحجة والاعتذار بالغفلة.

فإن قيل: فأي فائدة فيه مع النسيان؟

قلت: تأكيد الحجة على الكافر الجاحد بعد الإشهاد عليه بإقراره على نفسه بأن الله تعالى ربه لا شريك له، فإن الجحد بعد الإقرار أقبح وأعظم جريمة منه غير مسبوق بإقرار.

فإن قيل: ما الحكمة في إنشاء الإنسان الإقرار الأول؟

قلت: لأنه لو ذكر يوم ﴿ألست بربكم﴾ وكلام الله له بذلك، لكان إيمانه [اضطرارياً][1] لا اختيارياً، ولزال معنى الابتلاء والامتحان والتكليف بالإيمان بالغيب، وما يترتب عليه من حسن الجزاء.

فإن قيل: فما تقول في قول الزمخشري[2] بأن هذا تخيل وتمثيل، وأن معنى ذلك: أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم، فكأنه أشهدهم على أنفسهم؟

= والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٨).

(١) في الأصل: اضطراياً.

(٢) الكشاف (٢/ ١٦٦).

قلت: هو قول يصادم صريح القرآن وصحيح السنة وآثار السلف وإجماع الأمة، وأخاف أن يزاحم الكفر؛ لأنه تكذيب وتعطيل في المعنى، فليت شعري، أي ضرورة تحمل على مثل هذا، وليس في المصير إلى مدلول اللفظ ما يخالف القضايا العقلية والدلائل النقلية، اللهم فاعصمنا من مخالفة كتابك، وألاّ تعرضنا لغضبك وعقابك.

قوله تعالى: ﴿أو تقولوا﴾ عطف على قوله: ﴿أن تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل﴾، ﴿وكنا ذرية من بعدهم﴾ فاقتدينا بهم، لا يقدرون على الاحتجاج بذلك.

ولأن الله سدّ عليهم مسالك الاعتذار بما أخذه عليهم من الإقرار وأتتهم به الرسل من الإنذار.

والآية التي بعدها سبق تفسيرها.

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ أي: اقصص على اليهود. وقيل: على قومك. والأول أظهر؛ لأن المقصود من تلاوة هذا الخبر

تحذيرهم وتقريعهم، وتشبيههم بالمنسلخ من آيات [الله][(١)]؛ لكونهم عرفوا الكتاب والعلم الأول، فانسلخوا من ذلك، كفراً بمحمد ﷺ وحسداً له.

ويجوز عندي -والله أعلم-: أن يراد بقوله: "واتل عليهم" جميع الناس، ويرجع الضمير في «عليهم» إلى بني آدم، وقد تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾.

وفي المشار إليه أربعة أقوال:

أحدها: أنه بلعام. واختلف في اسم أبيه، فالمشهور في التفسير والمنصوص عن ابن عباس: أنه ابن باعوراء[(٢)].

وروي عن ابن عباس: أنه من مدينة الجبارين، من الكنعانيين[(٣)].

وروى عنه عطية: أنه كان من بني إسرائيل[(٤)].

وروي عنه: أنه رجل من أهل اليمن[(٥)].

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٢٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٦-١٦١٧)، ومجاهد (ص: ٢٥٠) وفيه: بلعام بن باعر. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٨) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٦-١٦١٧). وانظر: تفسير ابن عباس (ص: ٢٤٠). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٨) كلاهما عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٠).

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

وكان من حديثه على ما ذكره ابن عباس ونقله محمد بن إسحاق والسدي وغيرهم: أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام، وكان بلعام بقرية من قرى البلقاء، وكان أهلها كفاراً، وكان عنده الاسم الأعظم، فغزاهم نبي الله موسى عليه السلام، فأتاه قومه فقالوا: يا بلعام، هذا موسى بن عمران في بني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا، وإنا قومك، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادع الله عليهم، فقال: ويلكم نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون، فكيف أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما [لا](١) تعلمون؟ فما زالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه، فركب حماره متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، فسار قليلاً فَرَبَضَتْ أتانه(٢)، فنزل عنها فضربها، فأذن الله لها في كلامه فقالت: ويحك يا بلعام أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامي؟ أتذهب إلى نبي الله والمؤمنين تدعو عليهم؟ فلم يرتدع.

ويروى: أنه رجع، فقال ملكهم: إما أن تدعو عليهم وإما أن أصلبك، فدعا عليهم وعلى موسى بالاسم الأعظم أنهم لا يدخلوا المدينة، [فوقع](٣) موسى وقومه في التيه بدعائه، فقال موسى: يا رب كما استجبت دعاءه عليّ فاستجب دعائي عليه، فدعا الله تعالى أن ينزع منه الاسم الأعظم فنزعه منه(٤).

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) ربضت الدابة: أي: بَرَكَتْ (اللسان، مادة: ربض). والأتان: الحمارة. والجمع: أُتُن (اللسان، مادة: أتن).

(٣) في الأصل: قوع.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٢٥).

ويروى: أن موسى قتله بعد ذلك[١].

ويروى: أن بلعام لما أراد أن يدعو على بني إسرائيل، جعل لا يدعو عليهم بشيء إلا صرف لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بشيء إلا صُرف إلى بني إسرائيل، فقيل له في ذلك، فقال: هذا شيء قد غلب الله عليه، فاندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: ذهبت مني الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، وسأحتال لكم، جمّلوا النساء وأرسلوهن في عسكر بني إسرائيل، ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها، فإنه إن زنى رجل واحد منهم كفيتموهم، فوقع رجل منهم على امرأة، فأرسل الله على بني إسرائيل الطاعون فهلك منهم سبعون ألفاً في ساعة واحدة.

وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى عليه السلام، وكان قد أعطي في الخلق، وقوة في البطش، فأخبر خبر الزانيين، فدخل عليهما مضطجعين فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، وقال: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك. وإلى هذا القول ذهب ابن مسعود وابن عباس وجمهور المفسرين[٢].

القول الثاني: أنه أمية بن أبي الصلت، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، فلعبت به الأطماع الكاذبة ورجا أن يكون هو. فلما اصطفى الله تعالى محمداً ﷺ واختصه برسالته، حمله الحسد والبغي على الكفر به. فلما مات أمية أتت أخته الفارعة رسول الله ﷺ فسألها عن وفاة أخيها فقالت: بينا

---

(١) انظر: الطبري (٩/ ١٢٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٨٩).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٢٥-١٢٦).

هو راقد أتاه اثنان [فكشفا][1] سقف البيت ونـزلا، فقعـد أحـدهما عنـد رجليـه والآخر عند رأسه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: أوعى؟ قال: وعـى. قال: أزكى، قال: أبى، فسألته عن ذلك فقال: خير أريد بي فصرف عني، ثم غشي عليه فلما أفاق قال:

كـلُّ عـيش وإن تطـاول دهـراً ... صـائرٌ مـرةً إلى أن يَـزولا
ليتنـي كنـتُ قبـلُ مـا قـد بـدا لي ... في قـلال الجبـال أرعـى الوعـولا
إن يـومَ الحـساب يـومٌ عظـيم ... شـابَ فيـه الـصغيرُ يومـاً ثقـيلا

ثم قال لها رسول الله ﷺ: أنشديني شعر أخيك، فأنشدته:

لك الحمدُ والنعماءُ والفضلُ ربنـا ... ولا شيء أعلى منـك جـداً وأمجـد
مليكٌ عَلى عَرْشِ الـسَّماءِ مُهَـيْمِنٌ ... لِعِزَّتِـهِ تَعْنُـو الوُجُـوهُ وَتَـسْجُدُ

حتى أتت على آخر القصيد.

ثم أنشدته أيضاً:

عند ذي العرش تُعرضـون عليـه ... يعلـم الجهـر والـسرار الخفيـا
يـوم نـأتي الـرحمن وهـو رحـيم ... إنـه كـان وعـده مأتيـا
يـوم نأتيـه مثـلَ مـا قـال فـرداً ... ثـم لا بـد راشـداً وغَوِيَّـا

إلى أن قال:

ربِّ إن تعـفُ والمعافـاة ظنـي ... أو تعاقـب فلـم تعاقـب بريّـا

---

(١) في الأصل: فكشطا. انظر: البغوي (٢/ ٢١٥).

فقال النبي ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه». وأنزل الله فيه: ﴿واتل عليهم ... الآيات﴾[(١)].

وهذا قول جماعة منهم عبدالله بن عمرو بن العاص وسعيد بن المسيب[(٢)].

الثالث: أنه أبو عامر الراهب، وكان رجلاً من الأنصار قد ترهبن ولبس المسوح في الجاهلية وبني له مسجد الضرار؛ على ما سنذكره في سورة براءة إن شاء الله تعالى[(٣)].

قال ابن عباس: الأنصار تقول في هذه الآية: هو أبو عامر الراهب[(٤)]، الذي بني له مسجد الشقاق. وروي عن سعيد بن المسيب نحوه.

الرابع: أنه البَسُوس، وهو رجل من بني إسرائيل[(٥)].

وكان من حديثه:

ما قرأته على الشيخ أبي القاسم علي بن أبي الفرج المعروف بابن الموصلي، أخبركم يحيى بن أسعد بن بوش فأقرَّ به، أخبرنا أحمد بن عبيدالله بن كادش، أخبرنا أبو علي محمد بن الحسين الجازري، أخبرنا القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٠-٢٣١).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٢١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٨ ح١١١٩٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٩) وعزاه لعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني وابن مردويه.

(٣) عند الآية رقم: ١٠٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٦). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٠) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٥) انظر: ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٧-١٦١٨)، والبغوي (٢/ ٢١٥)، والقرطبي (٧/ ٣٢٠)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٣١)، وزاد المسير (٣/ ٢٨٧)، والدر المنثور (٣/ ٦٠٨-٦٠٩).

الجريري، حدثنا الحسين بن القاسم الكوكبي[١]، حدثنا أبو إسماعيل الترمذي، حدثنا عبدالله بن الزبير الحميدي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن أبي سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ قال: هو رجل كان في بني إسرائيل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ما يدعو به، وكانت له امرأة له منها ولد، وكانت سَمِجة[٢] دميمة، فقالت: ادع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل، فدعا الله لها. فلما علمت أن ليس في بني إسرائيل مثلها رغبت عن زوجها وأرادت غيره، فلما رغبت عنه دعا الله أن يجعلها كلبة نباحة، فذهبت منه فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: ليس بنا على هذا صبر أن صارت أمنا كلبة نباحة يُعيّرنا الناس بها، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها أولاً، فعادت كما كانت، فذهبت فيها الدعوات الثلاث[٣].

قال أبو الفرج المعافى بن زكريا: سَمِجَة: بكسر الميم، مثل: بَطِرَة.

وحكى سيبويه عن العرب[٤]: رجل سَمْج، بتسكين الميم، مثل: سمح.

قال: وقالوا: سميج؛ كقبيح.

وقول الراوي [في][٥] هذا الخبر: «يعيرنا الناس بها»، الفصيح من كلام

---

(١) الحسين بن القاسم الكوكبي، أخباري مشهور، وفي أخباره مناكير كثيرة بأسانيد جياد (لسان الميزان ٢/ ٣٠٩).

(٢) سَمُجَ الشيء: قَبُحَ، يَسْمُجُ سَماجةً: إذا لم يكن فيه ملاحة. وسميج: قبيح (اللسان، مادة: سمج).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦١٧-١٦١٨). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٠٨-٦٠٩) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) انظر: الكتاب (٤/ ٣٠).

(٥) زيادة على الأصل.

العرب: عيرت فلاناً كذا وكذا. وأما عيرته بكذا فلغة مقصرة عن الأولى في الاستشهاد والفصاحة، وإن كانت هي الجارية على ألسنة العامة.

ومن اللغة الأولى قول النابغة:

وعيرتني بنو[ذبيان][(١)] وهبته ... وهل عليّ بأن أخشاك من عار؟[(٢)]

وقال المُتَلَمِّس:

تُعيّرني أمي رجالٌ ولا أرى ... أخا كَرَمٍ إلا بأن يتكرّما[(٣)]

وقال المقنع الكندي في اللغة الأخرى:

يُعيّرني بالدَّيْن قومي وإنما ... تديّنت في أشياء تُكسبهم مجدا[(٤)]

والمشهور في التفسير: القول الأول، ومن أضاف نزولها إلى غيره، فلدخوله في عمومها وإن وردت على السبب الخاص. وإلى هذا أشار عكرمة بقوله: هو كل من انسلخ عن الحق بعد أن أعطيه[(٥)].

وفي بعض الألفاظ: أن النبي ﷺ قال لفارعة حين أنشدت شعر أخيها أمية: «كان مَثَلُ أخيك كمثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها»[(٦)]، وإن الآية مكية، وقصة أبي عامر الراهب في المدينة، فدل مجموع ذلك على صحة القول الأول، وأن

(١) في الأصل: ذبان. والتصويب من الديوان (ص:٥٧).

(٢) البيت للنابغة الذبياني، وهو في: ديوانه (ص:٥٧)، واللسان (مادة: عير).

(٣) انظر البيت في: أدب الكاتب لابن قتيبة (١/ ٣٢٤).

(٤) انظر البيت في: جمهرة الأمثال (٢/ ٢٠٦).

(٥) زاد المسير (٣/ ٢٨٨).

(٦) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٨٩٠)، والسيوطي في الدر (٣/ ٦٠٩) وعزاه لابن عساكر عن سعيد بن المسيب.

إضافتها إلى غيره لدخوله في عمومها.

قوله تعالى: ﴿فانسلخ منها﴾ أي: خرج من الآيات -وهي كتب الله ودلائل توحيده، أو اسمه الأعظم- كما تخرج الحية من جلدها.

﴿فأتبعه الشيطان﴾ قال ابن قتيبة(١): لحقه وأدركه.

وقال الأخفش(٢): تبعته وأتبعته بمعنى، مثل: ردفته وأردفته، ومنه: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ [الصافات:١٠].

قال الزجاج(٣): هما [بمعنى واحد](٤)، ومنه قوله: ﴿فمن تبع هداي﴾ [البقرة:٣٨]، وقال: ﴿فأتبعهم فرعون﴾ [يونس:٩٠].

وقرأ طلحة بن مصرف: «فاتّبعه الشيطان» بتشديد التاء ووصل الهمزة(٥).

قال اليزيدي: هما لغتان، وكأن أتبعه -خفيفة- بمعنى: قفاه، واتّبعه -مشدّدة-: حذا حذوه(٦).

قوله تعالى: ﴿فكان من الغاوين﴾ أي: فصار من الفاسدين الهالكين.

قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ أي: لو شئنا [لرفعنا](٧) منزلته بالآيات وشرفناه بها.

---

(١) تفسير غريب القرآن (ص:١٧٤).

(٢) انظر قول الأخفش في: القرطبي (١١/ ٤٨).

(٣) لم أقف عليه في معاني الزجاج. وانظر قول الزجاج في: زاد المسير (٣/ ٢٨٩).

(٤) في الأصل: معنى. والتصويب والزيادة من زاد المسير، الموضع السابق.

(٥) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٢٨٩)، والدر المصون (٣/ ٣٧٢).

(٦) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٨٩).

(٧) زيادة من زاد المسير (٣/ ٢٩٠).

وقال مجاهد وعطاء: المعنى: ولو شئنا لرفعنا عنه الكفر بآياتنا[١].

﴿ولكنه أخلد إلى الأرض﴾ قال الزجاج[٢]: يقال: أَخْلَدَ وخَلَدَ. والمعنى: رَكَنَ إلى الدنيا وأهلها، ﴿واتبع هواه﴾ معرضاً عن آياتنا وزواجرنا، وكأن المخذول زجر في منامه وقيل له: لا تدعُ على موسى وبني إسرائيل، فلم ينزجر، وكلّمته أتانه فلم ينته.

وقيل في قوله: "واتبع هواه": أرضى امرأته بذلك، وكانت زَيَّنَتْ له الدّعاء على موسى وقومه.

﴿فمثله كمثل الكلب﴾ يريد: الكلب اللاهث، ﴿إن تحمل عليه يلهث﴾ يقال: لَهَثَ الكلب يَلْهَثُ لَهْثاً؛ إذا دَلَعَ لسانه[٣].

والمعنى: إن تحمل عليه زاجراً أو ضارباً يلهث، وإن تتركه يلهث، فهو في حالتيه لم يزل لاهثاً، كذلك بلعام إن زجر أو وعظ فهو ضال، وإن ترك لا يزجر ولا يوعظ، فهو ضال.

وقيل: المعنى ولكنه أخلد إلى الدنيا فوضعنا منزلته، فمثله في الخِسَّة والضَّعَة[٤] كمثل الكلب في أخسّ أحواله، وهي حالة لهثه.

وقيل: مثله حين خرج لسانه وتدلى على صدره -كما ذكرناه في قصته- كمثل الكلب اللاهث.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٢٧)، ومجاهد (ص: ٢٥١) وفيه: «لدفعنا عنه».

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٩١).

(٣) انظر: اللسان (مادة: لهث).

(٤) الضَّعَة والضِّعَة: خلاف الرِّفعة في القَدْر. والوضيع: الدنيء (انظر: اللسان، مادة: وضع).

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بلعام وغيره من الكفار، ﴿فاقصص القصص﴾ يا محمد ﴿لعلهم يتفكرون﴾، فيحدثُ لهم التفكر في قصص المكذبين المعذبين اعتباراً وانزجاراً وخوفاً من سوء العاقبة وزوال العافية، ويستدلوا بقصصك على صحة رسالتك؛ لأن العلم بذلك لا يتلقّى إلا من جهة الوحي أو التعليم، وقد علموا عدم القسم الثاني، وتحققوا أنك أُمِّيٌّ مِنْ أُمَّة أُمِّيَّة، وطائفة جاهليةٍ لم تتشاغل بعلم، ولم تعاشر أهل كتاب، ولم تخرج من بين أظهر قومك؛ فيتعين القسم الأول.

قوله تعالى: ﴿ساء مثلاً القوم﴾ هو على حذف المضاف، أي: ساء مَثَلاً مَثَلُ القوم[1].

وقرأ الجحدري: «سَاءَ مَثَلُ القوم»[2].

و"مثلاً" منصوب على التميز[3]، ﴿وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ معطوف على ﴿كذبوا بآياتنا﴾[4]، أي: جمعوا بين التكذيب والظلم، فيكون الظلم داخلاً في حيز الصلة. ويجوز أن يكون منقطعاً عن الصلة، بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم، وتقديم المفعول للاختصاص[5]، كأنه قيل: خَصُّوا أنفسهم بالظلم.

قوله تعالى: ﴿من يهد الله فهو المهتدي﴾ أي: من يتولى الله هدايته فهو المهتدي،

---

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٨٩)، والدر المصون (٣/ ٣٧٣).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٢٤)، والدر المصون (٣/ ٣٧٣).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٧٣).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٧٤).

(٥) مثل السابق.

﴿ومن يضلل﴾ أي: ومن يخذله ويضلّه ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: خلقنا ﴿لجهنم كثيراً﴾ خلقنا كثيراً ﴿من الجن والإنس﴾ وهم الذين حقّت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاء الذين خلقوا للنار.

قرأتُ علي أبي المجد محمد بن الحسين القزويني، أخبركم الإمام أبو منصور محمد بن أسعد المعروف بحفدة العطاري فأقرَّ به، قال: حدثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أخبرنا أبو بكر يعقوب بن أحمد بن محمد الصيرفي[1]، حدثنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد المخلدي، أخبرنا أحمد بن محمد بن أبي حمزة البلخي، حدثنا موسى بن محمد بن الحكم الشطوي، حدثنا حفص بن غياث، عن طلحة [بن][2] يحيى[3]، عن عائشة بنت طلحة[4]، عن عائشة أم المؤمنين رضي

(١) يعقوب بن أحمد بن محمد أبو بكر الصيرفي، حدث بنيسابور عن الحسن بن أحمد المخلدي وأحمد بن محمد بن أحمد بن عمر الخفاف، وغيرهم، توفي في سنة ست وستين وأربعمائة (التقييد ص:٤٩٥).

(٢) في الأصل: عن. وهو خطأ، والتصويب من البغوي (٢/ ٢١٧). انظر ترجمته في المصادر التالية.

(٣) هو طلحة بن يحيى بن طلحة بن عبيد الله التيمي المدني، نزيل الكوفة، صدوق يخطئ، مات سنة ثمان وأربعين ومائة (تهذيب التهذيب ٥/ ٢٥، وتقريب التهذيب ص:٢٨٣).

(٤) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية، أم عمران، تابعية ثقة، أمها أم كلثوم بنت أبي بكر، روت عن خالتها عائشة، وعنها ابنها طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن وابن أخيها طلحة بن يحيى بن طلحة وغيرهم (تهذيب التهذيب ٥/ ٢٥، وتقريب التهذيب ص:٢٨٣).

الله عنها قالت: أدرك النبي ﷺ جنازة صبي من صبيان الأنصار، فقالت عائشة رضي الله عنها: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم في أصلاب آبائهم»[١]. هذا حديث صحيح أخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع، عن طلحة بن يحيى، عن عمته عائشة بنت طلحة.

ومنه أيضاً: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم﴾ وقد سبق آنفاً.

قوله تعالى: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يفهمون ولا يعقلون بها الحق، ﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ العجائب [الدالّة][٢] على وحدانية خالقها وقدرته وعظمته، ﴿ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ مواعظ القرآن ودلائل التوحيد، ﴿أولئك كالأنعام﴾ في عدم التفكر والاعتبار، وما يُدرك بالأسماع والأبصار.

وقال مقاتل[٣]: ﴿أولئك كالأنعام﴾ يأكلون ويشربون ولا يلتفتون إلى الآخر﴿بل هم أضل﴾ من الأنعام؛ لأنها تجتلب منافعها وتجتنب مضارّها، والكفار يقتحمون النار معرضين عن مصالحهم، ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الكاملون الغفلة.

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٠ ح٢٦٦٢). وانظر: تفسير البغوي (٢/ ٢١٧).

(٢) في الأصل: الدلة. والصواب ما أثبتناه.

(٣) تفسير مقاتل (١/ ٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾، سبب نزولها: أن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال الأحمق الجاهل أبو جهل: أليس يزعم محمداً وأصحابه أنهم يعبدون رباً واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فنزلت هذه الآية[(١)].

والحسنى: تأنيث الأحسن، وقد سبق ذكره.

والمعنى: ولله الأسماء الدالة على المعاني الحسنة، والأوصاف الجميلة، من الرحمة والمغفرة والحلم والعفو والرزق والتعظيم والتحميد والتقديس، ﴿فادعوه بها﴾ أي: اسألوه بأسمائه الحسنى وتوسلوا إليه بها، كقولك: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا كريم، يا حليم[(٢)].

قرأتُ على الشيخ عماد الدين أبي محمد عبدالله بن الحسن بن الحسين بن أبي السنان بالموصل في المحرم سنة أربع وعشرين وستمائة، ومولده سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، أخبركم الشيخ الحافظ أبو سعيد عبداللطيف بن أبي سعد البغدادي سنة خمس وخمسين وخمسمائة فأقرَّ به، أخبرنا أبو القاسم غانم بن أبي نصير محمد بن عبيد الله البرجي[(٣)]، أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن الحسين بن فاذشاه[(٤)]،

---

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٩٢).

(٢) انظر: مجاز القرآن (١/ ٢٣٣).

(٣) غانم بن محمد بن عبيد الله بن عمر بن أيوب الخرقي البرجي الأصبهاني، أبو القاسم، ولد في ذي القعدة سنة سبع عشرة وأربعمائة، وتوفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٢٠-٣٢٢، والتقييد ص:٤٢١).

(٤) أحمد بن محمد بن الحسين ابن محمد بن فاذشاه الأصبهاني. سمع الكثير من أبي القاسم الطبراني، وكان سماعه مع جده الحسين في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، روى المعجم الكبير كله عن الطبراني وغير ذلك. مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥١٥-٥١٦).

حدثنا أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني[1]، حدثنا أسلم بن سهل[2]، حدثنا محمد بن أبان الواسطي[3]، حدثنا عمران بن خالد الخزاعي[4]، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من [أحصاها][5] دخل الجنة»[6].

قال: هذا حديث متفق على صحته، أخرجه مسلم عن محمد بن رافع، عن عبدالرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة.

فإن قيل: أسماء الله كثيرة جداً، فما وجه الحديث؟

قلت: ليس المراد حصر أسماء الله تعالى في هذا العدد، وإنما المعنى: أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، كما تقول: لزيد مائة درهم أَعَدَّها للصدقة، ولا يدل على أنه ليس عنده أكثر من ذلك؛ وإنما يدل على أن الذي عنده للصدقة هذا

---

(١) سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي، أبو القاسم الطبراني، من طبرية الشام، كان ثقة حافظاً، استوطن أصبهان، وحدّث بها إلى أن مات، ولد سنة ستين ومائتين، وتوفي يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة (التقييد ص:٢٨٣-٢٨٤).

(٢) أسلم بن سهل بن سلم بن زياد بن حبيب الواسطي الرزاز، ويعرف ببحشل، وهو ثقة ثبت إمام، توفي سنة اثنتين وتسعين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٥٥٣).

(٣) محمد بن أبان بن عمران بن زياد بن ناصح، أبو عمران الواسطي الطحان، صدوق تكلم فيه، مات سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وعاش تسعين سنة (تهذيب التهذيب ٩/ ٣، والتقريب ص:٤٦٥).

(٤) عمران بن خالد الخزاعي البصري، روى عن ابن سيرين والحسن وثابت البناني. روى عنه بشر بن معاذ العقدي. قال أبو حاتم: ضعيف. وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به (الجرح والتعديل ٦/ ٢٩٧، ولسان الميزان ٤/ ٣٤٥).

(٥) في الأصل: أحصا. والمثبت من صحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٣).

(٦) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٦٣ ح٢٦٧٧).

القدر.

فإن قيل: ما معنى: «أحصاها»؟

قلت: عنه أجوبة: أحدها: أن معناه: حفظها. وفي بعض ألفاظ الحديث: «من حفظها»[1].

الثاني: أن المعنى: من أطاقها، كقوله تعالى: ﴿علم أن لن تحصوه﴾ [المزمل: ٢٠]، وقوله عليه السلام: «استقيموا ولن تحصوا»[2].

والمعنى: من أطاق العمل بها؛ كالسميع والعليم، فالعمل بهما أن يكفّ لسانه عن قول ما لا يجوز، ويجتنب في خلواته ما يكره اطلاع الناس عليه، ولا يركن ويعزم على ما يحرم، وعلى هذا سائر الأسماء.

الثالث: أن المعنى: من عقلها وآمن بها دخل الجنة، مأخوذ من الحَصَاة، وهو العَقْل.

قال طرفة:

وإنَّ لسانَ المرْءِ ما لم يَكُنْ له ... حَصَاةٌ على عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ[3]

قال بعض العلماء: من قرأ القرآن وجمعه أتى على هذه الأسماء وعلى غيرها من أسماء الله تعالى المنزلة في كتابه، فأشار بذلك إلى أنّ من قرأ القرآن دخل الجنة.

والصحيح: أن معنى الإحصاء: الحفظ، لما ذكرناه أولاً، ولما كان في بعض

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٢٦٩ ح٣٨٦١).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٠١ ح٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٢٧٦)، والحاكم (١/ ٢٢٠ ح٤٤٧).

(٣) البيت لطرفة، وهو في: اللسان، (مادة: حصي)، وديوان الحماسة (٢/ ١٨١)، وشرح كتاب الأمثال (١/ ٢٦٢).

طرق الصحيح: «من حفظها دخل الجنة» ذكرتها لتحفّظ، وهي ما قرأته على الشيخ أبي المجد القزويني، أخبركم أبو منصور محمد بن أسعد فأقرَّ به، قال: حدثنا أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد بن محمد الضحالي الطوسي بها، أخبرنا أبو منصور محمد بن نصر بن أحمد الطوسي، أخبرنا الحاكم أبو أحمد الحافظ، حدثنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، حدثنا صفوان بن صالح بن عبد الملك الدمشقي -واللفظ له-:

وأخبرنا به عالياً أبو محمد عبدالله بن الحسن بن أبي السنان بقراءتي عليه، أخبرنا عبداللطيف بن أبي سعد البغدادي، أخبرنا أبو القاسم البرجي، أخبرنا ابن فاذشاه، حدثنا أبو القاسم الطبراني، حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي[(١)] وورد بن أحمد بن لبيد البيروتي قالا: حدثنا صفوان بن صالح[(٢)]، حدثنا الوليد بن مسلم[(٣)]،

---

(١) أحمد بن المعلى بن يزيد الأسدي، أبو بكر الدمشقي، نائب أبي زرعة في قضائها. صدوق، مات في شهر رمضان سنة ست وثمانين ومائتين (تهذيب التهذيب ١/ ٧٠، وتهذيب الكمال ١/ ٤٨٥-١٨٧).

(٢) صفوان بن صالح بن صفوان بن دينار، أبو عبد الملك الثقفي الدمشقي، مؤذن جامع دمشق، ثقة عند أهل الحديث. ولد سنة ثمان أو تسع وستين ومائة، ومات في ربيع الأول سنة تسع وثلاثين ومائتين (سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٧٥، وتهذيب التهذيب ٤/ ٣٧٤).

(٣) الوليد بن مسلم القرشي، أبو العباس الدمشقي، مولى بني أمية، وقيل: مولى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي، ثقة كثير الحديث، لكنه كثير التدليس والتسوية، وكان من أوعية العلم، ولد سنة تسع عشرة ومائة، ومات سنة أربع وتسعين ومائة (تهذيب الكمال ٣١/ ٨٦-٩٨، والتقريب ص:٥٨٤، وسير أعلام النبلاء ٩/ ٢١١-٢٢٠).

حدثنا شعيب بن أبي حمزة(١)، عن أبي الزناد(٢)، عن الأعرج(٣)، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة، هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدي، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو

---

(١) شعيب بن أبي حمزة، أبو بشر الأموي الحمصي الكاتب، واسم أبيه دينار، الإمام الحجة المتقن. كان مليح الضبط، أنيق الخط، مات سنة اثنتين -أو ثلاث- وستين ومائة (تذكرة الحفاظ ١/ ٢٢١-٢٢٢، وسير أعلام النبلاء ٧/ ١٨٧-١٩٢).

(٢) هو عبد الله بن ذكوان القرشي، أبو عبد الرحمن المدني، المعروف بأبي الزناد، مولى رملة بنت شيبة بن ربيعة، وقيل: مولى عائشة بنت عثمان بن عفان، ثقة فقيه، وثقه أحمد وابن معين، ولد سنة خمس وستين في حياة ابن عباس، ومات سنة ثلاثين ومائة. وقيل بعدها (تهذيب التهذيب ٥/ ١٧٨-١٧٩، والتقريب ص:٣٠٢، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٤٤٥-٤٥١).

(٣) هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، أبو داود المدني، مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان ثقة كثير الحديث، مات بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة (تهذيب التهذيب ٦/ ٢٦٠، والتقريب ص:٣٥٢).

الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»[١].

قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث غريب، حدث غير واحد عن صفوان بن صالح، وهو ثقة عند أهل الحديث، وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

ويعلو لي هذا الحديث من طريق ابن أبي السنان برجلين، فكأنني سمعته من أبي محمد البغوي.

فصل

يتضمن شرح ما أشكل من هذه الأسماء وإن كان معظمها قد مضى في كتابنا، ويأتي فيما بقي إن شاء الله تعالى، إلا أنا نشير إليه بطريق الاختصار ليكون مجموعاً هاهنا.

أما اسم الله الرحمن الرحيم فقد ذكرناه في أول الكتاب.

«القدوس»: الطاهر من العيوب.

و«السلام»: الذي يسلم من كل عيب ونقص.

«المؤمن»: الذي أمن المؤمنين من عذابه.

«المهيمن»: الشهيد.

«المتكبر»: البليغ الكبرياء والعظمة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٣٠ ح٣٥٠٧).

قال ابن الأنباري: المتكبر: ذو الكبرياء، وهو الملك.

وقال أهل المعاني: المتكبر في صفة الله: الكبير، والعرب تضع نفعل في موضع فعل، مثل: نظلم في موضع ظلم.

«الفتاح»: الحاكم.

و«الحكم»: الحاكم أيضاً.

«العدل»: الذي لا يجور.

«اللطيف»: البر بعباده.

«الشكور»: الذي يشكر القليل من الطاعة فيثيب عليه.

«المقيت»: المقتدر.

و«الحسيب»: الكافي.

و«الجليل»: العظيم.

و«الرقيب»: الحافظ.

«الودود»: المحب عباده الصالحين.

«المجيد»: الواسع الكرم.

«الوكيل»: الكافي.

و«المتين»: الشديد القوة.

«الولي»: الناصر.

«الحميد»: المحمود.

و«القيوم»: الدائم بلا زوال.

«الواجد»: الغني.

و«الماجد»: بمعنى المجيد.

و«الأحد»: المنفرد بالمعنى الذي لا يشاركه فيه أحد.

و«الواحد»: المنفرد بالذات.

و«الصمد»: السيد الظاهر بالحجج.

«الباطن»: المحتجب عن الأبصار.

«الوالي»: المتولي للأشياء.

و«البر»: العطوف.

ومعنى «ذو الجلال والإكرام»: أنه أهلٌ أن يُجَلّ ويكرم.

و«المقسط»: العادل.

و«المانع»: الناصر.

ومعنى «النور»: الذي بنوره يبصر ذو نعمائه.

و«البديع»: المبتدع الأشياء.

و«الوارث»: الباقي بعد فناء خلقه.

و«الرشيد»: بمعنى المرشد.

و«الصبور»: الذي لا يعاجل بالعقوبة.

فإن قيل: هل جاء في الاسم الأعظم بخصوصه حديث يعتمد عليه؟

قلت: نعم. وهو:

ما أخبرنا به محمد بن أبي عبدالله بن أبي المكارم فيما قرأته عليه، قال: أخبرنا أبو منصور بن أسعد، أخبرنا الحسين بن مسعود، أخبرنا أبو القاسم يحيى بن علي

الكشميهني، أخبرنا القاضي أبو جعفر محمد بن أحمد السمناني(١)، أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبدالرحمن المخلص(٢)، حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد(٣)، حدثنا الحسين بن الحسن المروزي(٤)، حدثنا نوح بن الهيثم(٥)، حدثنا خلف بن خليفة(٦)، حدثنا حفص ابن أخي أنس بن مالك، عن أنس قال: «كنت جالساً مع

---

(١) محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد السمناني الحنفي، أبو جعفر. حدث عن نصر المرجي، وعلي بن عمر الحربي، وأبي الحسن الدارقطني، وجماعة، ولازم ابن الباقلاني حتى برع في علم الكلام، وكان صدوقاً، فاضلاً، حنفياً يعتقد مذهب الأشعري، وله تصانيف، وكان من أذكياء العالم. توفي بالموصل سنة أربع وأربعين وأربعمائة، وله ثلاث وثمانون سنة (سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٥١-٦٥٢).

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا، أبو طاهر المخلص، شيخ صالح ثقة، ولد ليلة الاثنين لسبع ليال خلون من شوال سنة خمس وثلاثمائة، وأول سماعه كان في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثمائة من ابن بنت منيع، مات في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة (تاريخ بغداد ٢/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٣) يحيى بن محمد بن صاعد بن كاتب، مولى أبي جعفر المنصور، الحافظ الامام الثقة، أبو محمد الهاشمي البغدادي. ولد سنة ثمان وعشرين ومائتين، وله تصانيف في السنن والأحكام، مات في ذي القعدة سنة ثمان عشرة وثلاثمائة بالكوفة (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٥٠١-٥٠٧، وتذكرة الحفاظ ٢/ ٧٧٦-٧٧٨).

(٤) الحسين بن الحسن بن حرب السلمي، أبو عبد الله المروزي، صاحب ابن المبارك، نزيل مكة، ثقة صدوق . مات سنة ست وأربعين ومائتين (تهذيب الكمال ٦/ ٣٦١-٣٦٣، وتهذيب التهذيب ٢/ ٢٨٩، والتقريب ص:١٦٦).

(٥) نوح بن الهيثم الخراساني، صهر آدم بن أبي إياس العسقلاني (الجرح والتعديل ٨/ ٤٨٥، ولسان الميزان ٦/ ١٧٥).

(٦) خلف بن خليفة بن صاعد الأشجعي، مولاهم، أبو أحمد الكوفي. صدوق اختلط في الآخر، كان =

النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي، فقال: اللهم! إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم أسألك، فقال النبي ﷺ: هل تدرون ما دعا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[(١)].

وقرأت على أبي المجد محمد بن الحسين، أخبركم أبو منصور حفدة العطاري، حدثنا أبو محمد البغوي، أخبرنا الإمام أبو علي الحسين بن محمد القاضي، حدثنا أبو القاسم إبراهيم [بن][(٢)] محمد بن علي بن الشاه، حدثنا أبو بكر محمد بن عبدالله النيسابوري، أخبرنا أبو عمرو عثمان بن عمر الضبي، حدثنا عمرو بن مرزوق[(٣)]، أخبرنا مالك بن مِغْوَل[(٤)]، حدثنا عبدالله بن بريدة[(٥)]، عن أبيه[(٦)] قال: «دخلت مع

= بالكوفة، ثم انتقل إلى واسط فسكنها مدة، ثم تحول إلى بغداد فأقام بها إلى حين وفاته، مات سنة إحدى وثمانين ومائة (تهذيب التهذيب ٣/ ١٣٠، والتقريب ص:١٩٤).

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٩ ح١٤٩٣)، والترمذي (٥/ ٥١٥ ح٣٤٧٥)، وأحمد (٣/ ١٥٨ ح١٢٦٣٢)، والحاكم (١/ ٦٨٣ ح١٨٥٦).

(٢) زيادة على الأصل. انظر: تكملة الإكمال (٢/ ٥٩٠).

(٣) عمرو بن مرزوق الباهلي، مولاهم، أبو عثمان البصري، ثقة مأمون فاضل، له أوهام، مات سنة أربع وعشرين ومائتين (تهذيب التهذيب ٨/ ٨٧-٨٨، والتقريب ص:٤٢٦).

(٤) مالك بن مغول بن عاصم بن غزية بن حارثة بن حديج بن بجيلة البجلي، أبو عبد الله الكوفي. ثقة ثبت، مات سنة سبع -أو ثمان أو تسع- وخمسين ومائة (تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٠، والتقريب ص:٥١٨).

(٥) عبد الله بن بريدة بن الحصيب الأسلمي، أبو سهل المروزي، قاضي مرو. مات سنة خمس ومائة. وقيل: خمس عشرة ومائة (تهذيب التهذيب ٥/ ١٣٧-١٣٨، والتقريب ص:٢٩٧).

(٦) بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، أبو عبد الله، أسلم قبل بدر ولم يشهدها، =

رسول الله ﷺ المسجد ويدي في يده، وإذا رجلٌ يصلي يقول: اللهم! إني أسألك فإنك أنت الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. فقال رسول الله ﷺ: دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب»[1].

والرجل المذكور في هذا الحديث: عبدالله بن قيس أبو موسى الأشعري رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿وذروا الذين يُلْحِدون في أسمائه﴾ قرأ حمزة: «يَلحَدون» بفتح الياء والحاء، هنا وفي النحل[2] والسجدة[3]، وافقه الكسائي في النحل، من لَحَدَ يَلْحَدُ[4]. وقرأ الباقون: بضم الياء وكسر الحاء، من أَلْحَدَ يُلْحِدُ[5].

وقال الأخفش[6]: أَلْحَدَ ولَحَدَ لغتان.

وقال ابن السكيت: المُلْحِد: العادل عن الحق المُدْخِل فيه ما ليس منه. يقال: قد

= وشهد خيبر وفتح مكة، واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه، وسكن المدينة ثم انتقل إلى البصرة، ثم إلى مرو فمات بها سنة ثلاث وستين في خلافة يزيد بن معاوية (تهذيب التهذيب ١/ ٣٧٨، والتقريب ص:١٢١).

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٧٤ ح٨٩٢)، والحاكم (١/ ٦٨٣ ح١٨٥٨).

(٢) عند الآية رقم: ١٠٣.

(٣) أي: سورة فصلت، عند الآية رقم: ٤٠.

(٤) انظر: اللسان (مادة: لحد).

(٥) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٣)، والكشف (١/ ٤٨٤)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٨).

(٦) معاني الأخفش (ص:٢٠١).

أَلْحَدَ في الدِّين ولَحَدَ به[١].

والمُلْحِدون: أبو جهل وأصحابه الذين عَدَلُوا بأسماء الله وسمّوا بها آلهتهم وزادوا ونقصوا، فاشتقّوا اللات من اسم الله، والعزّى من العزيز، ومناة من المنان.

وكل من سمّى الله تعالى بما لم ينزل به كتاب ناطق أو سُنَّة دالّة فقد ألحد في أسمائه.

سمع ابن عباس رجلاً يقول: يا رب القرآن، فأنكر عليه[٢].

قال الزجاج[٣]: لا ينبغي لأحد أن يدعوه بما لم يسمّ به نفسه، فيقول: يا قوي، ولا يقول: يا جَلْد، ويقول: يا رحيم، ولا يقول: يا رفيق؛ لأنه لم يصف نفسه بذلك.

فصل

ذهب ابن زيد في آخرين إلى أن قوله: ﴿وذروا الذين يلحدون﴾ منسوخ بآية السيف[٤].

والذي عليه [المحققون][٥] من المفسّرين والبُصراء بالعربية: أن ذلك خارج مخرج التهديد، فهو كقوله: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾ [المدثر:١١].

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

---

(١) انظر: البغوي (٢/ ٢١٧).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٢٩٣).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٢).

(٤) انظر: الناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٨)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٣٩).

(٥) في الأصل: المحقون.

قوله تعالى: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه﴾ وهم الهداة الدعاة إلى الحق.

قال ابن عباس: يريد: أمة محمد ﷺ[(١)].

قال ابن جريج: ذكر لنا أن النبي ﷺ [قال][(٢)]: «هذه أمتي، بالحق يأخذون ويعطون ويقضون، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها، ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾»[(٣)]. وروي نحوه عن قتادة[(٤)].

وقال الربيع بن أنس: «قرأ النبي ﷺ هذه الآية فقال: إن من أمتي [قوماً][(٥)] على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم»[(٦)].

وفي الصحيحين من حديث معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس»[(٧)].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

---

(١) زاد المسير (٣/ ٢٩٤).

(٢) زيادة على الأصل.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٥) بأقصر منه. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٧) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٥) زيادة من المصادر التالية.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٧) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٧) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٣١ ح٣٤٤٢)، ومسلم (٣/ ١٥٢٤ ح١٠٣٧).

قوله تعالى: ﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ قال ابن السائب: يريد: أهل مكة، كذبوا بمحمد ﷺ والقرآن[١].

﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ قال ابن عباس: سنمكرُ بهم[٢].

قال أبو عبيدة[٣]: الاستدراج: أن تتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً، وأصله من الدرجة، وذلك أن الراقي والنازل يرقى وينزل مرقاة مرقاة، ومنه: دَرَجَ الكتاب، إذا طواه شيئاً بعد شيء[٤].

قال الخليل بن أحمد في قوله ﴿سنستدرجهم﴾: سنطوي أعمارهم في اغترار منهم[٥].

قال الضحاك: كلما جدّدوا معصية جدّدنا لهم نعمة[٦].

قوله تعالى: ﴿وأملي لهم﴾ أي: أطيل أعمارهم في المعاصي، ﴿إن كيدي متين﴾. قال ابن عباس: إن مكري شديد[٧].

قال الحسن البصري رحمه الله: كم من مستدرَج بالإحسان إليه، وكم من

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٣١).

(٢) الوسيط (٢/ ٤٣١).

(٣) ذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن (١/ ٢٣٣) عند ذكره هذه الآية: والاستدراج: أن تأتيه من حيث لا يعلم ومن حيث تلطُف له حتى تغترّه. وانظر قول أبي عبيدة في: زاد المسير (٣/ ٢٩٥).

(٤) انظر: اللسان (مادة: درج).

(٥) انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٢٨)، وزاد المسير (٣/ ٢٩٤).

(٦) الوسيط (٢/ ٤٣١)، وزاد المسير (٣/ ٢٩٥).

(٧) الوسيط (٢/ ٤٣٢)، وزاد المسير (٣/ ٢٩٥).

مفتون بالثناء عليه، وكم من مغرور بالستر عليه[١].

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أو لم يتفكروا ما بصاحبهم﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: قام النبي ﷺ ليلاً على الصفا يدعو قريشاً فخذاً فخذاً، فيقول: يا بني فلان! يا بني فلان! يحذرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إن صاحبهم هذا لمجنون، بات يُصوِّتُ حتى الصباح، فأنزل الله تعالى هذه الآية يحضهم على التفكر في أمر النبي ﷺ والنظر فيما دعاهم إليه[٢].

والوقف على قوله: "أو لم يتفكروا" وقف تام.

ثم نفى عن رسوله ﷺ ما اقترفوه، فقال: ﴿ما بصاحبهم من جنّة﴾ أي: جنون، ﴿إن هو إلا نذير﴾ للحق، ﴿مبين﴾ للباطل من الحق.

فإن قيل: لم عدل عن اسمه العَلَم، وهو محمد، أو صفته العالية، وهي الرسول، ولم يضيفه إلى نفسه، فلم يقل: ما بمحمد، ما برسولي من جِنَّة، وإنما

---

(١) ذكره القرطبي (١٨/ ٢٥١).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٤) كلاهما عن قتادة. وانظر: لباب النقول في أسباب النزول (ص:١٠٥)، وزاد المسير (٣/ ٢٩٦) عن الحسن وقتادة. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٨)، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

أضافه إليهم باسم الصحبة فقال: "ما بصاحبهم"؟

قلت: ليُبقي عليهم قبيح ما أقدموا عليه من نسبتهم الجنون إلى من صاحبوه دهراً طويلاً ولازموه عمراً مديداً، وعلموا ما طُبع عليه من الأخلاق الكريمة والأوصاف الجميلة، والفطرة السليمة؛ [وخلوّه][1] من النقائص الظاهرة والباطنة، فأفاد قوله: "ما بصاحبهم" ذمّهم على كذبهم وظلمهم بنسبتهم الجنون إلى من صحبوه وعرفوا راجح عقله، وتذكيرهم باسم الصحبة ما يجب للصاحب على صاحبه من المعاضدة والمناصرة، وترقيقهم عليه، وتهييج طباعهم على الإحسان إليه، وهذا من الرموز التي لا يهتدي لها إلا غوير غوّاص على معاني كتاب الله تعالى، بحّاث عن غوامضه وأسراره.

قوله تعالى: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾ حثّهم الله تعالى على النظر في ملكوت السموات وما فيها من الآيات الباهرة والأنجم الزاهرة، وملكوت الأرض وما فيها من عجائب المخلوقات، ﴿وما خلق الله﴾ أي: وفيما خلق الله ﴿من شيء﴾ قال ابن عباس: من جليل وصغير[2].

والمعنى: أو لم ينظروا فيستدلوا بهذه المصنوعات العجيبة على عظمة صانعها ومخترعها، وحكمة مبتدعها ومفترعها.

﴿وأن عسى﴾ خفيفة من [الثقيلة][3]، بإضمار الشأن، والتقدير: أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض، وفي أن الحديث والشأن ﴿عسى أن يكون قد اقترب

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٣٢).

(٣) في الأصل: الثقلية.

أجلهم﴾ أي: لعل آجالهم قريبة فيستدركوا الفارط بالتوبة والإيمان، خوفاً أن يهلكوا على الكفر، فيصيروا إلى النار، ﴿فبأي حديث بعده﴾ أي: بعد القرآن وحججه البالغة، ومواعظه الشافية، واشتماله على علم ما كان ويكون ﴿يؤمنون﴾.

ثم ذكر سبب توغلهم في مهالك الردى مع إثارة مسالك الهدى، فقال: ﴿من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة: «ويذرهم» بالياء، لكنه رفع الفعل على الاستئناف، وجزمه الكوفيون عطفاً على موضع الفاء، وقرأ الباقون: بالنون والرفع[1].

أخبرنا المؤيد بن محمد بن علي الطوسي في كتابه قال: أخبرنا عبدالجبار بن محمد بن أحمد الخواري، أخبرنا علي بن أحمد النيسابوري، أخبرنا محمد بن إبراهيم بن يحيى، أخبرنا محمد بن جعفر بن مطر، أخبرنا جعفر بن محمد الزيادي، حدثنا عبيدالله بن محمد بن عائشة[2]، حدثنا حماد بن سلمة، عن خالد الحذّاء، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن عبدالله بن الحارث قال: «خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالجابية[3]، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: من يهده الله فلا مضل له، ومن

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٣)، والكشف (١/ ٤٨٥)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٣)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٨).

(٢) عبيد الله بن محمد بن حفص بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر القرشي التيمي، أبو عبد الرحمن البصري، المعروف بالعيشي وبالعائشي وبابن عائشة؛ لأنه من ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله، ثقة جواد، رمي بالقدر ولم يثبت (تهذيب الكمال ١٩/ ١٤٧-١٥١، والتقريب ص:٣٧٤).

(٣) الجابية: قرية من أعمال دمشق، ثم من عمل الجيدور، من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر في شمالي حوران، وفي هذا الموضع خطب عمر خطبته المشهورة (معجم البلدان ٢/ ٩١).

يضلل فلا هادي له، فقال نصراني: تركس تركس[١]، فقال عمر: ما يقول؟ قالوا: قال: إن الله يهدي ولا يضل، فقال: كذبت يا عدو الله، الله خلقك وهو أضلك، وهو يدخلك النار إن شاء الله، لولا وَلْثُ عهد برسول الله ﷺ لضربت عنقك»[٢].

قال ابن الأعرابي: والوَلْثُ: بقية العهد[٣].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يسألونك﴾ قال ابن عباس: يعني: اليهود[٤].

وقال الحسن وقتادة: يعني: كفار قريش[٥].

﴿عن الساعة﴾ أي: القيامة، سميت ساعة؛ لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، أو لأنها مع طولها عند الله كساعة.

وقال الزجاج[٦]: الساعة هاهنا: الساعة التي يموت فيها الخلق.

---

(١) عند ابن أبي حاتم: بركست بركست.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٥). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٩) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) انظر: اللسان (مادة: ولث).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٧). وانظر: الماوردي (٢/ ٢٨٤).

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٣٧) عن قتادة. وانظر: الماوردي (٢/ ٢٨٤) عن الحسن وقتادة. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦١٩) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة.

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٣).

﴿أيان﴾ ظرف مبني على الفتح، لتضمنه معنى الاستفهام[(١)].

قال أبو عبيدة[(٢)]: المعنى: متى منتهاها.

و﴿مرساها﴾ السفينة حيث تنتهي.

وقيل: المعنى: متى ثبوتها واستقرارها، ومنه قيل للجبال: رواسي، ومنه: أَرْسى السفينة[(٣)].

﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ أي: هو المستأثر بعلمها، ﴿لا يجلّيها لوقتها﴾ أي: لا يوضحها ويظهرها في وقتها ﴿إلا هو﴾، ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أي: ثَقُلَ وقوعها وعَظُمَ على أهل السموات والأرض محسنهم ومسيئهم، ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ فجأة، وهو مصدر في محل الحال[(٤)].

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبدالصمد العطار وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة الصوفي البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت عبدالأول بن عيسى بن شعيب السجزي، أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن المظفر الداودي، أخبرنا عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا محمد بن يوسف بن مطر [الفربري][(٥)] حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن عبدالرحمن، [عن][(٦)] أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا

(١) انظر: التبيان للعكبري (١/ ٢٩٠)، والدر المصون (٣/ ٣٧٩).

(٢) مجاز القرآن (١/ ٢٣٤).

(٣) انظر: اللسان (مادة: رسا).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٣).

(٥) في الأصل: القريري. والصواب ما أثبتناه، وقد تقدمت ترجمته.

(٦) في الأصل: بن. والتصويب من الصحيحين.

تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين، كل يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، [وتكثر][(١)] الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرْج -وهو القتل-، وحتى يكثر فيهم المال فيفيض، حتى يهم ربُّ المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه لا أَرَبَ لي فيه، وحتى يتطاول الناس بالبنيان، وحتى يمرَّ الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومنّ الساعة وقد نَشَرَ الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»[(٢)]. وأخرجه مسلم أيضاً.

قوله تعالى: ﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: كأنك استحفيت في السؤال واستقصيت حتى علمتها.

وقال الزجاج[(٣)]: المعنى -والله أعلم-: كأنك فرح بسؤالهم. يقال: قد تحفيت بفلان في المسألة، إذا سألت به سؤالاً أظهرت فيه المحبّة والبرّ به، وأحفى فلان بفلان في المسألة، وإنما تأويله الكثرة، يقال: حفى[(٤)] الدابة تَحْفَى حفىً -مقصور-

---

(١) في الأصل: ويكثر. والتصويب من البخاري (٦/ ٢٦٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٠٥ ح٦٧٠٤)، ومسلم (٤/ ٢٢١٤ ح١٥٧).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٣-٣٩٤).

(٤) كذا في الأصل، وأصول معاني الزجاج، ولكن محقق الكتاب عدلها في صلب الكتاب إلى: حَفت.
=

إذا كثر عليه ألم المشي حتى يؤلمه[(١)].

﴿ولكن أكثر الناس﴾ يعني: أهل مكة، ﴿لا يعلمون﴾ أن الساعة كائنة، وأن الله مستأثر بعلمها.

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً﴾ فأتلقاه ﴿ولا ضراً﴾ فأتوقاه.

قال الكلبي: نزلت حين قال أهل مكة: يا محمد، ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل أن يغلو، فتشتري من الرخيص لتربح عليه عند الغلاء؟ والأرض التي تريد أن تجدب فترتحل منها؟[(٢)].

﴿إلا ما شاء الله﴾ أن أملكه. والمعنى: إذا كنت هكذا، فكيف أعلم متى تقوم الساعة؟ ﴿ولو كنت أعلم الغيب﴾ قبل وقوعه ﴿لاستكثرت من الخير﴾ من أسباب الرزق والنصر على الأعداء ﴿وما مسني السوء﴾ الفقر وغيره مما يسوء النفس ويؤلمها، ﴿إن أنا إلا نذير﴾ فيه إضمار، تقديره: إن أنا إلا نذير للكفار من

= وقال: في الأصول: حفى. وقال الجوهري في الصحاح (٦/ ٢٣١٦): حَفِيَ يَحْفَى حَفاءً، وهو أن يمشي بلا خُف ولا نعلٍ. فأما الذي حَفِيَ من كثرة المشْي، أي رَقَّتْ قدمه أو حافره، فإنه حَفٍ بيّن الحَفَى مقصورٌ.

(١) انظر: اللسان (مادة: حفا).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٢)، والوسيط (٢/ ٤٣٤)، وزاد المسير (٣/ ٢٩٩).

عذاب النار، ﴿وبشير﴾ للمؤمنين بالجنة، وقيل: النذارة والبشارة للمؤمنين؛ لمكان انتفاعهم بها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله: ﴿ليسكن إليها﴾ أي: ليأنس بها لما بينهما من [حسية][1] الإنسية ومشاكلة البعضية.

﴿فلما تغشاها﴾ كناية عن الجماع، ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ يعني: النطفة، وقيل: خفيفاً لم تلق منه ثقلاً ولا مشقّة، كما يجد بعض [الحوامل][2].

قوله: ﴿فمرّت به﴾ تحقيق لمعنى خِفَّتِه، وأنه لم يمنعها من القيام والقعود والنزول والصعود.

وقرأ سعد بن أبي وقاص وعبدالله بن مسعود وابن عباس: «فاستمرّت به»[3].

وقرأ أبي بن كعب والجوني: «فاستمارّت به» بزيادة ألف مع تشديد الراء في الجميع[4]، والمعنى واحد وهو ما ذكرناه.

---

(١) في الأصل: خسية.

(٢) في الأصل: الحومل.

(٣) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٣٠١)، والدر المصون (٣/ ٣٨٢).

(٤) مثل السابق.

وقال قتادة: المعنى: تبيّن حملها[١].

وقرأ أبو العالية ويحيى بن يعمر: «فَمَرَتْ بِهِ» خفيفة الراء[٢]، أي: شكّت وتمارت هل حملت أم لا؟

قال الزجاج[٣]: الحَمْل -بفتح الحاء-: ما كان في بطن، أو أخرجته شجرة، والحِمْل -بكسر الحاء-: ما يُحْمَل[٤].

﴿فلما أثقلت﴾ صارت ذات ثقل، ﴿دعوا الله ربهما﴾ أي: دعى آدم وحواء ربهما، ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ بشراً سوياً، فإنهما خافا أن تلد ولداً لا يشاكلهما ويجانسهما. هذا قول الأكثرين.

وقال الحسن وقتادة: المعنى: لئن آتيتنا غلاماً صالحاً[٥]، ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ لك على نعمك.

﴿فلما آتاهما صالحاً﴾ أي: أعطاهما ما سألاه، ﴿جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم: «شِرْكاً» بكسر الشين وسكون الراء والقصر، على المصدر[٦]، أي: جعلا لله ذا شرك. والمراد به على القراءتين: إبليس، وأوقع الجمع

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣١).

(٢) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٣٠١)، والدر المصون (٣/ ٣٨٢).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٥).

(٤) انظر: اللسان (مادة: حمل).

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٤) عن الحسن. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٢٦) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن.

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٤)، والكشف (١/ ٤٨٥-٤٨٦)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٩).

على القراءة المشهورة موقع الواحد.

ومعنى جعلهما إبليس شريكاً لله: طاعتهما له، وكان السبب في ذلك[(١)]: ما أخرج الترمذي من حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: «لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سَمِّيه عبد الحارث فسَمَّته، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»[(٢)].

ونقل العلماء بالتفسير: أن إبليس جاء إلى حواء في غير الصورة التي كانت تعرفه فيها، فقال لها: ما الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري. فقال لها: إني أخاف أن يكون كلباً أو خنزيراً أو بهيمة، وما يدريك من أين يخرج؟ أيشق بطنك؟ أو يخرج من فِيكِ؟ أو من منخريك؟ فأحزنها ذلك وذكرته لآدم، فدعوا الله حينئذ وهما مع ذلك في همّ وغمّ وخوف، فأتاها إبليس فقال: كيف تجدينك؟ قالت: ما أستطيع القيام إذا قعدت، قال: أفرأيت إن دعوت الله أن يسهل خروجه وأن يجعله إنساناً مثلك ومثل آدم، أتسميه عبد الحارث؟ -وكان اسم إبليس بين الملائكة: الحارث-

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦٧ ح٣٠٧٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه. وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٥) وصححه، ووافقه الذهبي.

قلت: في إسناده عند الترمذي وعند الحاكم: عمر بن إبراهيم، قال الحافظ في التقريب: في حديثه عن قتادة ضعف، والحسن البصري مدلس.

والحديث أخرجه ابن جرير في تفسيره (٩/ ١٤٦).

وقد تكلم على هذا الحديث الدكتور محمد بن محمد أبو شهبة في كتابه: (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير) فانظره هناك (ص:٢٠٩-٢١٥).

قالت: نعم. فلما وضعته صالحاً سمّته برضا آدم عبد الحارث[1]. ولم يريدا عليهما السلام أن الحارث ربه ومالكه، وإنما ظنّا أنه كان السبب في نجاته، فأضافاه إليه إضافة طاعة وخضوع، كقول الشاعر:

وإنّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ من غير ذلة　　　وما فيّ إلا ذاك من شيم العبد[2]

وإلى هذا أشار قتادة بقوله: جعلا له شركاً في الاسم لا في العبادة[3]، وهاهنا تم الكلام.

ثم نزّه نفسه عما يقوله الكافرون، فقال جل وعز: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾.

وقيل: التقدير: فلما آتاهما صالحاً جعل أولادُهما له شركاء، على حذف المضاف، وكذلك ﴿فيما آتاهما﴾، ودلّ على هذا التأويل قوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾.

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ
عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٢). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٢٤) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) البيت لقيس بن عاصم المنقري، وهو في: القرطبي (٧/ ٣٣٩)، وزاد المسير (٣/ ٣٠٣)، والوسيط (٢/ ٤٣٥)، وروح المعاني (٩/ ١٤٢).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ١٤٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٤). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٢٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥)﴾

قوله تعالى: ﴿أيشركون﴾ يعني: الذين اتخذوا الأوثان آلهة، ﴿ما لا يخلق شيئاً﴾ لأنه جمادٌ لا يقدر على شيء فيجعلونها شركاء لله، الذي خلق ورزق ويعبدونها من دونه، ﴿وهم يخلقون﴾ يعني: الأصنام. وإنما أجريت مجرى من يعقل؛ لأن عابديها اعتقدوا فيها أنها تعقل وتميز.

﴿ولا يستطيعون﴾ يعني: الأصنام ﴿لهم نصراً﴾ يعني: لعابديها، ﴿ولا أنفسهم ينصرون﴾ فيدفعوا عنها ما يؤذيها ويرديها.

﴿وإن تدعوهم﴾ يعني: الأصنام. وقيل: الكفار.

فإن قلنا: هم الأصنام، فالمعنى: إن تدعوهم إلى ما هو هدى ليهدوكم إليه ويدلوكم عليه، كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعونكم إلى ما تريدون منهم.

وإن قلنا: هم المشركون، فالمعنى: وإن تدعو أيها الرسول والمؤمنون المشركين إلى الهدى لا يتّبعوكم.

وقرأ نافع: «يَتْبَعُوكُمْ» بالتخفيف(١)، وهما لغتان بمعنى واحد.

﴿سواء عليكم﴾ أي: متعادل عندكم، ﴿أدعوتموهم أم أنتم صامتون﴾ عن

---

(١) وقرأ الباقون: "يَتَّبِعُوكُم". انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٢٨٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٥)، والكشف (١/ ٤٨٦)، والنشر (٢/ ٢٧٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٤)، والسبعة في القراءات (ص:٢٩٩).

ذلك الدعاء؛ لأنه لا يرجى منهم الإجابة.

﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ يعني: الأصنام، ﴿عباد أمثالكم﴾ قال ابن السائب: مملوكون أمثالكم[١].

وقال الأخفش: عباد أمثالكم في التسخير، أي: أنهم مسخرون مذللون لأمر الله[٢].

وقال صاحب الكشاف[٣]: قوله: "عباد أمثالكم" استهزاء، أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم، لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿ألهم أرجل يمشون بها﴾.

وقرأ سعيد بن جبير: «إنِ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم» بتخفيف: «إنْ»، ونصب «عباداً أمثالكم»[٤]. والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله [إلا][٥] عباداً أمثالكم، على إعمال «إن» النافية عمل «ما» الحجازية.

ثم إن الله تعالى بيّن نقصان الآلهة بالنسبة إلى عابديها توبيخاً لهم، وتضليلاً لآرائهم، وتجهيلاً لأحلامهم؛ فذلك قوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها ... الآية﴾، المعنى: فكيف عبدتموها وأنتم أفضل منها بالأرجل الماشية، والأيدي الباطشة، والأعين الباصرة، والآذان السامعة، ﴿قل﴾ لهم يا محمد مجيباً لهم عن تخويفهم إياك

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٣٦).

(٢) انظر: الوسيط (٢/ ٤٣٦)، وزاد المسير (٣/ ٣٠٦) بلا نسبة.

(٣) الكشاف (٢/ ١٧٨).

(٤) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٤٠)، والدر المصون (٣/ ٣٨٤).

(٥) زيادة على الأصل.

بآلهتهم، ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي: استعينوا بهم في معاداتي، ﴿ثم كيدوني﴾ أنتم وهم، ﴿فلا تنظرون﴾ أي: لا تمهلون.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾

ثم بيّن السبب الموجب لعدم اكتراثه فقال: ﴿إن وليي الله﴾ إن الذي يتولى نصري وحفظي الله، ﴿الذي نزّل الكتاب﴾ دليلاً على صدقي ومعجزةً شاهدةً برسالتي، ﴿وهو يتولى الصالحين﴾.

قال ابن عباس: هم الذين لا يعدلون بالله شيئاً[(١)].

والمعنى: هو يتولاهم بالنصر على أعدائهم.

قوله تعالى: ﴿وتراهم ينظرون إليك﴾ أي: كأنهم ينظرون إليك بالأعين المصورة، ﴿وهم لا يبصرون﴾ على الحقيقة.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ۝١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾ أخرج البخاري في صحيحه: «أن عبد الله بن الزبير قال في هذه الآية: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس»[(٢)]، أي: الميسور

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه البخاري في (٤/ ١٧٠٢ ح٤٣٦٧).

من أخلاقهم، ولا يستقصي عليهم فينفرهم.

وقيل: المعنى: خذ ما تيسر من صدقاتهم، ثم نسخ بالزكاة المفروضة.

وقيل: هو أمر بمساهلة الكفار، فيكون منسوخاً بآية السيف[(١)].

قوله تعالى: ﴿وأمر بالعرف﴾ قال عطاء: لا إله إلا الله[(٢)].

والمشهور في التفسير: عمومه في كل ما تعرف العقول حُسنه من مكارم الأخلاق.

﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ يعني: المشركين.

فعلى هذا: تكون منسوخة بآية السيف.

وقد يمتحن بهذه الآية فيقال: ما آية نسخ طرفاها وبقي وسطها؟ فيجاب بهذه.

والصحيح: أنها كلها محكمة، والمعنى: لا تكافئ الجاهلين بسفههم إكراماً لنفسك النفيسة عن الأخلاق الخسيسة.

وقال الربيع بن أنس: الناس رجلان: مؤمن وجاهل، فأما المؤمن فلا تؤذه، وأما الجاهل فلا تجاهله[(٣)].

---

(١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٩٠-٩١)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٨)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٤٠-٣٤٢).

قلتُ: هذه الآية من عجيب المنسوخ؛ لأن أولها منسوخ -وهو قوله تعالى: ﴿خذ العفو﴾- وآخرها منسوخ -وهو قوله تعالى: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾-، وأوسطها محكم -وهو قوله تعالى: ﴿وأمر بالعرف﴾-. (انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ولابن حزم، الموضعان السابقان).

(٢) ذكره القرطبي (٧/ ٣٤٦)، والبغوي (٢/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١١١) كلاهما من حديث =

ويدل على إحكامها بالمعنى الذي ذكرت، ما أخرج البخاري بإسناده عن ابن عباس قال: «قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي هل لك وجه عند هذا الأمير [فتستأذن عليه. فاستأذن][١] الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: ها يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا [الجزل][٢]، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همّ أن يقع به. فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين، فوالله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقّافاً عند كتاب الله»[٣].

ويروى: «أن النبي ﷺ سأل جبريل عن هذه الآية، فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع فقال: يا محمد! إن ربك يأمرك أن تصِل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»[٤].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً، ولا تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٥].

= الربيع بن خثيم.

(١) في الأصل: فتستان عليه فاستان. والتصويب من الصحيح.

(٢) في الأصل: الجزيل. والتصويب من الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠٢ ح٤٣٦٦).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٥). وذكره ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٣٠٦) وعزاه للطبري مرسلاً، وابن مردويه موصولاً.

(٥) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٠١ ح٢٥٨٨).

وقال جعفر الصادق عليه السلام: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية[١].

وقال عبدالرحمن بن زيد: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «كيف يا رب؟ والغضب». فنزل: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ﴾[٢].

النَّزْغُ في اللغة: الحركة اليسيرة[٣]. والمعنى: وإما يعرضن لك الشيطان بوسوسة يستميلك بها أو غضب يستفزك به، إلى خلاف ما اقتضته هذه الآية.

﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ معتصماً به من كيده.

وفي الصحيحين من حديث سليمان [بن][٤] صُرَد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبّان، وأحدهما قد احمرّ وجهه وانتفخت أَوْداجُه[٥]، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد. لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب ما يجد»[٦].

إنه سميع لدعائك، عليم بذاتك ودوائك.

فإن قيل: ما الحكمة في الاستعاذة عند الغضب؟

قلت: لأنها حالة يضعف عنها عقل الإنسان، ويقوى عليه الشيطان.

---

(١) ذكره القرطبي (٧/ ٣٤٥)، والبغوي (٢/ ٢٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٥٦-١٥٧). وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣١) وعزاه لابن جرير.

(٣) انظر: اللسان (مادة: نزغ).

(٤) زيادة على الأصل. وانظر ترجمته في: تقريب التهذيب (ص:٢٥٢).

(٥) الأوداج: هما وَدَجان، وهما عرقان غليظان عريضان عن يمين ثُغْرَةِ النحر ويسارها (اللسان، مادة: ودج).

(٦) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٤٨ ح٥٧٠١)، ومسلم (٤/ ٢٠١٥ ح٢٦١٠).

قال بعض الحكماء: أول الغضب جنون، وآخره ندم.

وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: الغضب عدو العقل، فلذلك يحول بينه وبين السمع والفهم، فإذا ثبت ذلك فأحب أن يعتصم المقهور بالغضب بقوة الله وعز سلطانه من شر الشيطان.

ومن جملة أدوية الغضب: ما أخرجه الإمام أحمد رضي الله عنه في المسند من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا غضب أحدكم فليسكت»(١).

وروى أبو داود في سننه من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»(٢).

وأنزل الله في بعض كتبه: يا ابن آدم اذكرني إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك مع من أمحق، وإذا ظُلِمْتَ [فارض](٣) بنصرتي، فإن نُصرتي لك خير من نصرتك لنفسك(٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا﴾ قال ابن عباس: يعني: الشرك والفواحش(٥).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٣٩ ح٢١٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٩ ح٤٧٨٢).

(٣) في الأصل: فأعرض. والتصويب من الدر المنثور (٣/ ٥٥٩).

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٥٩) وعزاه لأحمد عن وهيب المكي.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٣٨).

﴿إذا مسهم طيف من الشيطان﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: «طَيْفٌ»[1]، وهو إما مصدر من قولهم: طَافَ يَطِيفُ طَيْفاً، وإما تخفيف طيف، فعيل، من طَافَ يَطيفُ، كَلانَ يَلينُ، أو طاف يَطوفُ، كَهَانَ يَهونُ، فهو طَيِّف منهما، كَلَيِّن وهَيِّن.

ويؤيد هذا قراءة ابن عباس في آخرين: «طيّف» بالتشديد[2]. وقرأ الباقون "طائف"، وهما بمعنى واحد[3].

المعنى: إذا مسّهم لَمٌّ من الشيطان؛ وسوسة أو غضب أو همّ بمعصية، ﴿تذكروا﴾ حجج الله وزواجره، وتفكروا في اطلاعه عليهم وعظمته وقدرته، فاستحيوا وخافوا غضبه وعقابه، ﴿فإذا هم مبصرون﴾ بأعين قلوبهم آثار قبح المعاصي وسوء عاقبتها، فاستتروا من ذلك، خوفاً يردعهم، وحياء يقرعهم.

قال محمد بن كعب القرظي: ما عُبِدَ الله بشيء أحب إليه من ترك المعاصي[4].

فصل

يتضمن نبذة زاجرة عن ارتكاب المعاصي:

أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب الرجل كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٥)، والكشف (١/ ٤٨٦-٤٨٧)، والنشر (٢/ ٢٧٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠١).

(٢) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٣٠٩).

(٣) انظر مصادر التعليق ما قبل السابق.

(٤) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص:١٨٤).

واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل في كتابه: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»(١). قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وقال أبو الدرداء: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيُلقي الله بغْضَه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر(٢).

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً(٣).

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق قد هيء له بالذنب يصيبه»(٤).

وقال وهب بن منبه: يقول الله عز وجل: «إني إذا أُطعتُ رضيتُ، وإذا رَضيتُ باركتُ، وليس لبركتي نهاية، وإذا عُصيتُ غَضبتُ، وإذا غضبتُ لعنتُ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد»(٥).

وروي: أن الله تعالى أوحى إلى موسى: يا موسى! أول من مات إبليس، وذاك

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٣٤ ح٣٣٣٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٧ ح٧٩٣٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ١٩٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤ ح٤٠٢٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٧ ح٢٢٤٤٠)، وابن حبان (٣/ ١٥٣ ح٨٧٢).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٦٩). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٤٢٩-٤٣٠) وعزاه لأحمد في الزهد.

لأنه عصاني، وإنما أُعِدُّ من عصاني من الأموات[1].

قوله تعالى: ﴿وإخوانهم﴾ جائز عود الضمير إلى «الذين اتقوا»، وهو قول جماعة، منهم: ابن الأنباري. والمعنى: وإخوان الذين اتقوا من المشركين، أو كونهم من بني آدم، ﴿يمدونهم في الغي﴾ بما يزينون لهم من الاقتداء بالآباء.

والمشهور في التفسير: أن الضمير يعود إلى «الجاهلين»، التقدير: وإخوان الجاهلين وهم الشياطين.

وقيل: يرجع الضمير إلى الشيطان، وهو اسم جنس، تقديره: وإخوان الشياطين وهم الكفار[2].

﴿يمدونهم﴾ يعني: الشياطين يمدون الكفار.

وقرأ نافع: «يُمِدُّونَهُم» بضم الياء وكسر الميم[3]، من الإمداد، وقد سبق ذكره فيما مضى.

قال المفسّرون: المعنى: يمدونهم بالتزيين والإغواء.

﴿ثم لا يقصرون﴾ وقرأ الزهري: «يُقَصِّرُون» بالتشديد[4]، أي: لا يقصّرون في إغوائهم.

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٣٠٤)، وابن الجوزي في: صفة الصفوة (٢/ ٢٣٣).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٣٨٩).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٨٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٦)، والكشف (١/ ٤٨٧)، والنشر (٢/ ٢٧٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠١).

(٤) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٣١١).

﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٠٣﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا لم تأتهم﴾ يعني: المشركين ﴿بآية﴾ يتعنتونك بسؤالها أو يتأخر عنك إنزالها، ﴿قالوا لولا﴾ أي: هلاَّ ﴿اجتبيتها﴾ افتعلتها من قبل نفسك، لأنهم كانوا يقولون: إنْ هذا إلا إفك افتراه. فأَمَرَ الله رسوله أن يخبرهم أنه مُتَّبِعٌ لا مُبْتَدِع، فقال: ﴿قل إنما أَتَّبِعُ ما يوحى إليّ من ربي هذا﴾ يعني: القرآن، ﴿بصائر من ربكم﴾، أي: حُجَجٌ نَيِّرة، ﴿وهدى﴾ من الضلالة، ﴿ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له﴾ نزلت في جماعة من الصحابة كانوا يقرؤون ويرفعون أصواتهم فيما يجهر فيه النبي ﷺ[(١)].

وقال قتادة: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت: ﴿فاستمعوا له﴾[(٢)]، أي: فاصغوا ﴿وأنصتوا﴾ اسكتوا. يقال: أنصتوه وأنصتوا له. قال الشاعر:

إذا قالت حَذامِ فأَنْصِتوها فإن القولَ ما قَالَتْ حَذامِ[(٣)]

ويروى: فصدّقوها.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٦٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٤٥). وانظر: الدر المنثور (٣/ ٦٣٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٦٤) من حديث أبي هريرة. وذكره السيوطي في الدر (٣/ ٦٣٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ عن قتادة.

(٣) البيت لِلُجَيْم بن صعب. انظر: القرطبي (٧/ ٣٥٤)، واللسان (مادة: نصت).

عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ﴿٢٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة﴾ هذا عام في أنواع الأذكار من قراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، والدعاء، وغير ذلك تضرعاً في طلب ثوابه، وخيفة من عقابه، ﴿ودون الجهر﴾ أي: متكلماً كلاماً دون الجهر، ﴿من القول﴾؛ لأن الإخفاء أقعد في الإخلاص، وأبعد من شوائب الرياء وأقرب إلى [الإخلاص](١)، ﴿بالغدو﴾.

وقال الواحدي والإمام أبو الفرج ابن الجوزي(٢): الغُدُوّ: جمع غَدْوَة.

والمعروف في اللغة: غُدْوة وغدىً، وقولهم: غَدَوات: جمع غَداة، مثل: قَطَاة وقَطَوات(٣).

[وقولهم](٤): إني لآتيه بالغدايا والعشايا، هو الازدواج [في](٥) الكلام، كما قالوا: هَنَأَني الطعام ومَرَأَني، وإنما هو أَمْرَأَني، والغدو نقيض [الرواح](٦)، تقول: غَدَا يَغْدُو غَدْواً(٧)، فمعنى الآية: اذكر ربك بأوقات الغدو، وهي الغَدَوات، فعبّر بالفعل عن الوقت، كما يقال: أتيتك طلوع الشمس، أي: وقت طلوعها.

---

(١) في الأصل: الخلاص.

(٢) الوسيط (٢/ ٤٤١)، وزاد المسير (٣/ ٣١٤).

(٣) انظر: اللسان (مادة: غدا).

(٤) في الأصل: وقلهم.

(٥) زيادة على الأصل.

(٦) في الأصل: الرواج.

(٧) انظر: اللسان (مادة: غدا).

﴿والآصال﴾ جمع أُصُل، وأُصُل جمع أصيل، وهي العشيات[١].

قال أبو عبيدة[٢]: هي ما بين صلاة العصر إلى المغرب.

ويجمع أيضاً أَصِيل على أُصَيْلان، مثل: بعير وبِعران، ثم صَغَّروا الجمع فقالوا: أُصْلان، ثم أبدلوا من النون لاماً فقالوا: أُصَيْلال[٣]، ومنه قول النابغة:

وَقَفْتُ فيها أُصَيْلالاً أُسَائِلُها ... عَيَّتْ جَوَاباً وما بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ[٤]

ويروى عن ابن عباس: أن المراد بالذِّكر: القراءة في الصلاة[٥]، صلاة الفجر وصلاة العصر.

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ اللاَّهين عن الذِّكر.

قوله تعالى: ﴿إن الذين عند ربك﴾ يريد: الملائكة، ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ أي: طاعته والخضوع لجلاله في الصلاة وغيرها.

﴿ويسبحونه﴾ قال عبدالله بن عمرو بن العاص: الملائكة عشرة أجزاء، الكروبيون الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون تسعة أجزاء، وجزء واحد

---

(١) انظر: اللسان (مادة: أصل).

(٢) مجاز القرآن (١/ ٢٣٩).

(٣) انظر: اللسان (مادة: أصل).

(٤) البيت للنابغة. انظر: ديوانه (ص:٣٠)، والكتاب (٢/ ٣٢١)، والمقتضب (٤/ ٤١٤)، وشرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٨٠)، وأوضح المسالك (٢/ ٣٨٩)، ومجاز القرآن (١/ ٣٢٨)، والتصريح (٢/ ٣٦٧)، والإنصاف (١/ ١٧٠)، والطبري (١/ ٧٨)، والقرطبي (٧/ ٣٥٦)، واللسان (مادة: أصل).

(٥) زاد المسير (٣/ ٣١٣).

الذين وكلوا بخزانة كل شيء[(١)].

وقال هارون بن رئاب [الأُسَيِّدي][(٢)]: حملة العرش ثمانية، يتجاوبون بصوت رخيم، تقول أربعة: سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك، وتقول الأربعة الأخرى: سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك[(٣)].

وقال سعيد بن جبير: يقال: أن أهل السماء الدنيا سجود إلى يوم القيامة، يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، وأهل السماء الثانية ركوع إلى يوم القيامة، يقولون: سبحان ذي العز والجبروت، وأهل السماء الثالثة قيام إلى يوم القيامة، يقولون: سبحان الحي الذي لا يموت[(٤)].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله أذن لي أن أحدث عن ملك قد خرقت[(٥)] رجلاه الأرض، وعنقه مثنية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما

---

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٨٩) من طريق عمرو البكالي. وذكره السيوطي في الدر (٧/ ٢٧٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه من طريق البكالي عن عبد الله بن عمر.

(٢) في الأصل: الأسدي. والصواب ما أثبتناه. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال (٣٠/ ٨٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه الطبري (١٩/ ٧) من طريق هارون بن رئاب عن شهر بن حوشب، والبيهقي في الشعب (١/ ٣٢٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ ح٤٨١). وذكره السيوطي في الدر (٧/ ٢٧٤) وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان.

(٤) أخرجه الطبري (١/ ٢١٠)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٧-٢٧٨). وذكره السيوطي في الدر (١/ ١١٤) وعزاه لابن جرير وأبي نعيم في الحلية.

(٥) في مصادر تخريج الحديث: مرقت.

أعظمك ربنا. قال: فيرد عليه ما يعلم بذلك الذي يحلف به كاذباً»[(١)].

وقال علي عليه السلام في المَلَك المسمى [بالرُّوح][(٢)]: هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، في كل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله بتلك اللغات كلها، ويخلق من كل تسبيحة مَلَك يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[(٣)].

أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء وحق لها أن تَئِطّ، ما فيها موضع أربع -يعني: أصابع- إلا عليه ملك ساجد»[(٤)].

﴿وله يسجدون﴾ أي: يصلّون، وهذا تعريض بالمكلف من بني آدم وتحريضٌ له على الطاعة؛ لأن الملائكة الكروبيين مع قربهم وفضلهم وعصمتهم بهذه المثابة، فالمتلوثُ بأنجاس المعاصي أولى بتطهير نفسه لله وتزكيتها بفعل العبادة والطاعة لرب العالمين.

وقيل: إنها نزلت حين قال الكفار: ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ [الفرقان:٦٠].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١١/ ٤٩٦)، والحاكم (٤/ ٣٣٠ ح٧٨١٣) وصححه. وقال الهيتمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٥٣): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ٣١٤) من حديث أنس بن مالك.

(٢) في الأصل: بالجروح. والتصويب من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه الطبري (١٥/ ١٥٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٨٦٨ ح٤٠٨). وذكره السيوطي في الدر (٥/ ٣٣١-٣٣٢) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣ ح٢١٥٥٥).

فصل

وهذه أول سجدات القرآن، وهي أربع عشرة سجدة، في الحج منها اثنتان.

وسجود التلاوة مستحب عند جمهور العلماء، ويشترط له ما يشترط للصلاة من الطهارة وغيرها.

قرأتُ على الشيخ ثابت بن مشرف بن أبي سعد البناء البغدادي برأس عين على عين بانورا، أخبركم أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي فأقرَّ به، أخبرنا أبو عاصم بن أبي منصور الفضيلي، أخبرنا عبدالرحمن بن أبي شريح الأنصاري، حدثنا أحمد بن علي الجرجاني، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال أو عن أبي سعيد -شَكَّ الأعمش-، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم سجدة فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويله! أُمِرَ ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النار»[1] هذا حديث صحيح، انفرد مسلم بإخراجه، فرواه عن أبي كريب، عن أبي معاوية، عن الأعمش.

آخرها ولله الحمد.

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٨٧ ح ٨١).

سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وهي [خمس و][(١)] سبعون آية مدنية، استثني منها آيات نذكرها إن شاء الله في موضعها.

وفي الصحيحين: «أن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الأنفال، [قال][(٢)]: نزلت في بدر»[(٣)].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾، سبب نزول هذه الآية: أن أهل بدر اختلفوا في الغنيمة وتَشاحُّوا[(٤)] فيها، فقال الشُّبَّان: هي لنا؛ لأنهم سارعوا إلى القتل

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) زيادة من الصحيحين.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠٣ ح٤٣٦٨)، ومسلم (٤/ ٢٣٢٢ ح٣٠٣١).

(٤) تَشاحُّوا في الأمر وعليه: شحَّ به بعضهم على بعض وتبادروا إليه حَذَرَ فَوْتِه (اللسان، مادة: شحح).

والأسر وأبلوا بلاءً حسناً، وكان رسول الله ﷺ قال يومئذ: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا». وقال الشيوخ والوجوه الذين ثبتوا تحت الرايات: كنا ردءاً لكم، ولو انهزمتم لانحزتم إلينا. وقالوا لرسول الله ﷺ: المغنم قليل والناس كثير، وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم خرجت أصحابك، فنزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾(١). رواه عكرمة عن ابن عباس.

فعلى هذا يكون المعنى: يسألونك عن حكم الأنفال سؤال استفتاء.

قال الزجاج(٢): إنما سألوا عنها؛ لأنها كانت حراماً على من كان قبلهم.

وقال صاحب النظم: المعنى: يسألونك عن الأنفال لمن هي؟ يدل عليه قوله: ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ يحكمان فيها ما أرادا، ويضعانها حيث شاءا، فلما نزلت هذه الآية قسمها رسول الله ﷺ بين أهل بدر على السواء.

والأنفال: جمع نَفْل، وهي الغنيمة(٣)، في قول الحسن ومجاهد وعطاء وعكرمة والضحاك والزجاج(٤) وجمهور العلماء(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٧٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٩)، وابن حبان (١١/ ٤٩٠)، والحاكم (٢/ ١٤٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٤)، والطبري (٩/ ١٧٢)، والبيهقي في السنن (٦/ ٢٩١). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٥)، ولباب النقول (ص:١٠٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦) وعزاه لابن أبي شيبة وأبي داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٩).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (نفل).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٣٩٩).

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٦٨-١٦٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٤٩)، ومجاهد (ص:٢٥٧).

وقيل: الأنفال: ما نفّله رسول الله ﷺ القاتل بقوله: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا».

وأخرج أبو داود في سننه من حديث سعد بن أبي وقاص قال: «لما كان يوم بدر جئت بسيف، فقلت: يا رسول الله، قد شفي صدري من المشركين أو نحو هذا، هب لي هذا السيف. فقال: هذا ليس لي ولا لك، فقلت: عسى أن يُعطى هذا من لا يبلي بلائي، فجاءني الرسول [فقال][١]: إنك سألتني [هذا السيف][٢] وليس لي، وإنه قد صار لي وهذا لك. قال: ونزلت: ﴿يسألونك عن الأنفال ... الآية﴾»[٣]. هذا حديث صحيح أخرجه مسلم طرفاً من حديث طويل.

وقيل: إن "عن" زائدة، على معنى: يسألونك الأنفال، وهي قراءة سعد بن أبي وقاص وابن مسعود وأبيّ بن كعب في آخرين، على نحو ما سأله إنسان وتعدى.

﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ قال عبادة بن الصامت: «اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله عز وجل من أيدينا فجعله لرسول الله، يقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين»[٤].

---

(١) زيادة من السنن.

(٢) زيادة من سنن أبي داود (٣/ ٧٧).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٧٧ ح١٧٨٤)، وأبو داود (٣/ ٧٧ ح٢٧٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٢)، والبيهقي في سننه (٩/ ٥٧)، والحاكم (٢/ ٣٥٦)، والطبري (٩/ ١٧٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥) وعزاه لأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه.

والمعنى: هي مختصة بالله وبالرسول، يقضي فيها بأمر الله على ما تقتضيه حكمته من المساواة والمواساة بين الشباب الذين شرط لهم الأنفال، وبين الشيوخ الذين كانوا ردءاً لهم؛ لما فيه من [انتظام][1] أمرهم، وإصلاح ذات بينهم، وإلفة قلوبهم.

وزعم بعضهم أنها منسوخة بقوله: ﴿واعلموا أنما غنمتم من ... الآية﴾[2].

﴿فاتقوا الله﴾ بامتثال أمره واجتناب نهيه، وترك المنازعة والاختلاف بينكم، وفعل ما يفضي إلى المصافاة والموافقة والتوادد.

﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ بالتواسي والتراحم والتساعد.

قال الزجاج[3]: البَيْنُ: الوَصْل، والمعنى: حقيقة وصْلِكُم[4].

وقال صاحب الكشاف[5]: حقيقته أصلحوا أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال إلفة ومحبة واتفاق، كقوله: ﴿بذات الصدور﴾ [الأنفال:٤٣] وهي مضمراتها، لما كانت الأحوال ملابسة للبَيْن قيل لها: ذات البَيْن، كقولهم: اسقني ذا إنائك، يريد ما في الإناء من الشراب.

﴿وأطيعوا الله﴾ في حكمه وقضائه، ﴿ورسوله﴾ في إنفاذ ما أمر به وأمضى به، ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ كاملي الإيمان.

---

(١) في الأصل: انتضام.

(٢) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٩٢-٩٣)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٩)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٤٣-٣٤٤).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٠).

(٤) الصِّلات والروابط التي بينكم.

(٥) الكشاف (٢/ ١٨٥).

ثم وصف المؤمنين الكاملي الإيمان فقال: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: ذكرت عظمته وقدرته وعز سلطانه وشدة عقابه وبطشه بالعصاة من خلقه قرعت قلوبهم.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر:٢٣]؟

قلتُ: الذِّكر الذي نيط به الوجل هاهنا: هو ذكر الصفات الدالة على العظمة والجبروت على ما ذكرناه. والذِّكر الذي نيط به لين الجلود والقلوب: الرحمة والرأفة والعفو، ونحو ذلك.

فصل يتضمن الإشارة إلى ذكر جماعة من الخائفين

أخرج الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده عن الحسن البصري رحمه الله قال: صحبتُ أقواماً كانوا بحسناتهم أن تُردَّ عليهم أخوفَ منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها[١].

وبإسناده عن إبراهيم التيمي: أنه كان يذكر في منزل أبي وائل، فكان أبو وائل ينتفض انتفاض الطير[٢].

وبإسناده عن مالك بن دينار أنه قال: لو استطعتُ أن لا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدتُ أعواناً لفرَّقتهم يُنادون في منار الدنيا كلِّها: يا أيها الناس! النار النار[٣].

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣١٨-٣١٩).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٤٢٧).

(٣) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣٨٧).

وبإسناده عن بشر بن منصور قال: كنت أوقد بين يدي عطاء السلمي في غداة باردة، فقلت له: يا عطاء! أيسرّكَ الساعة لو أنك أمرتَ أن تلقيَ نفسك في هذه النار ولا تبعث إلى الحساب؟ قال: فقال لي: إي ورب الكعبة. قال: ثم قال: والله لو أمرت بذلك لخشيت أن تخرج نفسي فرحاً قبل أن أصل إليها[١].

وبإسناده عن أبي خباب القصاب -قلت: واسمه عون بن ذكوان البصري- قال: صلّى بنا زرارة بن أوفى صلاة الصبح فقرأ: ﴿يا أيها المدثر﴾ [المدثر:١] حتى إذا بلغ: ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ [المدثر:٨] خَرَّ مَيتاً[٢].

سمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي يقول: أخبرنا الحافظ أبو موسى محمد بن أبي بكر الأصبهاني في كتابه، قال: أخبرنا عبدالرزاق بن محمد بن الشرابي، [أخبرنا سعيد بن محمد بن سعيد الولي، أخبرنا علي بن أحمد بن علي الواقدي][٣]، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى يقول: سمعت محمد بن إسحاق السراج يقول: [سمعت][٤] محمد بن خلف يقول: حدثني يعقوب بن يوسف قال: كان الفضيل بن عياض إذا علم أن ابنه علياً خلفه -يعني:

---

(١) لم أقف عليه في المطبوع من كتاب الزهد. والحديث أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٥٢٢-٥٢٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢١٦). وذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٣/ ٣٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣٠٢).

(٣) زيادة من التوابين (ص:٢٠٩).

(٤) زيادة من التوابين، الموضع السابق.

في الصلاة- مرّ ولم يقف ولم يخوف، وإذا علم أنه ليس خلفه تنوّق[١] في القرآن وحزّن وخوّف، فظن يوماً أنه ليس خلفه، فأتى على ذكر هذه الآية: ﴿ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين﴾ [المؤمنون:١٠٦]، فخرّ عليٌّ مغشياً [عليه][٢]، فلما علم أنه خلفه وأنه قد سقط تَجَوَّزَ في القراءة، فذهبوا إلى أمه، فقالوا: أدركيه، فجاءت فرشّت عليه ماء فأفاق، فقالت لفضيل: أنت قاتلُ هذا الغلام عليّ، فمكث ما شاء الله، فظن أنه ليس خلفه فقرأ: ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ [الزمر:٤٧]، فخرّ ميتاً، وتَجَوَّزَ [أبوه][٣] في القراءة، وأتيت أمه فقيل لها: أدركيه، فجاءت فرشَّت عليه ماء فإذا هو ميت، رحمه الله[٤].

وقال أبو طارق: شهدتُ ثلاثين رجلاً ماتوا في مجالس الذِّكر يمشون بأرجلهم صحاحاً إلى المجلس وأجوافهم والله قرحة، فإذا سمعوا الموعظة انصدعت قلوبهم، فماتوا[٥].

وقال إبراهيم بن عيسى: ما رأينا أطول حزناً من الحسن، ما رأيته إلا حسبته حديث عهد بمصيبة[٦].

---

(١) تَنَوَّق: من التنوّق في الشيء إذا عُمل على استحسان وإعجاب به، يقال: تنوَّق وتأنَّق (اللسان، مادة: توق).

(٢) زيادة من التوابين (ص:٢٠٩).

(٣) في الأصل: أبو. والتصويب من التوابين، الموضع السابق.

(٤) أخرجه ابن قدامة في التوابين (ص:٢٠٩).

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥٣٢).

(٦) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٣١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٣٣).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب، فما أشتهيه[1].

قوله تعالى: ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾، قال ابن عباس: تصديقاً ويقيناً[2]، يريد -والله أعلم- أن بسماع القرآن تتظاهر الأدلة عند المؤمنين، فتزداد نفوسهم إيقاناً وإيماناً وطمأنينة.

وقيل: المعنى أنه كلما تجدد نزول القرآن فتلي عليهم تجدد إيمانهم به، فازدادوا إيماناً على إيمانهم.

وقيل: المراد به زيادة العمل، كما جاء في الحديث: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[3].

﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ قال ابن عباس: بالله يتقون لا يرجون غيره[4].

ثم وصفهم ونعتهم بمواطأة الجوارح للقلوب في العبادة والطاعة فقال: ﴿الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي: إيماناً حقاً.

---

(١) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٣٤٧)، وابن رجب في كتاب التخويف من النار (١/ ١١٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ١٧٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٥٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٦٣ ح٣٥).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ١٧٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٥٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٢) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

وقيل: هو مصدر مؤكد للجملة التي هي ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾، كقولك: هو عبد الله حقاً، أي: حق ذلك حقاً.

قال ابن عباس: نقول: برئوا من الكفر[١].

وقال مقاتل[٢]: أولئك هم المؤمنون لا شكَّ في إيمانهم كَشَكِّ المنافقين.

فصل

قال الزمخشري[٣]: كان أبو حنيفة ممن لا يستثني في الإيمان.

قلت: والذي عليه جمهور السلف شرعية الاستثناء في الإيمان، فيقول: أنا مؤمن إن شاء الله، لا على معنى الشك في إيمانه واعتقاده من حيث علمه بنفسه، فإنه فيه على يقين وبصيرة، بل على معنى الخوف من سوء العاقبة وخفاء علم الله فيه عليه. فإنَّ أمر السعادة والشقاوة ينبني على ما يعلم الله من عبده، لا على ما يعلمه العبد من نفسه، والاستثناء يكون في المستقبل وفيما خفي عليه أمره، لا فيما مضى وظهر، فإنه لا يسوغ في اللغة لمن يتيقن أنه أكل وشرب، أكلت إن شاء الله، وشربت إن شاء الله. ويصح أن يقول: آكلُ إن شاء الله، وأشربُ إن شاء الله. ولو قال: أنا مؤمن، من غير استثناء، يريد أنه مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فجائز. ولو أراد أنه مؤمن عند الله لم يجز.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٨٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٥٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٣) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٤).

(٣) الكشاف (٢/ ١٨٦).

قال سفيان الثوري: من كره أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، فهو عندنا مرجئ.

قوله تعالى: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ قال عطاء: درجات الجنة يرقونها بأعمالهم، ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم، ﴿ورزق كريم﴾ وهو ما أُعدّ لهم من النعيم[(١)].

قال سفيان الثوري رحمه الله: من زعم أنه مؤمن بالله حقاً ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة، فقد آمن بنصف هذه الآية[(٢)].

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق﴾ الكاف[(٣)] في "كما" جائز أن يكون في موضع رفع خبر مبتدأ تقديره: هذه الحال التي كرهوها يوم بدر مما يتعلق بالغنائم مثلُ إخراجك، وجائز أن يكون في موضع نصب نعتاً لحقاً، تقديره: أولئك هم المؤمنون حقاً مثلَ إخراجك، أو صفة لمصدر الفعل المقدر تقديره: قل

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٤٤)، وزاد المسير (٣/ ٣٢١).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٢٢٩).

(٣) اختلف المفسرون في الكاف على عشرين قولاً. انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٥٦)، والدر المصون (٣/ ٣٩٤-٣٩٦).

الأنفال استقرّت وثبتت لله والرسول ثباتاً مثلَ ثبات إخراجك من بيتك وهم كارهون[١].

وقيل: الكاف متعلقة بقوله: ﴿فاتقوا الله وأصلحوا﴾ تقديره: فاتقوا الله وأصلحوا فإنه خير لكم، كما كان إخراج الله نبيه خيراً لكم وأنتم كارهون.

وقوله: ﴿من بيتك﴾ يحتمل وجوهاً:

أحدها: مكة، فيراد بالإخراج: الهجرة إلى المدينة.

الثاني: المدينة؛ لأنها مهاجره ومسكنه، فهي لاختصاصها به كبيته الذي يسكنه.

الثالث: بيته بالمدينة، وهذان الوجهان أصح من الأول.

قوله تعالى: ﴿بالحق﴾ أي: إخراجاً ملتبساً بالحق والحكمة.

﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ في موضع الحال[٢]، أي: [أخرجك][٣] في حال كراهتك. وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة ومعها أربعون راكباً، منهم أبو سفيان، وعمرو بن العاص، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ، فأخبر المسلمين، فأعجبهم تلقي العير؛ لكثرة الخير وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغ أبا سفيان، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري سريعاً إلى مكة ليُشعر قريشاً، فرقى أبو جهل فوق الكعبة ونادى: يا أهل مكة النجا النجا على كل صعب

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٣)، والدر المصون (٣/ ٣٩٤-٣٩٦).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٣)، والدر المصون (٣/ ٣٩٦).

(٣) في الأصل: أخرك.

وذلول، عيركم إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً، فغضبوا وانتدبوا وتنادوا: لا يتخلف منا أحد إلا هدمنا داره.

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالروحاء أخذ عيناً للقوم فأخبر بهم، وبعث ﷺ عيناً له من جهته يدعى ابن أريقط، فأتاه بخبر القوم، وطلب أبو سفيان سِيفَ[1] البحر ونجا بالعير، وكتب إلى أبي جهل: إن كنتم لِتحرزوا عيركم فقد أحرزتها لكم، فارجعوا. فقال أبو جهل: لا والله لا نرجع حتى ننزل بدر فننحر الجزور، ونشرب الخمور، ونقيم القَيْنات[2] والمعازف، فتتسامع العرب بخروجنا، وأن محمداً لم يُصب عيرنا.

ونزل جبريل فقال: يا محمد إن الله وعدك إحدى الطائفتين، إما العير وإما قريشاً، فكان العير أحبَّ إليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن العير قد مضت إلى ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل على كل صعب وذلول، فقالوا: يا رسول الله عليك بالعير، فإنا لم نخرج لقتال ولم نتهيأ له، فغضب رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقالا فأحسنا، وقام المقداد فقال: امض لما أمرك الله، فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ما دامت منا عين تطرف، والله لو سرتَ بنا إلى برك الغماد -يعني: مدينة الحبشة- لجالدنا معك حتى تبلغه، فضحك رسول الله ﷺ، ثم استشار أصحابه فقال: أشيروا عَلَيَّ أيها الناس -كأنه يريد الأنصار-، فقام سعد بن معاذ فقال:

---

(١) في هامش الأصل: قال في الصحاح: السِّيف -بكسر السين-: هو ساحل البحر.

(٢) القَيْنة: الأَمَة المُغنّية (اللسان، مادة: قين).

لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: أجل، فقال: والذي بعثك بالحق، لو استعرضتَ بنا هذا البحر فخضّته لخضناه معك، وإنا لصُبُرٌ عند الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله.

وقال سعد بن عبادة: والله لو سرت إلى عدن أبين ما تخلف عنك رجل من الأنصار، فحينئذ قال رسول الله ﷺ: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم[(١)].

فكان أوَّل مشهدٍ أعزّ الله فيه الإسلام، وقُتل من صناديد قريش سبعون، وأُسِرَ منهم سبعون.

في ذلك تقول عاتكة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ صاحبة الرؤيا، وكانت رأت قبل قدوم ضمضم بثلاث، كأن راكباً أقبل على بعير ينادي: انفروا لمصارعكم يا آل رعل[(٢)] "ثلاث"، ثم مثل بعيره على ظهر الكعبة فصرخ بمثلها، ثم علا على أبي قبيس فأخذ صخرة فرمى بها فارفضّت، فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا دخلته فلقةٌ منها، فقصت رؤياها على العباس، فحدّث بها العباس الوليد بن عتبة وكان صديقاً له، فنمى الحديث إلى أبي جهل، فمرَّ به العباس وهو في ناديه فقال: يا أبا الفضل! إذا قضيتَ طوافك فمر بنا. فلما قضى طوافه أتاهم، فقال له أبو جهل: يا أبا الفضل! متى حدثت هذه النبيّة فيكم؟ أما ترضون أن تتنبّأ رجالكم

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٨٥-١٨٦) عن ابن عباس. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٦-١٧) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس.

(٢) في بعض الروايات: آل غدر.

حتى تنبّأت نساؤكم، والله لنعدنّ ثلاثاً، ثـم لنكتـبنّ علـيكم كتابـاً أنكـم أكـذب العرب.

قال العباس: فلما أمسيتُ لم يبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أقبلت تلـومني وتقول: ما يرضى هذا الخبيث أن يقع في رجالكم حتى وقـع في نـسائكم، ولـيس عندكم كبير غيرة، فقلت لهن: والله لا تعرضن له، ولئن عاد لأكفينكُنّه، فخرجتُ في اليوم الثالث فدخلت المسجد، فلما رآني أقبل خارجاً يشتد فقلتُ: ما له لعنه الله، وإذا بالخبيث قد سمع ما لم أسمع، سمع ضمضم بن عمرو الغفـاري قـد جـدع بعيره، وَحَوَّلَ رداءه يصرخ ويقول: يا معشر قريش! اللطمة اللطمة، قد عرض لها محمد وأصحابه وما أراكم تـدركونها، العـرب العـرب، فجمعـوا وحـشدوا ولم يتخلفْ أحد من عظمائهم إلا لعذر فيستنيب من يقومُ مقامه، وكانت وقعةُ بدر[(١)].

فقالت عاتكة[(٢)]:

ألم تكـن رؤيـاي حقـاً ويـأتكم ... بتأولهـا فـل مـن القـوم هـارب

رأى فأتـاكم بـاليقين الـذي رأى ... بعينيه ما يفري الـسيوفَ القواضـب

فقلـتم ولم أكـذب كـذبت وإنـما ... يُكـذبني بالـصدق مـن هـو كـاذب

ومـا جـاء إلا رهبـة المـوت هاربـاً ... حكـيم وقـد أعيـت عليـه المـذاهب

إلى أن قالت:

---

(١) ذكر نحوه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٧-١٨).

(٢) انظر الأبيات في: مجمع الزوائد (٦/ ٧٢)، والمعجم الكبير للطبراني (٢٤/ ٣٤٨).

فـما بـال قـتلى في القليـب ومـثلهم لدى ابن أخي أسرى له ما تـضارب
أكـانوا نـساء أم أتـى لنفوسـهم مـن الله حـين سـاق فـالحين جالـب
فكيـف رأى يـوم اللقـاء محمـداً بنـو عمـه والحـرب فيهـا التجـارب
ألم يغـشهم ضربـاً يحـار لوقعـه الجَنـان وتبـدو بالنهـار الكواكـب
حَلَفْـتُ لـئن عـادوا لنَـصْطَلِمَنَّهُمْ بِجَأْواءَ[1] تُـرْدِي حجرتيهـا المَقَانِـبُ

قوله تعالى: ﴿وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ إن قلنا: "من بيتك": يريد بـه مكة، فالذي كرهوه فراق الأولاد والأهل والأموال.

وإن قلنا: يريد ببيته المدينة أو بيته منها: فالذي كرهـوه؛ مـا فـاتهم مـن العـير وابتلوا به من جهاد النفير، وهذه الكراهية طَبَعِيَّة لا شرعية؛ لأنها لو كانت شرعية لسلبتهم وصف الإيمان.

﴿يجادلونك في الحق بعدما تبين﴾ أي: بعدما ظهر وصحّ لهم من أنهم ينصرون على أعدائهم، وأن العاقبة لهم، وكانت مجادلتهم أنهم قالوا للنبي ﷺ: إنـما خرجنـا للعير ولم نتأهب للنفير.

﴿كأنما يساقون﴾ وأنت سائر بهم إلى النصر والظفر والغنيمة والاستعلاء على أعدائهم ﴿إلى الموت﴾ لما لابسهم من الرعب، ﴿وهم ينظرون﴾ أسبابه، فـإن مـن يُساق إلى الموت عالماً به أسوأُ حالاً وأعظم قلقاً وأكثر ألماً ممن يفاجأ به. هـذا قـول جمهور العلماء.

---

(١) يقال: كتيبة جَأْواء: وهي التي يعلوها لون السواد لكثرة الدروع. والمعنى: أي: بجيش عظيم تجتمع مقانِبُه من أطرافه ونواحيه (اللسان، مادة: جأي، والنهاية في غريب الحديث ١/ ٢٣٣).

ويجوز عندي: أن يكون قوله: ﴿وهم ينظرون﴾ حالاً من الضمير المرفوع في "يجادلونك"، على معنى: يجادلونك وحالهم أنهم ينظرون براهين صدقك ودلائل نصرك.

وشذّ ابن زيد فقال: ﴿يجادلونك﴾ يعني: المشركين، ﴿في الحق﴾ يريد: التوحيد، ﴿بعدما تبين كأنما يساقون﴾ إذا دعوتهم إلى التوحيد ﴿إلى الموت﴾ لكراهتهم إياه[(١)].

قوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله﴾ "إذ" نصب بإضمار "اذكروا"[(٢)]، ﴿إحدى الطائفتين﴾ العير أو النفير.

قوله: ﴿أنها لكم﴾ بدل من "إحدى"، وهو بدل الاشتمال[(٣)].

﴿وتودون أن غير ذات الشوكة﴾ أي: غير ذات السلاح، تقول: فلان شاكِ السلاح، بالتخفيف، كقوله: شاكي السلاح؛ بطل مجرِّب، وشائك وشاكّ في السلاح، بتشديد الكاف.

قال أبو عبيدة وغيره[(٤)]: مجازُ الشوكة: [الحدّ][(٥)]، مستعار من واحدة الشوك. يقال: ما أشدَّ شوكةَ بني فلان، أي: حدَّهم.

والمعنى: تحبون وتتمنون أن العير لكم، رغبة في المال ورهبة من القتال.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ١٨٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٢٣).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٤)، والدر المصون (٣/ ٣٩٧).

(٣) مثل السابق.

(٤) مجاز القرآن (١/ ٢٤١).

(٥) في الأصل: الحدة. والتصويب من مجاز القرآن، الموضع السابق.

﴿ويريد الله أن يحق الحق﴾ فيعلي مناره ويظهر أنواره ﴿بكلماته﴾ أي: بِعِدَاته السابقة بنصر أوليائه وقهر أعدائه، ﴿ويقطع دابر الكافرين﴾ مُفَسَّرٌ في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿ليحق الحق﴾ متعلق بمحذوف تقديره: ليحق الحق، ﴿ويبطل الباطل﴾ فعل ذلك، وقيل: هو متعلق بقوله: ﴿ويقطع﴾.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

قوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ بدل من قوله: ﴿إذ يعدكم الله﴾[1]. ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾.

والمعنى: إذ تجأرون إلى الله طالبين منه النصر والغوث على عدوكم لقلة عَدَدِكُم وعُدَدِكُم.

صَحَّ عن النبي ﷺ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبيُّ الله القبلة، ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه، يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبدُ في الأرض، فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن مَنكِبيه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٤)، والدر المصون (٣/ ٣٩٧).

كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجزُ لك ما وعدك. فأنزل الله: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله تعالى بالملائكة»[(١)].

قوله: «وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر» قول يخالف أكثر ما عليه أهل العلم على اختلافهم في العدد.

قال ابن إسحاق: كانوا ثلثمائة وأربعة عشر.

وقال أبو معشر والواقدي: ثلثمائة وثلاثة عشر.

وقال موسى بن قتيبة: ثلثمائة وستة عشر[(٢)].

وقوله عليه السلام: «أنجز لي ما وعدتني» قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله[(٣)]: لم يكن حَدَّ له وقتاً معيناً في النصر، فسأل تعجيل ما وعد به.

والذي يظهر لي أنه ﷺ استنجز ما وُعد به من النصر في قوله: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ مقروناً بسلامة أصحابه الذين وعوا عنه ما جاء به، وقاموا بنصر دينه، وترشَّحوا للنيابة عنه في دعائه الخلق إلى الله، ألا تراه يقول: «إن تهلك هذه العصابة لا تُعبد في الأرض» أي: لا تُطاع حق طاعتك؛ لأن العبادة تستلزم العلم، وهؤلاء حملة العلم ودعاة عبادك إليك، فيذهب دينك أو يقل بذهابهم.

وفي إلحاحه أيضاً في الدعاء حكمة بالغة، وهو تقوية قلوب أصحابه؛ لعلمهم واعتقادهم أن الله تعالى لا يرد سؤال رسوله لكرامته عليه.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٤ ح١٧٦٣).

(٢) ذكره ابن سعد في طبقاته (٣/ ٦٠١).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٢٥).

وقول أبي بكر وفعله لم يكن لأن حاله في الثقة بالله أقوى من حال المؤيد بالوحي والعصمة رسول الله ﷺ، كَلاّ ولما، لا يجوز أن يتوهم ذلك متوهّم أو يظنّه ظانّ، وإنما كان الصدّيق واسطة عقد الصحابة سناً وقدراً وحلماً وسناء وفضلاً وعلماً، وكان أقدَمهم سبقاً وأعظمهم حقاً، فبادر بإيمانه الراجح، وعلمه الواضح، وثقته بصدق ما وُعدوا به من الظَّفَر وبإجابة الله دعاء رسوله إلى تذكير النبي ﷺ بما يوجب إراحة قلبه الكريم، وإراحة أفكاره المؤملة التي أوجبها فرط شفقته على أمته، وما ينطوي عليه من الحرص على إعلاء كلمة الإيمان، وإعدام عبدة الأوثان، وتسكين قلوب أصحابه في ذلك الوقت الذي هو مظنة تقلقل القلوب وتزلزل [الأقدام](١)، فرضي الله عن أبي بكر ما كان أكثر توفيقه وأعظم تحقيقه وتصديقه وأكرم طباعه وأطول في الفضائل باعه.

قوله تعالى: ﴿فاستجاب لكم أني﴾ بأني، فلما سقطت الباء وتسلط الفعل فنصب.

وقرأ عيسى بن عمر: "إني" بالكسر(٢)، على إضمار القول، أو أن الاستجابة ضرب من القول.

﴿ممدكم بألف﴾ وقرأ الضحاك وأبو رجاء: "بآلاف" على الجمع(٣).

وقرأ أبو العالية وأبو المتوكل: "بألوف" على صيغة الجمع أيضاً(٤).

---

(١) في الأصل: الأقام.

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٦٠)، والدر المصون (٣/ ٣٩٨).

(٣) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٣٢٦).

(٤) مثل السابق.

وقرأ الجحدري: "بأُلُف" بضم الألف واللام من غير واو[١].

وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران الجوني: "بيلف" بياء مفتوحة، على قلب الهمزة إلى جنس ما قبلها[٢].

وقد ذكرنا عددهم وما قيل فيه في آل عمران[٣].

﴿من الملائكة مردفين﴾ قرأ نافع: "مُرْدَفين" بفتح الدال، أي: متبعين بآخرين، أو أردف الله المسلمين بهم[٤]، وهو معنى قول مجاهد[٥].

وقرأ الباقون بكسر الدال[٦].

قال ابن عباس: متتابعين[٧].

---

(١) انظر هذه القراءة في: زاد المسير (٣/ ٣٢٦).

(٢) مثل السابق.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم ...﴾ [الآية:١٢٥].

(٤) قال الطبري (٩/ ١٩٢): وهو قول لا معنى له، إذا الذكر الذي في "مردفين" من الملائكة دون المؤمنين، وإنما معنى الكلام: أن يمدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم ببعض، ثم حذف ذكر الفاعل وأخرج الخبر غير مسمى فاعله، فقيل: مردفين، بمعنى: مردف بعض الملائكة ببعض، ولو كان الأمر على ما قاله من ذكرنا قوله وجب أن يكون في المردفين ذكر المسلمين لا ذكر الملائكة، وذلك خلاف ما دل عليه ظاهر القرآن.

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ١٩١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٠) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٢٩٠)، و الحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٧)، والكشف (١/ ٤٨٩)، والنشر (٢/ ٢٧٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٤).

(٧) أخرجه الطبري (٩/ ١٩٠)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٦٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٢٦).

يعني: يتبع بعضهم بعضاً، أو أنهم جاؤوا بعد المؤمنين. يقال: رَدَفَهُ وأَرْدَفَهُ، إذا جاء بعده[(١)]. قال الله تعالى: ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾ [النمل:٧٢]، أي: ردفكم. قال الشاعر:

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا[(٢)]

أي: جاءت طالعةً بعدها.

وقرأ معاذ القارئ وأبو المتوكل وأبو مجلز: "مُرَدَّفين" بفتح الراء وتشديد الدال وفتحها[(٣)]، بصيغة التكثير، على معنى: مُتْبَعِينَ بأمثالهم.

وقرأ أبو الجوزاء وأبو عمران بالتشديد مع ضم الراء وكسر الدال[(٤)].

وقرئ بكسر الراء والدال مع التشديد، أصلها: مرتدفين، فأدغمت تاء الافتعال في الدال، فاجتمع ساكنان الراء والدال، فمن ضم الراء فعلى الاتباع لضمة الميم، ومن كسرها فعلى الأصل، أو لاتباع كسرة الدال.

وقال الزجاج[(٥)]: يجوز في الراء مع تشديد الدال: كسرها وفتحها وضمها، والدال مُشدَّدَة مكسورة على كل حال. والراء يجوز فيها الفتح والكسر والضم.

---

(١) اللسان، مادة: (ردف).

(٢) البيت لخزيمة بن مالك بن نهد. انظر البيت في: الطبري (٩/ ١٩١)، والقرطبي (١٣/ ٢٣٠)، واللسان، مادة: (ردف).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٢٦).

(٤) مثل السابق.

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٣).

قال الزجاج(١): قال سيبويه(٢): الأصل: مُرْتَدِفِينَ، فأدغمت التـاء في الـدال فصارت مُرِدِّفين؛ لأنك طرحت حركة التاء على الراء، وعَلَّل ضم الراء بالاتباع، وكسرها على أصل التقاء الساكنين.

والآية التي بعدها مفسرة في آل عمران(٣).

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إذ يغشاكم النعاسُ﴾ بدل ثان من ﴿وإذ يعدكم الله﴾، أو منصوب بـ"النصر"، أو بإضمار "اذكروا"، أو على معنى: ما جعله الله إلا بشرى في ذلك الوقت(٤).

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٣).

(٢) انظر: الكتاب (٤/ ٤٤٤).

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به﴾ [آل عمران:١٢٦].

(٤) انظر: التبيان (١/ ١٥٤)، والدر المصون (٣/ ٤٠١).

قرأ أهل الكوفة وابن عامر: "يُغَشِّيكم" بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين وتشديدها وبياء بعدها، و"النعاسَ": بالنصب. ومثلهم قرأ نافع، إلا أنه خفف الشين.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: "يَغْشَاكم" بفتح الياء وسكون الغين وتخفيف الشين وألف بعدها بدل الياء، "النعاسُ" بالرفع[١].

﴿أَمَنَةً﴾ مفعول لأجله[٢]، وهو مصدر أَمِنَ يَأْمَنُ أَمْناً، و"أَمَنَة" بفتح الميم وسكونها[٣].

﴿وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به﴾ وذاك أن المسلمين نزلوا على كثيب أخضر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب على غير ماء، فاحتلم أكثرهم وصلوا مُحْدِثين، وأصابهم العطش، فوسوس لهم الشيطان وقال: تزعمون أنكم أولياء الله [وفيكم][٤] رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وما ينتظرون بكم إلى أن يجهدكم العطش، فإذا قطع العطش أعناقكم وثبوا عليكم قتلاً وأسراً، [فحزن][٥] المسلمون حزناً شديداً، فأرسل الله عز وجل مطراً سال منه الوادي، فشربوا وتطهروا، واتخذ رسول الله ﷺ وأصحابُه الحياض على عُدْوة الوادي[٦]،

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٩١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٨)، والكشف (١/ ٤٨٩)، والنشر (٢/ ٢٧٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٤).

(٢) انظر: التبيان (١/ ١٥٤)، والدر المصون (٣/ ٤٠٢).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (أمن).

(٤) في الأصل: فيكم.

(٥) في الأصل: فحز.

(٦) عُدْوةُ الوادي: جانبه وحافّتُه (انظر: اللسان، مادة: عدا).

وذهب عنهم وسواس الشيطان، فذلك قوله: ﴿ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ يعني: كيده وما خامر نفوسهم من القلق حين خوفهم بالعطش [والقتل][(١)].

﴿وليربط على قلوبكم﴾ الربط: الشدّ، وهو هاهنا مجاز عن استحكام الصبر وقوة اليقين.

﴿ويثبت به﴾ أي: بالماء النازل من السماء ﴿الأقدام﴾ كيلا تسوخ في الرمل، فإن الأرض تلبدت به.

وقيل: الضمير في قوله: "به" يعود إلى الربط، التقدير: ويثبت أقدامكم بالربط على قلوبكم.

قوله تعالى: ﴿إذ يوحي ربك﴾ بدل ثالث من ﴿وإذ يعدكم الله﴾، أو هو منصوب بـ"يثبت"، أو بـ"يربط" أو بإضمار "اذكروا"[(٢)].

والمعنى: إذ يوحي ربك إلى الملائكة الذين أمدّ الله بهم المؤمنين وأيدهم بهم.

قال ابن عباس: ألهمهم ذلك[(٣)].

"أني" مفعول "يوحي"[(٤)]، والمعنى: أني معكم بالنصر والتثبيت.

﴿فثبتوا الذين آمنوا﴾ قال الحسن: بالقتال معهم[(٥)].

---

(١) في الأصل: والتقل. انظر: زاد المسير (٣/ ٣٢٨).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٠٣).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٢٩).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٠٣).

(٥) الماوردي (٢/ ٣٠١)، والوسيط (٢/ ٤٤٨)، وزاد المسير (٣/ ٣٢٩).

وقال مقاتل[(١)]: بشروهم بالنصر، فكان المَلَك يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول: أبشروا، فإن الله ناصرُكم.

وقال الزجاج[(٢)]: جائز أن يكونوا يثبتونهم بأشياء يلقُونها في قلوبهم تقْوَى بها، وجائز أن يكونوا يروْنهم مدَداً، فإذا عاينوا نصر الملائكة ثبتوا.

وقوله: ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ بيان لمعنى قوله: ﴿أني معكم﴾.

قال ابن السائب: كنا إذا سألنا يزيد بن عامر السوائي عن الرعب الذي ألقاه الله في قلوبهم كيف كان، [كان][(٣)] يأخذُ الحصا فيرمي به الطشت فيطنّ، فيقول: كنا نجد في أجوافنا مثل هذا[(٤)].

قال ابن الأنباري: لم تعلم الملائكة أين يُقصدُ بالضرب من الناس، فعلّمهم الله تعالى ذلك، فقال: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾[(٥)].

فعلى هذا هو خطاب للملائكة، وقيل: هو خطاب للمؤمنين. والمعنى: اضربوا الهامَ والوُجوهَ.

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٨).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٤).

(٣) زيادة من المصادر التالية.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٢٣٧ ح٦٢٣)، والطبري (١٠/ ١٠٣)، وعبد بن حميد (١/ ١٦٣).

قال الهيتمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٨٣): ورجاله ثقات.

(٥) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٢٩).

وقال جماعة منهم الضحاك والأخفش وابن قتيبة: "فوق" صلة، تقديره: فاضربوا الأعناق[(١)].

وقال أبو عبيدة[(٢)]: "فوق" بمعنى: على، تقول: ضربته فوق الرأس وعلى الرأس بمعنى.

﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ قال ابن الأنباري: البنان: أطراف الأصابع، فاكتفى به عن ذكر الأيدي والأرجل[(٣)].

وقال الزجاج[(٤)]: أباحهم الله قتلهم بكل نوع يكون في الحرب. واحِدُ البنان: بنانَة، ومعناه هاهنا: الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء. واشتقاقه من قولهم: أَبَنَّ بالمكان؛ إذا أقام به، [فالبناء][(٥)] به يعْتَمل كل ما يكون للإقامة والحياة.

فصل

الذي ذهب إليه جمهور العلماء وشهدت الأخبار والآثار بصحته: أن الملائكة قاتلت يوم بدر، ففي الصحيحين من حديث سماك الحنفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ -يعني: يوم بدر- يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم

---

(١) معاني الأخفش (ص:٢٠٣)، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة (ص:١٧٧). وانظر: زاد المسير (٣/ ٣٣٠).

(٢) مجاز القرآن (١/ ٢٤٢).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٣٠).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٥).

(٥) في الأصل: فالبنان. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

حيزوم، إذ نظر إلى المشرك أمامه خرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد [خطم][(١)] أنفه، وشق وجهه بضربة كضربة السوط، فاخضرّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذاك رسول الله ﷺ. فقال: صدقتَ، ذاك من مدد السماء الثالثة»[(٢)].

وفي أفراد البخاري عنه أيضاً: «أن النبي ﷺ قال يوم بدر: هـذا جبريـل آخـذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب»[(٣)].

وقد ذكرنا في سورة آل عمران قول أبي واقد الليثي[(٤)].

وقال سهل بن حنيف: لقد رأيت يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف[(٥)].

وقال أبو جهل لابن مسعود: من أين كان يأتينا الضرب ولا ندري الشخص؟ فقال: من قبل الملائكة، فقال: هم غلبونا لا أنتم.

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: «كنتُ غلاماً للعباس بـن عبـد المطلـب، وكان الإسلام قد دخلنا، وأسلمت أمُّ الفضل وأسلمت، وكـان العبـاس يهـاب قومه ويكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير فنفر مع قومه، وكان عدوُّ الله أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاء الخبر بمصاب أهل بـدر مـن قـريش كبتـه الله وأخـزاه، ووجدنا نحن في أنفسنا قوة وعزاً، فبينا أنا أنحـتُ القِـداح في حجـرة زمـزم وأمُّ

(١) في الأصل: حطم. والتصويب من الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٤-١٣٨٥ ح١٧٦٣). ولم أقف عليه عند البخاري.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٦٨ ح٣٧٧٣).

(٤) عند تفسير الآية رقم: (١٢٥).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجـم الكبـير (٦/ ٧٤ ح٥٥٥٦)، والحـاكم (٣/ ٤٦٣ ح٥٧٣٦). وذكـره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٣) وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه.

الفضل جالسة عندي، أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه حتى جلس وظهرُه إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال أبو لهب: هلم يا ابن أخي، فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال: والله ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا، وايم الله! مع ذلك ما لمتُ الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق بين السماء والأرض لا يقوم لها شيء. قال أبو رافع: تلك الملائكة، فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة، فثاورته[1] فاحتملني فضرب بي الأرض، ثم برك عليَّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فضربتْه أم الفضل بعمودٍ ضربة فلقت رأسه شجة منكرة، وقالت: تستضعفه أن غاب عنه سيده، فقام مُوَلِّياً ذليلاً، فالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعَدَسة[2] فقتلته. ولقد تركه أبناؤه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفنانه حتى أنتن، وكانت قريش تتقي العدسة كما يتقي الناس الطاعون، حتى قال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان، إن أباكما قد أنتن في بيته ولا تُغَيِّبانه، فقالا: نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا فأنا معكما، فما غسلوه إلا قذفاً بالماء عليه من بعيد ما يمسونه، ثم حملوه فدفنوه بأعلى مكة إلى جدار قذفوا عليه الحجارة حتى واروه»[3].

---

(١) ثار إليه ثوراً وثوراناً: وثب. والمُثاورة: المواثبة (اللسان، مادة: ثور).

(٢) العدسة: بَثْرة تشبه العَدَسة تخرج في مواضع من الجسد، من جنس الطاعون، تقتل صاحبها غالباً (اللسان، مادة: عدس).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٦٣ ح٥٤٠٣)، والطبراني في الكبير (١/ ٣٠٨ ح٩١٢).

وروى مقسم عن ابن عباس قال: «كان الذي أسر العباس أبا اليسر كعب بن عمرو أخا بني سلمة، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العباس رجلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ: كيف أسرتَ العباس يا أبا اليسر؟ فقال: يا رسول الله أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده هيئته كذا وكذا. قال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم»(١).

قوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ أي: ذلك الضرب بأنهم حاربوا الله ورسوله، ﴿ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾.

قال الزجاج(٢): يشاقّ ويشاقِق جميعاً، إلا أنها هاهنا بإظهار التضعيف مع الجزم لغة أهل الحجاز، وغيرهم يدغم، فإذا أدغمت قلت: من يشاقّ زيداً أُهِنْه، بفتح القاف، لأن القافين [ساكنتان](٣) فحركت الثانية بالفتح لالتقاء الساكنين، ولأن قبلها ألفاً. وإن شئت كسرت قلت: ومن يشاقِّ زيداً، كسرت القاف؛ لأن أصل التقاء الساكنين الكسر، فإذا استقبلَتْها ألف ولام اخترت الكسر، فقلت: ومن يشاقِّ الله، ويجوز: ومن يشاقَّ الله، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

قوله تعالى: ﴿ذلكم فذوقوه﴾ "ذلكم" في محل الرفع، على معنى: ذلكم العقاب، أو العقاب ذلكم، أو في محل نصب، كقولك: زيداً فاضْرِبْهُ(٤).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٥٣ ح٣٣١٠)، والطبري (٤/ ٧٨). وذكره الهيثمي في مجمعه (٦/ ٨٥) وعزاه لأحمد.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٥).

(٣) في الأصل: ساكنان. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) انظر: التبيان (٢/ ٥)، والدر المصون (٣/ ٤٠٥-٤٠٦).

﴿وأن للكافرين عذاب النار﴾ في فتح "أنَّ" وجهان، أحدهما: الرفع، على معنى: ذلكم فذوقوه وذلكم أن للكافرين عذاب النار. والآخر: النصب؛ إما بفعل مضمر تقديره: واعلموا أن للكافرين. وإما أن يكون التقدير: وبأن للكافرين، فلما حذفت الياء انتصب، وإما أن تكون الواو بمعنى: مع، تقديره: ذوقوا هذا العذاب العاجل، مع أن لكم في الآجل عذاب النار. فوُضع الظاهر موضع المضمر[١].

وقرأ الحسن البصري: "وإنّ" بالكسر على الاستئناف[٢].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ أي: متزاحفين، فهو نصب على الحال، إما من "الذين كفروا" أو من الفئتين[٣]، أي: لقيتموهم متزاحفين أنتم وهم.

والزحف: الجيش الذي يبين لكثرته كأنه يدب ويزحف قليلاً قليلاً، سمي بالمصدر، والجمع: زحوف.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٠٦).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٦٧).

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٥)، والدر المصون (٣/ ٤٠٧).

﴿فلا تولوهم الأدبار﴾ أي: لا تجعلوا ظهوركم مما يليهم، فهو نهي للمؤمنين عن الهزيمة إذا لقوا الكفار، فإنها من الكبائر، على ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ في النساء(١).

﴿ومن يولهم يومئذ دبره﴾ يعني: منهزماً، بدليل قوله: ﴿إلا متحرفاً لقتال﴾، و"متحرفاً" نصب على الحال من الضمير المرفوع في ["يولّهم"](٢)، ومثله: ﴿أو متحيزاً﴾ ويجوز أن يكون نصبهما على الاستثناء(٣)، على معنى: إلا رجلاً متحرفاً.

والمعنى: إلا متعطفاً لانتهاز فرصة يبادرها فَيَفِرّ ثم يكرّ، وهو ضرب من خدع الحرب لا تعده الأبطال عاراً ولا شناراً، وكذلك المتحيز وهو الذي ينضم إلى فئة، أي جماعة يعتصم بهم لا يكون توليه عن القتال عند العجز إثماً ولا عاراً أيضاً، بل ربما عَدُّوا الثابت في مركز القتال عند تيقن الهلكة وعدم النكاية في العدو سفهاً وخبلاً في العقل. والمعيّر حسان بن ثابت رضي الله عنه الحارث بن هشام رضي الله عنه حين فرّ يوم بدر وهو على دين قومه هزيمته وتركه نصر قومه فقال(٤):

أنت كنت كاذبة الذي حدثتني ... فنجوت منجا الحارث بن هشام

ترك الأحبة لم يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

أجابه الحارث معتذراً فقال:

---

(١) الآية رقم: (٣١).

(٢) في الأصل: توليهم.

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٥)، والدر المصون (٣/ ٤٠٨).

(٤) انظر الأبيات في: المستدرك (٣/ ٣١٣)، وتهذيب الكمال (٥/ ٢٩٧)، والإصابة (١/ ٦٠٦)، والاستيعاب (١/ ٣٠١-٣٠٢).

القـوم أعلـم مـا تركـت قتـالهم ... حتى رمـوا فـرسي بأشـقر مزبـد
ووجدت ريح الموت من تلقائهم ... في مـــأزق والخيـــل لم تتبـــدد
وعلمـــت أني إن أقاتـــل واحـــداً ... أُقتل ولا يضرر عدوي مـشهدي
فـصدفت عـنهم والأحبـة فـيهم ... طمعاً لهـم بعقـاب يـوم مرصـد

وكان الأصمعي يقول: ما قيـل في الاعتـذار مـن الفـرار أحـسن مـن هـذه الأبيات.

وقال خلف الأحمر: أبيات عمير بن وهب[١] أحسن منها[٢]:

لعمرك ما وليـت ظهـري محمـداً ... وأصحابه جبناً ولا خيفـة القتـل
ولكنني قلبـت أمـري فلـم أجـد ... لسيفي غناء إن ضربت ولا نـبلي
وقفتُ فلما خفت ضـيعة مـوقفي ... رجعت لعودٍ كالهزبر أبي الـشبل

أخبرنا الشيخان شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي قراءة عليه وأنا أسمع بجامع دمشق وأبو بكر محمد بن سعيد بن الموفق الخازن النيسابوري بقراءتي عليه ببغداد قالا: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي، أخبرنا أبو الحسن مكي بن منصور بـن عـلان [الكرجـي][٣]، أخبرنـا القاضي أبو بكر [أحمد][٤] بن الحسن الحيري، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب

---

(١) في السيرة النبوية والاستيعاب: هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ.
(٢) انظر الأبيات في: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٢٢٩)، والاستيعاب (٤/ ١٩٦٣).
(٣) في الأصل: الكرخي. والصواب ما أثبتناه. وقد سبقت ترجمته.
(٤) في الأصل: أحمد. والصواب ما أثبتناه. وقد سبقت ترجمته.

الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان المرادي، حدثنا محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن يزيد بن أبي زياد، عن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «بعثنا رسول الله ﷺ، فحاص المسلمون حيصة، فأتينا المدينة فقلنا: يا رسول الله، نحن الفرّارون. قال: بل أنتم العَكَّارون، وأنا فيئتكم»[1]. قال الترمذي: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث [يزيد][2] بن أبي زياد.

قوله: "فحاص الناس حيصة" أي: حادوا. والعَكَّارون: العائدون إلى القتال. يقال: عكر على الشيء؛ إذا عطف عليه[3].

فصل

اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فذهب قوم -منهم أبو سعيد الخدري، والحسن البصري، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك-: إلى أنها خاصة في أهل بدر[4]، أوجب الله عليهم أن يثبتوا ذلك اليوم للكفار، وتوعدهم على توليهم

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٢١٥ ح١٧١٦).

(٢) في الأصل: زيد. وانظر: ترجمته في: تقريب التهذيب (ص:٦٠١).

(٣) انظر: لسان العرب، مادة: (عكر).

(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ٤٦)، والنسائي في سننه الكبرى (٥/ ١٩٨)، والطبري (٩/ ٢٠١-٢٠٢) وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٠) من حديث أبي سعيد، وابن أبي شيبة (٦/ ٥٤٢)، والنحاس في ناسخه (ص:٤٦٠-٤٦١) كلاهما من حديث الحسن، وعبد الرزاق (٥/ ٢٥١) من حديث قتادة والضحاك. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٦-٣٧) وعزاه لعبد بن حميد وأبي داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وأبي الشيخ وابن مردويه والحاكم عن أبي سعيد الخدري. ومن طريق آخر عن قتادة، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير. ومن =

فقال: ﴿ومن يولهم﴾ إلى قوله: ﴿فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ولم يكن لهم يومئذ إلا رسول الله ﷺ.

قال أبو سعيد: فأما بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة بعض[(١)].

وذهب قوم إلى عمومها في كل منهزم غير متخوف ولا متحيز، قلّ العدد أو كثر، وهما مرويان عن ابن عباس[(٢)].

قال عطاء بن أبي رباح: ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾[(٣)]، وهذا عند الفقهاء تخصيص لا نسخ[(٤)].

قال الإمام أحمد: لا يفرّ رجل مؤمن من رجلين كافرين، فإن كانوا ثلاثة فلا بأس[(٥)].

= طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه. ومن طريق آخر عن الحسن، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والنحاس في ناسخه وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن عكرمة، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ. ومن طريق آخر عن الضحاك، وعزاه لعبد الرزاق في مصنفه وابن أبي شيبة وابن جرير.

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٠٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٤٩).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٣١).

(٣) في الأصل: فإن تكن مائة صابرة.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٢٠٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٣١-٣٣٢)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ. وانظر دعوى النسخ ورده في: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٤٥٩) وما بعدها، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٤٤-٣٤٦).

(٥) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٣٢).

وقال محمد بن الحسن: إذا بلغ الجيش اثنا عشر ألفاً فليس لهم أن يفروا من عدوهم وإن كثروا[١]. وروي نحوه عن مالك.

ووجهه: ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما هزم قوم إذا بلغوا اثنا عشر ألفاً من قلة إذا صبروا وصدقوا»[٢].

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فلم تقتلوهم﴾ اعلم أن هذا ليس على وجه النفي؛ لحُسن بلاء الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر، فإن الله تعالى جعلهم بذلك المشهد الذي شهدوه والبلاء الذي أبلوه أفضل أتباع رسول الله ﷺ، ولكنه على وجه التنبيه لهم بموضع النعمة عليهم بنصرهم مع ضعفهم على أضعافهم؛ لينهضوا بواجب الشكر، وليتحفظوا من خواطر العجب.

﴿ولكن الله قتلهم﴾ بإنزال الملائكة لقتالهم وإلقاء الرعب في قلوبهم، والربط على قلوبكم، وما فعل من التقليل والتكثير منكم ومنهم في أعينكم وأعينهم.

---

(١) انظر: رد المحتار، كتاب الجهاد.

(٢) أخرج نحوه أبو داود (٣/ ٣٦ ح٢٦١١)، والترمذي (٤/ ١٢٥ ح١٥٥٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٤ ح٢٨٢٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦١١ ح١٦٢١، ٢/ ١١٠ ح٢٤٨٩)، وابن حبان (١١/ ١٧ ح٤٧١٧).

﴿وما رميت إذ رميت﴾ كان النبي ﷺ قال لعلي عليه السلام: «ناولني كفاً من حصباء الوادي، فناوله، فرمى به في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا»[(١)]، وردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم، فذلك قوله: ﴿وما رميت إذ رميت﴾، أي: ما بلغ رميك كفاً من حصباء الوادي أن يملأ عيون ألف رجل، فإن ذلك غير داخل في قوة البشر[(٢)]. هذا قول أكثر المفسرين.

وروى سعيد بن المسيب عن أبيه: أن المراد بذلك طعنة النبي ﷺ لأُبيّ بن خلف حين أقبل عليه يريد قتله، فلم يخرج منها دم، فأقبل عليه أصحابه وهو يخور خوار الثور، فقالوا: إنما هو خدش، فقال: والذي نفسي بيده، لو كان ما بي بأهل الحجاز لماتوا أجمعون، فمات قبل أن يقدم مكة، وذلك يوم أُحد[(٣)].

وذهب جماعة من المفسرين: إلى أن ذلك في قتل النبي ﷺ لابن أبي الحقيق، فرووا أنه ﷺ رمى يوم خيبر بسهم، فقتل ابن أبي الحقيق وهو على فراشه في حصنه[(٤)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٥ ح١١٧٥٠). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٨٤).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٠٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٣). وذكر نحوه السيوطي في الدر (٤/ ٤٠) وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه عن جابر.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢٠٥-٢٠٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٣). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٣-١٦٧٤). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٦-٢٣٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤١) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

قوله تعالى: ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً﴾ أي: لينعم عليهم نعمة عظيمة بالأجر والغنيمة والاستيلاء على أعدائهم.

فإن قيل: على أي شيء عطف: "وليبلي"؟

قلت: على محذوف تقديره: فَعَلَ ذلك[١]، ليكرم المؤمنين وليبليهم، أو ظهر قدرته للكافرين وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً.

﴿إن الله سميع عليم﴾ سميع لأقوال الطائفتين، عليم بأعمال الفئتين.

قوله تعالى: ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى البلاء الحسن، ومحله الرفع، ﴿وأن الله موهن﴾ معطوف على "ذلكم"[٢]. والمعنى: مرادنا البلاء للمؤمنين وتوهين كيد الكافرين.

قرأ الحرميان وأبو عمرو: "مُوَهِّن" بتشديد الهاء، وخفّفها الباقون، واتفقوا على التنوين ونصب ﴿كيد﴾، إلا حفصاً فإنه قرأ بغير تنوين، والجرّ في "كيد" على الإضافة[٣].

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ اختلفوا في المخاطبين بهذا على قولين:

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٠٩).

(٢) مثل السابق.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٢٩١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٠٩-٣١٠)، والكشف (١/ ٤٩٠)، والنشر (٢/ ٢٧٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٤-٣٠٥).

أحدهما: أنهم المسلمون، وقد استنصروا الله تعالى على كفار قريش وسألوه الفتح. قاله أُبيّ بن كعب[١].

والثاني -وهو الأظهر-: أنهم المشركون[٢].

قال ابن عباس: قال أبو جهل يوم بدر قبل القتال: اللهم أيهم كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، فنزلت هذه الآية[٣].

وقال السدي: أخذ المشركون بأستار الكعبة قبل خروجهم إلى بدر وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم القبيلتين[٤].

وقال عكرمة: قالوا: اللهم لا نعرف ما جاء به محمد، فافتح بيننا وبينه بالحق[٥].

﴿وإن تنتهوا﴾ أيها الكفار عن الكفر ومعاداة رسولي والمؤمنين ﴿فهو خير لكم﴾ في الدنيا والآخرة، وقيل: وإن تنتهوا عن الاستفتاح، ﴿وإن تعودوا﴾ إلى قتال محمد ﷺ والمؤمنين ﴿نعد﴾ إلى نصرهم. وقيل: وإن تعودوا إلى الاستفتاح نعد إلى الفتح لمحمد ﷺ وأصحابه.

﴿ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت﴾ لأنهم حزب الشيطان، والله مع المؤمنين بالنصر والمعونة؛ لأنهم حزب الرحمن.

---

(١) زاد المسير (٣/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٢) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) انظر: الوسيط (٢/ ٤٥٠)، وزاد المسير (٣/ ٣٣٥).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٢٠٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٥).

(٥) أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٨)، وزاد المسير (٣/ ٣٣٥).

قرأ نافع وابن عامر وحفص: "وأن الله" بفتح الهمزة، وكسرها الباقون[(١)].

فمن فتح فعلى معنى: ولأن الله مع المؤمنين كان ذلك.

ومن كسر فعلى الاستئناف؛ وهو الأظهر. ويعضده قراءة ابن مسعود: "واللهُ مع المؤمنين"[(٢)].

وفي هذه [الآيات][(٣)] توهين للكفار وإعلام لهم أن كثرتهم ومعاضدتهم مظاهرتهم على النبي ﷺ والمؤمنين مع قلة عَدَدِهم وعُدَدهم لا ينفعهم شيئاً، وتقويةٌ لقلوب المؤمنين [ليثبتوا][(٤)] عند لقاء عدوهم لكونهم على ثقة بموعد الله بنصرهم واستيلائهم.

وكان ذوو البصائر والأقدام الراسخة في الإيمان يعلمون أن العاقبة لهم، وأن الله مظهرٌ رسوله وناصرٌ دينه، وهم إذ ذاك قليل عددهم، ضعيف مددهم، بهذه الآية وما أشبهها من الآيات والأحاديث المبشرة بإظهار الإسلام واستفحال أمر محمد ﷺ.

قرأتُ على الشيخ الثقة أبي عبدالله محمد بن داود بن عثمان الدرابندي الصوفي بمسجد الخليل صلوات الله عليه، أخبركم الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد

---

(١) وحجتهم في ذلك: أنها مردودة على قوله قبلها: ﴿وأن للكافرين﴾، ﴿وأن الله موهن﴾، ﴿وأن الله مع المؤمنين﴾ فيكون الكلام واحداً يتبع بعضه بعضاً. انظر: الحجة للفارسي (٢/ ٢٩٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٠)، والكشف (١/ ٤٩١)، والنشر (٢/ ٢٧٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٥).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٧٣).

(٣) في الأصل: الآياية.

(٤) في الأصل: لثبتوا.

الأصبهاني بثغر الإسكندرية فأقرّ به، أخبرنا الرئيس أبو عبدالله القاسم بن الفضل بن أحمد بن محمود الثقفي الأصبهاني، أخبرنا أبو زكريا يحيى بن إبراهيم المزكي النيسابوري، أخبرنا عبدالله بن إسحاق بن الخراساني ببغداد، حدثنا أبو سعيد عبدالرحمن بن محمد بن منصور[١]، حدثنا يحيى بن سعيد القطان[٢]، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد[٣]، حدثنا قيس[٤]، عن خباب[٥]، قال: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو [متوسدٌ][٦] بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر الله لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فقال: قد كان من كان قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن منصور البصري، أبو سعيد، يعرف بكريزان، نزيل سامراء، مات سنة إحدى وسبعين ومائتين (الجرح والتعديل ٥/ ٢٨٣، والثقات ٨/ ٣٨٣، وتاريخ بغداد ١٠/ ٢٧٣).

(٢) يحيى بن سعيد بن فروخ القطان التميمي، أبو سعيد البصري الأحول، ثقة متقن، حافظ إمام قدوة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله ثمان وسبعون سنة (تهذيب التهذيب ١١/ ١٩٠-١٩٢، والتقريب ص:٥٩١).

(٣) إسماعيل بن أبي خالد الأحمسي، كان رجلاً صالحاً ثقة ثبتاً، وكان طحاناً، مات سنة ست وأربعين ومائة (تهذيب التهذيب ١/ ٢٥٤-٢٥٥، والتقريب ص:١٠٧، وطبقات الحفاظ ص:٧٤).

(٤) قيس بن أبي حازم، واسمه: حصين بن عوف، ويقال: عوف بن عبد الحارث، ويقال: عبد عوف بن الحارث بن عوف البجلي الأحمسي، أبو عبد الله الكوفي. ثقة، أدرك الجاهلية، ورحل إلى النبي ﷺ ليبايعه، فقبض وهو في الطريق، مات سنة سبع أو ثمان وتسعين (تهذيب التهذيب ٨/ ٣٤٦-٣٤٧، والتقريب ص:٤٥٦).

(٥) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي، كنيته: أبو عبد الله، شهد بدراً ثم نزل الكوفة، وكان من المهاجرين الأولين، وكان من المستضعفين الذين يعذبون بمكة، مات سنة سبع وثلاثين (تهذيب التهذيب ٣/ ١١٥، والتقريب ص:١٩٢).

(٦) في الأصل: متوسداً. والمثبت من الصحيح.

فيها، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فينشر باثنين، فما يصده ذلك عن دينه، [ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه][(١)]. والله ليتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[(٢)]. هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه عن محمد بن المثنى عن يحيى بن سعيد، وكأنني سمعته من طريق البخاري عن أبي الوقت.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تولوا عنه﴾ أي: ولا تعرضوا عن الرسول ولا تخالفوه فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وأنتم تسمعون﴾ ما قرأه عليكم من الكتاب الذي شهد إعجازه بصدقه، وما يشتمل عليه من المواعظ والزواجر والبشارة لكم في هذه الدنيا بالظهور والغلبة وفتح البلاد، وفي الآخرة بالمصير إلى رضوان الله وجنته.

﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا﴾ أي: قالوا بألسنتهم سمعنا ﴿وهم لا يسمعون﴾ سماع قبول.

---

(١) زيادة من الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٢٢ ح٣٤١٦).

قال الزجاج[١]: لم يتفكروا فيما سمعوا، فكانوا كمن لم يسمع.

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: هم بنو عبد الدار بن قصي[٢].

وقال في رواية أخرى: هم بنو قريظة والنضير[٣].

وقال ابن إسحاق والواقدي: هم المنافقون[٤].

قال الزجاج[٥]: يعني به الذين قالوا: ﴿قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾.

قوله تعالى: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ نزلت في بني عبد الدار[٦]، وكانوا شديدي الكفر والعناد، لم يسلم منهم سوى رجلين، أحدهما: مصعب بن عمير، والآخر: سويد بن حرملة، وكانوا يقولون لفرط غلوّهم وعتوّهم: نحن صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ عما جاء به محمد.

والمعنى: إن شر من دبّ ودرج على وجه الأرض، أو أن شرّ البهائم الصم عن سماع الحق، البكم عن النطق به، العمي عن النظر إليه، الذين لا يعقلون، فجعلهم سبحانه وتعالى من جنس البهائم، جعلهم شرّ البهائم، تحقيقاً لمعنى صممهم وبكمهم وعماهم، وعدم عقلهم الموجب لشدة إعراضهم عن الحق الواضح.

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٣٧).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٥١)، وزاد المسير (٣/ ٣٣٧).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٢١١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٧).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤٠٨).

(٦) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠٣)، والطبري (٩/ ٢١٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٧٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٣) وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

ثم أخبر سبحانه وتعالى بما طُبعوا عليه من الشقاء في سابق العلم والقضاء، فقال جل وعز: ﴿ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم﴾ يعني: لأسمعهم سماع تفهّم وقبول، ﴿ولو أسمعهم﴾ بعد أن علم أنهم لا خير فيهم ﴿لتولوا﴾ لرجعوا القهقرى ناكصين على أعقابهم ارتداداً وعناداً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ يريد: إذا دعاكم الرسول، فوحَّد الضمير؛ لأن دعاء الرسول دعاء مرسله، وإجابته إجابته. قال الله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ [النساء:٨٠]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تولوا عنه﴾ بعد قوله: ﴿أطيعوا الله ورسوله﴾ والمعنى: إذا دعاكم لما فيه حياتكم. وفيه أقوال:

أحدها: أنه الإيمان، وهذا قول السدي ومجاهد في رواية عنه[١].

الثاني: أنه القرآن. قاله قتادة، وهو أعم الأقوال وأجمعها[٢].

والثالث: أنه الجهاد، وهو قول الأكثرين[٣].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٠)، ومجاهد (ص: ٢٦٠).

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٤) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٤) وعزاه لابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير.

وقد صح من حديث أبي هريرة: «أن النبي ﷺ مَرَّ على أُبيّ بن كعب وهو قائم يصلي، فصاح به فقال: تعال يا أُبيّ، فعجّل أُبيّ في صلاته، ثم جاء إلى رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: يا أُبيّ، ما منعك أن تجيبني إذ دعوتك؟! أليس الله يقول: ﴿استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم﴾. قال أُبيّ: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني إلا أجبتك وإن كنت مصلياً»(١).

ففي هذا الحديث دليلٌ على وجوب إجابته ﷺ إلى ما يدعو إليه، وأن إجابته في الصلاة لا تبطلها، كما أنك تخاطبه بقولك: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله، ومثله تبطل الصلاة مع غيره.

فإن قيل: لماذا سمّى ما يدعوهم إليه حياة؟

قلتُ: إن كان [ما يدعوهم إليه الإيمان والقرآن](٢) فهو حياة، باعتبار ما يستثمره المؤمن والقارئ لكتاب الله العامل به من سعادة الدنيا والآخرة والثناء الجميل الباقي على مرّ الأحقاب، كما قال علي عليه السلام: «العلماء باقون ما بقي الدهر»(٣).

وقال المتنبي:

ذِكْرُ الفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ ... مَا قَاتَهُ وفُضُولِ العَيْشِ أَشْغَالُ(٤)

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ١٥٥ ح٢٨٧٥)، وأحمد (٢/ ٤١٢ ح٩٣٣٤)، والبيهقي (٢/ ٣٧٥)، والطبري (٩/ ٢١٤).

(٢) في الأصل: أو الإقران. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٨٠)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦/ ٣٧٩).

(٤) البيت للمتنبي. وهو في: قرى الضيف (١/ ٢٥٨).

ولأجل ما فات من ذلك؛ سُمّي الكافر ميتاً، وسُمّي الجاهل ميتاً. قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ [الروم:٥٢].

وقال بعضهم:

لا تعجبنَّ الجَهُولَ حلتهُ فَذَاكَ مَيْتٌ وَثَوْبُهُ كَفَنُ[(١)]

وإن كان الذي يدعوهم إليه الجهاد فهو حياة؛ لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وهو حياة لهم لما يستلزم من حياة أمرهم ونفوسهم؛ لأنهم لو تخاذلوا عن الجهاد وتقاعدوا عنه تسلط العدو على قتلهم وأسرهم وإماتة أمرهم وكسرهم.

قال علي عليه السلام: إن الجهاد بابٌ من أبوابٌ الدِّين، من تركه رغبة عنه ألبسه الله سيما الذل وديَّثَه[(٢)] بالصَّغار[(٣)].

قوله تعالى: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ فهو الذي حال بين قلوب الكفار والأمن، وبين قلوبكم أيها المؤمنون وبين الخوف، حتى دلفتم مع ضعفكم وقلة عَددكم وعُددكم إلى صناديد قريش واجترأتم عليهم تقتلون وتأسرون.

قال ابن عباس وأكثر المفسرين: المعنى: يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان[(٤)].

---

(١) انظر البيت في: البحر المحيط (٤/ ٤٧٦)، والكشاف (٢/ ٢٠٠)، وروح المعاني (٩/ ١٩١).

(٢) ديثه: أي: ذلَّله (اللسان، مادة: ديث).

(٣) أخرج نحوه الضياء في الأحاديث المختارة مرفوعاً من حديث عبادة بن الصامت (٨/ ٢٨٠ ح٣٤٣).

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٠)، والحاكم موقوفاً (٢/ ٣٥٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٤) وعزاه لابن أبي شيبة وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والحاكم وصححه عن ابن عباس.

وقيل: إن ذلك استعارة من قربه سبحانه وتعالى من عباده بعلمه، كما قال تعالى: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ [ق:١٦]. وقال تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ [الحديد:٤].

وقيل: هو تقليب قلوب العباد ما بين خوف وأمن، وحل وعزم، وذكر ونسيان، وكفر وإيمان، وغير ذلك من الأحوال المتناقضة.

ثم حرّضهم على الإجابة معلماً لهم أنهم يموتون ثم ينشرون فقال: ﴿وأنه إليه تحشرون﴾.

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة﴾ أي: احذروا ما ينشأ عن الخلاف وافتراق الكلمة من القتل وغيره.

قال الزبير رضي الله عنه: لقد قرأناها زماناً وما ندري أنا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها(١).

وقال الحسن: نزلت في علي وعمار وطلحة والزبير(٢).

قال السدي: أصابتهم الفتنة يوم الجمل(٣).

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٦) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٨).

(٣) مثل السابق.

﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ بل تشمل الصالح والطالح، وكأن المراد قتل الذين ظلموا وأفسدوا في الأرض بقتل الإمام العادل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فعظمت البلوى وعمّت الفتنة، وأفضت الحال إلى قتل خيار المسلمين والملأ من أصحاب رسول الله ﷺ كطلحة والزبير ومحمد بن طلحة المعروف بالسَّجاد(١).

وكان علي عليه السلام يقول في ذلك اليوم: إياكم وصاحب البرنس -يريد السَّجاد-. فكان إذا حمل عليه أحد يقول: نشدتك بحم، فيرجع، حتى حمل عليه بعضهم فناشده فلم يرجع، وأنفذه بالرمح، وأنشد(٢):

وأشعثُ قوَّام بآيات ربه ... قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
يناشدني حم والرمح شاجر ... فهلا تلا حم قبل التقدم
ضممت إليه بالقناة ثيابه ... فخرَّ صريعاً لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعاً ... علياً ومن لم يتبع الحق يظلم

---

(١) محمد بن طلحة بن عبيد الله القرشي التيمي، أبو سليمان، المعروف بالسَّجَّاد؛ لكثرة تعبّده، ولد في حياة النبي ﷺ وسماه باسمه، قتل يوم الجمل سنة ست وثلاثين (الإصابة ٦/ ١٨، والأعلام ٦/ ١٧٥).

(٢) يقال: أن قاتل محمد بن طلحة رجل من بني أسد بن خزيمة، ويقال إن الذي قتله ابن مكيس الأزدي، وقال بعضهم: معاوية بن شداد العبسي، وقال بعضهم: عصام بن المقشعر النصري (انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ١/ ٣١٣).
وانظر الأبيات في: الاستيعاب (٣/ ١٣٧٢)، وطبقات ابن سعد (٥/ ٥٤)، والمغني (٩/ ٦)، وتاريخ الطبري (٣/ ٥١).

فلما وقف علي عليه السلام عليه صريعاً بكى واسترجع، وقال: والله هذا فزع قريش[(١)].

فإن قيل: هل تجد في قوله: ﴿لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ معنًى اقتضاه التعيين بقوله: "منكم"؟

قلت: نعم. وهو التعريض بتعظيم ما عساه أن يصدر من السادة القادة، بُدور الهدى وبحور الندى رضي الله عنهم، فإنهم لموضع اختصاصهم وظهور فضلهم وشرفهم يُستعظم منهم ما يصدر عنهم.

كفوفة الطرف تخفي من حقارتها ومثلها في سواد العين منظور[(٢)]

وقال ابن عباس: في هذه الآية أمرٌ للمؤمنين أن لا يقرّوا المنكر بين أظهرهم فيعمّهم الله بالعذاب[(٣)].

وفي مسند الإمام أحمد والصحيحين من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على أعمالهم»[(٤)].

فعلى هذا القول؛ يكون المراد بالفتنة: العذاب.

---

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٤٢٣ ح٥٦٠٩)، والاستيعاب (٣/ ١٣٧٢).

(٢) البيت لطاهر بن الحسين المخزومي البصري. وهو في: قرى الضيف (٥/ ٢٩)، ويتيمة الدهر للثعالبي، وزهر الأكم في الأمثال والحكم، وفيهم: كفوفة الظفر.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢١٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٠٢ ح٦٦٩١)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٦ ح٢٨٧٩)، وأحمد (٢/ ٤٠ ح٤٩٨٥، ٢/ ١١٠ ح٥٨٩٠).

فإن قيل: كيف دخلت النون المؤكدة في جواب الأمر؟

قلت: لتضمن الجواب معنى النهي.

قال الفراء[١]: هو جزاء فيه طرف من النهي، كما تقول: انزل عن الدابة لا تطرحك ولا تطرحنك.

وقال جماعة من نحاة الكوفة: أمرهم ثم نهاهم، وفيه طرفٌ من الجزاء وإن كان نهياً، مثل قوله: ﴿يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم﴾ [النمل:١٨][٢].

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ثم إن الله تعالى ذَكَّرَهُم نِعَمَهُ عليهم ليبعثهم على شكره باجتناب نهيه وامتثال أمره فقال: ﴿واذكروا إذ أنتم قليل﴾ "إذ أنتم" مفعول به لا ظرف[٣]، تقديره: واذكروا وقت كونكم أقلّة. والمعنى: قليل عددكم، ﴿مستضعفون في الأرض﴾ يعني: أرض مكة، ﴿تخافون﴾ لقلّتكم وضعفكم ﴿أن يتخطفكم الناس﴾ كفار قريش وغيرهم، ﴿فآواكم﴾ إلى المدينة، ﴿وأيدكم بنصره﴾ في يوم بدر وغيره، حتى خضعت لكم رقاب الفراعنة والجبابرة، وعنت لكم وجوه الأكاسرة والأقاصرة، ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أحلّ لكم الغنائم وبسط لكم في الملاذّ.

---

(١) معاني الفراء (١/ ٤٠٧).

(٢) انظر: الطبري (٩/ ٢١٩)، وزاد المسير (٣/ ٣٤١).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٤١٣).

قال قتادة: كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس وأشقاهم عيشاً، وأعراهم جلداً، وأجوعهم بطناً، وأبينهم ضلالاً، يُؤكلون ولا يأكلون، ومَكَّنَ لهم في البلاد، ووَسَّعَ لهم الرزق والغنائم، وجعلهم ملوكاً[1].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿لا تخونوا الله والرسول... الآية﴾ ذهب ابن عباس والأكثرون إلى أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر. وكان من قصته على ما حدثنيه شيخنا موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي -قدّس الله روحه- بإسناده، عن السائب بن أبي لبابة، عن أبيه قال: «لما أرسلت قريظة إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يرسلني إليهم حين اشتدّ عليهم الحصر، فقال رسول الله ﷺ: اذهب إلى حلفائكم، فإنهم أرسلوا إليك من بين الأوس. قال: فدخلتُ عليهم فبَهَشُوا إليّ[2] وقالوا: يا أبا لبابة، نحن مواليك دون الناس كلهم، ومحمد يأبى أن يفارق حصننا حتى ننزل على حكمه، فلو زال عنا لحقنا بأرض الشام أو خيبر ولم نُكَثّر عليه جمعاً أبداً، فما ترى في النزول على حكمه؟ قال: نعم فانزلوا، وأومأ إلى حلقه هو الذبح. قال: فندمت واسترجعت، وقلت: خنت الله ورسوله، فنزلت

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٧) وعزاه لابن المنذر وابن جرير وأبي الشيخ.

(٢) بَهَشُوا: أي: أقبلوا (اللسان، مادة: بهش).

وإن لحيتي مبتلة بالدموع، والناس [ينتظرون][(١)] رجوعي، فأخذت من وراء الحصن طريقاً آخر حتى أتيت المسجد [فارتبطت][(٢)]، وقال: لا أزال هكذا أو يتوب الله عليّ. قال: فمكث سبعاً في حرّ شديد لا يأكل ولا يشرب حتى لا يسمع الصوت من الجهد. فلما تاب الله عليه أمر رسول الله ﷺ بإطلاقه، فقال: لا والله حتى أفارق الدنيا أو يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقه بيده.

قال: قالت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ يحلّ رباطه ويرفع صوته يخبره بتوبته، وما يدري كثيراً مما يقول من الجهد والضعف، وكان الرباط حزَّ في ذراعيه -وكان من شَعْر- فكان يداويه بعد ذلك دهراً»[(٣)].

وقال جابر بن عبدالله: نزلت في رجل من المنافقين كتب إلى أبي سفيان: أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم، وكان النبي ﷺ سمع أنه في مكان، فأمر أصحابه بالخروج إليه[(٤)].

وقال السدي: نزلت في قوم كانوا يسمعون الحديث من رسول الله ﷺ فيفشونه حتى يبلغ إلى المشركين[(٥)].

---

(١) في الأصل: ينظرون. والتصويب من مصادر التخريج.

(٢) في الأصل: فأرتبط.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٤). وانظر: سيرة ابن هشام (٤/ ١٩٦)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٨-٢٣٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٤٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤٤).

وقال المغيرة بن شعبة: نزلت في قتل عثمان بن عفان[١].

والمعنى: لا تخونوا الله والرسول بقتله.

﴿وتخونوا أماناتكم﴾ داخلٌ في جملة النهي، فهو مجزوم لا منصوب[٢].

وقيل: هو منصوب بإضمار "أَنْ"، كقوله: ﴿وتكتموا الحق﴾[٣] [البقرة:٤٢]، والمعنى: لا تخونوا الله فيما ائتمنكم عليه من دين الحق، ﴿وأنتم تعلمون﴾ أنها خيانة، أو تعلمون قبح ذلك. فيكون الإثم أعظم. والواو في "وأنتم" للحال[٤].

﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ أي: بلاء ومحنة، وكان أهل أبي لبابة وولده في بني قريظة، فلذلك تورّط في الخيانة التي كادت تورده المهالك، لولا أن تداركته رحمة الله تعالى، [فاستنقذته][٥] بالتوبة والندم.

﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾ في الحال والمآل، فلا يصدنكم عنه حب المال والآل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿إن تتقوا الله﴾ يعني: بترك معاصيه، ﴿يجعل لكم فرقاناً﴾ نوراً وهدى في قلوبكم تفرّقون به بين الحق والباطل.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٠) وعزاه لابن جرير.

(٢) التبيان (٢/ ٦)، والدر المصون (٣/ ٤١٤).

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٤١٤).

(٤) مثل السابق.

(٥) في الأصل: فاستنقذه.

قال ابن عباس ومجاهد: نجاة ومخرجاً من الضلال(١). وينظر إلى هـذا المعنـى قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت:٦٩].

فمتى كان مقصود الإنسان طلب الهدى ومجانبة الهوى أتته الألطاف الخفيـة، وفاضت عليه الأسرار الإلهية، وضاءت له الأنوار الربانية، فجلت عن مرار قلبه الظلمة الصادّة عن إدراك الأشياء على حقائقها.

حدثنا شيخنا الإمام موفق الدين عبدالله بن أحمد قال: قرأت على الـشيخ أبي عبدالله مظفر بن أبي نصر البواب وابنه أبي محمد عبدالله بن مظفر ببغداد قلت لهما: حدثكما الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر السلامي(٢) قال: كنـت أسـمع الفقهاء بالنظامية(٣) يقولون: إن القرآن معنى قائم بالذات والحروف، والأصوات

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٦)، ومجاهد في تفسيره (ص:٢٦١) ولفظه: مخرجاً في الدنيا والآخرة. وذكـره ابـن الجـوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤٦)، والـسيوطي في الـدر (٤/ ٥٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن مجاهد، وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٢) محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر، الحافظ الإمام، محدث العراق، أبو الفضل السلامي. ولد سنة سبع وستين وأربعمائة، وبرع في اللغة، وحصل الفقه والنحو، وكان ثقةً حافظاً ضـابطاً، ثبتـاً متقناً، من أهل السنة، رأساً في اللغة، أخذ عنه ابن الجوزي علم الحديث، وكان شافعياً ثم تحنبـل، وهو مقدم أصحاب الحديث في بغداد في وقته. مات في ثاني عشر شعبان سـنة خمـسين وخمـسمائة (طبقات الحفاظ ص:٤٦٧).

(٣) المدرسة النظامية: أنشأها ببغداد أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس، الملقب نظام الملك قوام الدين الطوسي وزير السلطانين ألب أرسلان وولده ملكشاه السلجوقيين سنة ٤٥٧هـ وفي سنة ٤٦٢هـ أوقف عليها أوقافاً جليلة، وكانت مفخرة للإسلام، درّس فيها أعيان العلماء والأئمة =

عبارات ودلالات على الكلام القديم القائم بالذات، فحصل في قلبي شيء من ذلك، حتى صرت أقول بقولهم موافقة، وكنت إذا صليت أدعو الله عز وجل أن يوفقني لأحب المذاهب والاعتقادات إليه، وبقيت على ذلك مدة طويلة [أقول: اللهم وفقني لأحب المذاهب إليك وأقربها عندك][(١)]. فلما كان في أول ليلة من رجب سنة أربع وتسعين وأربعمائة، رأيت في المنام كأني قد جئت إلى مسجد الشيخ أبي منصور الخياط[(٢)] المقرئ في مسجد ابن جردة، والناس على باب المسجد مجتمعون وهم يقولون: النبي ﷺ عند الشيخ أبي منصور، فدخلت المسجد وقصدت الزاوية التي كان يجلس فيها الشيخ أبو منصور، فرأيت الشيخ أبا منصور قد خرج من زاويته وجلس بين يدي شخص، فما رأيت شخصاً أحسن منه، على نعت النبي ﷺ الذي وصف لنا، وعليه ثياب ما رأيت أشد بياضاً منها، وعلى رأسه عمامة بيضاء، والشيخ أبو منصور مقبل عليه بوجهه، فدخلت فسلمت [فرد عليّ السلام، ولم أتحقق من الرادّ عليّ لدهشتي برؤية النبي ﷺ][(٣)]، وجلست بين أيديهما،

= من رجال المذهب الشافعي (هامش العقد الثمين ٧/ ٣٠، وهامش إتحاف الورى ٢/ ٤٩٧، وهامش غاية المرام ١/ ٥١٨).

(١) زيادة من التوابين (ص:٢٣١).

(٢) محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرزاق الشيرازي الأصل المقرئ، المعروف بأبي منصور الخياط. كان يؤم بمسجد ابن جردة ببغداد، اعتكف فيه مدة يعلم العميان القرآن، وختم خلقاً كثيراً، حتى بلغ عدد من أقرأهم القرآن سبعين ألفاً. كان من كبار الصالحين الزاهدين المتعبدين، شيخاً صالحاً زاهداً، صائماً أكثر وقته، ولد سنة إحدى وأربعمائة، وتوفي يوم الأربعاء وقت الظهر السادس عشر من المحرم سنة تسع وتسعين وأربعمائة (المقصد الأرشد ٢/ ٣٤٤-٣٤٥، والتقييد ص:٥٤).

(٣) زيادة من التوابين (ص:٢٣٢).

فالتفت إليّ رسول الله ﷺ من غير أن أسأله عن شيء أو أستفتحه بكلام أصلاً وقال لي: عليك بمذهب هذا الشيخ، عليك بمذهب هذا الشيخ، عليك بمذهب هذا الشيخ -ثلاثاً-.

قال الحافظ أبو الفضل: وأنا أقسم بالله ثلاثاً وأشهد بالله لقد قال لي ذلك رسول الله ﷺ ثلاثاً، ويشير في كل مرة بيده اليمنى إلى الشيخ أبي منصور.

قال: فانتبهت وأعضائي ترعد، فناديت والدتي رابعة بنت الشيخ أبي حكيم [الخبري][(١)] وحكيت لها ما رأيت، فقالت: يا بني هذا منام وحي، فاعتمد عليه. فلما أصبحت بكرت إلى الصلاة خلف الشيخ أبي منصور، فلما صلينا الصبح قصصت عليه المنام، فدمعت عيناه وخشع قلبه [وقال لي: يا بني مذهب الشافعي حسن، فتكون على مذهب الشافعي في الفروع وعلى مذهب أحمد وأصحاب الحديث في الأصول][(٢)]، فقلت: يا سيدي! أنا أُشهد الله وملائكته وأنبياءه وأشهدك على أني منذ اليوم لا أعتقد ولا أدين الله ولا أعتمد إلا على مذهب أحمد رضي الله [عنه][(٣)] في الأصول والفروع، فقبّل الشيخ أبو منصور رأسي وقال: وفقك الله، فقبّلت يده.

وقال لي الشيخ أبو منصور: وأنا كنت في ابتدائي شافعياً، وكنت أتفقه على القاضي أبي الطيب الطبري وأسمع الخلاف عليه، فحضرت يوماً عند الشيخ أبي الحسن علي بن عمر القزويني الزاهد الصالح لأقرأ عليه القرآن، فابتدأت أقرأ

---

(١) في الأصل: الخيري. والتصويب من التوابين (ص:٢٣٢).

(٢) زيادة من التوابين (ص:٢٣٣).

(٣) زيادة على الأصل.

عليه، فقطع عليّ القراءة مرة أو مرتين ثم قال: قالوا وقلنا، وقلنا وقالوا، فلا هم يرجعون إلينا في قولنا ولا نحن نرجع إليهم، فأي فائدة في هذا. ثم كرر عليّ الكلام، فقلت في نفسي: والله ما عنى الشيخ بهذا أحداً غيري. فتركت الاشتغال بالخلاف، وقرأت مختصر أبي القاسم الخرقي.

قال الحافظ: ورأيت بعد ذلك ما زادني يقيناً وعلمت أن ذلك [تثبيت][1] من الله عز وجل لي وتعليم؛ لأعرف حق نعمة الله عليّ وأشكره، إذ أنقذني من اعتقاد البدعة إلى اعتقاد السنة، والله المسؤول الخاتمة بالموت على الإسلام والسنة[2].

حدثنا الشيخ الصالح أبو حفص عمر بن أبي الرضي المعروف بابن زريق الشحام قال: سمعت الشيخ أبا أحمد عبدالله بن المثنى، المعروف بابن الحداد -وكان من خيار عباد الله علماً وعملاً وزهداً وورعاً، وكان في عنفوان شبابه من غلاة الأشاعرة والدعاة إلى مذهبهم مصنفاً فيه-، يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله، كثرت البدع والأهواء، فبمن نقتدي؟ فقال: عليك بأحمد، عليك بأحمد، فأصبح تائباً إلى الله مما كان عليه، معتقداً مذهب الإمام أحمد، داعياً إليه، واتخذ الفضيلة مسكناً، وانقطع إلى العبادة، وعزفت نفسه عن الدنيا وأهلها، وصنَّف في السُّنَّة كُتباً، وكان ذا كرامات ظاهرة.

وكتب إلى المستضيء بأمر الله كتاباً بالغاً يَعِظُهُ فيه وخوّفه، قال: فبلغنا أن المستضيء قرأ منه أسطراً ثم طواه، فقيل له في ذلك فقال: رأيت كلام رجل صادق، فخفت أن أقف منه على ما أعجز عن العمل به، فتتأكد حجة الله عليّ، فتركته.

---

(١) في الأصل: تثبت. والتصويب من التوابين (ص:٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن قدامة في التوابين (ص:٢٣١-٢٣٥).

وكان ملوك الموصل وأمراؤها وكبراؤها يغشونه ويترددون إليه، فكان عامة ما يكلم الناس به؛ الأمر بعقيدة الإمام أحمد، والنهي عن مذهب الأشعري. وحاله مشهورة بذلك.

ولما فرغ من عمارة الجامع النوري بالموصل ضُرِعَ إليه في الخطابة به فلم يفعل، فسألوه أن يخطب به جمعة واحدة، فرقى المنبر وخطب وأحسن، فلما انتهى إلى الدعاء قال: اللهم أصلح الإمام والأمة، والراعي والرعية، ثم نزل.

قال الشيخ عمر: فسمعته يوماً يقول: رأيت بعد ذلك النبي ﷺ في المنام، فقلت له: يا رسول الله! ألست على الحق؟ أليس الذي أدعو إليه الحق؟ فقال: بلى، بلى، بلى.

وسمعت عماد الدين عبدالرحمن بن الشيخ شهاب الدين محمود بن بلدحي مدرس الحنفية بالموصل وابن مدرّسها يقول: سمعت أبي رحمه الله يقول -وكان متمسكاً بعقيدة الإمام أحمد متنسكاً بها، وكان من أصحاب الفقه والحديث رحمه الله، وكان مبايناً لما عليه عامة المتفقهة في هذا الزمان-: حججت فلما زرت النبي ﷺ نمتُ في الروضة، فرأيته ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! دلني على عقيدة أهل الحق؟ قال: هي ما أنت عليه من عقيدة أصحاب الحديث. فكان بعد ذلك يفتي الناس بها ويدعوهم إليها.

أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي قتادة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رآني في النوم فقد رأى الحق»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٦٨ ح٦٥٩٥)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦ ح٢٢٦٧).

وصح من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي»(١).

فصل

وكم من كافر أفضى به حسن القصد في الطلب إلى دين الحق، ولقد كنتُ أعرف رجلاً من أهل ماردين غالياً في دين النصرانية، شديد الشكيمة في التمسك به، ثم رأيته بعد ذلك في دمشق حافظاً لكتاب الله وكثير من سُنَّة رسوله ﷺ، فسألته عن حاله، فقال: إني سكنت منزلاً قريباً من جامع دمشق، فكنت أسمع المؤذنين وقراءتهم القرآن بالأسحار، فنوّر الله الإيمان في قلبي، وكرّه إليّ الكفر ذات ليلة، فأسلمت من حيث لا يشعر بي أحد سوى الله تعالى. فلما أصبحت قصدت موضعاً من المواضع التي يتطهر المسلمون فيها للصلاة فتوضأت مثل ما رأيتهم يتوضؤون، ثم دخلت الجامع فصليت الصبح مع المسلمين، ثم خرجت إلى زيارة بيت المقدس، فقيّض لي رجل مغربي فقذف في قلبي شيء من البدعة وأنا حديث عهد بالإسلام لا علم لي بذلك، وكان يحذرني من أصحاب الإمام أحمد.

ثم اختار الله لي ثانياً كما اختار لي أولاً، فألهمني زيارة الحافظ أبي موسى عبدالله بن الحافظ عبدالغني المقدسي -وكان إذ ذاك يصلي إماماً بمهد عيسى بالمسجد الأقصى شرفه الله-، فلما رأيت هديه وسَمْتَهُ وسمعت قراءته للحديث، ألقى الله حبه في قلبي فلزمته، وقرأت عليه طرفاً من حديث رسول الله ﷺ، وفارقت تلك البدعة، ودنت الله بمذهب الإمام أحمد وأصحاب الحديث ولله الحمد. فقلت له:

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٦٨ ح٦٥٩٣)، ومسلم (٤/ ١٧٧٥ ح٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة.

ألا قد تم هلال العلا وصار في مطلعه بدرا

فسبحان من إذا أنعم أمعن وأنعم، بَيْنَا هذا يدين بالتثليث أصبح من أهل القرآن والحديث.

سمعت شيخنا السعيد شيخ الإسلام موفق الدين المقدسي يقول: أنبأنا الحافظ أبو طاهر السلفي، أخبرنا أبو الحسين بن [الطيوري][(١)]، أخبرنا عبدالعزيز بن علي، أخبرنا علي بن عبدالله الصوفي، حدثنا محمد بن داود، حدثني حامد الأسود صاحب إبراهيم الخواص، قال: كان إبراهيم إذا أراد سفراً لم يحدث به أحداً ولم يذكره، وإنما يأخذ رَكْوَته[(٢)] ويمشي، فبينا نحن معه في مسجده تناول ركوته ومشى فاتبعته، فلم يكلمني حتى وافينا الكوفة، فأقام بها يومه وليلته، ثم خرج نحو القادسية، فلما وافاها قال لي: يا حامد! إلى أين؟ قلت: يا سيدي خرجت لخروجك، قال: أنا أريد مكة. قلت: وأنا إن شاء الله أريد مكة، فمشينا يومنا وليلتنا. فلما كان بعد أيام إذا شابٌّ قد انضم إلينا في بعض الطريق، فمشى معي يوماً وليلة لا يسجد لله سجدة، فعرّفت إبراهيم وقلت: إن هذا الغلام لا يصلي، فجلس وقال له: يا غلام ما لك لا تصلي، والصلاة أوجب عليك من الحج، فقال: يا شيخ ما عليّ صلاة. قال: ألست برجل مسلم؟ قال: لا. قال: فأي شيء أنت؟ قال: نصراني، ولكن إشارتي في النصرانية إلى التوكل، وادّعت نفسي أنها قد أحكمت حال التوكل، فلم أصدقها [فيما ادعت][(٣)] حتى أخرجتها إلى هذه الفلاة

---

(١) في الأصل: الطوري. والتصويب من التوابين (ص:٢٩٨).

(٢) الرَّكْوَة: إناء صغير من جِلْد يُشرب فيه الماء. والجمع: رَكَوات (اللسان، مادة: ركا).

(٣) زيادة من التوابين (ص:٢٩٩).

التي ليس فيها موجود غير المعبود، أثير ساكني وأمتحن خاطري، فقام إبراهيم ومشى وقال: دعه يكون معك، فلم يزل يسايرنا إلى بطن مَرّ، فقام إبراهيم ونزع خلقانه وطهرها بالماء، ثم جلس، وقال له: ما اسمك؟ قال: عبد المسيح، فقال: يا عبد المسيح، هذا دهليز مكة، وقد حرّم الله على أمثالك الدخول إليه، وقرأ: ﴿إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ [التوبة:٢٨]، والذي أردتَ أن تستكشف من نفسك فقد بان لك، فاحذر أن تدخل مكة، فإن رأيناك بمكة أنكرنا عليك.

قال حامد: فتركناه ودخلنا مكة، وخرجنا إلى الموقف، فبينا نحن جلوس بعرفات إذا هو قد أقبل وعليه ثوبان وهو محرم يتصفّح الوجوه، حتى وقف علينا، فأكبّ على إبراهيم يقبّل رأسه، فقال له: ما وراءك يا عبد المسيح؟ فقال: هيهات، أنا اليوم عبدُ مَنِ المسيحُ عبده، فقال له إبراهيم: حدثني حديثك. فقال: جلست مكاني حتى أقبلت قافلة الحاج، فقمت وتنكرت في زي المسلمين كأني محرم، فساعة وقعت عيني على الكعبة اضمحلّ عندي كل دين سوى الإسلام، فأسلمت واغتسلت وأحرمت، وها أنا أطلبك يومي. فالتفت إلينا إبراهيم وقال: يا حامد، انظر إلى بركة الصدق في النصرانية كيف هداه إلى الإسلام، وصحبنا حتى مات بين الفقراء، رحمه الله[1].

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

---

(١) أخرجه ابن قدامة في التوابين (ص:٢٩٨-٣٠٠).

قوله تعالى: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ قد روي عن ابن عباس: أن من هاهنا إلى رأس الآية السابعة مما نزل بمكة، وغيره لم يستثن شيئاً وجعلها كلها مدنية[1].

على معنى: اذكر يا محمد اليوم إذ يمكر بك كفار قريش وأنت بمكة خائفاً. والمراد من ذلك: تنبيهه ﷺ على ما أتاح له بعد ذلك من النصر والاستيلاء على الذين مكروا به، حتى صار من أبقت سيوفه منهم في قبضته وأسره، وتحت حكمه وسلطانه.

الإشارة إلى قصتهم:

قال ابن عباس وغيره: لما بويع رسول الله ﷺ ليلة العقبة وأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، خافت قريش من استفحال أمره وحدة شوكته، وقال بعضهم لبعض: والله لكأنكم به وقد كرّ عليكم بالرجال. واجتمعوا للمشورة في دار الندوة، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ كبير فقالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد، بلغني ما اجتمعتم له، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً، فقالوا: ادخل. فدخل معهم، فقالوا: انظروا في أمر هذا الرجل، فقال أبو البختري: رأيي أن تحبسوه في بيت وتشدّوا وثاقه وتسدّوا بابه غير كوة تلقون منها إليه طعامه وشرابه وتتربصون به ريب المنون. قال إبليس: ما هذا برأي، يوشك أن يثب أصحابه فيأخذوه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو -من بني عامر بن لؤي-: أما أنا فأرى أن تحملوه من بين أظهركم، فلا يضرّكم ما صنع ولا أين وقع. فقال

(١) الماوردي (٢/ ٢٩٢)، وزاد المسير (٣/ ٣١٦).

إبليس: بئس الرأي، تعمدون إلى رجل أفسد سفهاءكم فتخرجونه إلى غيركم فيفسدهم كما أفسدكم، ألم تروا حلاوة منطقه وطلاقة لسانه، فوالله لئن فعلتم ليجمعنّ عليكم ثم ليسيرنّ إليكم. قالوا: صدق والله الشيخ. فقال أبو جهل لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأي ما أرى غيره، إني أرى أن تأخذوا من كل بطن من قريش غلاماً وتعطوه سيفاً، ثم تضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا أظن هذا الحي من قريش -يعني بني هاشم- يقوى على حرب قريش كلها، فيقبلون العقْل[1] ونستريح. فقال إبليس: صدق هذا الفتى، وهو أجودكم رأياً، فتفرقوا على هذا الرأي. وأتى جبريل النبي ﷺ فأخبره بذلك، وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له بالخروج إلى المدينة، وأمر علياً بالمبيت في مضجعه، وخلفه بمكة ليؤدي عنه الودائع التي توضع عنده لصدقه وأمانته، وخرج ﷺ مهاجراً هو وأبو بكر رضي الله عنه، وبات المشركون يحرسون علياً ظناً منهم أنه رسول الله ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ليقتلوه. فلما رأوا علياً قالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره حين سمعوا الهاتف يقول[2]:

جزى الله رب الناس خير جزائه ... رفيقين حلاّ خيمتي أم معبد

هما نزلا بالهدى واهتدت به ... لقد فاز من أمسى رفيق محمد

فيا لقصي ما زوى الله عنكم ... به من فعال لا يجارى وسؤدد

---

(١) أي: الدية.

(٢) انظر الأبيات في: المستدرك (٣/ ١١)، ومجمع الزوائد (٦/ ٥٧)، وصفة الصفوة (١/ ١٤١)، والاستيعاب (٤/ ١٩٦٠)، وطبقات ابن سعد (١/ ٢٣١).

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها ... فإنكموا إن تسألوا الشاة تشهد

دَعاها بشاةٍ حَائلٍ فَتحَلَّبَتْ ... لهُ بِصَريحٍ ضَرَّةُ الشاةِ مُزْبِدِ

فغادرها رهناً لديها لحالب ... يرددها في مصدرٍ ثم مورد

فلما أتوا على أم معبد قالوا: مَرَّ بك الصابئ؟ قالت: الصابئ ما مرّ بي. وكانت قد أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ حين رأت معجزاته ﷺ، ولو قدر لهم أن يسألوا الشاة لشهدت، ولكن الله عمى عليهم وأضلهم عن طريق الرسول ﷺ والوصول إلى رسوله. فلما أتوا الجبل مرّوا بالغار الذي فيه رسول الله ﷺ وقد نسج عليه العنكبوت، فقال أبو بكر: يا رسول الله لو أنّ أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. قال: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما. فلما رأوا نسج العنكبوت قالوا: هذا قبل أن يخلق محمد، فرجعوا عنه(١).

قال ابن عباس: ليثبتوك في الوثاق(٢).

وقال عطاء: في السجن(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٤٨)، وعبد الرزاق (٥/ ٣٨٩-٣٩٠)، والطبراني في الكبير (١١/ ٤٠٧)، والطبري (٩/ ٢٢٧-٢٢٨)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (١٣/ ١٩١). وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٦-٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٠-٥١) وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه وأبي نعيم في الدلائل والخطيب.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٣) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢٢٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٨). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٤٨).

وقرأ إبراهيم النخعي: "لِيُبَيِّتوك"[(١)]، من البيَات، أي: ليأخذوك ليلاً.

﴿ويمكرون﴾ يخفون المكائد لك. وقد سبق تفسيره في آل عمران[(٢)].

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ أي: إذا قرأت على قريش آيات القرآن ﴿قالوا قد سمعنا﴾؛ ذكر الماوردي والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي[(٣)] في معناها قولين:

أحدهما: سمعنا قولك ولا نطيعك.

والثاني: سمعنا قبل هذا مثله.

ويظهر عندي: أن مقصودهم بهذا القول: إظهار التبرم بسماع القرآن إيهاماً للطغام الأغمار أنه إفك مفترى وحديث مختلق، وتحقيراً لشأنه عندهم. وكذلك قالوا: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وهو كلام يستخفون به أحلام السفهاء بينهم، وإلا فما بال الفصحاء الخطباء من العرب العرباء مع فرط أنفتهم، وشدة حميتهم،

---

(١) انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٨١).

(٢) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ [الآية: ٥٤].

(٣) الماوردي (٢/ ٣١٣)، وزاد المسير (٣/ ٣٤٨).

وحرصهم على إطفاء نور المبعوث بتضليل آبائهم، وتسفيه أحلامهم وآرائهم، وسبِّ آلهتهم، يتحداهم باقتضاب سورة مثله، ويسجل عليهم بالعجز في قوله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ [الإسراء:٨٨]، ثم يضربون عن ذلك صفحاً، هذا مع قدرتهم على المعارضة والمناقضة، لا والله ما ذاك إلا القصور الناسوتي أو العرف اللاهوتي.

هذا الوليد بن المغيرة المخزومي مع براعته وشجاعته وإبائه بأبنائه وآبائه [لم][(١)] يجد بداً من الاستسلام لأمر الرسول ﷺ، حتى قال وهو من أشد العرب شكيمة في عداوة الرسول ﷺ: لقد وضعت قوله على أقراء الشعر، فما رأيته يلتئم بها، والله إن لقوله حلاوة، وإن عليه طلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يَعلو ولا يُعلى.

وشمائل شهد العدو بفضلها والفضل ما شهدت به الأعداء

والمشهور في التفسير أن القائل: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ النضر بن الحارث، المقتول صبراً بالصفراء[(٢)] يوم بدر، وكان كثير الاختلاف إلى فارس والحيرة، وكان يتبع أخبار رستم واسفنديار، وكان يسمع قراءة أهل الكتاب ويرى صلاتهم، واشترى كليلة ودِمنة، وكان يقعد مع المستهزئين ويقرأ عليهم من ذلك. فلما سمع

---

(١) زيادة على الأصل.

(٢) الصفراء: قرية كثيرة النخل والمزارع، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة (معجم البلدان ٣/ ٤١٢).

اقتصاص الله أخبار القرون الماضية قال: لو شئت لقلت مثل هذا، فنزلت هذه الآية[١].

وهو القائل أيضاً: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر ... الآية﴾ في قول ابن عباس وأكثر المفسرين[٢].

ولا منافاة بين هذا القول وبين ما أخرج في الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ... الآية﴾ فأنزل الله: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ... الآية﴾، فلما أخرجوه نزلت: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله ... الآية﴾[٣] لجواز نزولها بسبب قولهما.

والإشارة بقولهم: ﴿إن كان هذا﴾ إلى القرآن، وهو كلام ينبئ باستحكام الجحود واستيلائه على قلوب قائليه.

﴿فأمطر علينا حجارة﴾ يعنون: كما أمطرت على أصحاب الفيل، ولذلك قالوا: ﴿من السماء﴾، ﴿أو ائتنا بعذاب أليم﴾ أي: بنوع آخر من العذاب غير الحجارة.

قال صاحب الكشاف[٤]: هذا أسلوب من الجحود بليغ، يعني: إن كان القرآن هو الحق فعاقبنا على إنكاره بالسِّجِّيل، كما فعلت بأصحاب الفيل، أو

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٣١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٨٩). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٥٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (٩/ ٢٣٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٠). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٣٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٥) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠٤-١٧٠٥ ح٤٣٧١ وح٤٣٧٢)، ومسلم (٤/ ٢١٥٤ ح٢٧٩٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

بعذاب آخر. ومراده نفي كونه حقاً، وإذا انتفى كونه حقاً [لم يستوجب منكره عذاباً، فكان تعليق العذاب بكونه حقاً][١] مع اعتقاد أنه ليس بحق، كتعليقه بالمحال في قولك: إن كان الباطل حقاً فأمطر علينا حجارة.

وقوله: ﴿الحق﴾ تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين: هذا هو الحق.

وقرأ الأعمش: "هو الحقُّ" بالرفع[٢]، على أن "هو" مبتدأ غير منفصل، وهي في القراءة الأولى فصل[٣].

يقال: [أمطرت][٤] السماء؛ كقولك: أسبلت، وأنجمت. ومطرت؛ كقولك: هتنت وهتلت، وقد كثر الإمطار بمعنى العذاب.

ومن الأجوبة السَّادَّة المسكتة ما يروى: أن معاوية قال لرجل من سبأ: ما كان أجهل قومك حيث قالوا: ﴿ربنا باعد بين أسفارنا﴾ [سبأ:١٩]، وحيث ملكوا أمرهم امرأة[٥]، فقال: أجهل من قومي قومك الذين قالوا حين دعاهم النبي ﷺ: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ... الآية﴾ ألا قالوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهْدِنا له[٦].

---

(١) زيادة من الكشاف (٢/ ٢٠٥).

(٢) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٤/ ٤٨٢)، والدر المصون (٣/ ٤١٤).

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٦)، والدر المصون (٣/ ٤١٤).

(٤) في الأصل: أطرت.

(٥) وهي بلقيس.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٥٦).

قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم﴾ يعني: المشركين الذين قالوا: ﴿أمطر علينا حجارة﴾، ﴿وأنت فيهم﴾ مقيم بين أظهرهم.

قال ابن عباس: لم تعذب قرية حتى يخرج النبي منها والذين آمنوا[١].

وفي قوله: ﴿وأنت فيهم﴾ تخويف لهم من انفصاله عنهم وإعلام لهم أنهم بعَرَضِيّة العذاب.

﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾ الواو في "وهم" واو الحال[٢].

ومعنى الكلام: ليسوا بمستغفرين فيستحقون العذاب. هذا قول قتادة واختيار أكثر اللغويين[٣].

والمشهور في التفسير أن المراد بالعذاب هاهنا: ما يجتاحهم ويستأصلهم، أي: ما كان الله ليفعل ذلك بهم وفي علمه أن فيهم من يؤول إلى الإسلام؛ كالحارث بن هشام، وحكيم بن حزام، وأن فيهم من سيلد مؤمناً مستغفراً.

وقال ابن الأنباري: المعنى: وما كان الله معذبهم والمؤمنون بين أظهرهم يستغفرون، فأوقع العموم على الخصوص، ووصفوا بصفة بعضهم. وهذان القولان مرويان عن ابن عباس[٤].

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٣٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٢)، والنحاس في ناسخه (ص:٤٦٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي في الدلائل.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٤١٦).

(٣) انظر: الطبري (٩/ ٢٣٦)، وزاد المسير (٣/ ٣٥١).

(٤) انظر: الطبري (٩/ ٢٣٥)، وزاد المسير (٣/ ٣٥٠-٣٥١).

والمراد بالاستغفار هاهنا: المعهود. وقيل: الصلاة. رويا عن ابن عباس(١).

وقيل: الإسلام. روي عن مجاهد(٢)، وبه قال عكرمة(٣).

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وما لهم أن لا يعذبهم الله﴾ أي: لم لا يعذبهم الله بالسيف.

وقال الزمخشري(٤): المعنى: أي شيء لهم من انتفاء العذاب عنهم. يعني: لا حظ لهم في ذلك، ﴿وهم﴾ [معذبون](٥) لا محالة، وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم ﴿يصدون﴾ المؤمنين ﴿عن المسجد الحرام﴾ ويمنعونهم زيارته والطواف به، ﴿وما كانوا أولياءه﴾ تكذيبٌ لهم في قولهم: نحن ولاة البيت، ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٣٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٢)، والنحاس في ناسخه (ص:٤٦٥) عن مجاهد. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٩) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه والبيهقي في الدلائل.

(٢) أخرجه مجاهد (ص:٢٦٢).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢٣٦-٢٣٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٥٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبي الشيخ عن مجاهد. ومن طريق آخر عن عكرمة، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير.

(٤) الكشاف (٢/ ٢٠٦).

(٥) في الأصل: يعذبون. والتصويب من الكشاف، الموضع السابق.

الذين يتقون الشرك والفواحش، ﴿ولكن أكثرهم﴾ يعني: أهل مكة ﴿لا يعلمون﴾ ذلك.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنهم بما يوجب نزع الولاية منهم فقال: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾ يقال: مَكا يَمْكُو مَكْواً ومُكاء. ومكاء -بالمد والقصر-: إذا جمع يديه وصَفَّرَ فيهما[١]، والتصدية: التصفيق، وهو ضرب اليد على اليد[٢].

قال ابن عمر: كانوا يطوفون بالبيت ويُصَفِّقُونَ ويُصَفِّرُونُ، ويضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية[٣].

وقال مقاتل[٤]: كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد الحرام، قام رَجُلان من بني عبد الدار عن يمينه يُصَفِّران، ورَجُلان عن شماله يُصَفِّقان، [ليخلطا][٥] على النبي ﷺ صلاته وقراءته، فقتلهم الله ببدر. فذلك قوله: ﴿فذقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾.

فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية﴾؟

قلت: موقع قول الفرزدق:

---

(١) انظر: اللسان (مادة: مكا).

(٢) انظر: اللسان (مادة: صدي).

(٣) أخرجه الطبري (٩/ ٢٤١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٦). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٤٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦١) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير.

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ١٦).

(٥) في الأصل: فتختط. والتصويب من تفسير مقاتل، الموضع السابق.

أَخَافُ زِياداً أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرا[١]

وقد سبق إنشاده في موضع آخر.

والأداهم: القيود، والمحدرجة: السياط. أي: أخاف أن يضع الأداهم والمحدرجة موضع العطاء.

وموقع الآخر:

قلت [له][٢] أطعمني عميم تمراً فكان تمري كهرةً وزيراً[٣]

أي: أقام الصياح على مقام التمر.

قال ابن الأنباري[٤]: المكاء والتصدية ليست بصلاة، ولكن الله أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية، فألزمهم ذلك أعظم الأوزار.

قوله: ﴿فذوقوا العذاب﴾ يريد عذاب السيف وفقد الأحبة، فإنه لم يبق يوم بدر بمكة دار إلا دخلتها مصيبة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

---

(١) البيت للفرزدق، من قصيدة قالها عندما أشاع زياد ابن أبيه أن الفرزدق لو أتاه لحباه وأكرمه. انظر: ديوانه (١/ ١٨٨)، والطبري (٤/ ١٣٤)، واللسان، مادة: (حدرج).

(٢) زيادة من زاد المسير (٣/ ٣٥٤).

(٣) انظر البيت في: زاد المسير (٣/ ٣٥٤).

(٤) انظر: الوسيط (٢/ ٤٥٨)، وزاد المسير (٣/ ٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسرين: نزلت في المُطْعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ومُنبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج، وأبو جهل والحارث ابنا هشام بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشيان المخزوميان، [والنضر][1] بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار القرشي، [وزمعة][2] بن الأسود، وأبو البختري بن هشام، وأبيّ بن خلف بن وهب الجمحي القرشي، وحكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي ابن أخي خديجة زوج النبي ﷺ، والعباس بن عبدالمطلب[3].

وقال مجاهد وسعيد بن جبير: نزلت في أبي سفيان بن حرب، وكان استأجر يوم أُحُد [ألفين][4] من الأحابيش لقتال رسول الله ﷺ، سوى من استجاش من العرب[5].

قال ابن إسحاق، عن رجاله: لما رجع الموتورون يوم بدر كلّموا أبا سفيان وأرباب الأموال والتجارات التي كانت في العير، فقالوا: يا معشر قريش! إن

---

(١) في الأصل: والنظر.

(٢) في الأصل: وزعمة.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٥٨-٤٥٩)، وفي أسباب النزول (ص:٢٤٠)، وزاد المسير (٣/ ٣٥٥).

(٤) زيادة من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه الطبري (٩/ ٢٤٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٧). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٤٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٣) وعزاه لابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير.

محمداً قد وَتَرَكُم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال الذي أفْلَتَ، لعلنا ندرك منه ثأراً، ففعلوا، فنزلت هذه الآية[١].

قوله تعالى: ﴿ليصدوا عن سبيل الله﴾ يعني: اتباع محمد ﷺ، ﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة﴾ ندامة وأسفاً حيث لم يظفروا بالسؤل في اضمحلال أمر الرسول ﷺ.

ثم أخبر الله رسوله ﷺ والمؤمنين أن العاقبة لهم فقال: ﴿ثم يغلبون﴾.

ولما كان في كفار قريش والموتورين منهم ممن قام يطلب الثأر من عَلِمَ الله أنه سيؤمن ويحسُن عمله؛ كالحارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما، أخرجهم من الوعيد اللاحق بالمنافقين فقال: ﴿والذين كفروا﴾ أي: داموا وثبتوا على كفرهم، ﴿إلى جهنم يحشرون﴾.

﴿ليميز الله﴾ وقرأ حمزة والكسائي: "لِيُمَيِّزَ الله" بالتشديد[٢]. تقول: مِزْتُ الشيء أَمِيزُهُ مَيْزاً؛ إذا عزلته وفرزته، وكذلك مَيَّزْتُهُ تمْيِيزاً فانْمازَ وامْتازَ وتَمَيَّزَ واسْتَمازَ، كل ذلك بمعنى[٣].

واختلفوا في متعلق اللام فقال قوم: ["يحشرون"][٤]، أي: والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ليميز الله الفريق الخبيث من الفريق الطيب.

---

(١) أخرجه الطبري (٩/ ٢٤٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٦٩٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٣) وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:١٨٢)، والنشر (٢/ ٢٤٤)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٦).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (ميز).

(٤) في الأصل: يخشون. وهو خطأ. انظر: الدر المصون (٣/ ٤١٨).

وقال قوم: ["فسينفقونها"][1] ثم تكون عليهم حسرة"، ليميز الله المال الخبيث الذي أنفقه المشركون للصدّ عن سبيل الله من المال الطيب الذي أنفقه المسلمون؛ كأبي بكر وعثمان رضي الله عنهما في نصر النبي ﷺ.

﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾ وهو معنى: ﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾، إن قلنا هو الفريق الخبيث، فجعله في جهنم لتعذيبه، وإن قلنا هو مال الكفار فجعله في جهنم لتعذيبهم به، كما قال: ﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ [التوبة:٣٥].

﴿أولئك هم الخاسرون﴾ لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الله لهم.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا﴾ قال ابن عباس: نزلت في أبي سفيان وأصحابه[2].

﴿إن ينتهوا﴾ عن الشرك والتكذيب والمحاربة، ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ من ذلك ومن غيره، حتى أن الحربي إذا أسلم لا يُتْبَعُ بحقوق الله ولا بحقوق الآدميين، وأما الذمي إذا أسلم فيُتْبَعُ بحقوق الآدميين دون حقوق الله.

---

(١) في الأصل: فينفقونها.

(٢) الوسيط (٢/ ٤٥٩)، وزاد المسير (٣/ ٣٥٦).

وفي وجوب قضاء العبادات المتروكة زمن الردة خلاف بين الفقهاء.

قال يحيى بن معاذ: إن توحيداً لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، أرجو أن لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب[١].

﴿وإن تعودوا﴾ يعني: إلى المحاربة، ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ بنصر الله رسولَه والمؤمنين على الكافرين، وشاهدوا ما صنع يوم بدر بصناديدهم، وسمعوا بوقائع الله مع الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم الخالية.

قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ أي: شرك، ﴿ويكون الدين كله لله﴾ فلا يُعْبَدُ غيرُه، ﴿فإن انتهوا﴾ عن كفرهم ﴿فإن الله بما يعملون﴾ من فعل الحسنات وترك السيئات ﴿بصير﴾ وعليه مُجاز.

﴿وإن تولوا﴾ يعني: عن الإيمان ولم [ينتهوا][٢] عن عبادة الأوثان وأصرّوا على حربك، ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ ناصركم ومعينكم، فيه فثقوا وعليه فتوكلوا، ﴿نعم المولى ونعم النصير﴾.

۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧ ح١٠٧٣).

(٢) في الأصل: تنتهوا.

قوله تعالى: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء﴾ "ما" بمعنى الذي، والهاء محذوفة من الصلة، أصله: غنمتموه، والخبر ﴿فأن لله خُمُسه﴾[١].

قال الزجاج[٢]: الأموال ثلاثة أصناف: فما صار إلى المسلمين من المشركين في حال الحرب فقد سمّاه الله أنفالاً وغنائم. وما صار من المشركين في خراج أو جزية مما لم يؤخذ في الحرب فقد سمّاه الله فَيْئاً. وما خرج من أموال المسلمين؛ كالزكاة والنذر والقُرَب فقد سمّاه الله صدقة.

ومعنى الآية: اعلموا أن ما غنمتم من المشركين قسراً وقهراً، من شيء قليل أو كثير.

قال مجاهد رحمه الله: المَخِيطُ من الشيء[٣].

﴿فأن لله خُمُسه﴾ وقرأتُ لأبي عمرو من رواية عبد الوارث: "خُمْسَه" بتسكين الميم[٤].

فصل

لا نعلم خلافاً بين العلماء: أن أربعة أخماس الغنيمة لمن شهد الوقعة على قصد الجهاد وإن لم يقاتل، للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم، سهم له وسهمان لفرسه.

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٦-٧)، والدر المصون (٣/ ٤١٩).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤١٣-٤١٤).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٥/ ٢٤٢)، وابن أبي شيبة (٦/ ٥٠٢)، والطبري (١٠/ ٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦٥) وعزاه لعبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) زاد المسير (٣/ ٣٥٨).

وقال أبو حنيفة: للفارس سهمان[١]. فأما من حضر بعد انقضاء الحرب فلا حق له فيها.

قال أبو حنيفة: إذا لحق المدد بعد انقضاء الحرب أسهم لهم[٢]. واحتجوا بحديث أبي موسى قال: «قدمنا، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لنا، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه قسم لهم معهم»[٣]. وهو حديث مخرج في الصحيحين.

وأجاب عنه الآخرون، فقالوا: إنما أعطاهم من الجنس الذي هو حقه دون حقوق من شهد الوقعة، وإن كان قد أعطاهم من الغنيمة فلموضع حاجتهم بإذن الغانمين.

فإن قيل: قد أسهم النبي ﷺ لعثمان وطلحة من غنائم بدر ولم يشهداها؟

قلت: كان ذلك في وقت كانت الغنيمة خالصة للنبي ﷺ قبل نزول هذه الآية.

وأما السهم الخامس؛ فقال مالك: هو مفوّض إلى اجتهاد الإمام يضعه حيث يرى[٤].

المشهور من قول مشاهير الأئمة وجماهير الأمة: أنه يقسم على ما نطقت به هذه الآية على خمسة أسهم.

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٤/ ٢٣٧)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٨٣)، والمغني (٦/ ٣٢٢).

(٢) انظر: جواهر العقود (١/ ٣٨٢)، ومغني المحتاج (٤/ ٢٢٧)، وروضة الطالبين (١٠/ ٢٧٥)، وحاشية ابن عابدين (٤/ ١٣٧)، والكافي (١/ ٤٧٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١١٤٢ ح٢٩٦٧)، ومسلم (٤/ ١٩٤٦ ح٢٥٠٢).

(٤) انظر: المغني (٦/ ٣٢٠).

وشذّ أبو العالية فقال: يقسم على ستة أسهم، وجعل السهم المضاف إلى الله للكعبة، والجمهور على خلافه.

والمعنى: فأن للرسول خُمُسه، وذكر اسم الله للتبرّك به، أو لإظهار شرف المكسبة وطيبها حيث أضيفت إلى الله تعالى.

فصل

وأما سهم الرسول ﷺ فكان يصنع فيه ما شاء مدة حياته.

واختلفوا: هل سقط بموته؟

فقال أبو حنيفة: سقط بموته كالصَّفِيّ.

وقال الأكثرون: لا يسقط بموته.

ثم اختلفوا في ماذا [يُصنع][1] به؟ فقال قتادة: هو للخليفة بعده.

وقال أحمد والشافعي: يصرف في المصالح[2].

وعن أحمد رواية أخرى: أنه يصرف إلى أهل الديوان الذين نصبوا أنفسهم للجهاد[3].

وقال بعضهم: يرد في الخمس ثم يقسم على أربعة أسهم، سهم لذوي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل.

---

(١) في الأصل: يوضع.

(٢) زاد المسير (٣/ ٣٦٠).

(٣) جواهر العقود (١/ ٣٨١).

فصل

وأما سهم ذوي القربى فاختلفوا في مصرفه، فقال مجاهد وعلي بن الحسين وأبو حنيفة: يصرف إلى بني هاشم فقط. وقيل: إلى قريش.

قال ابن عباس: كنا نقول: نحن هم، فأبى علينا قومنا وقالوا: قريش كلها ذوو قربى(١).

وقال الإمامان أحمد والشافعي: يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب(٢).

والدليل على صحته: ما أخبرنا به الشيخان أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، وأبو بكر محمد بن سعيد بن الموفق بن الخازن النيسابوري قالا: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد المقدسي، أخبرنا أبو الحسن مكي بن منصور بن علان [الكرجي](٣)، أخبرنا أبو بكر أحمد بن الحسن الحيري، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم، أخبرنا الربيع بن سليمان، أخبرنا الشافعي، أخبرنا الثقة، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، عن جبير بن مطعم قال: «لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب، أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله، هؤلاء إخواننا من بني هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي وضعك [الله به](٤) منهم، أرأيت إخواننا [من](٥) بني المطلب أعطيتهم وتركتنا

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٦). وانظر: الماوردي (٢/ ٣٢٠)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٠).

(٢) زاد المسير (٣/ ٣٦٠).

(٣) في الأصل: الكرخي. والصواب ما أثبتناه. وقد سبقت ترجمته.

(٤) زيادة من مسند الشافعي (ص:٣٢٤).

(٥) مثل السابق.

[أو منعتنا][1]، وإنما قرابتنا وقرابتهم واحدة؟! فقال رسول الله ﷺ: إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد هكذا، وشبك بين أصابعه»[2].

وفي رواية: «لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام»[3]. هذا حديث صحيح انفرد بإخراجه البخاري.

وكان يحيى بن معين يرويه: "سيء واحد" بالسين المهملة، أي مثلٌ واحد، تقول: هذا سيء هذا، أي: مثله ونظيره. قال الخطابي: وهو أجود.

قال الحافظ أبو الفضل بن ناصر رحمه الله: بنو المطلب دخلوا مع بني هاشم إلى الشِّعْب لما حاصروهم المشركون، دون غيرهم.

فصل

واختلفوا في سهم ذوي القربى بعد رسول الله ﷺ؛ فذهب الإمامان أحمد والشافعي إلى أنه لهم أبداً؛ لأنهم استحقوه عوضاً عن الصدقة أو بالقرابة وهي باقية، وكذلك سوينا فيه بين الغني والفقير.

قال الإمام أحمد: يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين[4].

وقال أبو حنيفة: سهم رسول الله ﷺ وسهم ذوي القربى بعد موت الرسول ﷺ مردود على باقي السهام الثلاثة، وجعلهم أسوة الفقراء.

---

(١) زيادة من مسند الشافعي (ص:٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١١٤٣ ح٢٩٧١)، وأبو داود (٣/ ١٤٦ ح٢٩٨٠)، والنسائي (٣/ ٤٥ ح٤٤٣٩)، والشافعي في مسنده (ص:٣٢٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ١٤٦)، والنسائي (٣/ ٤٥)، وأحمد (٤/ ٨١).

(٤) المغني (٦/ ٣١٧).

فصل

وتصرف الأخماس الثلاثة إلى فقراء يتامى المسلمين ومساكينهم، وأبناء السبيل، لكل صنف خُمْس. وقد ذكرناهم فيما مضى.

قوله تعالى: ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ متعلق بمحذوف، تقديره: إن كنتم آمنتم بالله فاقبلوا وأطيعوا[1]، ﴿وما أنزلنا على عبدنا﴾ يعني: محمداً ﷺ.

فإن قيل: لم قال: "على عبدنا" دون أن يذكره باسمه أو بوصفه الغالب وهو الرسالة؟

قلت: يُعَلِّمُهُم أنه لم يُخرجْه وصفُ الرسالة وشرف النبوة وإنزال الكتاب عليه ورَفْعِه ليلة المعراج إليه؛ عن أن يكون عبداً لله. وقلَّ أن يُطلق عليه هذه اللفظة إلا مقترنة بأمر عظيم وشرفٍ منيف، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده... الآية﴾ [الإسراء:١]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده... الآية﴾ [الفرقان:١]، وليشرفه باسم العبودية المضافة إليه جلّت عظمته، ألا ترى أن الملك العظيم من ملوك الدنيا إذا أضاف شخصاً إليه بلفظ العبودية فقال: فلان عبدي وغلامي، فإنه يجد لذلك لذاذة وسروراً، ويكسب به شرفاً وفخراً؛ لأن ذلك دليل على أنه رضيه لنفسه واختاره لقربه وموالاته. كأنّ المعنى: على عبدنا الذي هو عبدنا على الحقيقة، كما جاء في الحديث: «أولئك عبادي حقاً».

ولأن زيادة الخضوع لله والتواضع لعظمته مما يوجب زيادة الشرف وارتفاع الدرجات للعبد، ومما تتلذذ به نفوس المحبين لله والعارفين به، كما قيل:

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٧)، والدر المصون (٣/ ٤٢٠).

ذُلُّ الفتى في الحبّ مكرمة   وخضوعه لحبيبه شرف[١]

وقال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها   فإنه أشرف أسمائي[٢]

والمراد بيوم الفرقان: يوم بدر؛ لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل.

﴿يوم التقى الجمعان﴾ جمع الموحدين وجمع المشركين.

والذي أنزل عليه ذلك اليوم: وجوب التفويض إلى الله ورسوله، والأمر بالتقوى، وإصلاح ذات البين، والطاعة. وذلك في قوله: ﴿يسألونك عن الأنفال... الآية﴾.

والمعنى: إن كنتم آمنتم بالله والمنزل على عبده يوم بدر، وهو أول هذه السورة فاعملوا بموجب ما شرع لكم وبيّن في هذه الآية، من أمر الغنيمة.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ قال ابن عباس: يقدر على نصركم وأنتم أقلّة أذلة[٣].

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ

---

(١) انظر البيت في: المدهش لابن الجوزي، الفصل السادس والسبعون.

(٢) انظر البيت في: القرطبي (١/ ٢٣٢)، وروح المعاني (٩/ ٨٥)، وكشف الخفاء (١/ ١٦)، وفتح القدير (٣/ ٢٠٦).

(٣) الوسيط (٢/ ٤٦٢).

مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر العين في الموضعين، وقرأهما الباقون بالضم(١).

قال ابن السكيت(٢): عُدْوةُ الوادي وعِدْوتُه: جانبُه وحافَّتُه، والجمع عِدًى وعُدًى(٣). والدنيا تأنيث الأدنى، والقصوى تأنيث الأقصى، وهو الأبعد.

وما كان من النعوت على فعلى من بنات الواو، فإن العرب تحوله إلى الياء، نحو: الدنيا مِنْ دنوت، والعليا مِنْ علوت؛ لأنهم يستثقلون الواو مع ضم الأول، وليس في هذا اختلاف، إلا أن أهل الحجاز قالوا: القُصْوَى، فأظهروا الواو وهو نادر، وغيرهم يقول: القُصْيا(٤).

وكان نزول المسلمين على شفير الوادي الأدنى من المدينة، والمشركون على شفيره الأقصى مما يلي مكة.

﴿والركب﴾ أبو سفيان وأصحابه ﴿أسفل منكم﴾ نصبه على الظرف(٥)، يعني: أنهم قد أخذوا مكاناً أسفل من مكانكم، فطلبوا ساحل البحر، ﴿ولو تواعدتم﴾

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٢٩٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٠-٣١١)، والكشف (١/ ٤٩١)، والنشر (٢/ ٢٧٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٧)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٦).

(٢) إصلاح المنطق (ص:١١٥).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (عدا).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (قصا).

(٥) انظر: التبيان (٢/ ٧)، والدر المصون (٣/ ٤٢٢).

أنتم وأهل مكة للقتال والنزول بعدوتي الوادي على تلك الهيئة ﴿لاختلفتم في الميعاد﴾ بالتقدم [والتأخر][(١)]، ولتثبطتم لقلّتكم وكثرتهم، ولكنه سبحانه مهّد للفريقين أسباب الانقياد وَجَمَعَهُم على غير ميعاد، ﴿ليقضي الله أمراً كان﴾ في سابق علمه ﴿مفعولاً﴾ وهو إعزاز دينه [وأوليائه][(٢)] وإذلال أعدائه.

واللام في "ليقضي" تتعلق بمحذوف تقديره: ليقضي الله أمراً كان مفعولاً دبّر ذلك وهيأ أسبابه[(٣)]، يدل عليه قوله: ﴿ليهلك من هلك عن بينة﴾ أي: ليهلك من هلك في ذلك اليوم بالقتل أو بالدوام على الكفر، ﴿عن بينة﴾ أي: دلالة واضحة، فإنهم شاهدوا آيات؛ منها نزول الملائكة، حتى أن اللعين -فرعون هذه الأمة- أبا جهل قال لابن مسعود حين جاءه يُذَفِّف[(٤)] عليه: من أين كان يأتينا الضرب ولا نرى الشخص؟ قال: من قبل الملائكة، فقال: هم غلبونا لا أنتم.

﴿ويحيى من حَيَّ﴾ وقرأت لنافع والبزي والقزاز عن عبدالوارث، وأبي بكر عن عاصم، ونصير عن الكسائي وأبي جعفر وخلف في اختياره ويعقوب: "حَيِيَ" بياءين، الأُولى مكسورة والثانية مفتوحة بإظهار التضعيف[(٥)].

﴿وإن الله لسميع عليم﴾ يسمعُ تَضَرُّعَكُم ودعاءَكم، ويعلمُ كيف يُدَبِّرُ أمورَكم ويصلحُ أحوالكم.

---

(١) في الأصل: وتأخر.

(٢) في الأصل: وأولائه.

(٣) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٢٣).

(٤) الذَّفُّ: الإجهاز على الجريح وتحريرُ قتله (اللسان، مادة: ذفف).

(٥) النشر (٢/ ٢٧٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٧).

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إذ يريكهم الله﴾ نُصِبَ بإضمار "اذكر"، أو هو بدل ثان من "يوم الفرقان"، أو متعلِّق بقوله: "لسميع عليم"[(١)]، أي: يعلم المصالح، إذ يقللهم في عينك في منامك، أو سميع لما يقول أصحابك، عليم بما يضمرون إذ حدثتهم بما رأيت في منامك، وذلك أن الله تعالى أراه إياهم في منامه قليلاً، فأخبر بذلك أصحابه.

قال مجاهد: كان ذلك تثبيتاً للصحابة[(٢)].

وقال الحسن: ﴿في منامك﴾ أي: بعينك التي تنام بها[(٣)]؛ لأنها مكان النوم[(٤)].

قال الزجاج[(٥)]: وكثير من النحويين[(٦)] يذهبون إلى هذا المذهب.

---

(١) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٤) وعزاه لعبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) قال ابن كثير (٢/ ٣١٦): وهذا القول غريب، وقد صرح بالمنام هاهنا، فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٠٩). وانظر: الطبري (١٠/ ١٢) والوسيط (٢/ ٤٦٣).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤١٩).

(٦) كأبي عبيدة. انظر: مجاز القرآن (١/ ٢٤٧).

قال الزمخشري[1]: وهذا تفسير فيه تعسف، وما أحسب الرواية فيه عن الحسن صحيحة، وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته.

قال ابن عباس: المعنى: إذ يريكهم الله يا محمد في منامك قليلاً لتحتقرهم فتجترئ عليهم[2].

﴿ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ لجبُنتم وتأخرتم عن حربهم، ﴿ولتنازعتم في الأمر﴾ أي: ولاختلفت آراؤكم وتفرقت كلمتكم، ﴿ولكن الله سلم﴾ من الفشل والتنازع، ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾.

قال ابن عباس: عَلِمَ ما في صدوركم من الحب لله[3].

وقيل: عَلِمَ ما فيها من الجرأة والجبن، والصبر والجزع.

قوله تعالى: ﴿وإذ يريكموهم﴾ الضميران مفعولان، و﴿قليلاً﴾ نصب على الحال[4].

والمعنى: إذ يبصركم أيها المؤمنون إياهم قليلاً تصديقاً لقول رسول الله ﷺ، وتحقيقاً لرؤياه، ولتزدادوا جرأة عليهم.

قال ابن مسعود: لقد قُلِّلُوا في أعيننا، حتى قلتُ لرجل إلى جانبي: أتراهم

---

(١) الكشاف (٢/ ٢١٣).

(٢) انظر: الطبري (١٠/ ١٣)، والوسيط (٢/ ٤٦٣)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٤).

(٣) الوسيط (٢/ ٤٦٣).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٢٤).

سبعين؟ فقال: أراهم مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم قلنا: كم كنتم؟ قال: كنا ألفاً[(١)].

﴿ويقللكم في أعينهم﴾ لئلا يُحجموا عنكم فلا تظفروا فيهم بالمقصود.

قال الكلبي: استقل المؤمنون بالمشركين والمشركون المؤمنين ليجترئ بعضهم على بعض[(٢)].

وقد حررتُ القول في هذا المعنى في سورة آل عمران عند قوله: ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ [آل عمران:١٣].

﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور﴾ سبق تفسيره.

قال ابن عباس في قوله: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: بعد هذا مصيركم إليّ، فأُكرمُ أوليائي وأعاقب أعدائي[(٣)].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا﴾ أي: جماعة كافرة. وترَكَ وصفَهم بالكفر لانحصار القتال إذ ذاك لهم.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٦٠)، والطبري (١٠/ ١٣)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٤) وعزاه لابن أبي شيبة وابن جرير وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) الوسيط (٢/ ٤٦٣).

(٣) انظر: الوسيط (٢/ ٤٦٣).

والمعنى: فاثبُتوا لقتالهم.

﴿واذكروا الله كثيراً﴾ في ذلك الموطن، بالدعاء والثناء والاستنصار على الأعداء، فإن الله ذَاكِرٌ مَنْ ذَكَرَهُ، ونَاصِرٌ مَنْ نَصَرَه.

﴿لعلكم تفلحون﴾ تفوزون بمقصودكم ورضا معبودكم.

ثم حذّرهم من اختلاف الآراء فقال: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ قوله: "فتفشلوا" نصب بإضمار "أَنْ"، ويجوز أن يكون داخلاً في جملة النهي، فيكون مجزوماً[(١)]. ويؤيده ما قرأته على شيخنا أبي البقاء عبدالله بن الحسين اللغوي: "وَيَذْهَبْ" بالياء وسكون الباء[(٢)]. ويؤيد الأول قراءة الباقين.

ومعنى قوله: ﴿وتذهب ريحكم﴾: دولتكم. قاله أبو عبيدة[(٣)].

قال الزمخشري[(٤)]: شُبِّهَتْ في نفوذ أمرها وتمشيته[(٥)] بالريح وهبوبها. يقال: هَبَّتْ رياح فلان؛ إذا دالت له الدولة ونفذ أمره[(٦)].

وقيل: لم يكن نصرٌ قط إلا بريح يبعثها الله[(٧)].

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٨)، والدر المصون (٣/ ٤٢٥).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٦٥).

(٣) مجاز القرآن (١/ ٢٤٧). وهو قول الأخفش أيضاً. انظر: الوسيط (٢/ ٤٦٤)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٥).

(٤) الكشاف (٢/ ٢١٥).

(٥) في الكشاف: وتمشيه.

(٦) انظر: اللسان، مادة: (روح).

(٧) وهو قول قتادة وابن زيد. أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٦) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُور»(١).

قلت: وإلى قول أبي عبيدة تؤول أقوال المفسرين؛ من أن الريح: الصولة أو الحدّة أو الشدة أو النصر.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم﴾ يعني: النفير، ﴿بطراً ورئاء الناس﴾.

قال الزجاج(٢): البطرُ: الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل ليُرى مع إبطان القبيح.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٥٠ ح٩٨٨)، ومسلم (٢/ ٦١٧ ح٩٠٠).

والدَّبُور: هي الريح التي تقابل الصبا والقَبول، وهي ريح تهبُّ من نحو المغرب، والصبا تقابلها من نحو المشرق (اللسان، مادة: دبر).

(٢) معاني الزجاج (٤/ ١٥٠).

قال قتادة: هؤلاء أهل مكة خرجوا ولهم بغي وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها لتحادك ورسولك». فنهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصرة الدين[1].

وقد ذكرنا فيما مضى: أن أبا سفيان أرسل إليهم يُؤذنهم بسلامة العير، فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نقدم بدراً فنشرب الخمور، وننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونُقيم القِيان[2] والمعازف، فتسمع بنا العرب فتهابنا[3]، فانعكس عليهم الأمر، فنَحروا أنفسهم بدل الجزور، وشَربوا المنايا عوضاً عن الخمور، وناحت عليهم النوائح مكان القيان والمعازف.

قوله تعالى: ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي: واذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم التي عملوها في معاداتك وإبطال ما جئت به، ﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس﴾ وذلك أنهم لما أجمعوا المسير خافوا بني كنانة، فتبدّا لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك -وكان من أشراف بني كنانة- فقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، ﴿وإني جار لكم﴾ أي: حافظ ومجير من أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعاً، ﴿فلما تراءت الفئتان﴾ التقى الجمعان؛ المسلمون والمشركون ﴿نكص على عقبيه﴾ أي: رجع القَهْقَرى وذلك أن إبليس رأى جبريل عليه

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) وهنّ الإماء المغنيات (انظر: اللسان، مادة: قين).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٤). وانظر: الماوردي (٢/ ٣٢٤)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٦).

السلام ومعه الملائكة، وكان إبليس آخذاً بيد الحارث بن هشام على صورة سراقة، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، فقال له الحارث: أفراراً من غير قتال؟ فقال: ﴿إني أرى ما لا ترون﴾، فانهزم وانهزم المشركون، فقال الناس: هزمهم سراقة. فلما بلغ ذلك سراقة قال: والله ما شعرت بمسيركم حتى تلقّتني هزيمتكم.

وقيل: إن قول الشيطان كان بطريق الوسوسة، وأن نكوصه مجاز عن بطلان كيده.

والأول هو التفسير الصحيح.

﴿إني أخاف الله﴾ قال قتادة: صدق عدو الله في قوله: "إني أرى ما لا ترون"، [ذُكِرَ لنا][(١)] أنه رأى جبريل ومعه الملائكة، فعلم أنه لا يد له بالملائكة، وكذب عدو الله في قوله: "إني أخاف الله" والله ما به مخافة الله، ولكنه علم أنه لا قوة له بهم[(٢)].

وقال عطاء: المعنى: إني أخاف الله أن يهلكني[(٣)].

قال ابن الأنباري[(٤)]: لما رأى نزول الملائكة خاف أن تكون القيامة، فيكون انتهاء إنظاره، فيقع به العذاب.

---

(١) في الأصل: ذكرنا. والتصويب من زاد المسير (٣/ ٣٦٧).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٦). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٦٥-٤٦٦)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٩) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٦٦)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٧).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٦٧).

﴿والله شديد العقاب﴾ من تمام الحكاية عن إبليس. وجائز أن يكون ابتداء كلام من الله تعالى.

أخرج مالك في الموطأ من حديث طلحة بن عبيدالله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال: «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ منه يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام، إلا ما كان من يوم بدر. فقيل: ما رأى من يوم بدر؟ قال: رأى جبريل يَزَعُ الملائكة»[(١)]. هذا حديث مرسل.

قوله تعالى: ﴿إذ يقول المنافقون﴾ قال ابن عباس: هم قوم من أهل المدينة من الأوس والخزرج[(٢)].

﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شكٌّ، وهم ناس من أهل مكة أسلموا ولم يهاجروا، فأخرجهم المشركون يوم بدر كرهاً، فلما رأوا قلة المسلمين ارتابوا في الدين وقالوا: ﴿غرّ هؤلاء دينهم﴾.

وعدّهم مقاتل فقال[(٣)]: [هم][(٤)] قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس[(٥)] بن

---

(١) أخرجه مالك (١/ ٤٢٢ ح٩٤٤).

ويَزَعُ الملائكة: أي يُرَتِّبُهم ويُسَوِّيهم ويَصُفُّهم للحرب (اللسان، مادة: وزع).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٦٦)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٧).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٢٢)، وليس فيه الحارث بن زمعة والعاص بن منبه، بل ذكر عمرو بن أمية بن سفيان بن أمية.

(٤) في الأصل: لهم. والتصويب من تفسير مقاتل، الموضع السابق.

(٥) كذا في الأصل وزاد المسير. وفي تفسير مقاتل: قيس بن الفاكه.

الفاكه بن المغيرة، والوليد بن الوليد[١] بن المغيرة، والحارث بن زمعة، وعلي[٢] بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، والوليد بن عتبة بن ربيعة.

وروي عن ابن عباس والحسن أن الذين قالوا: ﴿غر هؤلاء دينهم﴾: هم المشركون[٣].

وفي قوله عقيب ذلك جواباً لقولهم: ﴿غرّ هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ إيذان بحسن نيات المسلمين في ذلك الموطن، وثقتهم بالاعتماد عليه في ذلك اليوم، وأن توكلهم على الله كان السبب الأقوى في استعلائهم على أعدائهم.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «من سرّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله»[٤].

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ

---

(١) في الأصل زيادة: والوليد. انظر: تفسير مقاتل (٢/ ٢٢)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٨).

(٢) كذا في الأصل وزاد المسير. وفي تفسير مقاتل: والعلاء.

(٣) انظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٥٥)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه الحارث في مسنده (٢/ ٩٦٧ ح١٠٧٠)، والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٦٤ ح٩٨٦). وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٩٠)، والجرجاني في الكامل (٧/ ١٠٦).

يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿ولو ترى﴾ أي: لو شاهدت؛ لأن "لو" تَرُدُّ الفعل المضارع إلى معنى الماضي، كما تَرُدُّ "إن" الماضي إلى معنى الاستقبال.

﴿إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة﴾ قرأ ابن عامر: "تتوفى" بتاءين، لتأنيث لفظ الملائكة، وقرأ الباقون بالياء والتاء[1]؛ لأن التأنيث غير حقيقي، وللفصل بين الفعل والفاعل.

والمراد بالملائكة: مَلَكُ الموت وأعوانه، في قول مقاتل[2].

وملائكة العذاب، في قول أبي سليمان الدمشقي[3].

وحكى الماوردي[4]: أنهم الملائكة الذين نزلوا لنصر المسلمين يوم بدر.

والمراد بالتوفي على القول الأول: قبض أرواحهم.

وعلى القول الثاني: الاستيفاء والقبض، كما تقول: توفيتُ حقي واسْتوفيتُه؛ إذا قبضته[5].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١١)، والكشف (١/ ٤٩٣)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٧).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٢٣).

(٣) زاد المسير (٣/ ٣٦٨).

(٤) تفسير الماوردي (٢/ ٣٢٦).

(٥) انظر: اللسان (مادة: وفى).

وعلى القول الثالث: قبض الأرواح أيضاً، لكنه إضافة الشيء إلى نفسه.

وقوله: ﴿يضربون﴾ حال من "الملائكة"[١].

فإن قلنا: هم مَلَكُ الموت وأعوانه؛ فقد ورد في الأثر: أنهم يضربون الكافر عند الموت بسياط من نار[٢].

وإن قلنا: ملائكة العذاب، فقد ورد أنهم يَضربون وجوهَهم حين يتلقونهم يوم القيامة، وأدبارَهم حين يسوقونهم إلى النار[٣].

وإن قلنا: هم ملائكة النصر، فالمعنى: يضربون وجوه بعضهم يوم بدر وأدبار بعضهم[٤].

وقيل: يضربون وجوههم إذا أقبلوا للقتال، وأدبارهم إذا انهزموا[٥].

وقال ابن جريج: يضربون ما أقبل منهم وأدبر، يريد أجسادهم كلها[٦].

قال الحسن: قال رجل: يا رسول الله إني رأيت ظهر أبي جهل مثل الشراك. قال: ذلك ضرب الملائكة[٧].

﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ عطف على "يضربون"، على إرادة القول، أي: ويقولون ذوقوا عذاب.

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٨)، والدر المصون (٣/ ٤٢٧).

(٢) ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير (٣/ ٣٦٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٦٩).

(٤) الماوردي (٢/ ٣٢٦)، وزاد المسير (٣/ ٣٦٩).

(٥) زاد المسير (٣/ ٣٦٨).

(٦) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٦٩).

(٧) أخرجه الطبري (١٠/ ٢٢).

وقال الحسن: هذا يوم القيامة، يقول لهم خَزَنَةُ جهنم: ذوقوا عذاب الحريق[١].

وقيل: كان مع الملائكة الذين نزلوا للنصر مَقَامِعُ[٢] من حديد، كلما ضربوا التهبتْ في الجراحات، فذلك قوله: ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾[٣].

وجواب "لو" محذوف، تقديره: لو ترى يا محمد ذلك لرأيت منظراً فظيعاً هائلاً[٤].

﴿ذلك بما قدمت أيديكم﴾ جائز أن يكون من تمام الحكاية عن كلام الملائكة لهم، وجائز أن يكون من كلام الله تعالى.

والمعنى: ذلك العذاب بما قدمت أيديكم، الآية سبق تفسيرها في أواخر آل عمران[٥]، والتي بعدها سبق تفسيرها في أوائل آل عمران[٦].

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى الذي حلّ بالكفار من الانتقام والأخذ، ﴿بأن الله﴾ أي: بسبب أن الله ﴿لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم﴾ فيُحوِّلهم مما يحبون إلى ما يكرهون ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ فينتقلون من الحال الجميلة إلى الحال القبيحة، أو من الحال المرضية إلى الحال المسخوطة.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٦٩) من قول مقاتل.

(٢) المَقَامِعُ: سِياط من حديد رؤوسها معْوَجَّة (اللسان، مادة: قمع).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٦٦).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٢٧).

(٥) الآية رقم: (١٨٢).

(٦) الآية رقم: (١١).

قال مقاتل[١]: هم أهل مكة أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، ثم بَعَثَ فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا المنعم عليهم، فغيّر الله ما بهم [من النِّعَم][٢].

قال السدي: كذبوا بمحمد ﷺ فنقله إلى الأنصار[٣].

فإن قيل: ليت شعري من أين للقبط أو لمشركي مكة حال جميلة أو مرضية فغيروها؟

قلت: لعمري إنهم ما زالوا على حال سيئة مسخوطة، لكن ببعثة الرسول إليهم تبين لهم بطلان ما كانوا عليه، ووضح لهم صحة ما يدعوهم إليه، ولأجل ذلك وجب عليهم اتباعه، وهذه حالة جميلة ونعمة جليلة، فلما غيروها بملازمة ما كانوا عليه من الضلالة ومعاندة صاحب الرسالة، غيّر الله ما بهم، ونقلهم من النعم إلى النقم.

وقال الزمخشري[٤]: كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسل إليهم كفرة عبدة أصنام، فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزَّبوا عليه، ساعين في إراقة دمه، غيّروا حالهم إلى أسوأ مما كانت، فغيّر الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب.

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٢٣).

(٢) زيادة من تفسير مقاتل، الموضع السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ٢٤)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٨١) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) الكشاف (٢/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ يعني: الأمم المكذبة، ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ يعني: قتلى قريش وآل فرعون والذين من قبلهم.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

وما بعده سبق تفسيره إلى قوله: ﴿الذين عاهدت منهم﴾ وهو بدل من قوله: ﴿الذين كفروا﴾ وهو بدل البعض من الكل[١].

والمعنى: الذين عاهدت من الذين كفروا، فـ"مِنْ" على هذا للتبعيض[٢].

﴿ثم ينقضون عهدهم في كل مرة﴾ قال ابن عباس وغيره: هم بنو قريظة، [عاهدوا][٣] رسول الله ﷺ أن لا يحاربوه ولا يعينوا عليه، فنقضوا العهد، وأعانوا مشركي مكة بالسلاح، ثم قالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه الثانية فنكثوا ومالؤوا الكفار يوم الخندق[٤]، ومنهم كعب بن الأشرف الذي كان يحرض أهل مكة ويبكي قتلى بدر[٥].

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٨)، والدر المصون (٣/ ٤٢٨).

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٢٨).

(٣) في الأصل: عاهد.

(٤) أخرج نحوه الطبري (١٠/ ٢٥)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧١٩)، ومجاهد (ص:٢٦٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٧٢).

(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط (٤/ ٥٠٣): قال البغوي: من روى أنه كعب بن الأشرف أخطأ ووهم، بل يحتمل أنه كعب بن أسد فإنه كان سيد قريظة.

﴿وهم لا يتقون﴾ نقض العهد، ولا يخشون ما في ذلك من العار وعذاب النار.

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ تصادفنهم وتظفرنّ بهم في الحرب، وقد سبق في ﴿فإما﴾ في أوائل البقرة[1].

﴿فشرّد بهم من خلفهم﴾ أي: فرّق بما تفعل بهم من التنكيل والعقوبة جَمْعَ مَنْ [وراءهم][2] من أعدائك وناقضي عهدك[3] حتى لا يجسروا عليك.

وقرأ ابن مسعود: "فشرّذ" بالذال المعجمة[4]. قيل: هما بمعنى واحد.

وقال الزمخشري[5]: كأنه مقلوب "شذر"، من قولهم: شذر مذر.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

قال المفسرون: الخوف هاهنا بمعنى: العلم[6]، ويحتمل أن يجرى الخوف على أصله.

---

(١) الآية: ٣٨.

(٢) في الأصل: وائهم.

(٣) في هامش الأصل: عهودك.

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨).

(٥) الكشاف (٢/ ٢١٩).

(٦) زاد المسير (٣/ ٣٧٣).

المعنى: ﴿وإما تخافن من قوم﴾ بينك وبينهم عهد ﴿خيانة﴾ تَبْدُ لك أمارتها وتظهر آياتها، ﴿فانبذ﴾ أي: فاطرح إليهم العهد ناقضاً له، ﴿على سواء﴾ والجار والمجرور في محل الحال[1].

والمعنى: على عدل واستواء واتفاق منك ومنهم في العلم [بالنقض][2]، فلا تأخذهمْ غرة من غير أن تشعرهم بالنقض، فإن ذلك خيانة يأباها منصب الرسالة، وغدر لا يليق بسياسة الإيالة.

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بنقض العهد وغيره من أنواع الخيانات.

قال ابن مسعود: كلُّ الخلال يطوف عليها المؤمن، إلا الخيانة والكذب[3].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[4].

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٩)، والدر المصون (٣/ ٤٢٩).

(٢) في الأصل: باتقض.

(٣) أخرج نحوه البيهقي في سننه (١٠/ ١٩٧)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٠٧)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٦) كلهم عن سعد بن أبي وقاص.

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٢١ ح٣٣)، ومسلم (١/ ٧٨ ح٥٩).

قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن﴾ وقرأ ابن عامر وحمزة: "يحسبن" بالياء، لما اكتنف ذلك من ألفاظ الغيبة، فيكون المفعول الأول محذوفاً تقديره: لا يحسبن الكافرون أنفسهم سبقوا.

أو يكون المعنى: لا تحسبن محمد والسامع أن ﴿الذين كفروا سبقوا﴾.

أو يكون التقدير: أن سبقوا، فحذف "أَنْ" كما في قوله: ﴿ومن آياته يريكم البرق خوفاً﴾ [الروم:٢٤] فتسدّ "أَنْ" مسدّ [المفعولين][١]؛ كقوله: ﴿أحسب الناس أن يتركوا﴾ [العنكبوت:٢].

وقيل: التقدير: لا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا، فحذف الضمير لكونه مفهوماً.

وقيل: وقع الفعل على "إنهم لا يعجزون" على أنّ "لا" صلة، و"سبقوا" في محل الحال[٢]، يعني: سابقين أي: [مفلتين][٣] هاربين.

وقرأ الباقون: "تحسبن" بالتاء[٤]، على الخطاب للنبي ﷺ.

وقوله: "الذين كفروا سبقوا" مفعولا "حسب"، وهو الوجه الظاهر النير الذي لا تعسف فيه ولا تمحل. وحيث جاء هذا الحرف في القرآن: تحسبن، وتحسبهم،

---

(١) في الأصل: المفعلولين.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٢٩).

(٣) في الأصل: مفلتتن. انظر: البحر المحيط (٤/ ٥٠٥).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٥)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٢)، والكشف (١/ ٤٩٣)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٧).

وتحسب، ويحسبون، وما جاء منه على صيغة الاستقبال، قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين، والباقون بكسرها[١].

قال شيخنا أبو البقاء عبدالله بن الحسين اللغوي رحمه الله: فَعِلَ مثل عَلِمَ، فمستقبله يفعَل، بفتح العين، إلا أربعة أحرف: حَسِبَ يَحْسِب، ويَئِس يَيْئِس، وبَئِس يَبْئِس، والفتح في كلها جائز.

ومعنى ﴿سبقوا﴾: فاتوا.

ثم استأنف فقال: ﴿إنهم لا يعجزون﴾ وفتح ابن عامر الهمزة على إضمار اللام وحذفها[٢]، أي: لأنهم لا يعجزون.

وقرأ ابن محيصن: "يُعْجِزُونِ" بكسر النون[٣].

قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ قال السدي وابن قتيبة[٤]: هو كل ما يتقوى به من سلاح وكُراع[٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٧).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٦-٣٠٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٢)، والكشف (١/ ٤٩٤)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٨).

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨).

(٤) تفسير غريب القرآن (ص:١٨٠). وانظر: زاد المسير (٣/ ٣٧٥).

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ٣٠).

والكراع: اسم يجمع الخيل (اللسان، مادة: كرع).

وفي صحيح مسلم من حديث عقبة بن الحارث بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي "ثلاثاً"»(١).

واعلم أن هذا ليس على وجه حصر القوة في الرمي، إنما هو إعلام بها في الرمي من شدة النكاية في الحرب وحثٌّ على تعاطيه، ولهذا قال عليه السلام: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا»(٢).

وقال ﷺ: «من بلغ بسهم في سبيل الله فهو له درجة في الجنة، ومن رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر»(٣).

قوله تعالى: ﴿ومن رباط الخيل﴾ أي: ما يُربط منها في سبيل الله، ويجوز أن يكون جمع ربيط؛ كفصيل [وفِصَال](٤).

وقرئ "ومن رُبُط" بضم الراء والباء(٥)، وسكون الباء أيضاً(٦)، جمع رباط.

فإن قيل: الخيل من جملة القوة، فلم خُصَّتْ بالذِّكْر؟

قلت: للمعنى الذي ذكرته في الرمي، ألا ترى إلى قول الشاعر:

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٢٢ ح١٩١٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ١٧٤ ح١٦٣٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ١٣٢ ح٢٥٦٠).

(٤) في الأصل: وفصائل. انظر: البحر المحيط (٤/ ٥٠٧).

(٥) وهي قراءة الحسن وعمرو بن دينار وأبي حيوة. انظر: إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والبحر المحيط (٤/ ٥٠٧).

(٦) وهي قراءة الحسن وأبي حيوة أيضاً. انظر: البحر المحيط (٤/ ٥٠٧)، والدر المصون (٣/ ٤٣٢).

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَها رِمَاحاً طِوَالاً وخَيْلاً ذُكُورا[١]

وسُئِلَ ابن سيرين عن رجل أوصى بثلث ماله في الحصون، فقال: يُشترى به الخيل ويغزى عليها. فقيل له: إنما أوصى في الحصون؟ فقال: ألم تسمع قول الشاعر:

.... أَنّ الحُصونَ الخَيْلُ لا مَدَرُ القُرى[٢]

قوله تعالى: ﴿ترهبون به﴾ وقرأتُ لأبي عمرو من رواية عبد الوارث عنه، وليعقوب من رواية [رويس][٣] عنه: "تُرَهِّبُون" بتشديد الهاء وفتح الراء[٤].

والمعنى: تخيفون به.

﴿عدو الله وعدوكم﴾ يعني: أهل مكة وكفار العرب.

﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم﴾ روي عن النبي ﷺ: أنهم كفرة الجن[٥]، فيكون الضمير في قوله: "ترهبون به" عائداً [على][٦] "رباط الخيل".

---

(١) البيت للأعشى. انظر: ديوانه (ص:٧١)، ومشاهد الإنصاف (١/ ٢٥١)، وتهذيب اللغة (١٣/ ٢٤٤)، والقرطبي (١٦/ ٢٢٩)، والبحر المحيط (٨/ ٧٥)، والدر المصون (٦/ ١٤٧).

(٢) عجز بيت للجعفي، وصدره: (ولقد عَلِمْتُ على توقّي الرَّدى). انظر: اللسان، مادة: (حصن)، وروح المعاني (١٠/ ٢٥).

(٣) في الأصل: ريس. انظر: زاد المسير (٣/ ٣٧٥).

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨).

(٥) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٦٤٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٩٧) وعزاه لأبي الشيخ. وقد رجح هذا القول الطبري في تفسيره (١٠/ ٣٢).

(٦) زيادة على الأصل.

وجاء في الحديث: «إن الشيطان لا يخبل أحداً في داره فرس عتيق»[(١)].

ويروى: أن صهيل الخيل يطرد الجن[(٢)].

وقال مجاهد ومقاتل[(٣)]: يعني: قريظة[(٤)].

وقال السدي: هم فارس[(٥)].

وقال الحسن وابن زيد: هم المنافقون لا تعلمونهم[(٦)]، لأنهم معكم يقولون: "لا إله إلا الله"[(٧)].

---

(١) أخرجه الحارث في مسنده (٢/ ٦٧٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٦٤٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٩٧) وعزاه لسعد والحارث بن أبي أسامة وأبي يعلى وغيرهم.

(٢) انظر: الطبري (١٠/ ٣٢).

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٢٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ٣١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٩٧) وعزاه للفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ٣١)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٩٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٦) قال الطبري (١٠/ ٣٢): فإن قال قائل: فإن المؤمنين كانوا لا يعلمون ما عليه المنافقون؛ فما تنكر أن يكون عني بذلك المنافقون؟

قيل: إن المنافقين لم يكن تروعهم خيل المسلمين ولا سلاحهم، وإنما كان يروعهم أن يظهر المسلمون على سرائرهم التي كانوا يستسرون من الكفر، وإنما أمر المؤمنون بإعداد القوة لإرهاب العدو، فأما من لم يرهبه ذلك فغير داخل في معنى من أمر بإعداد ذلك له المؤمنون وقيل: "لا تعلمونهم"، فاكتفى للعلم بمنصوب واحد في هذا الموضع؛ لأنه أريد: لا تعرفونهم.

(٧) أخرجه الطبري (١٠/ ٣٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٩٧) وعزاه لابن أبي حاتم عن ابن زيد.

فإن قيل: نَفْيُ العلم عن المؤمنين بالعداوة في حق الجن والمنافقين ظاهر، فما وجه نفيه عنهم بالنسبة إلى اليهود وأهل فارس؟

قلت: أما اليهود فإنهم كانوا يخادعون المؤمنين ويظهرون لهم الموادة ويعاهدونهم، وكان همّ المسلمين منحصراً في مكافحة العرب ومحاربتهم ومناهدتهم.

وأما فارس فإنهم وإن كانوا أعداء لهم، غير أن بُعْد المسافة والاشتغال بالعدو المجاور، أغفل المؤمنين عن أن يتهيؤوا لهم، فأمر الله المؤمنين بالاستعداد لأعدائهم؛ إرهاباً لهم، ولمن في علمه سبحانه وتعالى أنهم بعَرَضِية أن يقاتلوا المؤمنين ويظهروا لهم المعاداة[1].

ولما كانت النفوس في مظنة الشحّ حباً لاقتناء الأموال، وَعَدَهُمُ الله الخلف في العاجل والثواب في الآجل، فقال: ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾.

---

(١) قال الطبري (١٠/ ٣٢): قول من قال: عنى به الجن أقرب وأشبه بالصواب؛ لأنه جل ثناؤه قد أدخل بقوله: ﴿ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ الأمر بارتباط الخيل لإرهاب كل عدو لله وللمؤمنين يعلمونهم. ولا شك أن المؤمنين كانوا عالمين بعداوة قريظة وفارس لهم؛ لعلمهم بأنهم مشركون وأنهم لهم حرب، ولا معنى لأن يقال وهم يعلمونهم لهم أعداء ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم﴾، ولكن معنى ذلك: إن شاء الله ترهبون بارتباطكم أيها المؤمنون الخيل عدو الله وأعداءكم من بني آدم الذين قد علمتم عداوتهم لكم لكفرهم بالله ورسوله، وترهبون بذلك جنساً آخر من غير بني آدم لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم، الله يعلمهم دونكم؛ لأن بني آدم لا يرونهم.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث جرير بن عبد الله قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يلوي ناصية فرس بإصبعه، وهو يقول: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة: الأجر والغنيمة»(١).

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شِبَعَه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»(٢).

ومات عقبة بن عامر عن سبعين فرساً في سبيل الله.

۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم﴾، وقرأ أبو بكر عن عاصم: "للسِّلْم" بكسر السين(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٩٣ ح١٨٧٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٤٨ ح٢٦٩٨).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٧)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٢)، والكشف (١/ ٤٩٤)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٨).

قال الزجاج[1]: يقال: سَلَمٌ وسِلْمٌ وسَلَم، وهي تؤنث وتذكر، بفتح السين واللام بمعنى واحد.

والمعنى: إن مالوا إلى الصلح ﴿فاجنح لها﴾ كناية عن السِّلْم، وهي تؤنث وتذكر.

وقيل: كناية عن الفعلة.

فصل

اختلف المفسرون في المشار إليهم بقوله: ﴿وإن جنحوا﴾ فقال الحسن والأكثرون: هم المشركون[2]، وهي منسوخة بآية السيف[3].

وقال ابن السائب: هم قريظة[4]، فتكون مُحْكَمة، إلا أن يراد الموادعة بغير جزية، فتكون منسوخة بآية الجزية[5].

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٢٢).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٦٩)، وزاد المسير (٣/ ٣٧٦).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم ...﴾ [التوبة:٥]. انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٩٣-٩٤)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٩)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٤٧-٣٤٨).

وذكر النحاس في ناسخه (ص:٤٦٨) عن ابن عباس أن الناسخ لها: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم﴾ [محمد:٣٥]. وذكره أيضاً عن قتادة وقال أنها نسخت بآية السيف. ثم قال: والقول في أنها منسوخة لا يمتنع؛ لأنه أمر بالإجابة إلى الصلح والهدنة بغير شرط، فلما قال الله: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ حظر الصلح والهدنة مع قوة اليد والاستعلاء على المشركين.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٦٩).

(٥) وهي قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ...﴾ [التوبة:٢٩].

=

وقيل: إنها محكمة، وأن ذلك مَوْكُول إلى اجتهاد الإمام، فيعمل ما يراه من المصلحة لأهل الإسلام.

قوله تعالى: ﴿وإن يريدوا﴾[١] يريد: بني قريظة ﴿أن يخدعوك﴾ بطلب الصلح حتى إذا أمكنتهم الفرصة وثبوا، ﴿فإن حسبك الله﴾ فهو يكفيك أمرهم ومكرهم، ﴿هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين﴾ أي: قوّاك بأسباب النصر من إنزال الملائكة وتثبيت قلوب أصحابك، وإلقاء الوهن في قلوب أعدائك وغير ذلك من الأسباب، ﴿وألّف بين قلوبهم﴾ أي: بين قلوب الأوس والخزرج بعد انطوائهم على الأحقاد والضغائن وإيقاد نَائِرَة[٢] الحرب والفساد بينهم مائة وعشرين سنة، فَنَظَمَ الله تعالى لنصر نبيه ألفتهم وجَمَعَ لأجله كلمتهم، وما ذاك إلا بعض معجزاته الباهرة وآياته الظاهرة.

﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم﴾ ولا كان ذلك في طوقك ولا في طوق بشر، ولكن الله تعالى الذي لا رادّ لما قضاه، ولا ضادّ لما أمضاه، ألّف بين قلوبهم حتى اتفقوا على كلمة الإسلام ومعاداة من يخالفك من أهل الكتاب وعَبَدَة الأصنام.

انظر: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٩٣-٩٤)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٣٩)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٤٨-٣٤٩).

(١) في الأصل زيادة قوله: خيانتك. وهو خطأ.

(٢) نائرة الحرب: شرّها وهَيْجها (اللسان، مادة: نور).

قال الزجاج[١]: وهذا من الآيات العظام، وذلك أن النبي ﷺ بُعث إلى قوم أنفتُهم شديدة، ونصرة بعضهم لبعض، بحيث لو لطم رجل من قبيلة لطمة قاتل عنه قبيلته حتى يُدركوا ثأره، فألّف الإيمان بين قلوبهم، حتى قاتل الرجل أخاه وابنه وأباه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ٦٥ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ المعنى: توكل عليه وثِقْ به، فهو يكفيك أمر أعدائك.

قوله: ﴿ومن اتبعك من المؤمنين﴾ جائز أن يكون في موضع نصب عطفاً على تأويل الكاف من "حَسْبُكَ"[٢]، على معنى: يكفيك ويكفي أتباعك المؤمنين. قال الشاعر:

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٢٣).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ١٠)، والدر المصون (٣/ ٤٣٣).

إذا كَانَتِ الهَيْجَاءُ وانْشَقَّتِ العَصَا فَحَسْبُكَ والضَّحَّاكُ سَيْفٌ مُهَنَّدُ[(١)]

وجائز أن يكون في موضع رفع، على معنى: حسبك الله وأتباعك المؤمنون. والأول قول ابن عباس والأكثرين. والثاني قول مجاهد[(٢)].

وقال الثعلبي[(٣)]: كل من خفض، عطفاً على الكاف في قوله: "حسبك الله".

قلت: وهذا قبيح عند النحاة؛ لأن عطف الظاهر المجرور على المكنى ممتنع، وقد ذكرنا علته فيما مضى.

قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال﴾ أي: بالغ في حَثِّهم عليه، حتى تعلم من تخلَّف منهم عنه أنه حارض، أي: مقارب للهلاك، ومنه: ﴿حتى تكون حَرَضاً﴾ [يوسف:٨٥]. هذا قول الزجاج[(٤)].

قال ابن عباس: حَرِّضهم على نصر دين الله[(٥)].

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ هذا خارج مخرج البشارة، والإعلام بأن النصر [مقرونٌ][(٦)] بالصبر.

---

(١) البيت لم أعرف قائله. ونسبه في ذيل الأمالي (ص:١٤٠) لجرير. وقال في السمط (ص:٨٩٩) نسبه القالي لجرير، وعليه العهدة. وانظر: شرح المفصل لابن يعيش (٢/ ٤٨)، ومعاني الفراء (١/ ٤١٧)، والقرطبي (٨/ ٤٢)، والرازي (١٥/ ١٩١)، والبحر المحيط (٤/ ٥١١)، ولسان العرب، مادة: (حسب).

(٢) انظر قول ابن عباس ومجاهد في: زاد المسير (٣/ ٣٧٧).

(٣) الثعلبي (٤/ ٣٧٠).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٢٣-٤٢٤).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٧٠).

(٦) في الأصل: مقروناً.

قال أكثر المحققين: صورته صورة الخبر، ومعناه: الأمر.

﴿وإن يكن منكم مائة﴾ قرأ أهل الكوفة: "يكن منكم" بالياء على الموضعين؛ نظراً إلى معنى المائة، ولتذكير المخاطبين، وافقهم أبو عمرو في الأولى[١]، وقرأهما الباقون بالتاء؛ لتأنيث لفظ المائة[٢].

ولله [درّ][٣] أبي عمرو البصري ما كان أبصره بالعربية وأدراه بالمعاني وأحذقه في الدراية، وأصدقه في الرواية. ومن تلمّح سرّ اختياره التذكير في الموضع الأول لقوله: "يغلبوا" ولم يقل: "تغلب"، والتأنيث في الموضع الثاني لتأنيث الصفة وهي "صابرة" ولم يقل: "صابرون"، علم فوز ابن العلاء بالمعلّى من بين العلماء.

قوله تعالى: ﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أن المشركين قومٌ جهلة، لا يُقاتلون رغبةً في الثواب ولا رهبةً من العقاب.

قال مجاهد: كان هذا التشديد يوم بدر[٤].

وقال ابن عباس: أمر الله الرجل من المسلمين أن يقاتل عشرة من الكفار، فلما شقّ ذلك عليهم رحمهم فأنزل: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضَعْفاً﴾[٥].

---

(١) في الأصل زيادة: وقرأ.

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٧-٣٠٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٣)، والكشف (١/ ٤٩٤)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٨).

(٣) زيادة على الأصل. وقد ورد لفظ "أبي" مرفوعاً في الأصل.

(٤) انظر: الطبري (٨/ ٤٤)، ومجاهد (ص:٢٦٧)، والماوردي (٢/ ٣٣٢)، وزاد المسير (٣/ ٣٧٨).

(٥) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠٧)، والنحاس في ناسخه (ص:٤٧٠)، والبيهقي في سننه (٩/ ٧٦)، والطبري (١٠/ ٣٩)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٢٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٠٢) وعزاه للبخاري والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في سننه.

قرأ عاصم وحمزة: "ضَعْفاً" بفتح الضاد، وضمها الباقون(١)، وهما لغتان بمعنى. وقد ذكرنا نظائرها فيما سبق.

وقرأتُ على شيخنا أبي البقاء لأبي جعفر يزيد بن القعقاع: "ضُعَفاءَ" بضم الضاد وفتح العين والمد والهمز، جمع ضعيف(٢).

وقرأتُ على أبي [عمرو](٣) عثمان بن مقبل الياسري للمُفَضَّل عن عاصم: "وعُلم" بضم العين، "ضُعفاء" مثل أبي جعفر، إلا أنه يرفع الهمزة على ما لم يُسمَّ فاعله(٤).

ثم بيّن ما به وقع التخفيف عنهم فقال: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله﴾. أي: بإرادته ومشيئته، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد بن عبد الرزاق السلمي وأبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب الهروي، أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن مظفر بن محمد بن الداودي، أخبرنا أبو محمد عبدالله بن حمويه بن أحمد بن يوسف بن أعين السرخسي، أخبرنا أبو عبدالله محمد بن يوسف بن مطر الفربري،

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٨)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٣)، والكشف (١/ ٤٩٥)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٨-٣٠٩).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٨-٢٣٩).

(٣) زيادة على الأصل. انظر ترجمته في: المقصد الأرشد (٢/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٧٨).

حدثنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، حدثنا يحيى بن عبد الله السلمي، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا جرير بن حازم[١]، أخبرني الزبير [بن][٢] خِرِّيت[٣]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾ شقّ ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾. قال: فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم»[٤]. هذا حديث صحيح انفرد بإخراجه البخاري.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن تكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أخرج الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال:

---

(١) جرير بن حازم بن عبد الله بن شجاع الأزدي ثم العتكي، وقيل: الجهضمي، أبو النضر البصري. كان ثقة، إلا أنه اختلط في آخر عمره، مات سنة سبعين (تهذيب التهذيب ٢/ ٦٠-٦٢، والتقريب ص:١٣٨).

(٢) زيادة من الصحيح (٤/ ١٧٠٧).

(٣) الزبير بن خِرِّيت البصري، من أهل البصرة، وثقه ابن معين وغيره، وذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب ٣/ ٢٧٠، والتقريب ص:٢١٤، والثقات ٦/ ٣٣٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٠٧ح٤٣٧٦).

«لما كان يوم بدر التقوا فهزم الله المشركين، وقُتل منهم سبعون رجلاً وأُسر سبعون رجلاً، استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر، فقال أبو بكر: يا نبي الله! هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوةً لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً. فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان -قريب لعمر- فأضرب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه ولم يهوَ ما قلتُ، فأخذ منهم الفداء. فلما كان من الغد قال عمر بن الخطاب: غدوت إلى رسول الله ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وإذا هما يبكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني ماذا يبكيك وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: أبكي للذي عرض عليّ أصحابك من الفداء، عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ما كان لنبي أن تكون له أسرى﴾ إلى قوله: ﴿لولا كتاب من الله سبق ...الآية﴾»(١). هذا حديث صحيح أخرجه مسلم في صحيحه.

وفي حديث آخر: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لَيُلَيِّنُ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدّد قلوب رجال حتى تكون أشدّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم، قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٥ ح١٧٦٣)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٠).

غفور رحيم﴾ [إبراهيم:٣٦]. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ [نوح:٢٦]»[١].

قرأ أبو عمرو: "أن تكون" بالتاء، لتأنيث لفظ "الأسرى"، وقرأ الباقون بالياء[٢]، لتذكير معناه كما سبق.

قرأ أبو جعفر [والمُفَضَّل][٣] عن عاصم فيما قرأته لهما: "له أُسَارى" بضم الهمزة فيهما وإثبات ألف بعد السين، وافقهما أبو عمرو وأبان عن عاصم في الموضع الثاني، الباقون بفتح الهمزة من غير ألف[٤].

قال الزجاج[٥]: والإِثْخَانُ في كل شيء: قوة الشيء وشدته. يقال: قد أَثْخَنَهُ المرض؛ إذا اشتدت قوته عليه[٦].

والمعنى: ما يصلح وما ينبغي لنبي أن يحبس أعداء الله وأعداء دينه للمنّ والفداء والاسترقاق حتى يبالغ في قتلهم وإذلالهم وإيقاع الرهب في قلوبهم بالفتك فيهم.

﴿تريدون عَرَضَ الدنيا﴾ وهو الفداء.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٣).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٣)، والكشف (١/ ٤٩٥)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٩).

(٣) في الأصل: والفضل. وقد سبق صوابه قبل قليل كما أثبتناه.

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٠٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٤)، والكشف (١/ ٤٩٥)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٩).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤٢٥).

(٦) انظر: اللسان، مادة: (ثخن).

قال قتادة: كان هذا يوم بدر، فاداهم رسول الله ﷺ بأربعة آلاف أربعة آلاف[١].

﴿والله يريد الآخرة﴾ قال ابن عباس: يريد لكم الجنة[٢]. فالمعنى: يريد لكم ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام وإذلال الأصنام، ﴿والله عزيز﴾ فاحذروا انتقامه ﴿حكيم﴾ فاتبعوا أحكامه، وهذا كان يوم بدر كما ذكرناه.

فلما استفحل سلطان الإسلام وظهر أمر الله وضرب الدين بـجِرانه[٣] أذن الله لهم في المنّ والفداء فقال: ﴿فإما مناً بعد وإما فداء﴾ [محمد:٤].

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس من قبلكم، وإنما كانت تنزل نار من السماء فتأكلها. فلما كانت يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم، فأنزل الله: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾»[٤].

وفي معنى الكلام أقوال:

أحدها: لولا ما سبق في اللوح المحفوظ من إحلال الغنائم لكم، لَمَسَّكُم فيما تعجلتم وأخذتم يوم بدر قبل الإذن لكم في ذلك عذاب عظيم. وهذا قول ابن عباس في رواية ابن أبي طلحة[٥]، وإليه ذهب مقاتل[٦].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٤٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٠٩) وعزاه لابن المنذر.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٧٢)، وزاد المسير (٣/ ٣٨١).

(٣) أي: قَوِيَ الدِّينُ واسْتَقَرَّ (انظر: اللسان، مادة: جرن).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٧١ ح٣٠٨٥).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٤). وانظر: الطبري (١٠/ ٤٤)، وزاد المسير (٣/ ٣٨١).

(٦) تفسير مقاتل (٢/ ٢٨).

الثاني: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب من أتى ذنباً على جهالة، لَمَسَّكُم فيما أخذتم عذاب عظيم. رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال مجاهد[١].

الثالث: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه لا يعذبهم، -وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[٢]-. قاله الحسن وسعيد بن جبير[٣].

الرابع: لولا كتاب من الله سبق، وهو ما اشتمل عليه القرآن من التجاوز عن الصغائر. حكاه الماوردي[٤].

أنبأنا أبو علي بن عبدالله بن الفرج أخبرنا هبة الله بن الحصين، أخبرنا ابن المذهب، أخبرنا أبو بكر القطيعي، حدثنا عبدالله بن الإمام أحمد، حدثني أبي، حدثنا علي بن عاصم، عن حميد، عن أنس قال: «استشار رسول الله ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر فقال: إن الله قد أمكنكم منهم، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، اضرب أعناقهم. فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس، إن الله قد أمكنكم منهم، وإنما هم إخوانكم بالأمس، فقام [عمر][٥]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٥). وانظر: الطبري (١٠/ ٤٧)، وزاد المسير (٣/ ٣٨١-٣٨٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٠) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٩٥ ح٢٨٤٥)، ومسلم (٤/ ١٩٤١ ح٢٤٩٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٥/ ١٧٣٥). وانظر: الطبري (١٠/ ٤٦)، والماوردي (٢/ ٣٣٢)، وزاد المسير (٣/ ٣٨٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٠) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن سعيد بن جبير.

(٤) تفسير الماوردي (٢/ ٣٣٣).

(٥) زيادة من مسند أحمد (٣/ ٢٤٣).

فقال: يا رسول الله اضرب أعناقهم، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، ثم عاد النبي ﷺ مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، نرى أن تعفوَ عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. قال: فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان عليه من الغمّ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿لولا كتاب من الله سبق... الآية﴾»(١).

قال المفسرون: لم يكن أحد يوم بدر إلا أحبَّ الغنائم، إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسعد بن معاذ. أما عمر فكان لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه، وقال: يا رسول الله، ما لنا وللغنائم؟! نحن قوم نجاهد في سبيل الله(٢).

وأما سعد بن معاذ؛ فقال ابن إسحاق: «لما وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله ﷺ في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار رضي الله عنهم يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من كَرَّة العدو، فرأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية، فقال: يا سعد، لكأنك تكره ما يصنع الناس؟ فقال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بالمشركين، وكان الإثخان في القتل أحبَّ إليّ من استبقاء الرجال، فقال رسول الله ﷺ: لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٣ ح ١٣٥٨٠).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٤٨) عن ابن زيد. وانظر: الوسيط (٢/ ٤٧٢).

(٣) ذكره الطبري في تاريخه (٢/ ٣٤)، وابن هشام في سيرته (٣/ ١٧٦).

قال مجاهد: وقال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: «كاد يصيبنا في خلافك بلاء»[١].

قال أهل التفسير: فلما نزل هذا تحرجوا حينئذ من الغنائم، فأنزل الله: ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾[٢].

قال الزجاج[٣]: الفاء للجزاء، والمعنى: قد أحللت لكم الغنائم فكلوا. وقد سبق في البقرة "حلالاً طيباً".

وصح عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة أنه قال: «لم تحل الغنائم لمن كان قبلنا، ذلك بأن الله عز وجل رأى ضعفنا وعجزنا فطيبها لنا»[٤].

﴿واتقوا الله﴾ فلا تجترؤوا على ما لم يأذن لكم فيه، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ قال ابن عباس: غفر لكم ما أخذتم من الفداء، ورحمكم لأنكم أولياؤه[٥].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٩ ح٣٢٧٠).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٧٣).

(٣) لم أقف عليه في معاني الزجاج. وانظر: زاد المسير (٣/ ٣٨٢).

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٦٦ ح١٧٤٧).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٧٣).

قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾ قال أهل التفسير: لما انطلق رسول الله ﷺ بالأسارى المدينة، وفيهم العباس بن عبدالمطلب وعقيل، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مع العباس يومئذ عشرون أوقية من ذهب، ولم يبلغه النَّوْبَة في الإطعام، فأخذت منه في الحرب، فكلّم النبي ﷺ أن يحتسب بها من فدائه، فأبى وقال: شيء خرجت تستعين به علينا لا أتركه لك، وألزمه بفداء ابني أخيه عقيل ونوفل ثمانين أوقية من ذهب، وكان فداء كل أسير أربعين أوقية[١].

وقال محمد بن سيرين: كان فداء كل أسير مائة أوقية، والأوقية أربعون درهماً[٢].

وقال العباس لرسول الله ﷺ: تركت عمك يتكفف قريشاً ما عاش، فقال رسول الله ﷺ: «وأين الذهب الذي تركته عند أم الفضل، فقلت لها: ما أدري ما يصيبني في وجهي هذا، فإن حدث بي حدث فهذا لك ولعبدالله والفضل ولقثم» يعني: بنيه، فقال: يا ابن أخي وما يدريك؟ فقال: «أخبرني به ربي عز وجل». فقال العباس: أشهد أنك صادق وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله، والله لم يطلع على هذا أحد سوى الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل. فأسلم، وأمر ابني أخيه فأسلما. وأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٤٥)، وفي الوسيط (٢/ ٤٧٣)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٨٣).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٤٦) من طريق ابن سيرين عن عبيدة.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٤٥)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٨٣).

وروي عن ابن عباس: أنها نزلت في جميع من أُسِرَ يوم بدر(١).

وقال ابن زيد: لما بُعث رسول الله ﷺ أتاه رجال فقالوا: [لولا](٢) أنا نخاف القوم لأسلمنا، ولكنا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فلما كان يوم بدر قالوا: لا يتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره، واستحللنا ماله، فخرج أولئك القوم، فقتلت طائفة وأسرت طائفة. فأما الذين قتلوا فهم الذين قال الله فيهم: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ [النساء:٩٧]، وأما الذين أُسِروا فقالوا: يا رسول الله، أنت تعلم أنا كنا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وإنما خرجنا مع هؤلاء خوفاً منهم، فذلك: ﴿قل لمن في أيديكم من الأسارى﴾ إلى قوله: ﴿عليم حكيم﴾(٣).

قوله تعالى: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيراً﴾ يعني: صدقاً وإيماناً ﴿يؤتكم خيراً مما أُخِذَ منكم﴾.

وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة: "أَخَذ" بفتح الهمزة والخاء(٤)، يعني: أكثر مما أخذ منكم من الفداء وأحل وأطيب.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٤٩)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ١٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٨٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٣) وعزاه لابن سعد وابن عساكر.

(٢) في الأصل: لا. والمثبت من مصادر التخريج.

(٣) أخرجه الطبري (٥/ ٢٣٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٣٨٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦٤٨) وعزاه لابن جرير.

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٩).

قال العباس رضي الله عنه: فأعطاني الله عز وجل خيراً مما أخذ مني عشرين عبداً كلهم يضرب بمال كثير، وأدناهم من يضرب بعشرين ألف درهم، وأنا أرجو المغفرة من ربي(١).

أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً من حديث أنس بن مالك قال: «أُتي النبي ﷺ بمال من البحرين فقال: انثروه في المسجد، فكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، إذ جاءه العباس فقال: يا رسول الله! إني فاديت نفسي وفاديت عقيلاً، فقال: خذ. فحثا في ثوبه، ثم ذهب لِيُقِلَّهُ(٢) فلم يستطع. فقال: مُرْ بعضهم يرفعه عليّ، قال: لا. قال: فارفعه أنت عليّ، قال: لا، فنثر منه، ثم ذهب ليقله فلم يستطع، فقال: مُرْ بعضهم يرفعه عليّ، قال: لا. قال: فارفعه أنت عليّ، قال: لا، فنثر منه، ثم احتمله على كاهله ثم انطلق، فما زال يُتبعه بصره حتى خفي علينا عجباً من حرصه، فما قام رسول الله ﷺ وثمّ منه درهم واحد»(٣).

قوله تعالى: ﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ يعني: نكث ما عاهدوك عليه من الإسلام بالعود إلى الكفر ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ يوم بدر قتلاً وأسراً.

وعلى قول ابن زيد: يكون المعنى: فقد خانوا الله من قبل بخروجهم مع المشركين(٤).

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٤٩). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٤٥)، والوسيط (٢/ ٤٧٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٢) وعزاه لأبي نعيم في الدلائل.

(٢) أَقَلَّ الشيء يُقِلُّه واستقلَّه يستقلُّه: إذا رفعه وحمله (اللسان، مادة: قلل).

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً (١/ ١٦٢ ح٤١١).

(٤) زاد المسير (٣/ ٣٨٤).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا﴾ أي: هجروا أوطانهم وأهلهم وأموالهم ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ ونصرة دينه، ﴿والذين آووا ونصروا﴾ يعني: الأنصار آووا المهاجرين وأسكنوهم في منازلهم ونصروهم على أعدائهم، ﴿أولئك بعضهم أولياء بعض﴾ في المعاضدة والمناصرة.

وقيل: في الميراث.

قال المفسرون: فكان المهاجرون يتوارثون بالهجرة دون القرابة، وهو معنى قوله: ﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وألوا الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾[١].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٥١-٥٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٧٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٤) وعزاه لابن مردويه عن ابن عباس. وانظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٤٧٤-٤٧٥)، والناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:٩٥)، ونواسخ القرآن (ص:٣٥٣-٣٥٦).

قرأ حمزة: "من وِلايتهم من شيء" بكسر الواو، وافقه الكسائي في الكهف، وفتحها الباقون[١].

قال ابن الأنباري[٢]: الوَلاية -بالفتح-: مصدر الوَلِيّ، وبالكسر: مصدر الوالي، يقال: وَلِيٌّ بَيِّن الوَلاية، ووالٍ بَيِّن الوِلاية، ثم يصلح في ذا ما يصلح في ذا.

وقال أبو عبيدة[٣]: الوَلاية للخالق، والوِلاية -بالكسر- للمخلوق.

وقال يونس النحوي: الوَلاية -بالفتح- لله عز وجل، والوِلاية: من وليت الأمر[٤].

وقيل: هما بمعنى واحد كالوَكالة والوِكالة.

﴿وإن استنصروكم في الدين﴾ يعني: الذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿فعليكم النصر﴾ أي: فواجب عليكم نصرهم والذبّ عنهم لكونهم مؤمنين، ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: عهد، فلا تنصروهم عليهم لما في ذلك من الغدر والنقض.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣١٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٤)، والكشف (١/ ٤٩٧)، والنشر (٢/ ٢٧٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٣٩)، والسبعة في القراءات (ص:٣٠٩).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٨٥).

(٣) ذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن (١/ ٢٥١) عند قوله: ﴿من ولايتهم﴾: إذا فتحتها فهي مصدر المَوْلى، وإذا كسرتها فهي مصدر الوالي الذي يلي الأمر، والمَوْلَى والمُوْلَى واحد. وانظر نص المصنف في: زاد المسير (٣/ ٣٨٥).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٨٥).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾ قال ابن عباس: في الميراث[(١)].

وقال قتادة: في النصرة[(٢)].

وليس هذا على وجه الحكم عليهم بذلك، كما في الآية التي قبلها، وإنما هو نهي للمؤمنين عن موالاتهم ومناصرتهم.

﴿إلا تفعلوه﴾ أي: تفعلوا ما أمرتكم به من الموالاة والمعاضدة والميراث ومصارمة الكفار، وقطع ما بينكم وبينهم من المودة والقرابة، وغير ذلك من أسباب الوصل، ﴿تكن فتنة في الأرض﴾ أي: ضلال وشرك، ﴿وفساد كبير﴾ أي: عظيم.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٥٦)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٧٤٠). وانظر: تفسير الماوردي (٢/ ٣٣٥)، وزاد المسير (٣/ ٣٨٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١١٦) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٥٥). وانظر: الماوردي (٢/ ٣٣٥)، وزاد المسير (٣/ ٣٨٦).

وهذا القول هو الذي اختاره الطبري (١٠/ ٥٦) وقال: وأولى التأويلين بتأويل الآية قول من قال: معناه: أن بعضهم أنصار بعض دون المؤمنين، وأنه دلالة على تحريم الله على المؤمن المقام في دار الحرب وترك الهجرة؛ لأن المعروف في كلام العرب من معنى الولي أنه النصير والمعين، أو ابن العم والنسيب. فأما الوارث فغير معروف ذلك من معانيه إلا بمعنى أنه يليه في القيام بإرثه من بعده، وذلك معنى بعيد؛ وإن كان قد يحتمله الكلام. وتوجيه معنى كلام الله إلى الأظهر الأشهر أولى من توجيهه إلى خلاف ذلك.

وقرأ أبو هريرة وابن سيرين وابن السميفع: "كثير" بالثاء[١]، وبها قرأت على شيخنا أبي البقاء للكسائي من رواية الشيزري عنه.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ أي: حققوا إيمانهم وصدقوه بالعمل بمقتضاه وفعل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، والرزق الكريم: الحسن. وهذه الآية ثناء عليهم، والتي قبلها أمر لهم بالتواصل والتناصر، فلا تكرار.

قوله: ﴿والذين آمنوا من بعد﴾ يريد اللاحقين بالسابقين إلى الهجرة.

قال ابن عباس: هم الذين هاجروا بعد الحديبية[٢].

﴿فأولئك منكم﴾ في الموالاة وغيرها، ﴿وأولوا الأرحام﴾ يعني: القرابات ﴿بعضهم أولى ببعض﴾ في الميراث.

قال المفسرون: وهذا نسخ لما كانوا يتوارثون به من الهجرة والمؤاخاة[٣].

وقد استدل علماؤنا بهذه الآية على توريث ذوي الأرحام، وبه قال أبو حنيفة.

وقال مالك والشافعي: لا يرثون.

---

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٧٤)، وزاد المسير (٣/ ٣٨٧).

(٣) مثل السابق.

وقد روى الإمام أحمد بإسناده: «أن أبا عبيدة كتب إلى عمر رضي الله عنه في رجل قتل ولا وارث له إلا خال، فكتب إليه عمر أن النبي ﷺ قال: إن الله ورسوله مولى من لا مولى له، والخال وارث من لا وارث له»(١).

ولأن ذوي الأرحام ساووا المسلمين في الإسلام وامتازوا بقرابة الرّحم فوجب تقديمهم.

فصل

وميراثهم عند الإمام أحمد رضي الله عنه بالتنزيل، فإذا مات عن بنت بنت وبنت أخت، فلكل واحد منهما النصف، ويرث الأبعد مع الأقرب إذا كانا من جهتين.

مثاله: (خالة وبنت عمة): للخالة الثلث، والباقي لبنت العمة.

وقال أكثر المنزلين: المال للأقرب، وهي الخالة، كما لو كانا من جهة واحدة.

وهل يستوي بين الذكور والإناث في الميراث؟ فيه عن إمامنا روايتان:

إحداهما: يسوّى بينهم؛ لأنهم يرثون بالرحم المحض، فلا يفضل الذكر على الأنثى كالإخوة من الأم.

والأخرى: يفضل الذكر على الأنثى، وبها قال أبو حنيفة وأصحابه.

والمراد بقوله ﴿في كتاب الله﴾: اللوح المحفوظ. وقيل: القرآن، فأتى فيه قسمة المواريث، وقيل: في حكمه وقسمته.

﴿إن الله بكل شيء﴾ مما خلق وفرض وحدّ ﴿عليم﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٢١ ح٢١٠٣)، وابن ماجه (٢/ ٩١٤ ح٢٧٣٧)، وأحمد (١/ ٢٨ ح١٨٩).

سورة براءة

بسم الله الرحمن الرحيم

وهي مائة وثلاثون آية، وقيل: مائة وتسعة وعشرون آية. والكلام عليها تحصره فصول:

الأول: في أسمائها:

وهي تسعة أسماء: براءة والتوبة، وهما مشهوران.

الثالث: سورة العذاب. قاله حذيفة[١].

الرابع: سورة البَحوث؛ لأنها بحثت عن سرائر المنافقين. قاله المقداد[٢].

الخامس: المُقَشْقِشَة؛ لأنها تبرئ من مرض الشك والنفاق، من قولك: تَقَشْقَشَ المريض؛ إذا برأ[٣].

قال الأصمعي: وكان يقال لـ ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ و ﴿قل هو الله أحد﴾ المقشقشتان؛ لأنها تبرئان من النفاق[٤].

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٦١)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٢)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٨٥-٨٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٢٠) وعزاه لابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٩)، والبيهقي في سننه (٩/ ٢١).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (قشش).

(٤) انظر: القرطبي (٢٠/ ٢٢٥).

قال أبو عبيدة[١]: كما يُقَشْقِشُ الهِنَاءُ[٢] الجَرَبُ فَيُبْرِئُه. قاله ابن عمر[٣].

السادس: الفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين. قاله ابن عباس[٤].

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس قال: «هي الفاضحة، ما زالت تقول: ومنهم [ومنهم][٥]، حتى ظنوا أن لا يبقى أحد إلا ذكر فيها»[٦].

السابع: المثيرة. قاله قتادة[٧]؛ لأنها أثارت مخازي المنافقين.

الثامن: المبعثرة. قاله ابن إسحاق[٨]. ومعناه قريب من الذي قبله.

التاسع: الحافرة؛ لأنها حفرت عما في ضمائرهم[٩].

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٦).

(٢) الهِنَاءُ: ضَرْبٌ من القَطِران (اللسان، مادة: هنأ).

(٣) ذكره السيوطي في الدر (٤/ ١٢١) وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩) كلاهما عن قتادة. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٢٠) وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وذكره السيوطي أيضاً (٤/ ٢٢٩) من طريق قتادة، وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) زيادة من الصحيحين.

(٦) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٥٢ ح٤٦٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٣٢٢ ح٣٠٣١).

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٢٩) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٨) الماوردي (٢/ ٣٣٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ١٢١) وعزاه لابن المنذر.

(٩) زاد المسير (٣/ ٣٨٩).

الفصل الثاني:

ذهب عامة أهل العلم إلى أنها مدنية، وأنها من أواخر ما نزل من القرآن[1]، نزلت في سنة تسع.

ويروى: أن أعرابياً سمع قارئاً يقرؤها فقال: أحسبها من آخر ما نزل. فقيل له: من أين علمت هذا؟ فقال: أسمع عهوداً تنبذ، ووصايا تنفذ.

وقد ذكرنا في مقدمة الكتاب حديثاً مسنداً صحيحاً في بيان صحة هذا المعنى.

الفصل الثالث: في سبب نزولها

ذكر محمد بن إسحاق وغيره من أهل العلم بالتفسير والسير: أنه لما انتظم الصلح بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو عام الحديبية كتبوا: هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع [الحرب][2] عشر سنين[3] [يأمن فيها الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه لا إِسْلال ولا

---

(١) قال السيوطي في الإتقان (١/ ٤٨): قال ابن الغرس: مدنية إلا آيتين: ﴿لقد جاءكم رسول ...﴾ إلى آخرها.
قلت -يعني السيوطي-: غريب، كيف ورد أنها آخر ما نزل واستثنى بعضهم ﴿ما كان للنبي ... الآية﴾ لما ورد أنها نزلت في قوله عليه الصلاة والسلام لأبي طالب: «لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك».

(٢) زيادة من زاد المسير (٣/ ٤٠٠).

(٣) من هنا سقط عدة لوحات من الأصل وذلك إلى قوله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ... الآية﴾. وقد استدركنا بقية الأثر من زاد المسير (٣/ ٤٠٠).

إِغْلال[١]، وأن بيننا عَيْبَةٌ مَكفوفة[٢]، وأنه من أحبَّ أن يدخل في عهد محمد وعقده فَعَل، ومن أحبَّ أن يدخل في عهد قريش وعقدها فَعَل، وأنه من أتى محمداً منهم بغير إذن وليّه رَدَّه إليه، وأنّه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يَرُدُّوه، وأنّ محمداً يرجع عنا عامه هذا وأصحابه، ويدخل علينا في قابل في أصحابه، فيقيم بها ثلاثاً، لا يدخل علينا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القُرُب[٣]، فوثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ووثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل في عهد قريش وعقدها. ثم إن قريشاً أعانت بني بكر على خزاعة بالرجال والسلاح، فبيتوا خزاعة ليلاً فقتلوا منهم عشرين رجلاً، ثم إن قريشاً ندمت على ما صنعت، وعلموا أن هذا نقض للعهد والمدة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وخرج قوم من خزاعة إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بما أصابهم، فخرج إليهم، وكانت غزاة الفتح][٤].

---

(١) الإسلال: السرقة الخفية (اللسان، مادة: سلل).
والإغلال: الخيانة (اللسان، مادة: غلل).

(٢) العيبة: ما يجعل فيه الثياب. والعيبة المكفوفة: قال ابن الأعرابي: معناه: أن بيننا وبينهم في هذا الصلح صَدْراً مَعْقُوداً على الوفاءِ بما في الكتاب، نَقِيّاً من الغِلِّ والغَدْرِ والخِداع. والمَكْفُوفَةُ: المُشْرَجَة المَعْقُودة. والعربُ تكني عن الصُّدُور والقُلُوب التي تَحْتوي على الضمائر المُخْفاةِ: بالعِيابِ. وذلك أن الرجلَ إنما يَضَعُ في عَيْبَته حُرَّ مَتاعِه، وصَوْنَ ثيابه، ويَكتُم في صَدْرِه أَخَصَّ أَسراره التي لا يُحِبُّ شُيوعَها، فسُمِّيت الصدور والقلوبُ عِياباً؛ تشبيهاً بعِياب الثياب (اللسان، مادة: عيب).

(٣) القُرُب: جمع، واحده: قِراب، وهو: غِمْدُ السيف والسكين (اللسان، مادة: قرب).

(٤) ما بين المعكوفين استدرك من زاد المسير (٣/ ٤٠٠).

[عن أبي عبيد الله مسلم بن مشكم قال: خرجت مع شداد بن أوس فنزلنا مرج الصفر، فقال: ائتوني بالسفرة نبعث بها، فكان القوم يحفظونها منه، فقال: يا بني أخي، لا تحفظوها عني، ولكن احفظوا مني ما سمعت من رسول الله ﷺ: «إذا اكتنز الناس الدنانير والدراهم، فاكتنزوا هؤلاء الكلمات: اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد][1] وأسألك شكر نعمتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[2].

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً﴾ قال الزجاج[3]: أعلم الله عز وجل أن عدة شهور المسلمين التي تُعُبِّدُوا بأن يجعلوها لسَنَتِهم اثنا عشر شهراً على منازل القمر، واستهلال الأهلة.

﴿في كتاب الله﴾ وهو اللوح المحفوظ.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من صحيح ابن حبان (٣/ ٢١٥-٢١٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢١٥-٢١٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٤٦)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٨).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٤٤٥-٤٤٦).

قال ابن عباس: هو الإمام، الذي عند الله كتبه[١].

﴿يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم﴾ وقد ذكرناها عند قوله: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم﴾.

﴿ذلك الدين القيم﴾ قال ابن عباس: القضاء المستقيم[٢].

وقال ابن قتيبة[٣]: ذلك الحساب الصحيح والعدد المستوي.

﴿فلا تظلموا فيهن﴾ أي: في الأشهر الحرم ﴿أنفسكم﴾.

قال قتادة: الظلم في الأشهر الحرم أعظم وزراً من الظلم فيما سواها، وإن كان الظلم على كل حال عظيماً[٤].

وقال ابن إسحاق: المراد بالظلم فيهن: فعل النسيء، وهو تحليل شهرٍ محرّم وتحريم شهرٍ محلّل[٥].

وقال مقاتل[٦]: المعنى: لا تظلموا أحداً بالقتال في الشهر الحرام إلا أن يبدؤوكم بالقتل.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٩٤)، وزاد المسير (٣/ ٤٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٨٤) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٨٥).

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٨٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) أخرج نحوه الطبري (١٠/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٣). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٩٤).

(٦) تفسير مقاتل (٢/ ٤٦).

وقد ذكرنا في البقرة أن تحريم بداية مشركي العرب بالقتال في الشهر الحرام منسوخ عند أكثر العلماء.

وقيل: المعنى: لا تظلموا فيهن أنفسكم بترك قتال الكفار[١].

وقد روي عن ابن عباس: أن الضمير في قوله: ﴿فلا تظلموا فيهن﴾ يعود إلى قوله: ﴿اثنا عشر شهراً﴾[٢].

والأول اختيار أكثر اللغويين والمفسرين.

وقال ابن الأنباري[٣]: العرب تعد الهاء والنون على القليل من العدد، والهاء والألف على الكثير منه، والقلة: ما بين الثلاثة إلى العشرة، والكثرة ما جاوز العشرة. يقولون: وجهت إليك أكبشاً فاذبحهن، وكباشاً فاذبحها، فلذلك قال: ﴿منها أربعة حُرُم﴾، وقال: ﴿فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾ لأنه يعني بقوله: "فيهن": الأربعة الأشهر[٤].

ومن قال أن الضمير في "فيهن" يعود إلى قوله: "اثنا عشر" فإنه ممكن؛ لأن العرب ربما جعلت علامة القليل للكثير، وعلامة الكثير للقليل.

---

(١) وهو قول ابن بحر، وهو عكس قول مقاتل. انظر: الماوردي (٣/ ٣٦٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٢). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣٣)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٨٧) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٣٣).

(٤) فائدة: قال ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٣٤): السرّ في أنّ الله تعالى عظّم بعض الشهور على بعض؛ ليكون الكفّ عن الهوى فيها ذريعة إلى استدامة الكف في غيرها، تدريجاً للنفس إلى فراق مألوفها المكروه شرعاً.

قوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ يعني: جميعاً، ونصبه على الحال من الفاعل، أو المفعول[١]. والأول أظهر.

ثم ضمن لهم النصر بشرط التقوى فقال: ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٧﴾

قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾ قرأتُ لأبي جعفر ولأبي عمرو من رواية فرج عن اليزيدي: "النَّسِيُّ" بالتشديد من غير همز[٢].

قال الزمخشري[٣]: النسيء مصدر نسأه؛ إذا أخره[٤]، يقال: نَسَأَهُ نَسْأً ونَساءً ونسيئاً؛ كقولك: مَسَّهُ مَسّاً ومِسَاساً ومَسِيساً[٥].

وقال الجوهري[٦] وغيره: هو فعيل بمعنى مفعول، من قولك: نَسَأْتُ الشَّيْءَ فهو مَنْسُوءٌ؛ إذا أَخَّرْتَهُ، ثم صرفوا منسوءاً إلى نَسِيءٍ، كما صرفوا مقتولاً ومجروحاً إلى قتيل وجريح.

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ١٥)، والدر المصون (٣/ ٤٦٢).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٢٣)، والنشر (١/ ٤٠٥)، والكشف (١/ ٥٠٢)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٤).

(٣) الكشاف (٢/ ٢٥٨).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (نسأ).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (مسس).

(٦) الصحاح (١/ ٧٧).

وقيل: نَسَأْتُ الشَّيْءَ نَسْأً؛ إذا أَخَّرته، وكذلك أَنْسَأْتُهُ[١].

واختلفوا في أصل الكلمة؛ فذهب الأكثرون إلى أنها من التأخير.

قال الأخفش[٢]: ومنه: النسيء في البيع، ويُقال: أَنْسَأَ الله في أَجَلك.

وقال قطرب: هو من الزيادة، فكل زيادة حدثت في شيء فهو نسيء، وقال: ومنه: قد نَسَأْتُ الناقة وَأَنْسَأْتُها؛ إذا زَجَرْتَها ليزداد سَيْرُها.

والأول أظهر وأشهر.

قال ابن عباس وقتادة وعامة المفسرين واللغويين: كانت العرب تحرم الشهور الأربعة، وكان ذلك مما تمسكت به من ملة إبراهيم وإسماعيل، وكانوا ربما احتاجوا إلى تحليل المحرم للحرب تكون بينهم، فيؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، ثم يحتاجون إلى تأخير صفر فيؤخرونه إلى الشهر الذي بعده، ثم كذلك حتى يستدير التحريم على السنة كلها[٣].

فأعلم الله عز وجل أن ذلك زيادة في كفرهم؛ لأنهم أحلوا الحرام وحرموا الحلال.

وإلى هذا المعنى أشار النبي ﷺ بقوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض»[٤]، أي: رجع التحريم إلى الشهور الأربعة، وبطل أمر النسيء، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في الموسم.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (نسأ).

(٢) انظر: معاني الأخفش (ص: ٢١٠).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٩٤)، وزاد المسير (٣/ ٤٣٥).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ١١٦٨ ح٣٠٢٥)، ومسلم (٣/ ١٣٠٥ ح١٦٧٩).

قال الفراء[(١)]: كانت العرب في الجاهلية إذا [أرادوا][(٢)] الصَّدر عن منى، قـام رجل من بني كنانة يقال له: نُعيم بن ثعلبة -وكان رئيس الموسم-، يقول: أنا الذي لا أعاب ولا أجاب، ولا يُردّ لي قضاء، فيقولون: [صـدقت][(٣)]، أَنْـسِئْنا شـهراً، يريدون: أخِّر عنا حرمة المحرم واجعلها في صـفر، [وأحِـلَّ المحـرم][(٤)]، فيفعـل ذلك. وإنما دعاهم إلى ذلك توالي الأشهر الثلاثة، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، وكانت عامة معيشتهم من الغارات.

قوله تعالى: ﴿يضل به الذين كفروا﴾ أي: بالنسيء.

واختلف القراء في "يُضَلُّ" فقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر بضم الياء وفتح الضاد على ما لم يُسَمَّ فاعله.

وقرأتُ لجماعة، منهم يعقوب الحضرمي: بضم الياء وكسر الضاد[(٥)].

وقرأ الباقون بفتح الياء وكسر الضاد[(٦)].

فعلى القراءة الأولى والثالثة: "الذين كفروا" في موضـع رفـع. وعـلى القـراءة الثانية: جائز أن يكون في موضع رفع، على معنى: يضلون به أتباعهم. وجـائز أن يكون في موضع نصب، على معنى: يضل الله، أو يضل الشيطان به الكفار.

---

(١) معاني الفراء (١/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٢) في الأصل: أراد. والتصويب من معاني الفراء (١/ ٤٣٦).

(٣) زيادة من معاني الفراء، الموضع السابق.

(٤) زيادة من معاني الفراء (١/ ٤٣٧).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٣٢٤)، والحجة لابـن زنجلـة (ص:٣١٨-٣١٩)، والكـشف (١/ ٥٠٢-٥٠٣)، والنشر (٢/ ٢٧٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢)، والسبعة في القراءات (٣١٤).

﴿يحلونه عاماً﴾ قال ابن عباس: إذا قاتلوا فيه أحلّوه وحرّموا مكانه صَفَر، وإذا لم يقاتلوا فيه حرَّموه[١].

﴿ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ المواطأة: المماثلة والموافقة على الشيء. يقال: أوطأت فلاناً على كذا؛ إذا وافقته عليه[٢]، فالمعنى: ليوافقوا عدة ما حرَّم الله، فلا يخرجون من تحريم أربعة أشهر، ويقولون: هي بمنزلة الحرم.

﴿فيحلوا﴾ بهذه المواطأة ﴿ما حرم الله﴾.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض﴾ قال المفسرون: لما أمر رسول الله ﷺ بغزوة تبوك -وكان زمن عسرة

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٩٥).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (وطأ).

وجدب وحَرّ شديد- كرهوا ذلك إيثاراً للثمر والظلال، وفراراً من السفر والقتال، وكان زمنَ طيب الثمار واستوائها، فنزلت هذه الآية[١].

والاستفهام في معنى التوبيخ. وأصل النَّفْر: مفارقة مكان إلى مكان لا هاج على ذلك، يقال: نفَرَ فلان إلى ثغر كذا يَنْفِرُ نفْراً ونفِيراً[٢]، ومنه: نُفُور الدابّة ونِفَارها.

[والأصل][٣] في "اثَّاقَلْتُم": تثاقلتم، ومنه على الأصل قرأ ابن مسعود والأعمش[٤]، فأدغمت التاء في الثاء؛ لاشتراكهما في الهمس، وتقاربهما في المخرج، ثم اجتلبت الهمزة توصلاً إلى النطق بالساكن. والمعنى: تثاقلتم وتقاعستم ذهاباً مع طلب الراحة والدَّعَة.

﴿أرضيتم بالحياة الدنيا﴾ المُنَغَّصَةُ بالفناء ﴿من الآخرة﴾ المُخَصَّصَةُ بالبقاء، ﴿فما متاع الحياة الدنيا﴾ وهو نعيمها الذي مِلْتُمْ إليه بالنسبة إلى نعيم الآخرة ﴿إلا قليل﴾.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٦) كلاهما عن مجاهد، ومجاهد في تفسيره (ص:٢٧٨-٢٧٩). وانظر: الوسيط (٢/ ٤٩٥)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٥٠-٢٥١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٩٠) وعزاه لسنيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن مجاهد.

(٢) انظر: اللسان، مادة: (نفر).

(٣) في الأصل: والأ.

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢).

أخبرنا الشيخ أبو المجد محمد بن الحسين بن أحمد القزويني بقراءتي عليه في رأس عين[(١)] بالجامع، أخبرنا أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي، حدثنا أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد بن الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب الكسائي، أخبرنا عبدالله بن محمود[(٢)]، أخبرنا إبراهيم بن عبدالله الخلال[(٣)]، حدثنا عبدالله بن المبارك.

وأخبرنا عالياً أبو حفص عمر بن طبرزد إذناً، أخبرنا الشيخ أبو غالب أحمد بن الحسن بن البناء، أخبرنا الحسن بن علي الجوهري، أخبرنا أبو عمر بن حيويه، وأبو بكر محمد بن إسماعيل الوراق قالا: حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد، حدثنا الحسين بن الحسن المروزي، أخبرنا عبدالله بن المبارك، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن المستورد بن شداد[(٤)]، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله

---

(١) رأس عين: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً، وقريب من ذلك بينها وبين حران، وهي إلى دنيسر أقرب، بينهما نحو عشرة فراسخ، وفيها عيون كثيرة عجيبة صافية، تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور (معجم البلدان ٣/ ١٤).

(٢) عبدالله بن محمود المروزي، أبو عبد الرحمن، روى عن حبان بن موسى، وعلى بن حجر، وعبدالوارث بن عبيد الله صاحب ابن المبارك، وإبراهيم بن عبدالله الخلال صاحب ابن المبارك (الجرح والتعديل ٥/ ١٨٣).

(٣) إبراهيم بن عبد الله بن أحمد المروزي الخلال، أبو إسحاق، صدوق، مات سنة إحدى وأربعين ومائتين (تهذيب التهذيب ١/ ١١٥، والتقريب ص:٩٠).

(٤) المستورد بن شداد بن عمرو بن حنبل بن الأحنف بن حبيب بن عمرو بن سفيان بن محارب بن دثار القرشي الفهري الحجازي، سكن الكوفة، وتوفي بالإسكندرية سنة خمس وأربعين (تهذيب التهذيب ١٠/ ٩٧، والتقريب ص:٥٢٧).

ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع»[١].

هذا حديث صحيح، انفرد مسلم بإخراجه في صحيحه، فرواه عن محمد بن حاتم، عن يحيى بن سعيد، عن إسماعيل.

قوله تعالى: ﴿إلا تنفروا﴾ أي: تخرجوا من بيوتكم مع نبيكم لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمة الإسلام ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾ قال ابن عباس: استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فتثاقلوا عنه، فأمسك الله المطر عنهم فكان عذابهم[٢].

﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ خيراً منكم وأطوع.

ثم أخبر سبحانه وتعالى أنه غني عنهم، وأن تثاقلهم غير قادح في إظهار دينه فقال: ﴿ولا تضروه شيئاً﴾ والضمير في "تضرّوه" يرجع إلى الله تعالى، في قول الحسن[٣].

وقيل: يرجع إلى ما يرجع إليه قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه﴾ وهو محمد ﷺ.

والمعنى: إلا تنصروه أيها المتثاقلون عن النفير معه المتثبطون عن طاعته ﴿فقد نصره الله﴾ ولستم معه حين كان بمكة وأجمعوا على المكر به، ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ أي: اضطروه إلى الخروج بأنواع الأذى، وما تمالؤوا عليه من الفتك به يوم اجتمعوا بدار الندوة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٩٣ ح٢٨٥٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ١١)، والبيهقي في سننه (٩/ ٤٨)، والحاكم (٢/ ١١٤)، والطبري (١٠/ ١٣٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٧٩٧). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٩٣-١٩٤) وعزاه لأبي داود وابن المنذر وأبي الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه.

(٣) الماوردي (٢/ ٣٦٣)، وزاد المسير (٣/ ٤٣٨).

وقوله: ﴿ثاني اثنين﴾ كقوله: ﴿ثالث ثلاثة﴾ [المائدة:٧٣]، ونصبه على الحال[١]، وهما رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه.

ويروى: أن النبي ﷺ قال لجبريل لما أمره بالخروج: «من يخرج معي؟ قال: أبو بكر»[٢].

وقوله: ﴿إذ هما في الغار﴾ بدل من ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾[٣]. والغار في جبل قريب من مكة يقال له: ثور.

قال مجاهد: مكثا فيه ثلاثاً[٤].

قال عروة: وكان لأبي بكر منيحة من غنم، وكان عامر بن فهيرة يروح بتلك الغنم على رسول الله ﷺ بالغار[٥].

قال قتادة: وكان عبدالرحمن بن أبي بكر يختلف إليهما، فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج جاءهم بناقتين فانطلقوا[٦].

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ١٥)، والدر المصون (٣/ ٤٦٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٥)، والزمخشري في الكشاف (٢/ ٢٥٩). ولم يتعرض له الحافظ ابن حجر في تخريجه على الكشاف.

(٣) انظر: التبيان (٢/ ١٥)، والدر المصون (٣/ ٤٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٤٥)، والطبري (١٠/ ١٣٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٠٢) وعزاه لابن أبي شيبة.

(٥) أخرجه الطبري (١٠/ ١٣٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٠٤) من حديث طويل، وعزاه لعبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الزهري عن عروة عن عائشة.

(٦) ذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٠٤) بلا نسبة.

قال الزهري: لما دخل رسول الله ﷺ وأبو بكر الغار أرسل الله تعالى زوجاً من حمام حتى باضا في أسفل النقب، والعنكبوت حتى نسج بيتاً. فلما جاء سراقة بن مالك في طلبهما قال: لو دخلاه لتكسر البيض وتفسخ بيت العنكبوت(١).

وفي الصحيحين من حديث أنس: «أن أبا بكر رضي الله عنه قال: نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وعلى رؤوسنا، فقلت: يا رسول الله! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه!! فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(٢).

وقال محمد بن سيرين: «ذُكِرَ رجالٌ في عهد عمر، فكأنهم فَضَّلُوهُ على أبي بكر، فبلغ ذلك عمر فقال: والله لليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر، وليوم من أبي بكر خير من آل عمر. لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ. فقال له: يا أبا بكر! ما لك تمشي ساعة بين يديّ وساعة خلفي؟ فقال: يا رسول الله! أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرصد فأمشي أمامك. فقال: يا أبا بكر! لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني، فقال: نعم والذي بعثك بالحق. فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الغار. ثم قال: انزل يا رسول الله فنزل. فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خير من آل عمر»(٣).

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٢٩٦). قال الماوردي في تفسيره (٢/ ٣٦٤): وذهب بعض المتعمقة في غوامض المعاني إلى أن قوله تعالى: ﴿إذ هما في الغار﴾ أي: في غيرة على ما كانوا يرونه من ظهور الكفر فغار على دين ربه. وهو خلاف ما عليه الجمهور.

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٣٧ ح٣٤٥٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤ ح٢٣٨١).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧ ح٤٢٦٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين لولا إرسال فيه، ولم يخرجاه.

قال الشعبي: لقد عاتب الله أهل الأرض جميعاً غير أبي بكر في هذه الآية[(١)].

وفي الحديث: «أن النبي ﷺ قال لحسان بن ثابت: قلتَ في أبي بكر شيئاً؟ [قال: نعم. قال][(٢)]: قل حتى أسمع. قال: قلت:

وَثَانِيَ اثْنَيْنِ فِي الغَارِ المُنِيفِ وَقَدْ طَافَ العَدُوُّ بِهِ إِذْ صَاعَدَ الجَبَلا
وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ الله قَدْ عَلِمُوا مِنَ الخَلائِقِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ بَدَلا
الثَّانِي التَّالِي المَحْمُود مَشْهَدُهُ وَأَوَّل النَّاس مِنْهُم صَدَّقَ الرُّسُلا

فتبسم رسول الله ﷺ»[(٣)].

قوله تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ بدلٌ ثانٍ من "إذ أخرجه الذين كفروا"[(٤)].

قال أهل العلم: من أنكر أن يكون عمر أو علي أو عثمان أو أحد من الصحابة صاحب رسول الله ﷺ، فهو كذاب مبتدع، ومن أنكر أن يكون أبو بكر صاحب رسول الله ﷺ فقد كفر؛ لأنه ردّ نص القرآن[(٥)].

ويروى: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوم السقيفة حين تنازع المهاجرون والأنصار فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير، وأخذ بيد أبي

---

(١) الوسيط (٢/ ٤٩٦)، وزاد المسير (٣/ ٤٣٩). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٩٩-٢٠٠) وعزاه لابن عساكر عن سفيان بن عيينة.

(٢) زيادة من المستدرك (٣/ ٦٧).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٧ ح٤٤١٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٩٩) وعزاه لابن عدي وابن عساكر من طريق الزهري عن أنس.

(٤) انظر: التبيان (٢/ ١٥)، والدر المصون (٣/ ٤٦٥).

(٥) الوسيط (٢/ ٤٩٩).

بكر، سيفان في غمد لا يصطلحان فقال: من الذي له هـذه الثلاثـة؟ ﴿إذ همـا في الغار﴾ من هما؟ ﴿إذ يقول لصاحبه﴾ من صاحبه؟ ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ مع من؟ قال: فبسط يد أبي بكر وضرب عليها، ثم قال للناس: بايعوا، فبايع الناس أحسن بيعة(١).

أخبرنا حنبل بن عبدالله بن الفرج في كتابه، أخبرنا هبة الله بن الحصين، أخبرنا ابن المذهب، أخبرنا أحمد بن جعفر القطيعي، أخبرنا عبدالله بن أحمد، حدثني أبي قال: حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم(٢)، حدثنا المبارك بن فضالة(٣)، حدثنا أبو عمران الجوني، عن ربيعة الأسلمي(٤) قال: «كان بيني وبين أبي بكر كلام، فقال لي أبو بكر كلمة كرهتها وندم، فقال لي: يا ربيعة، ردّ عليّ مثلها حتى تكون قصاصاً، قال: قلت: لا أفعل، فقال أبو بكر: لتقولنّ أو لأستعْدينّ عليك رسـول الله ﷺ. فقلت: ما أنا بفاعل. قال: فانطلق أبو بكر إلى النبي ﷺ وانطلقت أتلوه. فجاء ناس من أسلم فقالوا لي: رحم الله أبا بكر، في أي [شيء](٥) يستعدي عليك رسول الله ﷺ، وهو الذي قال لك ما قال. فقلت: أتدرون ما هذا؟! هذا أبو بكر الصديق،

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٣٧)، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٤٥).

(٢) هاشم بن القاسم بن مسلم بن مقسم الليثي، أبو النضر البغدادي، خراساني الأصل، ولقبه قيصر، توفي سنة سبع ومائتين (تهذيب التهذيب ١١/ ١٨، والتقريب ص:٥٧٠).

(٣) مبارك بن فضالة بن أبي أمية، أبو فضالة البصري، مولى زيد بن الخطاب. صدوق، توفي سنة خمس وستين ومائة (تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧-٢٨، والتقريب ص:٥١٩).

(٤) ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي، أبو فراس المدني، كان من أهل الصفة، خدم النبي ﷺ، مات سنة ثلاث وستين بعد الحرة (تهذيب التهذيب ٣/ ٢٢٦، والتقريب ص:٢٠٨).

(٥) زيادة من المسند (٤/ ٥٨).

هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شيبة المسلمين، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله فيغضب لغضبه، فيغضب الله عز وجل لغضبهما، فيهلك ربيعة. قالوا: ما تأمرنا؟ قال: ارجعوا. قال: فانطلق أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فتبعته وحدي، حتى أتى النبي ﷺ فحدثه الحديث كما كان، فرفع إليّ رأسه فقال: يا ربيعة! ما لك والصدّيق؟ قلت: يا رسول الله، كان كذا كان كذا، قال لي كلمة كرهها، فقال لي: قل كما قلت لك حتى تكون قصاصاً، فأبيت. فقال رسول الله ﷺ: أجل فلا تردّ عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر، فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر. وقال: فولّى أبو بكر وهو يبكي»(١).

قوله تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ أي: على أبي بكر، في قول علي بن أبي طالب -كرّم الله وجهه- وابن عباس وعامة المفسرين(٢)؛ لأن النبي ﷺ كان ساكناً مطمئناً.

وقال مقاتل(٣): "عليه" أي: على النبي ﷺ.

﴿وأيده﴾ يعني: الرسول ﷺ ﴿بجنود لم تروها﴾ يعني: الملائكة، وذلك يوم بدر والأحزاب وحُنين.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٥٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠١) عن ابن عباس وحبيب بن أبي ثابت، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٩) عن حبيب. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٠٧) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن حبيب بن أبي ثابت، وعزاه للخطيب في تاريخه.

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٤٨).

وقال الزجاج[1]: ذلك في الغار حين صَرَفَتِ الملائكة وجوه الكفار وأبصارهم عن رؤيته.

﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ وهي كلمة الشرك، ﴿وكلمة الله﴾ وهي كلمة التوحيد ﴿هي العليا﴾.

وقرأت ليعقوب الحضرمي: "وكلمةَ الله" بالنصب[2].

﴿والله عزيز حكيم﴾.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ قال أكثر المفسرين: شباباً وكهولاً[3].

وروى عطاء عن ابن عباس: رجالة وركباناً[4].

وروي عنه أيضاً: "خفافاً": أهل اليسرة من المال، "وثقالاً": أهل العسرة[5].

وهو اختيار الزجاج، قال[6]: مُوسرين ومُعْسرين.

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٤٩).

(٢) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٢).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٣٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٠٨) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر.

(٤) الوسيط (٢/ ٤٩٩)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٢).

(٥) مثل السابق.

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٤٤٩).

وبعكس هذا القول قال أبو صالح والفراء، قال الفراء[١]: "الخفاف": ذوو العسرة وقلّة العيال، و"الثقال": ذوو العيال والميسرة.

وقال جويبر: أصحّاء ومرضى[٢].

قال الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو قد ذهبت إحدى عينيه، فقيل: إنك عليل صاحب ضرر. فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع[٣].

وقال صفوان بن عمرو: كنت والياً على حمص، فلقيت شيخاً كبيراً من أهل دمشق، قد سقط حاجباه على عينيه وهو على راحلته يريد الغزو، فقلت: يا عم، لقد أعذر الله إليك، فرفع حاجبيه وقال: يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً[٤].

وقال أهل المعاني: هذا عامٌّ في كل أحد؛ لأنه ما من أحد إلا وتخف عليه الحركة أو تثقل، فهو ممن أمر الله في هذه الآية بالنفير[٥].

ويؤيد ذلك قول ابن عباس: نسخت بقوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾[٦].

---

(١) معاني الفراء (١/ ٤٣٩).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٤٣).

(٣) ذكره البغوي (٢/ ٢٩٦-٢٩٧)، والقرطبي (٨/ ١٥١).

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ١٣٨).

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٩٩).

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٤٩٩)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٣).

وقول السدي: هي منسوخة بقوله: ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾[(١)].

وعند الفقهاء: أن هذا تخصيص لا نسخ.

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ قال القاضي أبو يعلى: أوجب الله الجهاد بالمال والنفس جميعاً، فمن كان له مالٌ وهو مريض أو مقعد أو ضعيف [لا يصلح للقتال][(٢)] فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره فيغزو به، [كما يلزمه الجهاد بنفسه إذا كان قوياً][(٣)]. وإن كان له مال وقوة فعليه الجهاد بهما، ومن كان معدماً عاجزاً فعليه الجهاد بالنصح لله ولرسوله؛ لقوله تعالى: ﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله﴾[(٤)].

﴿ذلكم خير لكم﴾ من التثاقل إلى الأرض ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ما في ذلك من الثواب يوم المآب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٣-١٨٠٤). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٣).
وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٠٨) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.
وانظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١٠٠)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٦٦).

(٢) زيادة من زاد المسير (٣/ ٤٤٣).

(٣) مثل السابق.

(٤) زاد المسير (٣/ ٤٤٣).

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿لو كان عرضاً قريباً﴾ نزلت في المنافقين. والمعنى: لو كان الـذي دُعوا إليه غنيمة قريبة، ﴿وسـفراً قاصـداً﴾ وسـطاً سـهلاً ﴿لاتبعـوك﴾ طمعـاً في اكتساب المال، وخوفاً من انكشاف الحال، ﴿ولكن بعدت عليهم الـشُّقَّة﴾ وهـي المسافة الشاقة، ﴿وسيحلفون بالله﴾ عند رجوعكم إليهم اعتذاراً من تخلفهم عنكم ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي: لو قدرنا وكان لنا سعة في المال وما يتوصل به إلى الجهاد لخرجنا معكم، ﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالكذب والأيـمان الفـاجرة والنفـاق، ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ فما يغني عنهم الاعتذار والكذب.

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

وكان النبي ﷺ أذن لجماعة منهم في التخلف حين خرج إلى تبوك، فأنزل الله عز وجل: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾.

قال عمرو بن ميمون الأودي: اثنان فعلهما رسول الله ﷺ ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين، وأخذه الفداء من الأسارى، فعاتبه الله كما تسمعون[١].

قال مورق: عاتبه ربه بهذا[٢].

قال سفيان بن عيينة: انظروا إلى هذا اللطف، بدأه بالعفو قبل أن يُعيّره بالذنب[٣].

وهذا أسلوب لطيف من أساليب العتاب. وقريب منه قول قيس فيما بعث به إلى ليلى العامرية:

عَفَا اللهُ عَنْها أَنَّها كُلَّ لَيْلَةٍ ... مِنَ الدَّهْرِ قَدْ يَدْنُوا إِليَّ خَيَالُهَا

فأجابته:

وَعَنْهُ عَفَى رَبِّي وَأَصْلَحَ حَالَهُ ... فَعَزَّ عَلَيْنا حَاجَة لاَ يَنَالُهَا

قال الزمخشري عند تفسير هذه الآية[٤]: ﴿عفا الله عنك﴾ هذا كناية عن الجناية؛ لأن العفو رادف لها، ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت[٥].

---

(١) أخرجه عبدالرزاق (٥/ ٢١٠)، والطبري (١٠/ ١٤٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢١٠) وعزاه لعبد الرزاق في المصنف وابن جرير.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢١٠) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٠٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٥).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٦١).

(٥) قلتُ: هذا قولٌ خبيثٌ، يستدل به على خبث طويته وفساد عقيدته. وقد أجاد المؤلف في الرد عليه.

وهذا تغفيل من الزمخشري عن اللطيفة المودعة في تصدير هذه الآية بذكر العفو، وعبارة جافية لا يليق إطلاقها على آحاد ذوي الأقدار، فكيف بسيد ولد آدم؟ الذي جعل الله تعالى تعظيمه فرضاً، فقال: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ [النور:٦٣].

ولقد أجاد محمد بن الحنفية في قوله: البلاغة قول مفقه في لطف.

وأَحْسَنَ الحسن بن سهل في قوله: البلاغة ما فهمه العامة، ورضيته الخاصة. والعبارة المنكرة هاهنا لا يرضاها والله الخاصة ولا العامة.

وقال بعضهم: البلاغة: وضوح الدلالة وحسن الإشارة.

وقال أعرابي: البلاغة: حسن الاستعارة.

ولستُ أجهل أن لهذا الرجل المشار إليه(١) بالرد عليه أقواماً ترعد أنفسهم غضباً وحمية له، ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين﴾.

ولله درّ حسان حيث يقول:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء(٢)

قوله تعالى: ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم [الكاذبين](٣)﴾ أي: حتى يظهر لك الذين صدقوا في اعتذارهم من الذين كذبوا فيه.

---

(١) أي: الزمخشري.

(٢) انظر البيت في: لسان العرب، مادة: (عرض)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥١٥)، وسيرة ابن هشام (٥/ ٨٧)، والاستيعاب (٤/ ١٨٨٥)، والطبري (١٨/ ٨٨).

(٣) زيادة على الأصل.

قال قتادة: نُسختْ بقوله: ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾[1] [النور:٦٢].

قوله تعالى: ﴿لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ قال الزجاج[2]: أَعْلَمَ اللهُ عز وجل أن علامة المنافق في ذلك الوقت: الاستئذان في التخلُّف عن الجهاد.

قال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾[3] [النور:٦٢].

وأنكر أبو سليمان الدمشقي دعوى النسخ هاهنا؛ لإمكان العمل بالآيتين، فإنه إنما عاب على المنافقين أن يستأذنوه في القعود عن الجهاد من غير عذر، وأجاز للمؤمنين الاستئذان لحاجة[4].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٢)، والبيهقي (٩/ ١٧٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٥)، ومعاني القرآن للنحاس (٣/ ٢١٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢١١) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبي الشيخ.
قال أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٤٩): وهذا غلط؛ لأن النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق، في استئذان بعض المؤمنين الرسول في بقائهم في بيوتهم في بعض الأوقات، فأباح الله أن يأذن، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى.

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٠).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٦)، والبيهقي (٩/ ١٧٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٤٦)، والسيوطي في الدر (٤/ ٢١١) وعزاه لأبي عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه.

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٤٦). وانظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ لابن سلامة (ص:١٠٠)، والناسخ والمنسوخ لابن حزم (ص:٤٠)، والناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٥٠٥-٥٠٦)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٦٧-٣٦٨).

قال الزجاج[1] في قوله ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾: موضع "أن" النصب. المعنى: لا يستأذنك هؤلاء في أن يجاهدوا، ولكن "في" حذفت، فأفضى الفعل فنصبت "أَنْ".

قال سيبويه: ويجوز أن يكون موضعها جراً؛ لأن حذفها هاهنا إنما جاز مع ظهور "أَنْ"، ولو أظهرت المصدر لم تحذف "في"، لا يجوز: (لا يستأذنك القوم الجهاد) حتى تقول: في الجهاد، ويجوز: (لا يستأذنك القوم أن يجاهدوا).

﴿إنما يستأذنك﴾ يعني: في القعود عن الجهاد ﴿الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي: شكُّوا في دينهم ﴿فهم في ريبهم يترددون﴾ متحيرين.

قال مقاتل[2]: كانوا تسعة وثلاثين رجلاً.

﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ قال ابن عباس: لأعدوا له النية وما يصلح للخروج من السلاح والمركوب[3].

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ انطلاقهم بسرعة ونشاط، ﴿فثبطهم﴾ بما قذف في قلوبهم من كراهية الخروج.

قال صاحب الكشاف[4]: لما كان قوله: "ولو أرادوا الخروج" معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو قيل: "ولكن كره الله انبعاثهم"، كأنه قيل: ما خرجوا ولكن تثبطوا.

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٠).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٤٩).

(٣) زاد المسير (٣/ ٤٤٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾ إما أن يكون القول هاهنا مجازاً عن إلهامهم أسباب الخذلان، أو عن وسوسة الشيطان لهم، أو هو قول بعضهم لبعض.

وحكى الماوردي[١]: أن النبي ﷺ قال ذلك لهم غضباً عليهم.

قال ابن السائب: يعني: مع القاعدين بغير عذر[٢].

وقيل: مع القاعدين بعذر؛ كالنساء والصبيان، وهو أظهر، لقوله تعالى: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾، ولأنه أبلغ في ذمهم.

﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي: شراً وفساداً.

قال الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رضي الله عنه[٣]: فإن قيل: كأن الصحابة كان فيهم خبال حتى قيل: ما زادوكم إلا خبالاً؟

فالجواب: أنه من الاستثناء المنقطع. والمعنى: ما زادوكم قوة، لكن أوقعوا بينكم خبالاً.

قلت: والذي يظهر في نظري: أن هذا ليس من الاستثناء المنقطع؛ لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه، والمستثنى منه هاهنا غير مذكور، فيقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء، كأنه قيل: ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً، فيكون استثناء متصلاً.

---

(١) تفسير الماوردي (٢/ ٣٦٨).

(٢) الماوردي (٢/ ٣٦٨)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٧).

(٣) زاد المسير (٣/ ٤٤٧).

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ الإيضاع: الإسراع في السير. يقال: وضع البعير وغيره؛ إذا أسرع، وأوضعه: ركبه[١]. وخلال الشيء: وسطه[٢].

والمعنى: ولأوضعوا ركابهم بينكم بالتضريب والنميمة والإفساد.

﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي: يحاولون إيقاع الخلاف بينكم وتشتيت كلمتكم وافتراق جماعتكم، ﴿وفيكم سمّاعون لهم﴾ أي: قوم ينقلون إلى المنافقين أخباركم.

وقيل: المعنى: وفيكم قوم يسمعون للمنافقين ويطيعونهم.

لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي: لقد طلبوا لك العنت والشر من قبل غزوة تبوك، ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ نصبوا لك الغوائل[٣] تارة بالسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك، وتارة بالعزم على الفتك بك.

قال المفسرون: وقف اثنا عشر رجلاً من المنافقين على طريقه ليلاً ليغتالوه وليفتكوا به فسلمه منهم[٤].

وتارة بالانخزال عنك في مضايق الحروب والكروب، كما انسلّ ابن سلول يوم أحد بالصحابة.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (وضع).

(٢) انظر: اللسان، مادة: (خلل).

(٣) الغوائل: الغَوْل: المشقّة. والغول: الخيانة (انظر: اللسان، مادة: غول).

(٤) الوسيط (٢/ ٥٠١-٥٠٢)، وزاد المسير (٣/ ٤٤٨).

﴿حتى جاء الحق﴾ وهو استعلاؤك على أعدائك، ﴿وظهر أمر الله﴾ أي: غلب دينه وعلا شرعه، ﴿وهم﴾ يعني: المنافقين ﴿كارهون﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾ أي: ائذن لي في القعود ولا تفتني بالخروج، وذلك «أن النبي ﷺ قال للجَدّ بن قيس الأنصاري السلمي: هل لك في جلاد بني الأصفر -يعني: الروم- لعلك تغنم بعض بناتهم؟ فقال: يا رسول الله! ائذن لي ولا تفتني بذكر النساء، فقد علم قومي أنني مغرم بهن، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنت لك»(١).

قال ابن عباس: اعتلّ، لم تكن له عِلَّة إلا النفاق(٢).

﴿ألا في الفتنة﴾ يعني: فتنة التخلف عنك.

قال ابن عباس: هي الكفر(٣).

﴿سقطوا﴾ وقعوا.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٩)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٧٥)، والأوسط (٥/ ٣٧٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢١٣) وعزاه لابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة عن ابن عباس. ومن طريق آخر عن جابر، وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٠٢).

(٣) زاد المسير (٣/ ٤٤٩).

ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لبني سلمة: «من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: جد بن قيس على بخل فيه. فقال رسول الله ﷺ: أي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور»[١]. هكذا ذكره ابن إسحاق والزهري.

وقال الشعبي وابن عائشة: قال رسول الله ﷺ: «بل سيدكم عمرو بن الجموح»[٢].

والأول أكثر عند أهل العقل. وفي ذلك يقول حسان بن ثابت[٣]:

وقال رسول الله والحق لاحق ... بمن قال منا: مَنْ تعدّون سيدا

فقلنا له: جد بن قيس على الذي ... نبخله فينا وإن كان أنكدا

فقال: وأيّ الداء أدوى من الذي ... رميتم بها جداً وغلّ بها يدا

وسوَّد بشر بن البراء لجوده ... وحُقَّ لبشر ذي الندا أن يُسوَّدا

إذا ما أتاه الوفد أنهب ماله ... وقال: خذوه إنه عائد غدا

قوله تعالى: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: محدقة بهم يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٤٩)، والحاكم (٣/ ٢٤٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٣٠)، والطبراني في الأوسط (٨/ ٣٧٣). وانظر: أسباب نزول القرآن للواحدي (ص:٢٥٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٣٩٧ ح١٢١١٦)، والأوسط (٤/ ٧٤ ح٣٦٥٠)، والصغير (١/ ١٩٩ ح٣١٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٤٣٠) كلهم عن ابن عباس. وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣١٤) وعزاه للطبراني في الأوسط والكبير عن أبي هريرة.

(٣) انظر الأبيات في: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٥٢-٢٥٣).

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ۝٥٠ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾

قوله تعالى: ﴿إن تصبك حسنة﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿تسؤهم﴾ تحزنهم، ﴿وإن تصبك مصيبة﴾ قتل أو هزيمة ﴿يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل﴾ أي: علمنا بالحزم من قبل فلم نخرج، ﴿ويتولوا﴾ عن مقامهم الذي قالوا فيه: قد أخذنا أمرنا من قبل إلى أهلهم ﴿وهم فرحون﴾ مسرورون.

وقيل: "يتولوا": يعرضوا عن رسول الله ﷺ وعن الإيمان به.

﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ قال ابن عباس: قضى علينا[1].

وقال الزجاج[2]: ما بيّن لنا في كتابه من أنّا نظفَر، فيكون ذلك حسنى لنا، أو نُقتل فتكون الشهادة حسنى لنا أيضاً.

﴿هو مولانا﴾ ناصرنا ومعيننا ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ سبق تفسيره في آل عمران[3].

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم

(١) انظر: الطبري (١٠/ ١٥٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٥٠).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٢).

(٣) عند تفسير الآية رقم: (٢٢).

مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾

﴿قل هل تربصون﴾ أي: تنتظرون ﴿بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ النصر أو الشهادة، ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده﴾ قال ابن عباس: الصواعق[(١)].

وقيل: الموت[(٢)].

وقيل: ما أصاب الأمم الخالية.

﴿أو بأيدينا﴾ يعني: القتل، ﴿فتربصوا﴾ إحدى الحسنيين لنا ﴿إنا معكم متربصون﴾ إحدى السوأيين لكم.

﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ نزلت في الجد بن قيس، فإنه قال للنبي ﷺ لما عرض عليه الغزو: هذا مالي أعينك به[(٣)].

قال الزجاج[(٤)]: وهذا لفظ أمر، ومعناه: الشرط والجزاء، تقديره: إن أنفقتم طائعين أو كارهين لن يتقبل منكم. ومثله في الشعر قول كثيّر:

(١) زاد المسير (٣/ ٤٥١).

(٢) مثل السابق.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٥٢). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٤)، وزاد المسير (٣/ ٤٥١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢١٧) وعزاه لابن جرير.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٣).

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لا َمَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلاَ مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ[١]

وقال الزمخشري[٢]: هو أمر في معنى الخبر، كقوله: ﴿فليمدد له الرحمن مداً﴾ [مريم:٧٥]، وهذا إنما يجوز إذا دل الكلام عليه، كما جاز عكسه في قولك: رحم الله زيداً وغفر له.

ومعنى قوله: ﴿طوعاً﴾: تبرعاً ونفلاً، ﴿أو كرهاً﴾: إلزاماً من الله، ﴿لن يتقبل منكم﴾ لتوقف القبول على الإيمان والإخلاص.

﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ مارقين من الدين، فلا يُتقبل منكم الإنفاق ما دمتم على النفاق.

﴿وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم﴾ قرأ حمزة والكسائي: "يُقْبَلَ" بالياء الواقعة آخر حروف التهجي؛ لأن النفقة في معنى الإنفاق. وقد أشرنا إلى تعليل مثل ذلك فيما سبق.

و"أَنْ" في قوله: "[أَنْ][٣] تقبل منهم نفقاتهم" في موضع نصب، وفي "أنهم كفروا" في موضع رفع بـ"مَنَعَهُمْ"[٤]، وتقديره: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله.

---

(١) البيت لكثيّر. انظر: ديوانه (ص:١٠١)، واللسان، مادة: (حسن)، وأمالي ابن الشجري (١/ ٤٩)، ومعاني الفراء (١/ ٤٤١)، وتهذيب اللغة (٤/ ٨١٣)، والبحر المحيط (٥/ ٥٤)، والدر المصون (٣/ ٤٧٢).

(٢) الكشاف (٢/ ٢٦٦).

(٣) في الأصل: لن. وهو خطأ.

(٤) انظر: التبيان (٢/ ١٦)، والدر المصون (٣/ ٤٧٣).

﴿ولا يأتون الصلاة﴾ التي هي عماد الإسلام ﴿إلا وهم كسالى﴾ لأنهم لا يرجون ثواب فعلها، ولا يخافون عقاب تركها، ﴿ولا ينفقون إلا وهم كارهون﴾ لأنهم يَعُدُّون الإنفاق مَغْرماً.

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ معنى الإعجاب: السرور [بها][1] يتعجب منه.

والمعنى: لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد، كما قال في موضع آخر: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ [الحجر:٨٨].

﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها﴾ أي: بالأموال، وذلك بالتعب في جمعها وحفظها وتثميرها، والخوف عليها والمصائب فيها، وأخذ الزكوات والنفقات منها في الغزاة وغير ذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وقتادة: في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة[2].

---

(١) في الأصل: وربما. انظر: الوسيط (٢/ ٥٠٤).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٥٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨١٣) كلاهما عن قتادة.

=

﴿وتزهق أنفسهم﴾ يقال: زهقت الخيل: خرجت عن الحلبة، وزهق السهم؛ إذا جاوز الهدف[١]. فالمعنى: وتخرج أرواحهم وهم على الكفر.

قوله تعالى: ﴿ويحلفون بالله﴾ يعني: المنافقين، ﴿إنهم لمنكم﴾ يعني: في الدين، ﴿وما هم منكم﴾ لأنهم يضمرون من الكفر خلاف ما يظهرون من الإيمان، ﴿ولكنهم قوم يفرقون﴾ أي: يخافون القتل، فلذلك يحلفون لكم إنهم لمنكم وما هم منكم.

﴿لو يجدون ملجأً﴾ مكاناً يلجؤون إليه، ﴿أو مغارات﴾ وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان، ومنه: غَارَ الماء[٢].

قال ابن عباس: يعني: سراديب[٣].

﴿أو مُدّخلاً﴾ يعني: مكاناً يدخلون فيه، أو قوماً يدخلون في غمارهم. وأصله: "مدتخلاً" فأبدلوا من التاء دالاً وأدغموا فيه الأولى.

وقرأتُ ليعقوب الحضرمي: "مَدْخلاً" بفتح الميم والتخفيف[٤].

﴿لولّوا إليه وهم يجمحون﴾ يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، ومنه: الفرس الجَمُوح، وهو الذي إذا حَمَلَ لم يَرُدُّه اللجام[٥].

= وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٥٢)، والسيوطي في الدر (٤/ ٢١٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة.

(١) انظر: اللسان، مادة: (زهق).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٩٣).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٠٤).

(٤) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٣).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (جمح).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾ وهو ذو الخويصرة التميمي، ويقال: ابن ذي الخويصرة، ويقال: أبو الخواصر، وهو أصل الخوارج(١)، قال للنبي ﷺ وهو يقسم قسماً: «اعدل فإنك لم تعدل، فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟! فنزلت هذه الآية»(٢).

قرأ الأكثرون: "يَلْمِزُكَ" بكسر الميم. وقرأتُ على شيخنا أبي البقاء عبدالله بن الحسين ليعقوب الحضرمي ولابن كثير من رواية نظيف عن قنبل عنه، ولعاصم من رواية أبان عنه، ولأبي عمرو من رواية القزاز عن عبدالوارث عنه: "يَلْمُزُكَ" بضم الميم(٣)، و"يلمُزون" [التوبة: ٧٩] ولا ["تلمُزوا"](٤) [الحجرات:١١] بضم الميم فيهن.

والمعنى: ومنهم من يُعَنِّيكَ ويطعن عليك. يقال: لمزت فلاناً وهمزته بمعنى. قال الشاعر:

---

(١) الخوارج: سُمُّوا بذلك؛ لخروجهم عن البَيْضة وشقّهم العصا، ولذلك سُمُّوا المارقين، والمُروق: الخروج (الغريب لابن قتيبة ١/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٤٠ ح٦٥٣٤)، ومسلم (٢/ ٧٤٠ ح١٠٦٣).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٢٥)، والنشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٥).

(٤) في الأصل: تلمز.

إذا لَقِيتُكَ تُبْدِي لي مُكاشَرَةً ... وَإنْ تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الْهَامِزَ اللُّمَزَهْ(١)

قال الضحاك: كان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله عليه، وأما المنافقون فإن أُعطوا كثيراً فرحوا، وإن أعطوا قليلاً سخطوا، فذلك قوله: ﴿فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾(٢).

﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي: قنعوا بما أعطاهم الله قضاء وتقديراً، ورسوله قسماً، ﴿وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله﴾ ما نحتاج إليه، ﴿إنا إلى الله راغبون﴾ في الزيادة وسعة الرزق، التقدير: لكان خيراً لهم وأعود عليهم، فحذف الجواب للعلم به.

۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ اختلف العلماء في هذين الصفتين أيهما أشد حاجة، فذهب الإمامان أحمد والشافعي إلى أن الفقراء أشد

(١) البيت لزياد الأعجم. انظر: ديوانه (ص:٧٨)، ولسان العرب، مادة: (همز)، والطبري (١٠/ ١٥٦)، وزاد المسير (٣/ ٤٥٥)، وجمهرة اللغة (ص:٧٢٧)، ومقاييس اللغة (٦/ ٦٦)، ومجمل اللغة (٤/ ٤٨٨)، وأساس البلاغة (ص:٤١٤)، وإصلاح المنطق (ص:٤٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨١٦). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٥).

حاجة من المساكين؛ لأن النبي ﷺ استعاذ من الفقر، وقال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»[١]. أخرجه الترمذي.

قال أحمد بن عبيد: المسكين أحسن حالاً من الفقير[٢]؛ لأن الفقير أصله في اللغة: المَفْقُور الذي نُزِعَتْ فِقْرة من فقر ظهره، فكأنه انقطع ظهره من شدة الفقر[٣]، فصرف عن مفقور إلى فقير، كما قالوا في مجروح جريح، ومطبوخ طبيخ. قال الشاعر:

لَمَّا رَأَى لُبَدُ النُّسُورَ تَطَايَرَتْ رَفَعَ القَوادِمَ كَالفَقِيرِ الأَعْزَلِ[٤]

قال: ومن الحجة لهذا القول، قوله تعالى: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ [الكهف:٧٩]، فوصف بالمسكنة من له سفينة تساوي مالاً[٥].

وذهب الأصمعي وأبو حنيفة إلى أن المسكين أشد حاجة[٦]، واحتج كذلك ابن السكيت[٧] بقول الراعي[٨]:

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٧٧ ح٢٣٥٢).

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ١٦٩)، والتمهيد لابن عبدالبر (١٨/ ٥١).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (فقر).

(٤) البيت للبيد وهو يصف لُبَداً، (وهو السابع من نُسور لقمان بن عاد). انظر: ديوانه (ص:٢٧٤)، واللسان، مادة: (فقر)، والقرطبي (٨/ ١٦٩)، والتمهيد (١٨/ ٥١)، والمغني (٦/ ٣٢٣)، ومعجم البلدان (٤/ ١٩٤)، والماوردي (٢/ ٢٧٥)، ومعجم مقاييس اللغة (٤/ ٩٠).

(٥) زاد المسير (٣/ ٤٥٦-٤٥٧).

(٦) انظر: المغني (٦/ ٣٢٣).

(٧) إصلاح المنطق (ص:٣٢٦).

(٨) البيت للراعي. وهو في: القرطبي (٨/ ١٦٩)، والتمهيد (١٨/ ٥٠)، والمحلى (٦/ ١٤٩)، والمغني (٦/ ٣٢٣)، وزاد المسير (٣/ ٤٥٦).

أما الفقير الذي كانت حَلُوبَتُه وفْق العيال فلم يُترك له سَبَدُ

فسَمَّاهُ فقيراً وله حلوبة تكفيه وعياله.

وقال يونس بن حبيب[١]: قلت لأعرابي: أفقير أنت؟ قال: لا والله بل مسكين[٢]. يريد: أنا أسوأ حالاً من الفقير.

وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: الفقير: المتعفف عن السؤال، والمسكين: الذي يسأل[٣].

وقال قتادة: الفقير: المحتاج الذي به زَمَانة، والمسكين: المحتاج الذي لا زَمَانة به[٤].

ويجوز أن يعطيا من الزكاة ما يصير بهما إلى الغنى.

قوله تعالى: ﴿والعاملين عليها﴾ يعني: السُّعاة لجبايتها، فيُعْطَوْنَ منها بقدر أجورهم عندنا. وعند الشافعي وعند مالك وفقهاء العراق: هو مفوّض إلى اجتهاد الإمام.

---

(١) يونس بن حبيب الضبي بالولاء، أبو عبد الرحمن، ويعرف بالنحوي، علاّمة بالأدب، كان إمام نحاة البصرة في عصره، أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم من الأئمة، من كتبه: "معاني القرآن"، و"اللغات"، و"النوادر". توفي سنة ١٨٢ هـ (الأعلام ٨/ ٢٦١).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٥٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٥٨). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٦)، وزاد المسير (٣/ ٤٥٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٢٢) وعزاه لابن أبي شيبة عن جابر بن زيد.

(٤) أخرجه الطبري (١٠/ ١٥٨)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨١٩، ١٨٢٠)، والنحاس في ناسخه (١/ ٥٠٧-٥٠٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٢١) وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبي الشيخ.

قوله تعالى: ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ يُعطون بقدر ما يحصل به التأليف. وهم قسمان؛ مسلمون وكافرون.

فأما المسلمون فقسمان؛ قسم دخلوا في الإسلام ونياتهم ضعيفة، فيعطون من الصدقات ما يثبتهم على الإسلام، كما أعطى النبي ﷺ عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس(١).

وقسم دخلوا فيه على بصيرة وهدى لا تزلزل عندهم، إلا أنهم شرفاء في قومهم، فيعطون منها ما يرغب أمثالهم في الإسلام، كما أعطى النبي ﷺ عدي بن حاتم، والزبرقان بن بدر، وأعطى أبو بكر الصديق رضي الله عنه عدي بن حاتم ثلاثين فريضة من الصدقة(٢).

وأما الكافرون: فيعطى منهم من الزكاة من يُرجى إسلامه، أو يخاف شره؛ لأن النبي ﷺ أعطى صفوان بن أمية يوم حنين قبل إسلامه(٣)؛ ترغيباً له واستمالة إلى الإسلام حتى أسلم.

---

(١) أخرج البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: "بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين الأربعة؛ الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة بن علاثة العامري ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا، قال: إنما أتألفهم ..." (٣/ ١٢١٩ ح٣١٦٦).

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٤٠/ ٨٠).

(٣) عن صفوان بن أمية قال: «أعطاني رسول الله ﷺ يوم حنين وإنه لأبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ». أخرجه الترمذي (٣/ ٥٣ ح٦٦٦).

فصل

اختلف العلماء في انقطاع حكم المؤلفة الكفار؛ فذهب الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي والثوري وإسحاق إلى أن حكمهم انقطع؛ لأن الله تعالى أعزّ الإسلام وأغناه عن أن يتألف له الرجال.

وذهب الإمام أحمد رضي الله عنه إلى بقاء حكمهم. وهو الصحيح؛ لأن سهمهم ثابت بكتاب الله وسنة رسوله، فلا يزول إلا بناسخ، ولا ناسخ، فيجب بقاء حكمهم، ولا [نزاع][1] في المقدمة الأولى.

وأما المقدمة [الثانية][2] فبيانها من وجهين:

أحدهما: أن الأصل عدم الناسخ، فيحتاج مدعيه إلى وجوده، وأنى له ذلك.

الثاني: أن الإمام أحمد كان أقومَ الناس بكتاب الله وأجمعَهم لحديث رسول الله ﷺ، فلو كان ثَمَّ آية ناسخة أو حديث ناسخ لِحُكْمهم لظفر به. ويؤيد ذلك قول الزهري: لا أعلم شيئاً نسخ حكم المؤلفة[3].

قوله تعالى: ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتَبون، فيعطون من الزكاة ما يؤدونه في كتابتهم.

واختلفت الرواية عن الإمام أحمد رحمه الله هل يجوز الإعتاق من الزكاة؟

---

(١) في الأصل: نزاغ.

(٢) في الأصل: البانية.

(٣) انظر: المغني (٢/ ٢٨٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٥٧)، والتحقيق في أحاديث الخلاف (٢/ ٦٢).

وقال مالك: يُشترى بسهم الرقاب عبيد يعتقون. ويجوز أن [يفكّ][1] منها أسيراً مسلماً.

قوله تعالى: ﴿والغارمين﴾ وهم ضربان، ضربٌ غَرِمَ لإصلاح ذات البين، فإنهم يُعطون بقدر حَمَالَتهم، وإن كانوا أغنياء.

والضرب الثاني: من غَرِمَ لإصلاح نفسه أو عياله في مباح، فيعطى مع الحاجة ما يقضي دينه.

وإن غَرِمَ في معصية لم يدفع إليه قبل التوبة؛ لأنه لا يؤمن أن يعاود المعصية.

وفيما بعد الموت خلاف بين العلماء.

قوله تعالى: ﴿وفي سبيل الله﴾ يعني: الغُزاة والمرابطين الذين لا حَقَّ لهم في الديوان، فيعطون ما يحتاجون إليه لغزوهم، من النفقة، والسلاح، والخيل، وإن كانوا أغنياء؛ لأنهم في مصلحة الإسلام وأهله.

وقال أبو حنيفة: لا يعطون مع الغنى.

ولا يجوز صرف الزكاة في الحج، في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، وبها قال أكثر العلماء[2].

وكان ابن عباس وابن عمر يجيزان ذلك، وإليه ذهب الحسن وإسحاق، وهي رواية أخرى.

---

(١) في الأصل: يفتك.

(٢) انظر: المغني (٦/ ٣٣٤).

قال أبو لاس[(١)]: حَمَلَنا النبي ﷺ على إبل الصدقة للحج[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المنقطع به كما ذكرناه في البقرة، فيعطى من الزكاة -وإن كان له مال في بلده- ما يبلغه إلى بلده، وإن أراد إنشاء السفر فليس بابن سبيل.

وقال الشافعي: هو كالمنقطع به، وعن [الإمام][(٣)] أحمد نحوه.

قوله تعالى: ﴿فريضة من الله﴾ سبق القول عليه في النساء[(٤)].

﴿والله عليم﴾ بخلقه ﴿حكيم﴾ فيما فرض وشرع.

فصل

اتفق أهل العلم على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى غير هذه الأصناف الثمانية، من بناء مسجد، أو إصلاح طريق، أو كفن ميت؛ لأن الله تعالى خصّهم بها بقوله: ﴿إنما الصدقات﴾، ولفظة: "إنما" تُثبتُ المذكور، وتنفي ما عداه.

واختلفوا هل يجب تعميم الأصناف الثمانية؛ فذهب [الإمامان][(٥)] أحمد وأبو حنيفة إلى أنه لا يجب تعميمهم، وأنه لو اقتصر على واحد من أحد الأصناف الثمانية

---

(١) أبو لاس الخزاعي المزني، ويقال له: ابن لاس، صحابي. قيل: هو عبد الله بن عنمة، والصواب أنه غيره، روى عن النبي ﷺ حديثين (تهذيب التهذيب ١٢/ ٣٠١، والتقريب ص:٦٨٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢١)، والحاكم (١/ ٦١٢ ح١٦٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد صحيح. وقد ذكره البخاري تعليقاً (٢/ ٥٣٤).

(٣) في الأصل: إمام.

(٤) عند الآية رقم: (١١).

(٥) في الأصل: الإمان.

جاز؛ لأن النبي ﷺ قال لمعاذ: «أعلمهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم»[١]، فأمر بردها في صنف واحد.

وقال الشافعي: يجب التعميم والدفع إلى ثلاثة من كل صنف؛ تمسكاً بما اقتضته الآية من التشريك بينهم، وأصحابنا يقولون: هذه الآية بيّنت أصناف المستحقين للزكاة على وجه لا تخرج عنهم، وهذا كما تقول: الخلافة في بني هاشم، وبني عبد شمس، وبني تيم، وبني عدي، يريد: أنها فيهم لا تتعداهم إلى غيرهم.

فصل

وأربعة من هؤلاء يأخذون[٢] أخذاً مستقراً وهم: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، والباقون يأخذون أخذاً مراعاً. فإن صرفوه فيما أخذوه له، وإلا رُجع عليهم به، ومن فَضَلَ منه شيء أُخِذَ منه[٣].

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي﴾ أي: ومن المنافقين الذين يؤذون النبي.

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥٠٥ ح١٣٣١)، ومسلم (١/ ٥٠ ح١٩).

(٢) في الأصل زيادة لفظة: مع.

(٣) انظر: المغني (٢/ ٢٨٢)، والكافي (١/ ٣٣٦).

قال مقاتل[١] وغيره: منهم الجلاس بن سويد، وشاس[٢] بن قيس، ومخشي[٣] بن الحمير، ورفاعة بن زيد، ورفاعة بن عبدالمنذر، وعبيدة بن الحارث، قالوا ما لا ينبغي، فقال رجل منهم: لا تفعلوا، فإنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بنا. فقال جلاس: نقول ما شئنا، فإنما محمد أذن سامعة، فنأتيه فيصدقنا بما نقول، فنزل في الجلاس: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ... الآية﴾[٤].

فائدة ينبغي أن تلاحظ:

اعلم أنه يجب على العاقل أن لا يبادر إلى سبِّ كل من سمع عنه النفاق والوقيعة فيهم، فإن جماعة من المنافقين بل أكثرهم راجعوا رشدهم حين اطلعوا على محاسن الإسلام وظهرت لهم براهين صحته، وشاهدوا معجزات المبعوث به ﷺ. هذا مخشي بن الحمير كان يُلْمَز بالنفاق، ثم تاب وحسنت توبته، وسمي عبدالرحمن، وسأل الله تعالى أن يُقتل شهيداً، ولا يُعلم مكانه، فقُتل يوم اليمامة شهيداً، ولم يُرَ له أثر[٥].

وأما الجلاس فحَسُنَتْ توبته، على ما سنذكره عن قريب إن شاء الله تعالى.

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٥٥).

(٢) في تفسير مقاتل: وشماس.

(٣) في تفسير مقاتل: والمخش.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٦) عن السدي. وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٥٤)، والماوردي (٢/ ٣٧٧). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٢٧) وعزاه لابن أبي حاتم عن السدي.

(٥) انظر: الإصابة (٦/ ٧١)، ولباب النقول (ص:١١٩)، والدر المنثور (٤/ ٢٣١).

ورفاعة حَسُنَ إسلامه أيضاً. ورفاعة بن عبد المنذر هو أبو لبابة، ولا مغمز فيه، شهد بدراً والعقبة.

ومعنى قوله: ﴿هو أذن﴾ يُصَدِّقُ كل ما يسمع، فسماه بالجارحة التي هي آلة السماع، مبالغة في استعداده لقبول كل ما يسمعه، وانحلال عزيمته عن ظنهم الفاسد.

وكان نافع يُسَكِّن الذال حيث وقع[1].

﴿قل أذن خير لكم﴾ أي: هو أذن خير لا أذن شَرّ، يسمع الخير وينقاد إليه، وإذا سمع الشر أعرض عنه تنزهاً منه.

وقرأت لعاصم من طريقي الأعشى والبرجمي عن أبي بكر عنه: "قل أذنٌ" بالتنوين، "خيرٌ" بالرفع[2]. وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد، على معنى: قل هو أذن كما تقولون يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يحاققكم ويكذبكم.

﴿يؤمن بالله﴾ يصدق بوحدانيته وتنزيله، ﴿ويؤمن للمؤمنين﴾ يصدقهم فيما يخبرونه به. فأما أنتم أيها المنافقون فإنه يجري معكم على وفق طباعه المستقيمة وأغراضه السليمة فيعيركم أذناً سامعة، يتغابى عن فضائحكم وقبائحكم، وهو أعلم بكم منكم كرماً ووقاراً. كما قيل:

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٢٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣١٩)، والكشف (١/ ٥٠٣)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٥).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٢٩)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٣).

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي[(١)]

﴿ورحمة للذين آمنوا منكم﴾ أي: هو رحمة لهم؛ لأنه أوضح لهم مسالك النجاة.

وقيل: ورحمة للذين أظهروا الإيمان من المنافقين، حيث لم يُنقب عن ضمائرهم ويستكشف عن سرائرهم.

وقرأ حمزة: "رحمةٍ" بالجر، عطفاً على قوله: "أذن خير"[(٢)].

وقرأ ابن أبي عبلة: "ورحمةً" بالنصب[(٣)].

قال الزمخشري[(٤)]: هي عِلَّة معلَّلُها محذوف، تقديره: ورحمة لكم يأذن لكم، فحذف؛ لأن قوله: "أُذُن خير لكم" يدل عليه.

ثم توعد الذين يؤذون النبي ﷺ من المنافقين فقال: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾.

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

(١) البيت للمتنبي. وهو في: كشف الخفاء (٢/ ٧٨)، وروح المعاني (٢٨/ ١٥٠).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٢٩)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٠)، والكشف (١/ ٥٠٣)، والنشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٥).

(٣) انظر هذه القراءة في: البحر المحيط (٥/ ٦٥)، والدر المصون (٣/ ٤٧٧).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٢).

قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله لكم ليرضوكم﴾ قال ابن السائب: نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزاة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم ويحلفون، فنزلت هذه الآية[(١)].

قال مقاتل[(٢)]: منهم عبدالله بن أبيّ، حلف [ألاّ][(٣)] يتخلف عن رسول الله ﷺ وليكونن معه على عدوه.

وقيل: حلفوا أنهم ما قالوا ما حكي عنهم من قولهم: "هو أذن" وغير ذلك مما يبلغ الرسول والمؤمنين عنهم من الطعن والأذى.

﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ قال الزمخشري[(٤)]: وَحَّد الضمير لاتحاد رضى الله ورضى رسوله، فكانا في حكم مرضي واحد.

وقال الزجاج[(٥)]: لم يقل: يُرْضوهما؛ لأن المعنى يدل عليه، فحذف استخفافاً. والمعنى: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه. كما قال الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا ... عِنْدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ[(٦)]

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٦١).

(٢) تفسير مقاتل (٢/ ٥٥).

(٣) في الأصل: لا. والمثبت من تفسير مقاتل، الموضع السابق.

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٢).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٨).

(٦) البيت نُسب لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي، ونُسب أيضاً لقيس بن الخطيم، ولدرهم بن زيد. انظر: الكتاب (١/ ٧٥)، ومعاني الفراء (١/ ٤٣٤)، وملحقات ديوان قيس (ص:١٧٣)، والمقتضب (٣/ ١١٢، ٤/ ٧٣)، وأمالي ابن الشجري (١/ ٣١٠)، والهمع (٢/ ١٠٩)، والأشموني (٣/ ١٥٢)، والبحر المحيط (٥/ ٦٥)، والدر المصون (٢/ ٥٧٢، ٣/ ٤٧٨).

والمعنى: نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راض.

﴿إن كانوا مؤمنين﴾ إيماناً حقيقياً.

قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا﴾ وقرأتُ لعاصم من رواية أبي زيد عن المُفَضَّل عنه: "تعلموا" بالتاء[١]، على الخطاب للمنافقين ﴿أنه من يحادد الله ورسوله﴾ بالمخالفة والمعاداة، ﴿فأن له نار جهنم﴾ قرأ الأكثرون: "فأن له" بفتح الهمزة. وقرأ أبو رزين وأبو عمران وابن أبي عبلة: "فإن له" بالكسر[٢].

قال الزجاج[٣]: من كسر فعلى الاستئناف بعد الفاء، كما تقول: فله نار جهنم، ودخلت "إن" مؤكدة. ومن قال: "فأن له" فإنما أعاد "أن" الأولى توكيداً؛ لأنه لما أطال الكلام كانت إعادتها أوكد.

وقال غيره: التقدير: فحق أن له نار جهنم.

قال الزمخشري[٤]: ويجوز أن يكون "فأن له" معطوفاً على "أنه"، على أن جواب "مَنْ" تقديره: ألم تعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك، فأن له نار جهنم.

يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٦١).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٦٢).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٩).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٢).

قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ قال الحسن وقتادة: هذا إخبار من الله عن حالهم[١].

وقال الزجاج[٢] وغيره: هو أمر من الله لهم بالتحذر. المعنى: ليحذر المنافقون.

قال ابن الأنباري: العرب ربما أخرجت الأمر إلى لفظ الخبر، فيقولون: يرحم الله المؤمن ويعذب الكافر[٣].

قال صاحب الكشاف[٤]: والضمير في "عليهم" و"تنبئهم" للمؤمنين، و"في قلوبهم" للمنافقين. وصح ذلك؛ لأن المعنى يقود إليه.

ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم.

ومعنى: "تنبئهم بما في قلوبهم" كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني: أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى [يسمعوها][٥] مذاعة، وكأنها تخبرهم بها.

قال مجاهد: كانوا يعيبون رسول الله ﷺ ويقولون: عسى الله أن لا يفشي سرنا، فنزلت هذه الآية[٦].

---

(١) الماوردي (٢/ ٣٧٨)، وزاد المسير (٣/ ٤٦٣).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٥٩).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٦٣).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٥) في الأصل: سمعوها. والتصويب من الكشاف (٢/ ٢٧٣).

(٦) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩)، ومجاهد (ص:٢٨٣). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٧)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٥٥)، وزاد المسير (٣/ ٤٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٢٩) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

قال السدي: قال بعض المنافقين: وددت أني جلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء فيفضحنا، فنزلت هذه الآية[(١)].

وقال ابن كيسان: نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم، وعمار بن ياسر يقود برسول الله ﷺ، وحذيفة يسوق به، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتى [نحاها][(٢)]. فلما نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً، فقال رسول الله ﷺ: فإنهم فلان وفلان، حتى عدهم كلهم. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب: لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، بل يكفيناهم الله بالدبيلة. قيل: يا رسول الله، ما الدبيلة؟ قال: شهاب من جهنم يضعه الله على نياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه، فكان كذلك، ونزلت هذه الآية[(٣)].

﴿قل استهزؤا﴾ وعيد وتهديد لهم، ﴿إن الله مخرج﴾ أي: مظهر ومبين لرسوله وللمؤمنين ﴿ما تحذرون﴾ إظهاره من نفاقكم.

---

(١) انظر: ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٦)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٥٥)، وزاد المسير (٣/ ٤٦٣).

(٢) في الأصل: نحاهم. والتصويب من زاد المسير (٣/ ٤٦٣).

(٣) زاد المسير (٣/ ٤٦٣). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٤٣-٢٤٤) وعزاه للبيهقي في الدلائل عن عروة.

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ
وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن
نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾
ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ قال ابن عباس: كان الجد بن قيس ووديعة بن خذام والجهير بن خمير يسيرون بين يدي رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك، فجعل رجلان منهم يستهزئان برسول الله ﷺ، والثالث يضحك ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل فأخبره، فقال لعمار: اذهب فاسألهم مِمَّ يضحكون؟ وقل لهم: أحرقكم الله، فلما سألهم وقال لهم: أحرقكم الله، علموا أنه قد نزل فيهم قرآن، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله ﷺ. قال [الجهير][1]: والله ما تكلمت بشيء، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم، فأنزل الله: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ يعني: جد بن قيس ووديعة[2].

---

(١) في الأصل: الجمهور. والتصويب من زاد المسير (٣/ ٤٦٤).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٦٤).

﴿إن نَعْفُ عن طائفة منكم﴾ يعني: الجهير، ﴿نعذب طائفة﴾ يعني: الجد ووديعة.

وقال ابن عمر: قال رجل من المنافقين: ما رأيت مثل قرّاءنا هؤلاء لا أرغب بطوناً، ولا [أكذب ألسناً](١)، ولا أجبن عند اللقاء -يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه-، فقال له عوف بن مالك: كذبت، لكنك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فذهب ليخبره فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب(٢).

وقال قتادة: بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وركبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها، هيهات هيهات. فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: احبسوا عَلَيَّ الرَّكْب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا. قالوا: يا نبي الله، إنما كنا نخوض ونلعب، وحلفوا على ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية(٣).

---

(١) في الأصل: أكذ. والتصويب والزيادة من مصادر التخريج.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٦٤-٤٦٥)، والواحدي في أسباب النزول (٢/ ٢٥٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه، وفي لباب النقول (ص:١١٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٣٠). وذكره الماوردي (٢/ ٣٧٨)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٦٥)، والواحدي في أسباب النزول (٢/ ٢٥٥). والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ، وفي لباب النقول (ص:١١٩).

﴿ولئن سألتهم﴾ المنافقين عما صدر منهم وبلغك عنهم فـ﴿ليقولن إنما كنا نخوض﴾ ونلهو بالحديث ﴿ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن﴾ فلم يعبأ باعتذارهم؛ لأنهم كانوا كاذبين فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ دليل على استواء الجد واللعب في الكفر.

حدثني بعض فقهاء الحنابلة: أن رجلاً قال -وقد سمع أن رسول الله ﷺ قد جمع بين نسائه بغسل واحد- على سبيل اللعب: كان قد ثار برسول الله ﷺ [جماعه](١)، فبلغ الإمام أبا الوفاء بن عقيل، فأفتى بكفره وبإباحة دمه، واحتجّ بهذه الآية.

قوله تعالى: ﴿إن يُعْفَ عن طائفة منكم﴾ يعني: بإحداثهم التوبة وإخلاصهم في الإيمان ﴿تُعَذَّبْ طائفةٌ بأنهم كانوا مجرمين﴾ بإصرارهم على النفاق.

وقرأ عاصم: "[إن](٢) نَعْفُ" بالنون المفتوحة وضم الفاء، "نُعَذِّبْ" بنون مضمومة وكسر الذال، "طائفةً" بالنصب(٣).

وقد ذكرنا عن ابن عباس: أن الطائفة المعفو عنها: جهير بن خمير(٤).

---

(١) في الأصل: جما. والصواب ما أثبتناه.

(٢) في الأصل: وإن. وهو خطأ.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٣٠)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٠)، والكشف (١/ ٥٠٤)، والنشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٣)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٦).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٦٤، ٤٦٦).

وقال محمد بن إسحاق: مخشي بن حمير[1]. وكأنه والله أعلم أشبه بالصواب؛ لأن مخشياً معروف بحسن التوبة وصلاح السريرة، وجهير غير معروف بذلك.

وقد ذكرنا فيما مضى تسمية الواحد باسم الجماعة.

وقال ابن الأنباري[2]: إذا أريد بالطائفة الواحد كان أصلها: طائف، فدخلت الهاء للمبالغة، كما قيل: رَاوِيَة، وعَلاَّمَة، ونَسَّابَة.

قوله تعالى: ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض﴾ قال ابن عباس: بعضهم على دين بعض[3].

وفيه تكذيب لقولهم فيما أضربه عنهم في قوله: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم﴾، وتقرير لقوله: ﴿وما هم منكم﴾.

ثم أوضح أمرهم وبيّن كفرهم فقال: ﴿يأمرون بالمنكر﴾ وهو الكفر والنفاق، ﴿وينهون عن المعروف﴾ وهو الإيمان والإخلاص، ﴿ويقبضون أيديهم﴾ عن الإنفاق في سبيل الله أو عن جهاد أعدائه، ﴿نسوا الله فنسيهم﴾.

قال الزجاج[4]: تركوا أمر الله فتركهم من رحمته وتوفيقه.

﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ الكاملون في فسقهم وتمرّدهم، المُخْرِج لهم من الإيمان إلى الكفر.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٧٣). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٠٨)، وسيرة ابن هشام (٥/ ٢٠٥).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٦٦).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٠٨)، وزاد المسير (٣/ ٤٦٧).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٠).

﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم﴾ قال الزجاج[١]: كفاية ذنوبهم، كما تقول: عذبتك حسب فعلك، وحَسْبُ فُلان ما نَزَل به، أي: ذلك على قدر فعله.

﴿ولعنهم الله﴾ سبق تفسيره.

﴿ولهم عذاب مقيم﴾ لا انقطاع له، ففي الدنيا الخوف والعار، وفي الآخرة عذاب النار.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

قوله تعالى: ﴿كالذين من قبلكم﴾ قال الزجاج[٢]: الكاف في موضع نصب، أي: وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم.

وقال غيره: في موضع رفع، على معنى: اسم مثل الذين من قبلكم[٣].

﴿كانوا أشد منكم قوة﴾ فلم تدفع عنهم قوتهم أمر الله لما نزل بهم، ﴿وأكثر

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٠).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٠).

(٣) الدر المصون (٣/ ٤٨٢).

أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم﴾ قال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا[١].

وقال الزجاج[٢]: استمتعوا بنصيبهم وحظهم من الدنيا.

﴿وخضتم﴾ يعني: في اللهو واللعب والباطل وتكذيب الرسل، ﴿كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون﴾، فاحذروا أنتم أيها المشابهون لهم أن يَحِلَّ بكم من غضب الله وعقابه مثلَ ما حَلَّ بهم.

فإن قيل: لم خَصَّ المشيئة بهم بما ذكر من حبط الأعمال والخسران مع اشتراك الجميع في الموجب لذلك؟

قلت: أولئك استقر حكمهم وتبين حالهم بالموت على كفرهم، وهؤلاء بعرضية التوبة والإنابة، وقد وجد ذلك من بعضهم. ألا تراه يقول في معرض التخويف لهم مما نزل بأمثالهم من أهل الكفر والتكذيب والنفاق: ﴿ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم﴾ يعني: خبر هلاكهم.

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

---

(١) انظر: الطبري (١٠/ ١٧٥)، وزاد المسير (٣/ ٤٦٧).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٠).

ثم بيّنهم فقال: ﴿قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم﴾ قال ابن عباس: يعني: [نمرود][(١)] بن كنعان، وما نزل به من انتقام الله منه، وسلب النعمة عنه[(٢)].

﴿وأصحاب مدين﴾ قوم شعيب، ﴿والمؤتفكات﴾ جمع مُؤْتَفِكَة، وهي المُنْقَلِبَة، يريد: مدائن قوم لوط، أو جميع من أهلك، فانقلبت حاله من الخير إلى الشر، ﴿أتتهم رسلهم بالبينات﴾ التقدير: فكذبوهم.

﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ قال ابن عباس: ما كان الله ليهلكهم حتى يبعث إليهم نبياً ينذرهم[(٣)].

﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ قال الزجاج[(٤)]: أخبر سبحانه وتعالى أن تعذيبهم كان باستحقاقهم.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

---

(١) في الأصل: ثمود. والتصويب من المصادر التالية.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٠٩)، وزاد المسير (٣/ ٤٦٨).

(٣) مثل السابق.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٦١).

قوله تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ في المعاضدة والمناصرة والرحمة والمودة.

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً، ثم شبّك بين أصابعه»[(١)].

[وفيهما][(٢)] أيضاً من حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[(٣)].

﴿يأمرون بالمعروف﴾ وهو التوحيد، ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو الشرك والشك، ﴿ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله﴾ فيعملون بالكتاب والسنة، ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾.

قال صاحب الكشاف[(٤)]: السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة، فهي تؤكد الوعد، كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك يوماً، يعني: أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك، ونحوه: ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ [مريم:٩٦]، ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ [الضحى:٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٤٢ ح٥٦٨٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩ ح٢٥٨٥).

(٢) في الأصل: وفيها.

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٢٣٨ ح٥٦٦٥)، ومسلم (٤/ ١٩٩٩ ح٢٥٨٦).

(٤) الكشاف (٢/ ٢٧٥).

قوله تعالى: ﴿ومساكن طيبة﴾ قال ابن عباس: قصور الزبرجد والدرّ والياقوت، يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام[١].

﴿في جنات عدن﴾ قال ابن عباس: هي بطنان الجنة، وبطنانها وهي وسطها، وهي أعلا درجة في الجنة، وهي دار الرحمن، وسقفها عرشه، خلقها بيده، وفيها عين التسنيم، والجنان حولها محدقة بها[٢].

واشتقاقه من عَدَنَ بالمكان؛ إذا أقام به[٣].

قال الأعشى:

وَإِنْ يَسْتَضِيفُوا إلى حِلْمِهِ   يُضَافُوا إلى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنْ[٤]

أي: إلى رزين ثابت لا يستخفه الغضب.

قوله تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ أي: وشيء من رضوان الله أكبر، أعظم من ذلك النعيم كله؛ لأن رضاه سبحانه أصل كل خير، وبتمامه يتم النعيم ويتكامل السرور.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٠٩).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٦٩).

(٣) انظر: اللسان، مادة: (عدن).

(٤) البيت للأعشى. انظر: ديوانه (ص:٦٩)، ومجاز القرآن (١/ ٢٧٤)، واللسان، مادة: (وزن)، والقرطبي (٢٠/ ١٤٦)، والماوردي (٢/ ٣٨١)، والبحر المحيط (٥/ ٦٣)، والدر المصون (٣/ ٤٨٤). ورواية الديوان:

وإن يستضافوا إلى حكمه   يضافوا إلى هادن قد رَزَنْ

أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟! فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»[1].

قوله تعالى: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ أي: ذلك الذي وعدتم به أيها المؤمنون والمؤمنات، من الجنات والمساكن الطيبة في جنات عدن، ورضوان من الله، الفوز العظيم الذي يتضاءل بالنسبة إليه كل ما يُعَدُّ فوزاً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى: ﴿جاهد الكفار والمنافقين﴾ قال ابن عباس: جاهد الكفار بالسيف، وجاهد المنافقين باللسان[2].

﴿واغلظ عليهم﴾ أي: على الكفار والمنافقين في الجهادين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٩٨ ح٦١٨٣)، ومسلم (٤/ ٢١٧٦ ح٢٨٢٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤١-١٨٤٢)، والبيهقي في سننه (٩/ ١١). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٣٩-٢٤٠) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه.

قال ابن مسعود: هو أن [يكفهرّ](١) في وجوههم(٢).

وقال ابن عباس: يريد: شدة الانتهار والنظر بالبغضة والمقت(٣).

قال عطاء: وهذه الآية نسخت كل شيء في القرآن من العفو والصفح(٤).

قوله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا﴾ ذهب جمهور العلماء بالتفسير والسير إلى أن هذه الآية نزلت في الجلاس بن سويد بن صامت الأنصاري، وكان متهماً بالنفاق، وممن تخلف عن تبوك وثبط عن الخروج، وكان قال يوماً: إن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير، فسمعه ربيبه عمير بن سعد الأنصاري -من بني عمرو بن عوف، رضي الله عنه، وكان يقال له: نسيج وحده، وهو الذي ولاّه عمر رضي الله عنه على حمص، وقصته مشهورة معروفة عند أهل العلم- يقول هذه الكلمة، -وكان يتيماً في حجره، وكان ينفق عليه ويحسن إليه-، فقال: يا جلاس، والله لقد كنت أحبَّ الناس إليّ وأحسنهم عندي يداً، وأعزهم عليّ أن يدخل عليه شيء يكرهه، ولقد قلتَ مقالة لئن قلتُها لأفضحنك، ولئن كتمتُها لأهلكنّ، ولكن إحداهما أهون عليّ من الأخرى، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فبعث إليه فسأله عما قال عمير، فحلف بالله ما تكلم به قط، وأن عميراً لكاذب، فقام عمير من عند النبي ﷺ

---

(١) في الأصل: يكفرّ. والمثبت من مصادر التخريج.

والمُكْفَهِرّ: العابس. واكْفَهَرَّ الرَّجُلُ؛ إذا عبس (اللسان، مادة: كفهر).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٨٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤١). وانظر: الوسيط (٢/ ٥١٢). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٤٠) وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٣) الوسيط (٢/ ٥١٢)، وزاد المسير (٣/ ٤٧٠).

(٤) ذكره القرطبي (٨/ ٢٠٥).

وهو يقول: اللهم أنزل على رسولك بيان ما تكلمت به، فأنزل الله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾ فتاب بعد ذلك الجلاس واعترف بذنبه، وحسنت توبته، ولم ينزع عن خير كان يصنعه إلى عمير رضي الله عنه[1].

وقال قتادة: نزلت في قول عبدالله بن أبيّ: ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾[2] [المنافقون:٨].

قوله تعالى: ﴿ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ وهو سبّ الرسول ﷺ والطعن في الدين، وغير ذلك مما يوجب كفرهم ونفاقهم، ﴿وكفروا بعد إسلامهم﴾ بعد أن أظهروا الإسلام، ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ وهو الفتك برسول الله ﷺ ليلة العقبة مرجعه من تبوك، حين توافقوا على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي؛ إذا تَسَنَّمَ[3]

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٨٥) عن عروة، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٣، ١٨٤٦) عن كعب بن مالك وابن عباس وعروة. وانظر: الاستيعاب (١/ ٢٦٤-٢٦٥)، والسيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥٢-٥٣)، والماوردي (٢/ ٣٨٣)، وزاد المسير (٣/ ٤٧٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٤٠، ٢٤١) وعزاه لابن إسحاق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك. ومن طريق آخر عن ابن عباس، وعزاه لابن أبي حاتم. ومن طريق آخر عن عروة، وعزاه لعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٨٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٣-١٨٤٤). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٥٦-٢٥٧)، والماوردي (٢/ ٣٨٣)، وزاد المسير (٣/ ٤٧١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) سَنَّمَ الشيء تَسَنَّمَهُ: عَلاهُ (اللسان، مادة: سنم).

العقبة، فسمع حذيفة قعقعة السلاح وَوَقْعَ أخفاف الإبل، فالتفت إليهم، فقال: إليكم إليكم أعداء الله، فهربوا[1]. وقد ذكرنا قصتهم آنفاً[2].

وقيل: هموا بما لم ينالوا من توبيخ عبدالله بن أُبيّ.

وقيل: قولهم: ﴿ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ [المنافقون:٨].

قوله تعالى: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة في ضيق وضنك معيشة، فركبوا الخيل وأَثْرَوا بالغنائم، وقتل مولى الجلاس، فقضى له النبي ﷺ بديته اثني عشر ألفاً، فاستغنى.

فإن قيل: ما موقع قوله: ﴿وما نقموا إلا أن أغناهم الله﴾؟

قلت: موقع قول النابغة:

ولا عيب فيهم ....

وقد سبق.

ومثله قول ابن قيس الرقيات:

مَا نَقَمَ النَّاسُ مِنْ أُمَيَّةَ إلاَّ أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ المُلُوكِ وَلاَ تَصْلُحُ إلاَّ عَلَيْهِمُ العَرَبُ[3]

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٤). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٤٢) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) ص: ٥٣٥.

(٣) البيتان لابن قيس الرقيات. انظر: ديوانه (ص:٤)، والخزانة (٧/ ٢٨٨)، والبحر المحيط (٥/ ٧٤)، وزاد المسير (٣/ ٤٧١-٤٧٢).

=

قوله تعالى: ﴿فإن يتوبوا يك خيراً لهم﴾ قال ابن السائب: فقام الجلاس حين نزلت هذه الآية فقال: أسمع الله قد عرض عليّ التوبة، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه مما قلته، فقبل رسول الله توبته[١].

﴿وإن يتولوا﴾ يعرضوا عن التوبة، كما أعرض [المخذول][٢] عبدالله بن أبي بن سلول، ﴿يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة﴾.

قال جمهور المفسرين: في الدنيا بالخزي والقتل[٣].

وهذا إنما يكون عند المجاهرة بالتولي والإعراض والكفر. أما إذا نافقوا وداهنوا، فالعذاب اللاحق بهم في الدنيا تقلقلهم واضطرابهم، كما أخبر عنهم سبحانه وتعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ [المنافقون:٤].

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ نافع ﴿ولا نصير﴾ دافع.

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ

= وانظر البيت الأول في: تهذيب اللغة (٩/ ٢٠٢)، ومجاز القرآن (١/ ١٧٠)، والقرطبي (٨/ ٢٠٧)، والطبري (٦/ ٢٩٢)، وروح المعاني (٦/ ١٧٣، ١٠/ ١٣٩).

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٢).

(٢) في الأصل: المخذلول.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٢)، وزاد المسير (٣/ ٤٧٢).

مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله... الآية﴾ ذهب عامة المفسرين إلى أنه ثعلبة بن حاطب الأنصاري.

وذكر الإمام أبو الفرج بن الجوزي رضي الله عنه قولاً آخر[1]: أنه رجل من بني عمرو بن عوف، وقال: قاله ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس.

قال ابن السائب: والرجل حاطب بن أبي بلتعة بن حاطب بن عمرو بن عبيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عمرو بن عوف.

وقول ابن السائب: هو حاطب بن أبي بلتعة، إن أراد به أن الرجل الذي من بني عمرو بن عوف هو حاطب بن أبي بلتعة، فهو قول باطل، لأن حاطباً من ولد نجم بن عدي، وقيل: إنه من مذحج، وقيل: بل كان عبداً لعبيد الله بن حميد من ولد أسد بن عبدالعزى.

والأكثرون قالوا: هو حليف لبني أسد بن عبد العزى.

وإن لم يرد هذا؛ بل قال قولاً مستأنفاً أن الآية نزلت فيه، فهو قول فاسد لا محالة؛ لأن حاطباً كان مؤمناً مخلصاً لا [مغمز][2] فيه، وقد شهد الله له بالإيمان في

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٧٤).

(٢) في الأصل: تغمز.

قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾ [الممتحنة:١].
وستأتي إن شاء الله قصته وما قاله النبي ﷺ فيه عند تفسير هذه الآية[١].

وهذه الآية التي في هذه السورة شاهدة للذي أنزلت فيه بالنفاق إلى يوم التلاق. وكان من حديث ثعلبة على ما أخبرنا به أبو الحسن المؤيد بن محمد بن علي الطوسي في كتابه، قال: أخبرنا عبد الجبار بن محمد بن أحمد الخواري البيهقي، أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري، أخبرنا أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل، حدثنا أبو عمرو محمد بن جعفر بن مطر، أخبرنا أبو عمران موسى بن سهل الجوني، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شعيب، حدثنا [معان][٢] بن رفاعة السلامي، عن أبي عبدالملك علي بن يزيد، أنه أخبره عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أبي أمامة الباهلي، رضي الله عنه: «أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا ثعلبة! قليلٌ تؤدي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه، ثم قال مرة أخرى، فقال: ألا ترضى أن تكون مثل نبي الله، فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسيل معي الجبال ذهباً لسالت. فقال: والذي بعثك بالحق نبياً، لئن دعوتَ الله أن يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً، فاتخذ غنماً فَنَمَتْ كما ينمو الدُّود، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها، فنزل وادياً من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نَمَتْ

---

(١) وذكر القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٠٩-٢١٠) أن آية الممتحنة نزلت في ثعلبة.

(٢) في الأصل: عمان. وهو خطأ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (١٠/ ١٨١)، والتقريب (ص:٥٣٧).

وكثُرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدُّود، حتى ترك الجمعة. فسأل رسولُ الله ﷺ فقال: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: يا رسول الله اتخذ غنماً وضاقت عليه المدينة، وأخبروه بخبره. فقال: يا ويح ثعلبة، ثلاثاً، وأنزل الله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ... الآية﴾، وأنزل الله تعالى عليهم فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة، رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين. قال لهما: مُرَّا بثعلبة وبفلان -رجل من بني سليم- فَخُذَا صدقتهما، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغا، ثم تعودان إليّ، فانطلقا وأخبرا السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهم بها، فلما رأوها قالا: ما يجب هذا عليك، وما نريد أن نأخذها منك، قال: بلى خذوه، فإن نفسي بذلك طيبة، فأخذوها منه، فلما فرغا مَرَّا على ثعلبة فقال: أروني كتابكما أنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة، قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، وأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي، فأنزل الله تعالى: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن﴾ -إلى قوله-: ﴿وبما كانوا يكذبون﴾ وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج إلى ثعلبة فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: إن الله منعني أن أقبل صدقتك، فجعل يحثو التراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني، فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى

منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً، ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ وموضعي في الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ فأنا أقبلها؟! فقبض أبو بكر، وأبى أن يقبلها. فلما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر، فأنا لا أقبلها منك، فلم يقبلها، وقبض عمر رضي الله عنه. ثم ولي عثمان رضي الله عنه، فأتاه فسأله أن يقبل صدقته، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر، فأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه عثمان، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان»[1].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٨٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٤٧-١٨٤٩)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٧٩-٨٠)، والدلائل (٣/ ٢٦٠)، والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٨-٢١٩). وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣١) وقال: فيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٦) وعزاه للحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ والعسكري في الأمثال والطبراني وابن منده والباوردي وأبي نعيم في معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي.
والحديث إسناده ضعيف جداً، فيه معان بن رفاعة السلامي. قال الجوزجاني: ليس بحجة. وقال الأزدي: لا يحتج به (انظر: الكامل لابن عدي ٦/ ٣٢٨، وتهذيب التهذيب ١٠/ ١٨١، والمجروحين ٣/ ٣٦).
وفيه أيضاً: علي بن يزيد الألهاني، قال البخاري: منكر الحديث. وقال أبو حاتم ضعيف الحديث، حديثه منكر. وقال أبو زرعة: ليس بقوي. وقال النسائي: ليس بثقة (التاريخ الكبير ٦/ ٣٠١، والمجروحين ٢/ ١١٠، وتهذيب التهذيب ٧/ ٣٤٦، وتقريب التهذيب ص:٤٠٦).
وقال الحافظ ابن عبدالبر: ولعل قول من قال ثعلبة إنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح، والله أعلم. (انظر: الإصابة ١/ ٤٠٠).

وقال الضحاك: نزلت في ثعلبة بن حاطب، ونبتل بن الحارث، وجد بن قيس، ومعتب بن قشير[(١)].

قوله: ﴿ومنهم﴾ أي: ومن المنافقين ﴿من عاهد الله﴾ قال: عليّ عهد الله، وقيل: هو شيء نَوَوْهُ في أنفسهم استدلالاً بقوله: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾، وليس هذا القول بشيء. ﴿لئن آتانا من فضله﴾ أي: لئن أعطانا من فضله مالاً ﴿لنصَّدقن﴾، لنعطين الصدقة، ﴿ولنكونن من الصالحين﴾ لنعملن فيه عمل أهل الصلاح بالإنفاق منه في سبيل الله وصلة الرحم.

﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ فنقضوا العهد وهو قوله: ﴿وتولوا وهم معرضون﴾.

﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ أي: فأعقبهم الله. وقيل: فأعقبهم البخل[(٢)].

والأول قول ابن عباس ومجاهد، والثاني قول الحسن وقتادة.

والمعنى: صير عاقبة أمرهم نفاقاً متمكناً في قلوبهم لا ينفك عنهم ﴿إلى يوم يلقونه﴾ فيموتون على نفاقهم؛ لإخلافهم وعد الله وكذبهم في عهده، فذلك قوله: ﴿بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

وقد صح عن النبي ﷺ من حديث ابن [عمرو][(٣)] أنه قال: «أربعٌ من كُنَّ فيه

---

(١) زاد المسير (٣/ ٤٧٤).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٧٥).

(٣) في الأصل: عمر. والتصويب من الصحيحين.

كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخْلَف، وإذا عَاهَدَ غَدَر، وإذا خَاصَمَ فَجَر»[(١)].

وروى الحسن أن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخْلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خَان»[(٢)].

وقال عبدالله بن مسعود: «اعتبروا المنافق بثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر. وأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله -إلى قوله-: وبما كانوا يكذبون﴾»[(٣)].

وقد ذكرنا حديث أبي هريرة عند قوله في الأنفال: ﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ [الأنفال:٥٨].

وقالت عائشة: «ما كان خُلُقٌ أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة، فما يزال في نفسه عليه حتى يعلم أنه أحدث منها توبة»[(٤)].

الإشارة إلى تأويل هذه الأحاديث:

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١٦٠ ح٣٠٠٧)، ومسلم (١/ ٧٨ ح٥٨).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٤٩٠) عن الحسن. وأخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة (١/ ٧٨-٧٩ ح٥٩).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩١)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٧ ح٢٥٦١١)، والطبراني في الكبير (٩/ ٢٢٢). وذكره الهيثمي في مجمعه (١/ ١٠٨) وعزاه للطبراني في الكبير وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٤) أخرجه أحمد (٦/ ١٥٢ ح٢٥٢٢٤)، والبيهقي (١٠/ ١٩٦).

قال مقاتل بن حيان: كنت على قضاء سمرقند، فقرأت يوماً حديث المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»، فتوزع فلذي، وتقسم قلبي، وخفت على نفسي وعلى جميع الناس. فقلت: من ينجو من هذه الخصال؟ فأخللت بالقضاء وأتيت بخارى وسألت علماءها، فلم أجد فرجاً، فأتيت مرو فلم أجد فرجاً، فأتيت نيسابور فلم أجد عند علمائها فرجاً، فبلغني أن شهر بن حوشب بجرجان، فأتيته وعرضت عليه قصتي وسألته عن الخبر، فقال: يا أخي، أنا منذ سمعت هذا الحديث كالحية على المقلى خوفاً، فعليك بسعيد بن جبير فإنه مُتَوارٍ بالرّي[1]، فاطلبه واسأله فلعلك تجد لي ولك وللمسلمين فرجاً، فأتيت الري وطلبت سعيد بن جبير، وأتيته فعرضت عليه قصتي، وسألته عن معنى الخبر، فقال: أنا كديدان الحل في الخل منذ سمعت هذا الحديث، وإني خائف عليك وعلى نفسي من هذه الخصال، ولقد قاسيت وعانيت سفراً طويلاً وبلاءاً، فعليك بالحسن البصري، فإني أرجو أنك تجد لي ولك عنده وللمسلمين فرجاً، فأتيت البصرة وطلبت الحسن، وقصصت عليه القصة بطولها، قال: رحم الله شهراً وسعيداً، بلغهما نصف الخبر ولم يبلغهما النصف، إن رسول الله ﷺ لما قال هذا الخبر شغل قلوب أصحابه ملياً وهابوه أن يسألوه، فأتوا فاطمة عليها السلام وذكروا لها شغل قلوبهم بالخبر، فأتت فاطمة رسول الله ﷺ فأخبرته بشغل قلوب أصحابه، فأمر سلمان فنادى: الصلاة جامعة. فلما اجتمعوا صعد المنبر وقال: يا أيها الناس، إني كنت قلت لكم:

---

(١) الري: مدينة مشهورة، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً، وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً (معجم البلدان ٣/ ١١٦).

«ثلاث من كنّ فيه فهو منافق: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف»، ما عنيتكم بهنّ، إنما عنيت المنافقين. أما قولي: «إذا حدث كذب»، فإن المنافقين أتوني فقالوا: والله إن إيماننا كإيمانك، وتصديق قلوبنا كتصديق قلبك، فأنزل الله: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ [المنافقون:١].

وأما قولي: «وإذا ائتمن خان»، فإن الأمانة الصلاة، والدين كله أمانة، قال الله تعالى: ﴿إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ [النساء:١٤٢]، وفيهم قال: ﴿فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراؤون﴾ [الماعون:٤-٦].

وأما قولي: «[وإذا](١) وعد أخلف»، فإن ثعلبة أتاني فقال: إني مولع بالسائمة، ولي غنيمات، فادْعُ الله أن يبارك فيهن، فدعوت الله فَنَمَتْ وزادت حتى ضاقت الفجاج بها، فسألته الصدقة، فأبى عليّ وبخل بها، فأنزل الله فيه: ﴿ومنهم من عاهد الله﴾ -إلى قوله-: ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾، فَسُرِّيَ عن أصحاب رسول الله ﷺ وبرّوا وتصدقوا بمال عظيم(٢).

---

(١) في الأصل: إذا.

(٢) انظر: القرطبي (٨/ ٢١٣-٢١٤).

وقال عطاء بن أبي رباح: حدثني جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ إنما قال هذا الحديث في المنافقين خاصة، الذين حدثوا النبي ﷺ فكذبوه، وائتمنهم على سرّه فخانوه، ووعدوه أن يخرجوا معه في الغزو فأخلفوه[1].

قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرّهم﴾ وهو ما أضمروه في أنفسهم من النفاق والتكذيب، والعزم على إخلاف ما وعدوه، ﴿ونجواهم﴾ ما يتناجون به في الطعن في الدين وتكذيب سيد المرسلين.

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ أخرجا في الصحيحين من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: «لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل على ظهورنا، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا: مُراءٍ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا، فنزلت: ﴿الذين يلمزون المُطّوعين ... الآية﴾»[2].

قال أهل التفسير: حض النبي ﷺ يوماً على الصدقة، فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب، وقيل: بنصف ماله وكان ثمانية آلاف، فقال: يا رسول الله، كان لي ثمانية آلاف أقرضت ربي نصفها، وتركت لعيالي نصفه، فقال

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٥١٣ ح١٣٤٩)، ومسلم (٢/ ٧٠٦ ح١٠١٨).

رسول الله ﷺ: بارك الله فيما أعطيت وفيما أمسكت، فبارك الله له حتى صولحت زوجته تماضر عن ربع الثُّمُن، وكان خلف أربع زوجات، على ثمانين ألفاً.

وجاء عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، واعتذر إلى النبي ﷺ من قلّته.

وجاء رجل من -الأنصار قيل: هو أبو خيثمة، وقيل: أبو عقيل بن قيس- بصاع واحد، وقال: يا رسول الله تركت لعيالي مثله، فلمزهم المنافقون قالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم بن عدي إلا رياء وسمعة، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل، ولكنه أحب أن يُذَكِّرَ بنفسه ليعطى من الصدقات، فأنزل الله: ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ... الآية﴾[1].

قوله تعالى: ﴿الذين﴾ نصب على الذم، أو رفع، على معنى: هم الذين، أو جر على البدل من الضمير في "سرهم ونجواهم"[2].

﴿والذين لا يجدون إلا جُهدهم﴾ يعني: طاقتهم، والجَهْد -بالفتح-: المشقة. وقيل: هما لغتان بمعنى واحد.

﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾ أي: جازاهم على سخريتهم بهم حيث صاروا إلى النار، ﴿ولهم عذاب أليم﴾ بما أضمروا من النفاق وأظهروا من لمز المؤمنين على الإنفاق.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٥١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٩) وعزاه للبزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) انظر: الدر المصون (٣/ ٤٨٥-٤٨٦).

وفي الحديث: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت. قال: فأي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل. قال: فأي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: أحسنهم خلقاً»(١).

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم﴾ قال ابن عباس: لما نزل وعيد اللامزين قالوا: يا رسول الله، استغفر لنا، فنزلت هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: سوف أزيد على السبعين لعل الله يغفر لهم، فنزلت: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾(٢) [المنافقون:٦].

فإن قيل: النبي صلوات الله عليه وسلامه أفصح العرب لساناً، وأعلمهم بمواقع البيان ومقاصد الخطاب، فكيف قال: سوف أزيد على السبعين، مع

---

(١) هذا الحديث روي مجزءاً، فالشطر الأول منه إلى قوله: "طول القنوت" أخرجه مسلم (١/ ٥٢٠ ح٧٥٦). والشطر الثاني إلى قوله: "جهد المقل" أخرجه أبو داود (٢/ ١٢٩ ح١٦٧٧)، والحاكم (١/ ٥٧٤ ح١٥٠٩) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والشطر الأخير أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٠ ح٤٦٨٢)، والترمذي (٥/ ٩ ح٢٦١٢)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣ ح٤٢٥٩).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ١٩٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٥٤) كلاهما عن قتادة. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٧٧)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٥٣-٢٥٤) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن عروة.

وضوح المعنى وظهوره بنفي المغفرة، لا سيما وقد ختم الآية بقوله: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾؟

قلت: لما احتمل الكلام ذلك -وإن كان في غاية البعد- صار إليه النبي ﷺ، جرياً مع طباعه الكريمة، وأعرافه المستقيمة، وانقياداً مع دواعي شفقته ورحمته لأمته.

فإن قيل: ما معنى حصر العدد في سبعين؟

قلت: لظهوره في كلام العرب وجريانها مجرى المثل للتكثير.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لأُصَبِّحَنَّ العَاصَ وابْنَ العَاصِ ... سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِي النَّواصِي[1]

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهم الذين تخلفوا بالمدينة عن غزاة تبوك.

فإن قيل: اللفظ مشعر بمخلِّف، فمن هو؟

---

(١) انظر البيت في: تاريخ الطبري (٣/ ٧١)، والبحر المحيط (٥/ ٧٩).

قلت: هو الله الذي خذلهم وسلبهم التوفيق، أو الرسول حين أذن لهم في التَّخَلُّفِ أو الفشل والكسل، والشيطان بوسوسته وتزيينه.

قوله: "بمقعدهم" مصدر كالقعود، "خلاف رسول الله" أي: خلفه.

وفي قراءة ابن مسعود: "خَلْفَ رسول الله"[1]، ومثله: "ثم لا يلبثون خَلْفَكَ" و"خِلاَفَكَ"، والمعنى واحد. قال الشاعر:

فَقُلْ لِلَّذي يَبْغِي خِلافَ الَّذِي مَضَى تَهَيَّأْ لأُخْرَى مِثْلَها فكَأَنْ قَدِ[2]

وقيل: هو بمعنى المخالفة، فانتصابه على هذا على الحال، أو هو مفعول له[3]. أي: فرحوا بمقعدهم مخالفين أو للمخالفة.

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ لأنهم لا يرجون بالجهاد ثواباً، ولا يخافون بتركه عقاباً، ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر﴾ أي: قال بعضهم لبعض. ويجوز أن يكونوا قالوا ذلك للنبي ﷺ وللمؤمنين على معنى إظهار الشفقة والإرشاد إلى المصلحة.

﴿قل﴾ لهم يا محمد: ﴿نار جهنم أشد حراً﴾ من حر الدنيا.

---

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٧٨).

(٢) البيت منسوب للشافعي، انظر: معجم الشعراء للمرزباني (ص:٦)، واللسان، مادة: (خلف)، والمحرر الوجيز (٣/ ٥٥٤)، وحلية الأولياء (٩/ ١٥٠)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٧٢)، والكامل (٢/ ٤٦٠)، وتهذيب الكمال (٣/ ٢٩٨)، والبحر المحيط (٥/ ٨٠)، والدر المصون (٣/ ٤٨٧)، وروح المعاني (١٧/ ٤٤).

(٣) انظر: التبيان (٢/ ١٩)، والدر المصون (٣/ ٤٨٧).

وفي قوله: ﴿لو كانوا يفقهون﴾ استجهال لهم، حيث آثروا لذة حائلة، [وراحة][1] زائلة، يستلزم إيثارها الاشتمال في الدنيا بالعار، والاصطلاء في الآخرة بالنار.

قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ خبر جاء بلفظ الأمر، إشعاراً بتحتمه وكونه لا محالة، والتقدير: يضحكون قليلاً في الدنيا، ويبكون كثيراً في النار.

وقال ابن عباس: إن أهل النفاق ليبكون في النار عُمر الدنيا لا يَرْقَأ[2] لهم دمع[3].

وقال أبو موسى: إن أهل النار ليبكون الدموع في النار، حتى لو أُجْرِيَتْ السفن في دموعهم لجَرَتْ، ثم إنهم ليبكون الدم بعد الدموع، فلمثل ما هم فيه فليبكى[4].

قرأتُ على الشيخ أبي المجد محمد بن الحسين القزويني، أخبركم الإمام أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي فأقرَّ به، قال: حدثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أخبرنا محمد بن عبدالله بن أبي توبة، أخبرنا محمد بن أحمد الحارث، أخبرنا محمد بن يعقوب، أخبرنا عبدالله بن محمود، أخبرنا إبراهيم بن

---

(١) في الأصل: وراحلة. وفي هامش الأصل: لعلها: راحة.

(٢) رَقَأَتِ الدَّمْعَةُ تَرْقَأُ رَقْأً ورُقُوءاً: جَفَّتْ وانْقَطَعَتْ (اللسان، مادة: رقأ).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٦).

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (ص:٢٤٧)، والحاكم (٤/ ٦٤٨)، وأبو يعلى (٧/ ١٦١)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ١١٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٧٩)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٥٧) وعزاه لابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد.

عبدالله الخلال، حدثنا عبدالله بن المبارك، عن عمران بن زيد[1]، حدثنا يزيد الرقاشي[2]، عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس ابكوا، فإن لم تستطيعوا فتباكوا، فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع، فتسيل الدماء مثل العيون، فلو أن سُفُناً أُجْرِيَتْ فيها لَجَرَتْ»[3].

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿فإن رجعك الله﴾ أي: ردك إلى المدينة ﴿إلى طائفة منهم﴾ أي: من المخلَّفين، والمراد بالطائفة المنافقون، فإن المخلَّفين لم يكونوا كلهم منافقين.

ويجوز أن يكون المعنى: فإن رجعك الله إلى طائفة من المنافقين، وهم الذين أصروا على النفاق ولم يتوبوا، ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ في غزاة، فقل معاقباً لهم

(١) عمران بن زيد التغلبي، أبو يحيى البصري ويقال: الكوفي الملائي الطويل، قال ابن معين: ليس يحتج بحديثه، وقال أبو حاتم: يكتب حديثه وليس بالقوي، وذكره ابن حبان في الثقات (تهذيب التهذيب ٨/ ١١٧، والتقريب ص:٤٢٩).

(٢) يزيد بن أبان الرقاشي، أبو عمرو البصري القاص، زاهد صالح، إلا أنه منكر الحديث ضعيف (تهذيب التهذيب ١١/ ٢٧٠-٢٧١، والتقريب ص:٥٩٩).

(٣) أخرج نحوه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٦ ح٤٣٢٤)، وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠ ح٣٤١٣٠). وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١/ ٨٥ ح٢٩٥)، والبغوي في التفسير (٢/ ٣١٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٥٦-٢٥٧) وعزاه لابن أبي شيبة وابن ماجه وأبو يعلى.

بتخلفهم ونفاقهم، ومُسْقِطاً لهم من ديوان الغُزاة، ومُلْحِقاً بهم عاراً وشَناراً لا يفارقهم: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة﴾.

قال عامة المفسرين: هي غزاة تبوك(١).

فإن قيل: تبوك آخر غزوة غزاها النبي ﷺ، فكيف قال: "أول مرة"؟

قلت: قد أجاب عنه الماوردي فقال(٢): أول مرة دعيتم أو رضيتم به أول مرة قبل استئذانكم.

ويجوز عندي أن يقال: المراد بالأولية هاهنا: مبادئ الغزوات، وتبوك وإن تأخرت يصدق عليها كونها أولاً، كما يقال: كان هذا في أول الإسلام.

فإن قيل: قد علم الله تعالى أنها آخر غزوات رسوله ﷺ، فكيف أمره أن يقول لهم: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي﴾؟

قلت: المراد بها: إسقاطهم من ديوان الغُزاة -كما أشرت إليه قبل-، وقطع الموالاة والنصرة بينهم وبين المسلمين، وأنهم لا يخرجون مع أهل دينه ولا يقاتلون معهم عدواً.

قوله تعالى: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ قال ابن عباس: هم ذووا الأعذار من الرجال(٣).

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٤)، وزاد المسير (٣/ ٤٧٩).

(٢) تفسير الماوردي (٢/ ٣٨٨).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ٢٠٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٥٧). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٠)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٥٨) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقال الحسن وقتادة: النساء والصبيان[١].

وقيل: المعنى: فاقعدوا مع أهل الفساد[٢]، ومنه: نَبِيذٌ خَالِف، أي: فاسد، وخَلَفَ اللَّبن؛ إذا حَمُضَ من طول لبثه في السقاء، وخَلَفَ فَمُ الصَّائم؛ إذا تغيَّرت ريحه[٣].

ويجوز أن يكون المعنى: فاقعدوا مع الخالفين.

قال الفراء[٤]: يقال: عبد خَالِف، وصاحب خَالِف؛ إذا كان مخالفاً.

وقيل: المعنى: فاقعدوا مع الخساس من الناس. يقال: فلان خالفه أهله؛ إذا كان دونهم[٥].

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٢٠٤). وذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٦).

(٢) واختار الطبري هذا القول ورجحه، قال (١٠/ ٢٠٤): والصواب من التأويل في قوله: ﴿الخالفين﴾ ما قال ابن عباس. وأما ما قال قتادة من أن ذلك النساء؛ فقول لا معنى له؛ لأن العرب لا تجمع النساء إذا لم يكن معهن رجال بالياء والنون، ولا بالواو والنون. ولو كان معنياً بذلك النساء لقيل: فاقعدوا مع الخوالف أو مع الخالفات، ولكن معناه ما قلنا من أنه أريد به: فاقعدوا مع مرضى الرجال وأهل زمانتهم والضعفاء منهم والنساء. وإذا اجتمع الرجال والنساء في الخبر، فإن العرب تغلب الذكور على الإناث، ولذلك قيل: فاقعدوا مع الخالفين، والمعنى ما ذكرنا.

ولو وجه معنى ذلك إلى فاقعدوا مع أهل الفساد، من قولهم: خلف الرجال عن أهله يخلف خلوفاً؛ إذا فسد، ومن قولهم: هو خلف سوء، كان مذهباً، وأصله إذا أريد به هذا المعنى من قولهم: خلف اللبن يخلف خلوفاً؛ إذا خبث من طول وضعه في السقاء حتى يفسد، ومن قولهم: خلف الصائم؛ إذا تغيرت ريحه.

(٣) انظر: اللسان، مادة: (خلف).

(٤) معاني الفراء (١/ ٤٤٧).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (خلف).

فإن قيل: كيف أمرهم بما لا يجوز فعله، وهو القعود والتخلف عن نصر الرسول والإسلام؟

قلت: هذا خارج مخرج التهديد؛ كقوله: ﴿اعملوا ما شئتم﴾ [فصلت: ٤٠].

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾، أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد العطاري قراءة عليه وأنا أسمع، والشيخ أبو الحسن علي بن أبي بكر بن روزبة بقراءتي عليه قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزي الصوفي، أخبرنا أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد الداودي، أخبرنا عبدالله بن أحمد بن حمويه السرخسي، أخبرنا محمد بن يوسف الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثنا أنس بن عياض، عن عبيد الله -يعني: ابن عمر-، عن نافع، عن ابن عمر قال: «لما توفي عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فأعطاه قميصه، وأمره أن يكفنه فيه، ثم قام يصلي عليه فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال: تصلي عليه وهو منافق، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم؟! فقال: إنما خيرني الله أو أخبرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ فقال: سأزيده على سبعين. قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ وصلينا

معه، فأنزل الله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾»[١].

وفي الصحيح من رواية ابن عباس عن عمر رضي الله عنهما قال: «فلما قام رسول الله ﷺ وثبتُ إليه فقلت: يا رسول لله، أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا كذا وكذا، قال: أَعُدُّ عليه. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: أخر عني يا عمر، فلما أكثرتُ عليه قال: إني خيرت فاخترت، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً﴾ قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم»[٢].

وفي هذا الحديث الصحيح إبطال لقول من زعم أنه لم يصل عليه، فإن الزمخشري[٣] حكى: أن جبريل جذبه حين أراد أن يصلي عليه.

فإن قيل: كيف أكرمه النبي ﷺ بقميصه؟

قلت: عنه أجوبة:

أحدها: أنه رامَ مكافأته على يد كانت له على عمه العباس عليه السلام، فإنه كان رجلاً جسيماً طويلاً، ولم يجدوا يوم بدر له قميصاً، فكساه عبدالله بن أبيّ قميصه. وهذا الجواب ذكره جماعة من العلماء، ويَرِدُ عليه إشكال وهو: أن عبدالله بن أبيّ لم يحضر بدراً، ولم يكن أسلم يومئذ؟

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧١٦ ح٤٣٩٥)، ومسلم (٤/ ١٨٦٥ ح٢٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٤٥٩ ح١٣٠٠).

(٣) الكشاف (٢/ ٢٨٣).

ويجاب عنه بأن يقال: المراد بيوم بدر الذي كسى فيه ابن أبيّ العباس قميصه، الزمان المقارب للوقعة، كما تقول: يوم صفين ويوم بُعاث، كأنهم -والله أعلم- التمسوا له قميصاً يوم ورودهم المدينة، فتعذر في ذلك الوقت، فأعطاه ابن أبيّ قميصه؛ لأنه كان نظيره في الجسامة وامتداد القامة.

والجواب الثاني: أنه ﷺ كان لا يرد سائلاً، وكان أرسل إلى رسول الله ﷺ يطلب أحد ثوبيه ليكفن فيه، فأرسل إليه الدِّثار[1] فأرسل يقول: أريد ثوبك الذي يلي جلدك، فأرسله له.

الثالث: أنه أكرم بذلك ابنه عبدالله، وكان رجلاً صالحاً.

الرابع: أنه رام بذلك استعطاف غيره واستمالتهم إلى الإسلام.

فإن قيل: هل ناله بركة القميص؟

قلت: كلا.

قال قتادة: ذكر لنا أن النبي ﷺ قال: «ما يغني عنه قميصي من عذاب الله من شيء»[2].

فإن قيل: تضمَّن دفع القميص لتكفينه فائدة وحكمة ظهر أثرها.

قلت: نعم، فإنه روي عن النبي ﷺ قال: «والله إني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه»[3]، فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج حين رأوا استشفاءه بقميص رسول

---

(١) الدثار: هو الثوب الذي يكون فوق الشِّعار (اللسان، مادة: دثر).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٢٠٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٠)، والواحدي في أسباب النزول (ص:٢٦٢). والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٥٩) وعزاه لأبي الشيخ.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

الله ﷺ. حكى هذا جماعة؛ منهم الزجاج[(١)] والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي[(٢)]، ثم إن في ذلك [حضاً][(٣)] للمؤمنين على المعاطفة والمراحمة؛ لأنهم إذا رأوا نبيهم ﷺ يفعل ذلك مع رجل معروف بالنفاق لكونه نطق بكلمة الإسلام، حرّك دواعيهم وهيّج شفقة بعضهم على بعض.

قوله تعالى: ﴿ولا تَقُمْ على قبره﴾ قال أهل التفسير: كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له[(٤)]، فنهي عن ذلك في حق المنافقين.

قال ابن جرير[(٥)]: المعنى: لا تتولى دفنه، وهو من قولك: قام فلان بأمر فلان؛ [إذا كفاه أمره][(٦)].

وقد سبق تفسير الآية التي بعدها.

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ يجوز أن يراد السورة بتمامها، ويجوز أن يراد بعضها. والمعنى: وإذا أنزلت سورة تأمرهم بالإيمان والجهاد.

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٣).
(٢) زاد المسير (٣/ ٤٨٠-٤٨١).
(٣) في الأصل: حظاً.
(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ٢١٥ ح٣٢٢١). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨١).
(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٢٠٤).
(٦) ما بين المعكوفين زيادة من الطبري، الموضع السابق.

قال مقاتل[١]: هي براءة.

والأظهر: إطلاقها في كل سورة تشمل على الأمر بالإيمان والجهاد.

﴿أَنْ آمنوا﴾ هي "أَنْ" المفسِّرة، ثم إن كان الخطاب للمنافقين، فالمعنى: آمنوا بقلوبكم، وإلا فالمراد: اثبتوا على الإيمان، أو افعلوا فعل المؤمنين ﴿استأذنك أولوا الطول منهم﴾ وهم ذوو اليسار الذين لا عذر لهم في التخلف، ﴿وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين﴾ من ذوي الأعذار.

فوبخهم الله تعالى بقوله: ﴿رضوا بأن يكونوا مع الخوالف﴾ وهي النساء، أو الخساس الأدنياء.

قال ابن الأنباري[٢]: العرب تجمع فاعلة فواعل فيقولون: ضاربة وضوارب، وشاتمة وشواتم، ولا يجمعون فاعلاً فواعل إلا في حرفين، فوارس وهوالك.

وقال غيره: لا يجمع فاعل على فواعل إلا في الشعر أو قليل من الكلام.

﴿وطبع على قلوبهم﴾ قال ابن عباس: بالنفاق[٣].

﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الجهاد من المثوبة، وفي التخلف عنه من العقوبة.

لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

---

(١) تفسير مقاتل (٢/ ٦٤).

(٢) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٨٢).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٧).

ثم أثنى الله على رسوله ﷺ والمؤمنين فقال: ﴿لكن الرسول ... الآية﴾ أي: إن تخلف المنافقون فقد نَهَدَ[1] إلى الجهاد الرسول، ﴿والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾.

﴿وأولئك لهم الخيرات﴾ قال الأخفش والمبرد: هو جمع خيرة، وهن الجواري الفاضلات الحسان[2]، ومنه قوله: ﴿فيهن خيرات حسان﴾ [الرحمن:٧٠].

وقيل: "الخيرات": منافع الدنيا والآخرة.

وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾

---

(١) نَهَدَ إليه: قام (اللسان، مادة: نهد).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٧)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٣).

قوله تعالى: ﴿وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم﴾ قال أبو عبيدة[١]: المعذرون من تعذر وليس بجاد، إنما يُعَرِّضُ بما لا يفعله ويُظهر غير ما في نفسه.

وقال [ابن][٢] قتيبة[٣]: يقال: عَذَّرت في الأمر؛ إذا قصّرت[٤].

وقال الفراء[٥] والزجاج[٦] وابن الأنباري[٧]: المُعَذِّرون هم المعتذرون، فأدغمت التاء في الذال ونقلت حركتها إلى العين، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود[٨].

قال مجاهد: هم نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله[٩].

وقيل: هم أسد وغطفان، قالوا: إن لنا عيالاً وإن بنا جَهْداً فأْذن لنا في التخلف.

وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا، فقال رسول الله ﷺ: سيغنيني الله عنكم.

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٦٧).

(٢) زيادة على الأصل. وانظر: زاد المسير (٣/ ٤٨٣).

(٣) تفسير غريب القرآن (ص:١٩١).

(٤) انظر: اللسان، مادة: (عذر).

(٥) معاني الفراء (١/ ٤٤٧).

(٦) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٤).

(٧) انظر: زاد المسير (٣/ ٣٨٢).

(٨) مثل السابق.

(٩) أخرجه الطبري (١٠/ ٢١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٠) عن ابن إسحاق. وانظر: الوسيط (٢/ ٥١٧) من قول ابن إسحاق. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦١) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن ابن إسحاق.

قال قتادة: اعتذروا بالكذب[1].

وقال الزجاج[2]: المتعذرون هم الذين يعتذرون، كان لهم عذر أو لم يكن، وهم هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر، وأنشدوا:

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَد اعْتَذَرْ[3]

المعنى: فقد جاء بعذر.

قال الزجاج[4] وغيره: ويجوز المُعِذّرون -بكسر العين- لالتقاء الساكنين، ويجوز المُعُذّرون -بضم العين- لاتباع ضمة الميم، ولم يُقرأ بهذين الوجهين.

وقرأ ابن عباس بسكون العين وتخفيف الذال[5]، وهم الذين يأتوا بالعذر الصحيح، وكان يقول: هم الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ بإذنه، وهذا يؤيد قول الزجاج.

﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ وهم المنافقون المخلفون بغير عذر، ومعنى: "كذبوا الله": لم يَصْدُقُوا في إيمانهم.

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٢١٠).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٤).

(٣) البيت للبيد بن ربيعة، يوصي ابنتيه بزيارة قبره حولاً بعد موته، ويقول: إن هذا كاف. انظر: ديوان حاتم (٢/ ٢١)، ومجاز القرآن (١/ ١٦)، واللسان، مادة: (عذر)، ومعاني الزجاج (٢/ ٤٦٤)، والطبري (١/ ٥٢، ١٠/ ٢١٠)، والقرطبي (١/ ٩٨، ٨/ ٢٢٤، ١٠/ ٢٣١)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٣، ٩/ ٨٧)، وروح المعاني (١٢/ ٥٧).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٤).

(٥) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٢١)، والنشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤).

وقرأ أُبيّ بن كعب: "كَذَّبُوا" بالتشديد[١].

﴿سيصيب الذين كفروا منهم﴾ أي: داموا على كفرهم ﴿عذاب أليم﴾.

قوله تعالى: ﴿ليس على الضعفاء﴾ قال الضحاك: نزلت في ابن أم مكتوم - وكان ضرير البصر -، قال: يا نبي الله، إني شيخ ضرير البصر، خفيف الحال، نحيف الجسم، وليس لي قائد، فهل لي رخصة في التخلف عن الجهاد، فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

قال ابن عباس: "الضعفاء": الزَّمْنَى[٣] والمشايخ والعَجَزَة[٤].

والمرضى: جمع مريض.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ وهم الفقراء ﴿حرج﴾ أي: ضيق بسبب الإثم، ﴿إذا نصحوا لله ورسوله﴾ بالإخلاص في إيمانهم وطاعتهم، وحفظ ذراري المجاهدين، وحسن الخلافة عليهم في أموالهم ونسائهم.

وفي قوله: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ نفي لما عساه يتوهم من عتاب أو عقاب يلحقهم بسبب تخلفهم مع عذرهم ونصحهم، ﴿والله غفور رحيم﴾ للمحسنين.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٨٤).

(٣) الزَّمانة: العاهة. وجل زَمِنٌ: أي مُبْتَلى بَيِّنُ الزَّمانة (اللسان، مادة: زمن).

(٤) الوسيط (٢/ ٥١٨)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٤).

قوله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ قال الحسن البصري: هم أبو موسى وأصحابه[١].

وقال مجاهد: هم بنو مُقَرِّن، وكانوا سبعة[٢].

وقال ابن إسحاق: كانوا سبعة من الأنصار[٣]. وهؤلاء قوم عدموا آلة الجهاد فسألوا رسول الله ﷺ المعونة.

قال ابن عباس: سألوه الدواب[٤].

وقال أنس بن مالك: سألوه الزاد[٥].

وقال الحسن: سألوه النعال[٦].

ولا تَنافي بين هذه الأقوال؛ لجواز أن يكون كل واحد سأل ما يحتاج إليه، ويتوقف خروجه عليه.

﴿قلت لا أجد ما أحملكم عليه﴾ فانصرفوا باكين، فذلك قوله: ﴿تولوا وأعينهم تفيض من الدمع﴾.

---

(١) الماوردي (٢/ ٣٩٢)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٦).

(٢) أخرجه الطبري (١٠/ ٢١٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٢). وانظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٥)، وأسباب النزول للواحدي (ص:٢٦٢)، والماوردي (٢/ ٣٩٢)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٦). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٦٤) وعزاه لابن سعد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ٢١٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٦).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٨)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٦).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٣). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٦)، والسيوطي في الدر (٤/ ٢٦٥) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٦) انظر: المصادر السابقة.

والجار والمجرور في موضع نصب على التمييز[١].

وقوله: ﴿حزناً﴾ مفعول له[٢]، ﴿أن لا يجدوا ما ينفقون﴾ معناه: لئلا يجدوا ما يخرجون في جهاز الغزو.

وقوله: "أن لا يجدوا" في محل النصب على أنه مفعول له أيضاً، وناصبه المفعول له الذي هو "حَزَناً"[٣].

ثم عاب الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون بالنفاق ويستأذنون في القعود مع القدرة على الخروج والإنفاق، فقال: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ... الآية﴾.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ
قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ
إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ
لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ
وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ
لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

---

(١) الدر المصون (٣/ ٤٩٣).

(٢) التبيان (٢/ ٢٠)، والدر المصون (٣/ ٤٩٣).

(٣) الدر المصون (٣/ ٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿لن نؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم، ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ فأطلعنا على نيط ما انطوت عليه ضمائركم من النفاق والفساد، ﴿وسيرى الله عملكم﴾ فيما تستأنفون، هل تتوبون إليه أو تقيمون على النفاق وتثبتون عليه، ﴿ورسوله﴾ يرى عملكم أيضاً فيشهد عليكم يوم القيامة، ﴿ثم تردون﴾ بعد الموت ﴿إلى عالم الغيب والشهادة﴾ يعني: السر والعلانية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ المعنى: يجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم﴾ أي: إذا رجعتم إليهم من تبوك.

قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس ومعتب [بن](١) قشير وأصحابهما، وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين(٢).

﴿لتعرضوا عنهم﴾ أي: لتعرضوا عن توبيخهم وتعنيفهم وتصفحوا عنهم، ﴿فأعرضوا عنهم﴾ أي: دعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق، وهو كلام يلوح منه الوعيد والتهديد.

﴿إنهم رجس﴾ قال عطاء: إن عملهم رجس(٣).

وهذا تعليل للأمر بالإعراض عنهم؛ لأن من كان عمله رجساً لا ينفع تلافيه، ولا ينجع الوعظ فيه.

---

(١) زيادة من زاد المسير (٣/ ٤٨٧).

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٨٧) من قول مقاتل.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٨) بلا نسبة.

قوله تعالى: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ وذلك أن عبدالله بن أبيّ حلف للنبي ﷺ أنه لا يتخلف عنه، وليكونن معه على عدوه، وسأله الرضى عنه طلباً لنفع العاجلة، فأخبر الله أن ذلك غير مغن عنه شيئاً مع سخطه عليه، وكونه عرّض نفسه للعقوبة في الآجلة فقال: ﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾.

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا
وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ
ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ
وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً﴾ قال ابن عباس: نزلت في أعاريب أسد وغطفان وأعراب حول المدينة(١).

والمعنى: أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر ممن هو على مثل رأيهم؛ لأنهم أقسى قلوباً وأجفى طباعاً.

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٩)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٨٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٦) وعزاه لأبي الشيخ عن الكلبي.

ومن الحديث المخرج في الصحيحين من حديث أبي مسعود البدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفَدَّادِين[١] عند أصول أذناب الإبل»[٢].

﴿وأجدر أن لا يعلموا حدود﴾ أي: أحق وأولى أن لا يعلموا حدود ﴿ما أنزل الله على رسوله﴾ لأنهم [أبعد عن][٣] العلم والحكمة، ولذلك شبهوا بالموتى. ومنه قول معاوية: "أهل الكُفُور هم أهل القبور"[٤]. والكُفُور: جمع، واحده: كَفْر، وهو القرية[٥]. يقول: إن أهل القرى الذين لا يسكنون المدن هم الموتى؛ لأنهم لم يستضيئوا بنور العلم وسماع القرآن والحديث، فهم موتى من هذا الوجه.

قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً﴾ يعني: في الصدقة والغزو وغيرهما مما ينفق في جهة القربة إلى الله، "مغرماً" يعني: غرامة وخسراناً، والغرامة: التزام ما لا يلزم، ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ يعني: دوائر الزمان من ظهور أعدائكم عليكم، أو قتل نبيكم، أو موته ليتخلصوا من الإنفاق والنفاق.

---

(١) الفدّادون: جمع فدّاد، من الفديد، وهو الصوت الشديد، وهم أصحاب الوبر أو الفلاّحون؛ لغلظ أصواتهم وجفائهم (اللسان، مادة: فدد).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٢٠٢ ح٣١٢٦)، ومسلم (١/ ٧١ ح٥١).

(٣) في الأصل: بعدا من.

(٤) ذكره النووي في شرحه على صحيح مسلم (٨/ ٢٠٤) عن عمر رضي الله عنه. وذكره ابن منظور في اللسان، مادة: (كفر)، وياقوت في معجم البلدان (٤/ ٤٦٨).

(٥) انظر: اللسان، مادة: (كفر).

﴿عليهم دائرة السَّوْء﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: "السُّوء" بضم السين، وقرأ الباقون بفتحها[١].

قال الفراء[٢]: من فتَحَ أراد المصدر، من سُؤْتُهُ [سُوْءاً][٣] ومَسَاءَةً. ومن رَفَعَ السين جعله اسماً؛ كقولك: دائرة السّوء: البلاء والعذاب. ولا يجوز ضم السين في قوله: ﴿ما كان أبوكِ امرأ سَوْء﴾ [مريم:٢٨]، ولا في قوله: ﴿وظننتم ظن السَّوْء﴾ [الفتح:١٢]، [لأنه][٤] ضد؛ كقولك: رجل صدق. وليس للسوء هاهنا معنى في عذاب ولا بلاء فيُضَمّ.

وهذا إخبار من الله تعالى.

المعنى: عليهم تدور الدوائر بما يكرهونه.

وقيل: هو دعاء معترض؛ كقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلّت أيديهم﴾ [المائدة:٦٤].

﴿والله سميع﴾ لأقوالهم، ﴿عليم﴾ بنياتهم وأفعالهم.

قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ قال ابن عباس: هم من أسلم من الأعراب، مثل: جهينة وأسلم وغفار[٥].

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٣٠-٣٣١)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢١-٣٢٢)، والكشف (١/ ٥٠٥)، والنشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٦).

(٢) معاني الفراء (١/ ٤٥٠).

(٣) في الأصل: سوءة. والتصويب من معاني الفراء، الموضع السابق.

(٤) في الأصل: لأ. والتصويب من معاني الفراء، الموضع السابق.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٩)، وزاد المسير (٣/ ٤٨٩).

﴿ويتخذ ما ينفق﴾ في الجهاد والصدقة وغيرهما من النفقات التي يرجى بها نفع المثوبة ودفع العقوبة، ﴿قُرُبات عند الله﴾ يتوصل بها إلى مرضاته، ويتوسل بها إلى جناته.

و"قُرُبات": مفعول ثان لـ "يَتَّخِذُ"(١)، وهو جمع قُربة، بسكون الراء وضمها.

﴿وصلوات الرسول﴾ استغفاره ودعاؤه؛ كقوله ﷺ: «اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى»(٢).

﴿ألا إنها﴾ صلوات الرسول. وقيل: النفقة ﴿قُرْبَة لهم﴾.

وقرأتُ على شيخي أبي البقاء اللغوي للمُفَضَّل وأبان عن عاصم وإسماعيل بن جعفر ووَرْش عن نافع: "قُرُبة"، بضم الراء على الأصل(٣).

قال ابن عباس: المعنى: ألا إنها نور لهم ومكرمة عند الله تعالى(٤).

﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ أي: في جنته.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٢٠)، والدر المصون (٣/ ٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٥٤٤ ح١٤٢٦)، ومسلم (٢/ ٧٥٦ ح١٠٧٨).

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٣٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٢)، والكشف (١/ ٥٠٥)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٧).

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥١٩).

قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار﴾ اختلف العلماء في السابقين الأولين من المهاجرين، فقال أبو موسى وسعيد بن المسيب وقتادة: هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ(١).

وقال عطاء بن أبي رباح: هم أهل بدر(٢).

وقال الشعبي: أهل بيعة الرضوان(٣).

ونقل عن محمد بن كعب القرظي ما يدل على أنهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ، فروى أبو صخر حميد بن زياد قال: قلت لمحمد بن كعب يوماً: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما كان من رأيهم، وإنما أريد الفتن، فقال: إن الله قد غفر لجميع أصحاب محمد ﷺ وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم. قلت: في أي موضع أوجب لهم الجنة في كتابه؟ فقال: سبحان الله، ألا تقرأ قوله: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ... الآية﴾، فأوجب الله لجميع أصحاب النبي ﷺ الجنة والرضوان، وشرط على التابعين شرطاً لم يشرط عليهم.

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٩) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وأبي نعيم في المعرفة عن أبي موسى. ومن طريق آخر عن سعيد بن المسيب، وعزاه لابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه وأبي نعيم في المعرفة. ومن طريق آخر عن الحسن ومحمد بن سيرين، وعزاه لابن المنذر وأبي نعيم.

(٢) ذكره الماوردي (٢/ ٣٩٥)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٢٠) وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٦٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٦٩) وعزاه لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي الشيخ وأبي نعيم في المعرفة.

قلت وما اشترط عليهم؟ قال: اشترط عليهم أن يتبعونهم بإحسان، يقول: يقتدون بأعمالهم الحسنة، ولا يقتدون بهم في غير ذلك. قال أبو صخر: فوالله لكأني لم أقرأها، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ محمد بن كعب[(١)].

وقال القاضي أبو يعلى: هم الذين أسلموا قبل الهجرة[(٢)].

واختلف القراء في قوله: ﴿والأنصار﴾؛ فقرأ القراء السبعة والأكثرون: "والأنصارِ" بالجر، نسقاً على "المهاجرين"[(٣)]، وهم أهل العقبة الأولى، وكانوا سبعة، وأهل العقبة الثانية، وكانوا سبعين. والذين بادروا إلى الإيمان حين قدم إليهم مصعب بن عمير وأبو زرارة، وتجيء فيهم الأقوال التي في المهاجرين.

وقرأ جماعة منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه والحسن البصري: "والأنصارُ" بالرفع، وبها قرأت على الشيخين أبي بقاء النحوي وأبي عمرو الياسري ليعقوب الحضرمي نسقاً على "والسابقون"[(٤)].

قوله تعالى: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ قال عطاء: هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار بالترحم والدعاء، ويذكرون محاسنهم[(٥)]، فيسألون الله أن يجمع بينهم، فأحسنوا.

---

(١) انظر: الوسيط (٢/ ٥٢٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٩٠). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٧٢) وعزاه لأبي الشيخ وابن عساكر.

(٢) زاد المسير (٣/ ٤٩١).

(٣) النشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص: ٢٤٤).

(٤) مثل السابق.

(٥) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٢١)، وزاد المسير (٣/ ٤٩١).

وطائفة جعلت مكان الصلاة عليهم [والدعاء][(١)] لهم: اللعنة والتنفير عنهم، فتراهم [مجاهرين في سبّ][(٢)] السابقين الأولين من المهاجرين.

ولقد سمعتُ عظيماً من عظمائهم وطاغية من طغاتهم يذكر الزبير بن العوام حواريّ رسول الله ﷺ وابن عمته، وأول من سلّ سيفاً في سبيل الله، ويقول: هو من أهل النار. فقلت للطاغي الباغي: رسول الله قد شهد له بالجنة، فشهادة رسول الله ﷺ أقوم من شهادتك وأعدل، ولو استطعت لزدت في الرد والنكير عليه، ولكني خفت حَيْفَه وسيفه، ثم إني نهضتُ كمداً وأنشدت مستشهداً:

لَوْ كُنْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَقُولا   لَشفيتُ مِنْ قَلْبِي غَلِيلا
لَكِنَّ لِسَانِي صَارِمٌ   مُلِئَتْ مَضَارِبُهُ فُلُولا

اللهم فإليك المشتكى، وأنت المستغاث، وبك المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وهذه الآية تنعي على الطائفة الخسيسة الخبيثة الذين رفضوا دين الإسلام، وتدينوا بسب أصحاب الرسول ﷺ سوء حالهم، وتخرجهم عن أن يكونوا ممن رضي الله عنهم وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، وقد ثبت بالدلائل القطعية والبراهين العقلية والسمعية أن من تنسك بِسَبّ السابقين الأولين من المهاجرين وبغضهم وتمسك بالبراءة منهم ورفضهم لم يتبعهم بإحسان.

---

(١) في الأصل: الدعاء.

(٢) في الأصل: مجاهدين في بسبب. والصواب ما أثبتناه.

قوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ قال الزجاج(١): رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به.

﴿وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار﴾ وقرأ ابن كثير: "من تحتها" بزيادة "مِنْ"، وكذلك هي في مصاحف أهل مكة(٢).

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾

قوله تعالى: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾ وهم من جهينة ومزينة وأسلم وغفار، وكانوا نازلين حول المدينة، ﴿ومن أهل المدينة﴾ من الأوس والخزرج، ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف، تقديره: قوم مردوا، أو هو صفة "منافقون" على الفصل بالمعطوف أو بإضمار "مِنْ". التقدير: ومن أهل المدينة من مردوا على النفاق(٣).

قال ابن الأنباري(٤): وهو كقوله: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات:١٦٤].

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٦).

(٢) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٢)، والنشر (٢/ ٢٨٠)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٧).

(٣) انظر: التبيان (٢/ ٢١)، والدر المصون (٣/ ٤٩٨).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٩٢).

ومعنى قوله: "مردوا" أي: مرنوا على النفاق وتمهروا فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿لا تعلمهم﴾ تحقيق لمعنى مرودهم في النفاق وتوغلهم فيه، بحيث خفي على أنور الناس بصيرة وأدقهم نظراً وأصدقهم قرآنية.

وفي قوله: ﴿نحن نعلمهم﴾ تهديد لهم وتخويف من سوء عاقبة نفاقهم.

﴿سنعذبهم مرتين﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين: المرة الأولى: فضيحتهم، «فإن رسول الله ﷺ قام خطيباً يوم جمعة فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق، فأخرج ناساً ففضحهم»(١).

والمرة الثانية: عذاب القبر(٢).

وقال الحسن: سنعذبهم مرة بأخذ الزكاة من أموالهم، ومرة بنهك أبدانهم في الجهاد(٣).

وقال مقاتل بن سليمان(٤): سنعذبهم عند الموت بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم، وفي القبر بمنكر ونكير.

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٠)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٤١ ح٧٩٢).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٤): فيه الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٠)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٢).

قلت: ولابن عباس قول آخر هو: أن إحدى المرتين: الحدود، والأخرى: عذاب القبر. لكن الطبري عقب على هذا القول (١١/ ١١) بقوله: ذكر ذلك عن ابن عباس من وجه غير مرضي.

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١١). وذكره الماوردي (٢/ ٣٩٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٣).

(٤) تفسير مقاتل (٢/ ٦٨).

وقال ابن زيد: نعذبهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد، وفي الآخرة بالنار[١]. وفيه بعد؛ لقوله: ﴿ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ وهو عذاب جهنم.

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وآخرون﴾ يعني: من المؤمنين ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ نزلت في أبي لبابة ونفر معه تخلفوا عن تبوك ثم ندموا، فقاموا وربطوا أنفسهم في السواري، فأقسموا بالله لا يطلقون أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقهم. فلما قدم رسول الله قال: ما هؤلاء؟ فذكر له شأنهم، فقال: وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ويعذرهم، رغبوا عني وتخلفوا عن المسلمين. فلما أنزل الله هذه الآية أطلقهم رسول الله ﷺ وعذرهم[٢].

قال الإمام أحمد ويحيى بن معين: اسم أبي لبابة: رفاعة بن عبد المنذر.

وقال موسى بن عقبة عن ابن شهاب: اسمه: بشير بن عبد المنذر.

وقال مقاتل[٣]: اسمه: مروان بن عبد المنذر.

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ١١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٧٤) وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٢). وذكره الواحدي في أسباب النزول (ص:٢٦٣)، والسيوطي في الدر (٤/ ٢٧٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس.

(٣) تفسير مقاتل (٢/ ٦٨).

والمعول على القول الأول، وهو قول الإمام، وهو الأكثر والأشهر عند علماء النقل.

وقلّ أن ترى قضية نقلية أو عقلية اضطربت فيها العقول، واختلف فيها أهل المنقول، إلا وجدت برهانه أنور وأوضح [ونقله][(١)] أصح وأرجح.

إذا قالت حَذام فصدِّقوها فإن القولَ ما قالت حذام[(٢)]

اللهم فارزقنا لزوم الاقتداء به [بمآثره][(٣)] والاهتداء بأنواره.

قوله تعالى: ﴿خلطوا عملاً صالحاً﴾ وهو توبتهم، ﴿وآخر سيئاً﴾ وهو تخلفهم عن رسول الله ﷺ.

وقيل: العمل الصالح: ما سبق لهم من الجهاد، والعمل السيء: تخلفهم عن غزوة تبوك.

وقال ابن جرير[(٤)]: وضع الواو مكان الباء كما يقال: خُلط الماء واللبن.

وهذا تعسف وعدول عن حقيقة اللفظ، فإن الواو جعلت كل واحد من العملين مخلوطاً [ومخلوطاً][(٥)] به، وكذلك في النظير الذي ذكره، فإنه جعل الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خلط الماء باللبن واللبن بالماء.

﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ سبق القول في "عسى".

---

(١) في الأصل: نقله.

(٢) البيت للُجَيم بن صعب. انظر: لسان العرب مادة: (حذم).

(٣) في الأصل: بماره.

(٤) تفسير الطبري (١١/ ١٢).

(٥) في الأصل: ومخوطاً.

أخبرنا الشيخان أبو القاسم أحمد بن عبدالله بن عبد الصمد السلمي وأبو الحسن علي بن أبي بكر البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب، أخبرنا أبو الحسن الداودي، أخبرنا عبدالله بن أحمد السرخسي، أخبرنا محمد بن يوسف الفربري، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا مؤمل(١)، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، ثنا عوف(٢)، حدثنا أبو رجاء، حدثنا سمرة بن جندب(٣) قال: قال رسول الله ﷺ لنا: «أتاني الليلة آتيان فابتعثاني، فانتهينا إلى مدينة [مبنية](٤) بلبن ذهب ولبن فضة، فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر كأقبح ما أنت راء، قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه

---

(١) مؤمل بن هشام اليشكري، أبو هشام البصري، ثقة صدوق، ذكره ابن حبان في الثقات، مات في ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائتين (تهذيب التهذيب ١٠/ ٣٤٢، والتقريب ص:٥٥٥).

(٢) عوف بن أبي جميلة الأعرابي العبدي البصري، ثقة رمي بالقدر والتشيع، مات سنة ست أو سبع وأربعين ومائة (تهذيب التهذيب ٨/ ١٤٨، والتقريب ص:٤٣٣).

(٣) سمرة بن جندب بن هلال بن جريج بن مرة بن حزم بن عمرو بن جابر بن ذي الرياستين الفزاري، أبو سعيد، كان حليف الأنصار، سكن البصرة، وكان زياد يستحلفه عليها، فلما مات زياد أقرّه معاوية عاماً أو نحوه، ثم عزله، وكان شديداً على الحرورية، فهم ومن قاربهم يطعنون عليه، وكان الحسن وابن سيرين وفضلاء أهل البصرة يثنون عليه، مات سنة ثمان وخمسين (تهذيب التهذيب ٤/ ٢٠٧، والتقريب ص:٢٥٦).

(٤) زيادة من الصحيح.

جنة عدن، وهذاك منزلك. قالا: أما القوم الذين كانوا [شطر][(١)] منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم»[(٢)].

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

قال أهل التفسير: لما تاب الله على أبي لبابة وأصحابه، قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا التي خَلَّفَتْنا عنك فتصدق بها عنا. فقال رسول الله ﷺ: ما أُمِرْتُ أن آخذ من أموالكم شيئاً، فأنزل الله عز وجل: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ فأخذ رسول الله ﷺ ثلث أموالهم[(٣)].

قال الحسن البصري رحمه الله: هذه الصدقة كفارة الذنوب التي أصابوها، وليست الزكاة المفروضة[(٤)].

---

(١) في الأصل: شطراً. والتصويب من الصحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٧١٧ ح٤٣٩٧).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ١٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٤-١٨٧٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٧٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل.

(٤) ذكره الماوردي (٢/ ٣٩٨)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٦) كلهم من قول ابن زيد.

وقال عكرمة: هي الزكاة(١).

قوله تعالى: ﴿تطهرهم﴾ في موضع نصب صفة لـ"صَدَقَةً"(٢).

وقرأ الحسن: "تُطْهِرْهُمْ" بالجزم جواباً للأمر(٣). والمعنى: تطهرهم بها من دنس الذنوب.

﴿وتزكيهم بها﴾ تصلحهم وترفع منازلهم.

وقيل: تزكي أموالهم وتُنَمِّيها.

﴿وصلّ عليهم﴾ ادع لهم واستغفر لذنوبهم.

﴿إن صلواتك﴾ وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: "صَلاَتَكَ" بالتوحيد(٤).

﴿سكن لهم﴾ تثبيت وطمأنينة لهم أن الله قبلها منهم، ﴿والله سميع﴾ لاعترافهم ﴿عليم﴾ بندمهم على اقترافهم.

قوله تعالى: ﴿ألم يعلموا﴾ وروى عبد الوارث عن أبي عمرو: "ألم تعلموا" بالتاء على المخاطبة لهم(٥).

---

(١) ذكره الماوردي (٢/ ٣٩٨)، والواحدي في الوسيط (٢/ ٥٢٢)، وابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٤٩٦).

(٢) انظر: التبيان (٢/ ٢١)، والدر المصون (٣/ ٥٠٠).

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤).

(٤) الحجة للفارسي (٢/ ٣٣٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٢)، والكشف (١/ ٥٠٥)، والنشر (٢/ ٢٨١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٧).

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤).

المعنى: ألم يعلم المتوب عليهم قبل أن يُتاب عليهم ﴿أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾ إذا صَحَّتْ عن عقيدة صالحة، ﴿ويأخذ الصدقات﴾ إذا صدرت عن نية خالصة.

وقال المفسرون: لما نزلت توبة هؤلاء، قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين: هؤلاء بالأمس كانوا معنا لا يكلمون ولا يجالسون، فما لهم؟ فأنزل الله هذه الآية(١).

ومعنى التخصيص في قوله: "هو يقبل" إعلامهم أن القبول ليس إلى الرسول، وإنما هو إلى الله تعالى.

أخبرنا شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي قراءة عليه وأنا أسمع بجامع دمشق، والشيخ أبو بكر بن سعيد بن الموفق الخازن النيسابوري برباط دار الذهب ببغداد قالا: أخبرنا أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ببغداد، قال: أخبرنا أبو الحسن مكي بن منصور بن علان الكرجي، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن الحرشي الحيري، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب بن يوسف، أخبرنا الربيع، أخبرنا الشافعي، أخبرنا سفيان بن عيينة، عن ابن عجلان(٢)، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة من

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٦)، والطبري (١١/ ١٩).

(٢) محمد بن عجلان المدني القرشي، مولى فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، أبو عبد الله، أحد العلماء العاملين، صدوق كثير الحديث، مات بالمدينة سنة ثمان وأربعين ومائة (تهذيب التهذيب ٩/ ٣٠٣-٣٠٤، والتقريب ص:٤٩٦).

كَسْبٍ طيب، ولا يقبل الله إلا طيباً، [ولا يصعد إلى السماء إلا طيب][(١)]، إلا كأنما يضعها في يد الرحمن، فيربيها له كما يربي أحدكم فُلُوَّه، حتى أن اللقمة لتأتي يوم القيامة وإنها لمثل الجبل العظيم، ثم قرأ: ﴿أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات﴾»[(٢)].

وقرأتُ على الشيخ الصالح أبي المجد محمد بن الحسين بن أحمد القزويني، أخبركم الإمام أبو منصور محمد بن أسعد الطوسي فأقرَّ به، قال: حدثنا الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي[(٣)]، أخبرنا أبو منصور محمد بن محمد بن سمعان، أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني، حدثنا حميد بن [زنجويه][(٤)]، حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا عباد بن منصور، سمعت القاسم بن محمد، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً: «إن الله تبارك وتعالى يقبل الصدقات ولا يقبل منها إلا الطيب، يأخذها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله، حتى تصير

---

(١) زيادة من مسند الشافعي (ص:١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٥١١ ح١٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٧٠٢ ح١٠١٤)، والشافعي في مسنده (ص:١٠٠) واللفظ له.
والفُلُوُّ: المُهْر الصغير (اللسان، مادة: فلا).

(٣) عبد الواحد بن أحمد بن أبي القاسم بن محمد بن داود بن أبي حاتم المليحي الهروي، أبو عمر، مسند هراة، كان ثقةً صالحاً، توفي في جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وله ست وتسعون سنة (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٥٥).

(٤) في الأصل: زجوية. وهو خطأ. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء (١٢/ ١٩)، والجرح والتعديل (٣/ ٢٢٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٥٥٠).

اللقمة مثل أُحُد. وتصديق ذلك في كتاب الله المنزل: ﴿يمحق الله الربا ويربي الصدقات﴾ [البقرة:٢٧٦]، و﴿أن الله هو يقبل التوبة عن عباده﴾»[(١)]. هذا حديث صحيح.

وقال ابن مسعود: الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد السائل[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وقل اعملوا﴾ خطاب للتائبين وغيرهم، ﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾ يريد: أن الله يُطلع المؤمنين على ما في الضمائر من صالح وطالح، وذلك بما يقذفه في القلوب من المحبة والبغض.

أخبرنا أبو علي بن سعادة المذكر إذناً، قال: أخبرنا هبة الله بن الحصين، أخبرنا أبو علي الحسن بن علي الواعظ، أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر، حدثنا عبدالله بن الإمام أحمد، حدثنا أبي، حدثنا حسن بن موسى[(٣)]، حدثنا [ابن][(٤)] لَهِيعَة، حدثنا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٥٠ ح٦٦٢)، وأحمد (٢/ ٤٧١ ح١٠٠٩٠).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٩)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٧٧)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٩)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ٣٥٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٨٢) وعزاه لعبد الرزاق والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم والطبراني.

(٣) الحسن بن موسى الأشيب، أبو علي البغدادي، قاضي طبرستان والموصل وحمص، كان صدوقاً في الحديث، وثقه ابن معين وغيره، مات سنة تسع -أو عشر- ومائتين (تهذيب التهذيب ٢/ ٢٧٩، والتقريب ص:١٦٤).

(٤) زيادة على الأصل. وابن لهيعة هو: عبد الله بن عقبة بن فرعان بن ربيعة بن ثوبان الحضرمي الأعدولي، ويقال: الغافقي، أبو عبد الرحمن المصري، صدوق ثقة، لكنه خلط بعد احتراق كتبه سنة تسع وستين ومائة، ومات سنة أربع وسبعين ومائة (تهذيب التهذيب ٥/ ٣٢٧-٣٣١، والتقريب ص:٣١٩).

درّاج[١]، عن أبي الهيثم[٢]، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائناً ما كان»[٣].

﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿وآخرون مُرْجَئُون﴾ وقرأ نافع وأهل الكوفة إلا أبا بكر: "مُرْجَوْنَ" بغير همز[٤].

والأولى من أَرْجَأْتُهُ، والثانية من أَرْجَيْتُهُ، وهما بمعنى التأخير -كما سبق-.

والمعنى: وآخرون من المتخلفين مرجون لأمر الله ليقضي الله فيهم ما هو قاض، وهم الثلاثة الذين خُلِّفُوا.

---

(١) دراج بن سمعان، يقال: اسمه عبد الرحمن، ودرّاج لقب، أبو السمح القرشي السهمي مولاهم المصري، القاص، مولى عبد الله بن عمرو بن العاص، صدوق ثقة، مات سنة ست وعشرين ومائة (تهذيب التهذيب ٣/ ١٨٠، والتقريب ص:٢٠١).

(٢) سليمان بن عمرو بن عبدة -ويقال: عبيد- الليثي العتواري، أبو الهيثم المصري، تابعي ثقة (تهذيب التهذيب ٤/ ١٨٦، والتقريب ص:٢٥٣).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨ ح١١٢٤٦)، والحاكم (٤/ ٣٤٩ ح٧٨٧٧).

(٤) الحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٣)، والكشف (١/ ٥٠٦)، والنشر (١/ ٤٠٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤).

﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ قال الزجاج[(١)]: "إما" لأحد الشيئين، والله عالم بما يكون وبما يصير إليه أمرهم، إلا أن هذا لأولئك الذين خوطبوا بما يعلمون. فالمعنى: ليكن أمرهم عندكم على هذا في الخوف والرجاء.

والمعنى: إما يعذبهم إن بقوا على الإصرار، وإما يتوب عليهم إن تداركوا دينهم بالتوبة والاستغفار.

﴿والله عليم﴾ بمآلهم ﴿حكيم﴾ في إرجائهم وإمهالهم.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً﴾ قرأ نافع وابن عامر بغير واو، كذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام على إضمار المبتدأ وإضمار الخبر. وقرأ الباقون بالواو عطفاً على ما قبله[(٢)]، أي: ومنهم الذين اتخذوا. ويجوز أن يكون

---

(١) معاني الزجاج (٢/ ٤٦٨).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٣)، والكشف (١/ ٥٠٧)، والنشر (٢/ ٢٨١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٨).

محل "والذين اتخذوا" النصب على الاختصاص؛ كقوله: ﴿والمقيمين الصلاة﴾[1] [النساء:١٦٢].

"ضراراً" مفعول له[2]، المعنى: اتخذوه لضرار المؤمنين.

﴿وكفراً﴾ بالله ورسوله، ﴿وتفريقاً بين المؤمنين﴾ لأنهم كانوا يصلون في مسجد قباء فأرادوا تفريق جماعتهم.

﴿وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل﴾ أي: إعداداً لأجل أبي عامر الراهب ليصلي فيه.

وقوله: "من قبل" يتعلق بـ"اتخذوا مسجداً" من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف.

وقيل: يتعلق بـ"حَارَبَ"، أي: حارب الله ورسوله، من قبل بناء مسجد الضرار.

﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى﴾ أي: إن أردنا ببناء المسجد إلا الخصلة أو الإرادة الحسنى، وهي الرفق بالمسلمين، والتوسعة على المصلين، وإظهار منار الدين.

وقيل: الحسنى: الطاعة. وقيل: الجنة.

﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في قولهم وحلفهم أنهم أرادوا الحسنى.

---

(١) الدر المصون (٣/ ٥٠٢).

(٢) التبيان (٢/ ٢٢)، والدر المصون (٣/ ٥٠٢).

الإشارة إلى قصتهم:

ذكر أهل العلم بالتفسير والسير: أن بني عمرو بن عوف لما اتخذوا مسجد قباء وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ ليصلي فيه، حسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف، وكانوا من منافقي الأنصار، فقالوا: نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ فيصلي فيه، ونرصده لأبي عامر الراهب ليصلي فيه إذا قدم من الشام، وكان أبو عامر الراهب رجلاً منهم تَنَصَّرَ في الجاهلية وترهَّب ولبس المُسوح. فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال له أبو عامر: ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: جئتُ بالحنيفية دين إبراهيم. قال أبو عامر: فأنا عليها. فقال النبي ﷺ: لستَ عليها. فقال: بلى ولكنك أدخلتَ فيها ما ليس [منها][1]. فقال النبي ﷺ: ما فعلتُ، ولكن جئتُ بها بيضاء نقية. قال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً. فقال النبي ﷺ: آمين. وسمّاه رسول الله ﷺ أبو عامر الفاسق. فلما كان يوم أُحُد قال أبو عامر لرسول الله ﷺ: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين. فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين: أن أعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر فآتي بجنود الروم فأخرج محمداً وأصحابه، فبنوا له هذا المسجد إلى جنب مسجد قباء. فلما أتموا بناءه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: إنا قد ابتنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة، وإنا نحب أن تصلي فيه، فدعى بقميصه ليلبسه، فنزل عليه القرآن وأخبره الله تعالى خبرهم، فدعا معن بن عدي ومالك بن الدخشم في آخرين، فقال: انطلقوا إلى هذا المسجد

---

(١) زيادة من البغوي (٢/ ٣٢٦).

الظالم أهله فاهدموه وحرقوه، فاستنفروا رهط مالك بن الدخشم فهدموا المسجد وحرقوه، فتفرق عنه أهله. وأمر النبي ﷺ أن يُتَّخَذَ كُناسة تُلقى فيها الجِيَف والنتن والقُمامة. ومات أبو عامر الفاسق بقنّسرين بالشام طريداً وحيداً غريباً[١]. وفيه يقول كعب بن مالك:

مَعَاذ الله مِنْ فِعْلٍ قَبيح كَسَعْيِكَ في العَشِيرَةِ بَعْدَ[٢] عَمْرو
وَقُلْتَ بأَنَّ لي شَرَفاً وَذِكْراً فقد تابعت إيماناً بكُفْرِ[٣]

الإشارة إلى الذين اتخذوا مسجد الضرار:

كانوا اثني عشر رجلاً وهم: خذام بن خالد -ومن داره أخرج المسجد-، وثعلبة بن حاطب، ومعتّب بن قشير، ووديعة بن ثابت، وعباد بن حنيف -أخو سهل بن حنيف-، وأبو [حبيبة][٤] بن الأزعر، ونبتل بن الحارث، وبجاد بن عثمان، وجارية بن عامر -وكان يلقب: حمار الدار-، وابناه: زيد ومجمع، ومجمع هو الذي كان يؤمهم، وبحزج -جدّ عبد الله بن حنيف-، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ: «ما أردتَ بما أرى؟ فقال: والله ما أردتُ إلا الحسنى، وهو كاذب»[٥].

---

(١) أخرج جزءاً منه الطبري (١١/ ٢٣) عن الزهري وغيره. وانظر: البغوي (٢/ ٣٢٦)، وأسباب النزول للواحدي (ص: ٢٦٤)، وزاد المسير (٣/ ٤٩٨-٤٩٩)، وسيرة ابن هشام (٥/ ٢١٢).

(٢) في مصادر البيت: عبد.

(٣) انظر البيتين في: سيرة ابن هشام (٣/ ١٢٩)، والبحر المحيط (٥/ ١٠٢).

(٤) في الأصل: حيثمة. والتصويب من مصادر التخريج.

(٥) أخرجه الطبري (١١/ ٢٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨١).

وانظر: سيرة ابن هشام (٥/ ٢١٢)، والماوردي (٢/ ٤٠٠)، وزاد المسير (٣/ ٤٩٩).

=

قال عكرمة: سأل عمر بن الخطاب رجلاً منهم: ماذا أعنتَ في هذا المسجد؟ قال: أعنتُ فيه بسارية، فقال له عمر: أبشر بها في عنقك في نار جهنم[١].

ولا خلاف بين العلماء أن مجمعاً صلحت حاله وصح إيمانه.

وروي: أن بني عمرو بن عوف سألوا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لهم في الائتمام بمجمع بن جارية بمسجد قباء، فقال: لا ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ، فوالله لقد صليتُ بهم وإني لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمتُ ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً قد عشوا[٢]، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً، فصلّيت، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله تعالى، فعذره عمر رضي الله عنه وصدقه، وأمره بالصلاة في مسجد قباء[٣].

قوله تعالى: ﴿لا تَقُمْ فيه أبداً﴾ أي: لا تُصَلِّ في مسجد الضرار ولا تتخذه معبداً، ﴿لمسجد أسس على التقوى﴾ أي: على الطاعة، وهو المسجد الذي فيه القبر والمنبر على صاحبهما أفضل الصلاة والسلام. هذا قول ابن عمر وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وسعيد بن المسيب[٤].

= وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٨٥) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(١) القرطبي (٨/ ٢٥٤).

(٢) في القرطبي: وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم.

(٣) القرطبي (٨/ ٢٥٥). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٠١).

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨١). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٢٤)، وزاد المسير (٣/ ٥٠١).

وقد روى سهل بن سعد: «أن رجلين اختلفا في عهد رسول الله ﷺ في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال أحدهما: هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء. فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: هو مسجدي هذا»(١).

وعن أبي سعيد الخدري قال: «سألت رسول الله ﷺ عن المسجد الذي أسس على التقوى، فأخذ الحصباء فضرب بها الأرض وقال: هو مسجدكم هذا، مسجد المدينة»(٢).

وأنبأنا حنبل بن عبدالله بن الفرج، أخبرنا ابن الحصين، أخبرنا ابن المذهب، أخبرنا أبو بكر القطيعي، أخبرنا عبدالله بن أحمد، حدثني أبي، أخبرنا يحيى بن أنيس بن أبي يحيى، حدثني أبي، سمعت أبا سعيد الخدري قال: «اختلف رجلان، رجل من بني عمرو بن عوف ورجل من بني خدرة في المسجد الذي أسس على التقوى، فقال الخدري: هو مسجد رسول الله ﷺ، وقال العمري: هو مسجد قباء. فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن ذلك فقال: هو هذا المسجد -لمسجد رسول الله ﷺ- وقال: في ذلك خير كثير، -يعني: مسجد قباء-»(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ١٤٨ ح٧٥٢٢)، والطبراني في الكبير (٦/ ٢٠٧ ح٦٠٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥ ح١٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥)، والترمذي (٢/ ١٤٤)، والنسائي (١/ ٢٥٧)، وأحمد (٣/ ٢٣)، وابن حبان (٤/ ٤٨٣)، وابن أبي شيبة (٢/ ١٤٨)، وأبو يعلى (٢/ ٢٧٢)، والطبري (١١/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٨٧) وعزاه لابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبي الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري.

وقيل: هو مسجد قباء. رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس[١]، وبه قال سعيد بن جبير وقتادة وعروة وأبو سلمة بن عبدالرحمن والضحاك ومقاتل[٢].

قال صاحب الكشاف[٣]: هو أولى؛ لأن الموازنة بين مسجدي قباء أوقع.

وقيل: كل مسجد بالمدينة بُنِيَ على الطاعة[٤].

﴿من أول يوم﴾ أي: منذ أول يوم.

قال الزجاج[٥]: دخلت "مِنْ" في الزمان، والأصل مُنْذُ ومُذْ، وهو الأكثر في الاستعمال. وجائز دخول "من"؛ لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعيض، ومثله قول زهير[٦]:

لمن الديار [بقنة][٧] الحجر أقوين من حجج ومن دهر

قيل: معناه: من مَرِّ حِجج ومن دهر.

---

(١) انظر: تفسير ابن عباس (ص:٢٧٣).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٢). وانظر: تفسير مقاتل (٢/ ٧١)، والماوردي (٢/ ٤٠٢)، والوسيط (٢/ ٥٢٤)، وزاد المسير (٣/ ٥٠١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٨٨) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس.

(٣) الكشاف (٢/ ٢٩٦).

(٤) وهو قول محمد بن كعب. انظر: الماوردي (٢/ ٤٠٣)، وزاد المسير (٣/ ٥٠١).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤٧٨). وانظر: زاد المسير (٣/ ٥٠٠).

(٦) البيت لزهير. انظر: ديوانه (ص:٨٩)، والقرطبي (٨/ ٢٦٠)، وزاد المسير (٣/ ٥٠٠، ٤/ ٤٣٣). ويروى البيت: (أقوين مذ حجج ومذ دهر).

(٧) في الأصل: بقية. والتصويب من مصادر البيت.

قوله تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ أخرج أبو داود في سننه عن أبي هريرة قال: «نزلت هذه الآية في أهل قباء: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ قال: كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم»[١].

وقيل: لما نزلت هذه الآية مشى رسول الله ﷺ إليهم فقال: ما الذي أثنى الله به عليكم؟ فقالوا: يا رسول الله نُتْبِعُ الغائط الأحجار الثلاثة، ثم نُتْبِعُ الأحجار الماء[٢].

وقيل: يحبون أن يتطهروا من الذنوب.

﴿والله يحب المطهرين﴾ من الشرك والمعاصي والأنجاس والأقذار.

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى: ﴿أفمن أسس بنيانه﴾، قرأ نافع وابن عامر: "أُسِّسَ بُنْيَانُـهُ" بضم الهمزة وكسر السين ورفع "البنيان"، على ما لم يُسَمَّ فاعله في الموضعين، وقرأها الباقون بفتح الهمزة وفتح السين ونصب "البنيان"[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (١/ ١١ ح٤٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١/ ١٢٧ ح٣٥٥) بنحوه.

(٣) الحجة للفارسي (٢/ ٣٣٦)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٣-٣٢٤)، والكشف (١/ ٥٠٧)، والنشر (٢/ ٢٨١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٤)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٨).

والتأسيس: إحكام أُسّ البناء، وهو أصله، والبنيان: مصدر، يراد به: المبني.

﴿على تقوى من الله﴾ في محل الحال[١]، التقدير: أسس بنيانه متقياً لله يرجو ثوابه ويخاف عقابه.

﴿خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار﴾ قال الزجاج[٢]: شفا الشيء: [حرفه][٣] وحدُّه، والشَّفا مقصور، يكتب بالألف، ويثنى: شَفَوان[٤].

وقال الزمخشري[٥]: الشَّفا: الحرف والشفير، وجرف الوادي: جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً، والهار: الهائر، وهو المُتَصَدّع الذي أشفى على التهدم والسقوط.

قال ابن قتيبة وغيره[٦]: ومنه تهوَّرَ البناء وانهار؛ إذا تداعى للسقوط.

قال صاحب الكشاف[٧]: المعنى: أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أمن أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد [وأرخاها وأقلها بقاء][٨] وهو الباطل والنفاق، الذي مَثَلُه مَثَلُ

---

(١) انظر: التبيان (٢/ ٢٢)، والدر المصون (٣/ ٥٠٥).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٧٠).

(٣) في الأصل: جرفه. والتصويب من معاني الزجاج، الموضع السابق.

(٤) انظر: اللسان، مادة: (شفي).

(٥) الكشاف (٢/ ٢٩٧).

(٦) تفسير غريب القرآن (ص:١٩٢).

(٧) الكشاف (٢/ ٢٩٧).

(٨) زيادة من الكشاف، الموضع السابق.

شفا جُرُفٍ هارٍ في قلة الثَّبات والاستمساك. وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى.

فإن قلتَ: فما معنى قوله: ﴿فَانْهَارَ به في نار جهنم﴾؟

قلتُ: لما جعل الجرف الهائر [مجازاً عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى][1]: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز، فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف.

قال الزجاج[2]: وهذا مَثَلٌ. المعنى: أن بناء هـذا المسجد الـذي بنـي ضراراً وكفْراً كبناء على جَرْف جهنم يتهور بأهله فيها.

قال قتادة: ذُكر لنا أنهم حفروا حفرة في مسجد الضرار فرؤي فيها الدخان[3].

قال جابر: رأيت الدخان يخرج منه[4].

قوله تعالى: ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ قال ابن عباس: شكاً ونفاقاً في قلوبهم؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه[5].

---

(١) زيادة من الكشاف (٢/ ٢٩٧).

(٢) معاني الزجاج (٢/ ٤٧٠).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٣٢)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ٣٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٤)، والحاكم (٤/ ٦٣٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٣) وعزاه لمسدد في مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٥). وانظر: الطبري (١١/ ٣٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل.

وقيل: المعنى: لا يزالُ هدْمُ بنيانهم حزازة وغيظاً[١]، وسبباً لتصميمهم على الشك والنفاق لا يضمحل أثره ولا يزول رسمه عن قلوبهم.

﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم: "تَقَطَّعَ" بفتح التاء، وقرأ الباقون بضم التاء[٢].

وقرأتُ ليعقوب الحضرمي: "إلى أن"، جعله حرف جرّ[٣].

فمن قرأ "إلا" بحرف الاستثناء معناه: إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً، وتفرق أجزاؤهم بالموت أو بالقتل، فحينئذ ينمحي آثار الريبة من قلوبهم. فأما ما دامت سالمة فالريبة لازمة لهم. هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين[٤].

وقال الزجاج[٥]: قال بعضهم: إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم.

فصل

قال بعض العلماء: كل مسجد بني مباهاة ورياء وسمعة، أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى، أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٥). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٠٣).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٤)، والكشف (١/ ٥٠٨)، والنشر (٢/ ٢٨١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٩).

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٥).

(٤) انظر: الطبري (١١/ ٣٣).

(٥) معاني الزجاج (٢/ ٤٧١).

(٦) الطبري (١١/ ٢٦). وانظر: القرطبي (٨/ ٢٥٤).

وروي: أن شقيقاً فاتته الصلاة في مسجد بني عامر، فقيل له: مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد، قال: لا أحب أن أصلي فيه، فإنه بني على ضرار[١].

وقال عطاء: لما فتح الله الأمصار على عمر رضي الله عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه[٢].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ سبب نزولها: «أن الأنصار لما بايعت رسول الله ﷺ ليلة العقبة -وكانوا سبعين-. قال عبد الله بن رواحة: اشترط يا رسول الله لربك ولنفسك. فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم. قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: الجنة. قالوا: ربح البيع لا نُقيل ولا نَستقيل»[٣].

---

(١) الطبري (١١/ ٢٦). وانظر: القرطبي (٨/ ٢٥٤).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٢٧).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٣٥-٣٦)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٦). وانظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٦٦)، والوسيط (٢/ ٥٢٦)، وزاد المسير (٣/ ٥٠٣). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٤) وعزاه لابن جرير.

ويروى: أن أعرابياً مر بالنبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فقال: كلام مَنْ هذا؟ فقال: كلام الله. فقال: بيعٌ والله مُربح، لا نُقيله ولا نَستقيله، فخرج إلى الغزو فاستشهد(١).

وقال الحسن: اسمعوا إلى بيعة ربيحة، بايع الله بها كل مؤمن(٢).

وقال قتادة: ثامَنهم الله فأغلى لهم(٣).

وكان جعفر الصادق عليه السلام يقول: يا من ليست له همة، إنه ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة، فلا تبيعوها إلا بها(٤).

وأنشد الأصمعي لجعفر الصادق(٥):

أُثَامِنُ بالنَّفْسِ النَّفِيسَة رَبَّها ... فَلَيْسَ لَهَا فِي الخَلْقِ كُلِّهُم ثمَن
بهَا تُشْتَرَى الجَنَّات إِنْ أَنَا بعْتها ... بِشَيء سِواها إِنَّ ذلِكُم غَبَن
إِذا ذهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيا أَصَبْتها ... فَقَدْ ذهَبَتْ نفْسِي وَقَدْ ذهَبَ الثَّمَن

وأنشد بعضهم:

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٨/ ٢٦٨).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٦). وانظر: الوسيط (٢/ ٥٢٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٥) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٣٥). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٥) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٤) ذكره الآلوسي في تفسيره روح المعاني (١١/ ٣٠).

(٥) انظر الأبيات في: القرطبي (٨/ ٢٦٨)، وروح المعاني (١١/ ٣٠)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٢٢١).

مَنْ يَشْتَرِي قُبَّةً فِي العَدنِ عَالِيَةً فِي ظِلِّ طُوبَى رَفِيعَاتٌ مَبَانِيهَا
دَلاَّلُهَا المُصطفى واللهُ بائِعُهَا مِمَّنْ أَرَادَ، وَجِبْرِيلُ مُنَادِيهَا

وذِكْرُ الاشتراء مجازٌ عن إثابتهم الجنة في مقابلة ما بذلوا من الأنفس والأموال لله في جهاد أعدائه به، اللهم فلك الحمد كما ينبغي لكرم وجهك وعظمة جلالك، وعزتك يا رب ما بذلوا لك إلا أنفساً أنت خلقتها وأموالاً أنت رزقتها، فماذا يستحقون عليك وقد تقربوا بنعمتك إليك، فما أحق المتلبس بهذه القضية والموفق لهذه البيعة المرضية بإنشاد ما قيل:

أُزَاهِدُ نَفْسِي فَهوَ مَالِكُهَا وَلَهُ أَصُونُ كَرائِمَ الذُّخْرِ
أَوْ أَهْدِ مَالاً فَهوَ وَاهِبُهُ وَأَنا الحَقِيقُ عَلَيْهِ بالشُّكْرِ

قوله تعالى: ﴿يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون﴾ قرأ حمزة والكسائي: "فيُقتلون" بضم الياء، "ويَقتلون" بفتح الياء، وقرأ الباقون بالعكس من ذلك[1].

ومعنى الكلام: منهم من يَقْتِل، ومنهم من يُقْتَل في سبيل الله.

ثم أخبر الله عز وجل أن هذا الوعد المذكور مثبت في كتبه المنزلة فقال: ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾.

وفي قوله: ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾ ترغيب للمؤمنين في الجهاد بأبلغ الطرق، ضرورة الانقياد إلى اعتقاد تحقق الوفاء بوعد مالك الأشياء.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٢)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٥)، والكشف (١/ ٥٠٩)، والنشر (٢/ ٢٤٦)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٩).

﴿فاستبشروا﴾ أي: افرحوا أيها المؤمنون الباذلون أنفسهم وأموالهم ﴿ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾.

ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى: ﴿التائبون﴾ [رفعٌ][1] على المدح، أي: هم التائبون.

قال الزمخشري[2]: وتدل عليه قراءة ابن مسعود وأبيّ: "التائبين" و"الحافظين" نصباً على المدح. ويجوز أن يكون صفة للمؤمنين.

وقال الزجاج[3]: هو رفع بالابتداء، وخبره مضمر تقديره: التائبون العابدون لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا.

وقيل: "التائبون" بدل من الضمير في "يقاتلون"[4].

ويجوز أن يكون مبتدأ، خبره "العابدون"، وما بعده خبر بعد خبر[5].

قال ابن عباس: التائبون: الرّاجعون عن الشرك[6].

---

(١) في الأصل: وقع. والصواب ما أثبتناه.

(٢) الكشاف (٢/ ٢٩٩).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٤٧١).

(٤) انظر: الدر المصون (٣/ ٥٠٨).

(٥) انظر: التبيان (٢/ ٢٣)، والدر المصون (٣/ ٥٠٧).

(٦) الوسيط (٢/ ٥٢٧)، وزاد المسير (٣/ ٥٠٥).

و ﴿العابدون﴾ المطيعون لله بالعبادة[١].

وقال سعيد بن جبير: العابدون: الموحدون[٢].

﴿الحامدون﴾ لله على كل حال.

قال الزجاج[٣]: ﴿السائحون﴾ في قول أهل التفسير واللغة جميعاً: الصائمون، قال: مذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض[٤]. وقد قيل: إنهم الذين يديمون الصيام[٥].

قال[٦]: وقول الحسن في هذا أبْيَن.

فإن قيل: لم سُمِّيَ الصائم سائحاً؟

قلت: لتشبيهه بالسائح في امتناعه من شهواته.

فإن قيل: هل قيل في السائحين غير ذلك؟

قلت: قد روي عن عطاء: أنهم الغزاة[٧].

---

(١) زاد المسير (٣/ ٥٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٨٩). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٠٧)، وزاد المسير (٣/ ٥٠٥).

(٣) معاني الزجاج (٢/ ٤٧٢).

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ٣٨). وانظر: الماوردي (٢/ ٤٠٧)، والوسيط (٢/ ٥٢٧).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٠)، والطبري (١١/ ٣٨). وذكره السيوطي في الدر (٤/ ٢٩٨) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عمر والعبدي.

(٦) أي: الزجاج.

(٧) زاد المسير (٣/ ٥٠٦).

وعن عكرمة: أنهم طلاب العلم[1].

وعن ابن زيد: أنهم المهاجرون[2].

قوله تعالى: ﴿الراكعون الساجدون﴾ يريد: المصلين، ﴿الآمرون بالمعروف﴾ وهو الإيمان. وقيل: كل معروف.

﴿والناهون عن المنكر﴾ الكفر. وقيل: كل منكر.

﴿والحافظون لحدود الله﴾ وهم القائمون بأمره.

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ... الآية﴾. اختلفوا في سبب نزولها على أقوال؛ أثبتُها: ما أخبرنا به الشيخان أبو القاسم السلمي، وأبو الحسن علي بن أبي بكر البغداديان قالا: أخبرنا أبو الوقت عبدالأول، أخبرنا أبو الحسن الداودي، أخبرنا عبدالله بن حمويه، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٠٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٨) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٠). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥٠٦)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٩٨) وعزاه لابن أبي حاتم.

عبدالرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ: أي عم قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك، فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم﴾»(١).

هذا حديث متفق على صحته.

وأخرجه مسلم عن حرملة، عن ابن وهب، عن يونس، عن الزهري.

وفي بعض طرق الصحيح: «فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: أنا على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا... الآية﴾، وأنزل في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ [القصص:٥٦]»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧١٧ ح٤٣٩٨)، ومسلم (١/ ٥٤ ح٢٤).

قال القرطبي (٨/ ٢٧٣): فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبي ﷺ لعمه، فإنه استغفر له بعد موته، على ما روي في غير الصحيح.

وقال الحسين بن الفضل: وهذا بعيد؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن، ومات أبو طالب في عنفوان الإسلام والنبي ﷺ بمكة.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٤ ح٢٤).

وقال محمد بن كعب: دخل النبي ﷺ البيت فوجده مملوءاً، فقال: خلّوا بيني وبين عمّي، فجلس إليه فقال: يا عم، جزيت عني خيراً، كفلتني صغيراً، وحفظتني كبيراً، فجزيت عني خيراً، يا عماه! أعنّي على نفسك بكلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة. قال: ما هي يا ابن أخي؟ قال: قل: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. قال: إنك لي لناصح، والله لولا أن تُعيّر بها بعدي يقال: جَزَعَ عمّك عند الموت، لأقررت بها عينك. قال: فصاح القوم: يا أبا طالب أنت رأس الحنيفية ملة الأشياخ، فقال: على ملة الأشياخ، لا تحدّث نساء قريش أني جزعت عند الموت. فقال رسول الله ﷺ: لا أزال أستغفر لك ربي حتى ينهاني، فاستغفر له بعد [ما][1] مات. فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذي قرابتنا؟ وقد استغفر إبراهيم لأبيه، وهذا محمد يستغفر لعمه. فاستغفر المسلمون للمشركين، فنزلت هذه الآية[2].

قال أبو الحسن بن المنادي: إنما قال النبي ﷺ لعمه: «لأستغفرنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ» قبل أن يموت وهو في السياق. وأما أن يكون استغفر له بعد الموت فلا، وانقلب ذلك على الرواة.

---

(١) زيادة من أسباب النزول (ص:٢٦٨).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص:٢٦٧-٢٦٨). وإسناده ضعيف: موسى بن عبيدة، ضعيف (المجروحين ٢/ ٢٣٤، والتاريخ الصغير ٢/ ٩٣، والضعفاء والمتروكين لابن الجوزي ٣/ ١٤٧، والكامل ٦/ ٣٣٣).

وقال أبو هريرة [وبريدة](١): لما مَرَّ النبي ﷺ بقبر أمه وقف عليه حتى حميت عليه الشمس، رجاء أن يؤذن له في الاستغفار لها، فلم يؤذن له، فقام ونزلت هذه الآية، فبكى وأبكى من حوله(٢).

قال الزمخشري(٣): وهذا أصح؛ لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة، وهذا آخر ما نزل بالمدينة.

وأخرج الترمذي والنسائي من حديث علي رضي الله عنه قال: «سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان. فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك. قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾»(٤).

قلتُ: والذي ذكره الزمخشري غير مُرْضٍ؛ لأن الحديث صحيح، على أنه غير ممتنع أن ينزل بالمدينة ما كان سببه بمكة، وأن يكون المجموع سبباً لنزول الآية. هذا ما جاء في سبب النزول.

وأما التفسير فقوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا﴾ أي: ما ينبغي ولا يصح لهم أن يسألوا الله المغفرة لمن مات على الشرك ولو كانوا أقرب الناس إليهم.

﴿من بعد ما تبين لهم﴾ بموتهم على الشرك ﴿أنهم أصحاب الجحيم﴾.

---

(١) في الأصل: وأبو بريدة. والتصويب من البغوي (٢/ ٣٣١).

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٢/ ٣٣١).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٠٠-٣٠١).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٨١ ح٣١٠١)، والنسائي (٤/ ٩١ ح٢٠٣٦).

﴿وما كان استغفار إبراهيم إلا عن موعدة وعدها إياه﴾، وهي قوله: ﴿سأستغفر لك ربي﴾ [مريم:٤٧]، وقوله: ﴿لأستغفرنَّ لك﴾ [الممتحنة:٤].

فعلى هذا يكون ضمير الفاعل في "وعدها": "إبراهيم"، والضمير في "إياه" يعود إلى الأب. ويؤيده قراءة الحسن وابن السميفع ومعاذ القارئ: "وعدها أباه" بالباء المعجمة من تحت بنقطة واحدة(١).

وقيل: أباه وعده بالإيمان وخلع الأنداد إن استغفر له، فيكون ضمير الفاعل للأب، وضمير "إياه" يعود إلى إبراهيم، والهاء في "وعدها" نصب على المصدر لا تعود إلى الموعدة، والموعدة مصدر، فكذلك ما يعود إليه.

﴿فلما تبين له﴾ أي: لإبراهيم بطريق الوحي، أو بموت أبيه على الشرك ﴿أنه عدو لله تبرأ منه﴾ فقطع الاستغفار له ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

قال صاحب الصحاح(٢): قولهم عند الشكاية: أَوْهِ من كذا، ساكنة الواو، إنما هو تَوَجُّعٌ.

قال [الشاعر](٣):

فَأَوْهِ لِذِكْرَاهَا إِذا مَا ذَكَرْتُهَا ... وَمِنْ بُعْدِ أَرْضٍ بَيْنَنَا وَسَمَاءِ(٤)

---

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٥٠٩).

(٢) الصحاح (٦/ ٢٢٢٥).

(٣) زيادة من الصحاح (٦/ ٢٢٢٥).

(٤) انظر البيت في: لسان العرب، مادة: (أوه)، والطبري (١١/ ٥٢)، والقرطبي (٨/ ٢٧٦)، وروح المعاني (١١/ ٣٥).

وربما قلبوا الواو ألفاً فقالوا: آهِ، وربما شدَّدوا الواو وكسروها وسكّنوا الهاء، فقالوا: أَوِّهْ من كذا، وربما مع التشديد حذفوا الهاء [فقالوا: أَوِّ من كذا، بلا مدٍّ](١).

وبعضهم يقول: آوَّه، بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء؛ لتطويل الصوت بالشكاية. وربما أدخلوا فيه التاء فقالوا: أَوَّتاهُ، يُمَدُّ ولا يُمَدُّ. وقد أَوَّهَ الرَّجُلُ تَأْوِيهاً [وَتَأَوَّهَ](٢) تَأَوُّهاً؛ إذا قال: أَوَّهْ. والاسم منه: الآهَةُ، بالمد. قال المُثَقَّب:

إذا مَا قُمْتُ أَرْحَلُها بلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ(٣)

ويروى: أَهَّةَ، من قولهم: أَهَّ؛ إذا تَوَجَّعَ.

وقال أبو عبيدة(٤): هو فَعَّال من التأوه، [ومعناه](٥): متضرع شفقاً وفَرَقاً ولزوماً لطاعة ربه.

وقال الفراء(٦): هو الذي يتأوَّه من الذنوب.

ويروى عن النبي ﷺ في تفسير الأوّاه: «أنه الخاشع الدّعّاء المتضرّع»(٧).

---

(١) زيادة من الصحاح (٦/ ٢٢٢٥).

(٢) في الأصل: وتأوها. والتصويب من الصحاح، الموضع السابق.

(٣) البيت للمثقب العبدي، وهو العائذ بن محصن بن ثعلبة من بني عبد القيس من ربيعة: شاعر جاهلي من أهل البحرين. انظر البيت في: ديوانه (ص:١٩٤)، واللسان، مادة: (رحل)، والطبري (١١/ ٥٢)، والقرطبي (٨/ ٢٧٦)، والوسيط (٢/ ٥٢٩)، والماوردي (٢/ ٤١١)، وزاد المسير (٣/ ٥١٠)، وطبقات فحول الشعراء (ص:٢٣١).

(٤) مجاز القرآن (١/ ٢٧٠).

(٥) في الأصل: ومعنى. والتصويب من مجاز القرآن، الموضع السابق.

(٦) معاني الفراء (٢/ ٢٣).

(٧) أخرجه الطبري (١١/ ٥١)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٩٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٠٥)، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه.

قال إبراهيم النخعي: كان أبو بكر الصديق يسمى الأوّاه؛ لرأفته ورحمته(١).

وقال أبو سريحة: سمعت علياً على المنبر يقول: ألا إن أبا بكر أوّاه منيب القلب، ألا إن عمر نَاصَحَ الله فنصحه(٢).

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

ثم أعلم الله تعالى نبيه والمؤمنين أنه لا إثم عليهم بما صدر منهم من الاستغفار قبل النهي فقال: ﴿وما كان الله ليضل قوماً﴾ أي: ليحكم عليهم بالضلالة ﴿بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾، وفيه إضمار تقديره: فلا يتقونه.

---

(١) ذكره القرطبي (٨/ ٢٧٦) بلا نسبة. وانظر: تهذيب التهذيب (٥/ ٢٧٦)، وطبقات ابن سعد (٣/ ١٧٠)، والإصابة (٤/ ١٧٤).

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ١٣٨، ١٧٦، ٤٠٦)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ١٧٠)، والترمذي في نوادر الأصول (١/ ٢٢٩)، وعلل الدارقطني (٤/ ٩٧). وذكره الطبري في الرياض النضرة (١/ ٣٨٠). وقوله: "ألا إن عمر ..." أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٥٦ ح٣١٩٩٧).

وما بعده ظاهر إلى قوله: ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ قال المفسرون: تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلف، كقوله: ﴿عفا الله عنك لم أذنت لهم﴾[(١)].

وقيل: هو إشعار بأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار، ألا تراه يقول: ﴿واستغفر لذنبك﴾ [محمد:١٩]، وفيه تنبيه على فضل التوبة وإعلام بأنها بالمنزلة التي يفتقر إليها الأنبياء.

وقال أهل المعاني: ذِكْرُ النبي في التوبة مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين ذكر معهم، كقوله: ﴿فأن لله خمسه وللرسول﴾[(٢)] [الأنفال:٤١].

﴿والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: في وقت العسرة. قال الزمخشري وغيره[(٣)]: الساعة تستعمل في معنى الزمان، كما يستعمل اليوم.

والمراد: غزوة تبوك، وكانوا في عسرة من الظَّهْر، يعقب العشرة على بعير واحد، وكانوا في عسرة من الزاد، حتى اقتسم التمرة الواحدة اثنان، وربما مصّها الجماعة ليشربوا عليها الماء، وكانوا في عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فُرُوثها وشربوها، وجعلوا ما بقي منها على أكبادهم، وكانوا في عسرة وشدة من حَمَّارَة القيظ[(٤)] والقحط.

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٢٩)، وزاد المسير (٣/ ٥١١).

(٢) زاد المسير (٣/ ٥١١).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٠٣).

(٤) حَمَّارة القيظ: أي شدّة حرّه (اللسان، مادة: حمر).

قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدثنا عن ساعة العسرة فقال: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، ونزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع، حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله قد عَوَّدَكَ في الدعاء خيراً، فادْعُ لنا. قال: تحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع يديه، فلم يُرْجعهما حتى قالت السماء، فأظلت فسكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر»[1].

قوله تعالى: ﴿من بعد ما كاد تزيغ﴾ وقرأ حفص وحمزة: "يزيغ" بالياء على تذكير الجمع[2]، كقوله: ﴿وقال نسوة﴾ [يوسف:٣٠] وفي "كاد" ضمير الشأن، أي: من بعد ما كاد الشأن والأمر يزيغ قلوب فريق منهم، فالفعل والفاعل تفسير الأمر والشأن.

وقال محمد بن يزيد: التقدير: من بعد ما كاد القبيل؛ لتقدم ذكر المهاجرين والأنصار.

والمعنى: من بعد ما كاد تميل قلوب فريق منهم عن اتباع رسول الله ﷺ، فإن جماعة هَمُّوا بالتخلّف عنه ثم لحقوه. هذا قول ابن عباس[3].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤/ ٢٢٣ ح١٣٨٣)، والحاكم (١/ ٢٦٣ ح٥٦٦)، والبيهقي في سننه (٩/ ٣٥٧)، والطبري (١١/ ٥٥).

(٢) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٤)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٥)، والكشف (١/ ٥١٠)، والنشر (٢/ ٢٨١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣١٩).

(٣) زاد المسير (٣/ ٥١٢).

وقال الزجاج[١]: لم تزغ عن الإيمان، ولكن مالت إلى الرجوع؛ للشدة التي لقوها.

وحكى الماوردي[٢]: أن المعنى: من بعد ما كاد تزيغ قلوبهم تلفاً بالجهد والشدة.

وهذا القول ليس بشيء، لقوله: ثم تاب عليهم.

وإنما أعاد سبحانه وتعالى ذكر التوبة عليهم لأجل ذكر الذَّنْب.

وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة﴾ أي: وتاب على الثلاثة ﴿الذين خُلّفوا﴾ وقرأ جماعة منهم جعفر الصادق والشعبي: "خالفوا"[٣].

وقرأتُ لعبد الوارث عن أبي عمرو: "خَلَفُوا" بالتخفيف[٤]، أي: خلفوا الغازين بالمدينة، أو بمعنى: فسدوا، ومنه: خَلُوفُ[٥] فَم الصائم.

---

(١) انظر: معاني الزجاج (٢/ ٤٧٤).

(٢) تفسير الماوردي (٢/ ٤١٢).

(٣) انظر: زاد المسير (٣/ ٥١٢).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٥١٢-٥١٣).

(٥) خَلَفَ فَمُ الصائم خُلُوفاً: أي تغيّرت رائحته (اللسان، مادة: خلف).

ومن قرأ: "خالفوا"؛ فمعناه ظاهر.

والمعنى على القراءات المشهورة: خُلِّفُوا عن التوبة، وقيل: عن الغزوة. وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع -ويقال: ابن ربيعة-، وهلال بن أمية.

﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: بسعتها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ بالهمّ والغمّ.

سئل بعض المحققين عن التوبة النصوح، فقال: أن تضيق على التائب الأرض وتضيق عليه نفسه؛ كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه[١].

﴿وظنوا﴾ أي علموا وأيقنوا ﴿أن لا ملجأ من الله﴾ أي: لا وزر ولا معتصم من عذابه وسخطه، ﴿إلا إليه﴾. وجواب ["إذا"][٢] محذوف، تقديره: ندموا.

﴿ثم تاب عليهم﴾ فـ"ثم" عاطفة ما بعدها على "ندموا"، أو بمعنى: "ثم تاب عليهم" رجع عليهم بالرحمة والمغفرة والقبول، ﴿ليتوبوا﴾ ليستقيموا على التوبة بتوفيقه ورحمته إياهم.

وقيل: ليتوبوا فيما يستقبلون إن فرطت منهم خطيئة.

﴿إن الله هو التواب﴾ الرَّجَّاع بالرحمة والقبول ولو عاد في اليوم مائة مرة، ﴿الرحيم﴾ بالمؤمنين.

---

(١) زاد المسير (٣/ ٥١٣).

(٢) في الأصل: إذ.

ذكر حديث كعب بن مالك وصاحبيه وما كان من توبتهم:

وقع لي من طرق كثيرة أعلاها سنداً وأحسنها سياقة ومتناً، ما حدثنا به شيخنا الإمام موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي رضي الله عنه في ذي القعدة سنة خمس وستمائة بجامع دمشق، قال: أخبرنا أبو الفتح محمد بن عبدالباقي، أخبرنا أبو الفضل جعفر بن يحيى المكي، أخبرنا محمد بن الحسين بن يوسف الأصبهاني، أخبرنا محمد بن أحمد النقوي، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَري، أخبرنا عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، قال: أخبرني ابن كعب بن مالك عن أبيه قال: «لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بدراً، ولم يعاتب النبي ﷺ أحداً تخلّف عن بدر، إنما خرج يريد العير، فخرجت قريش مغوثين لعيرهم، فالتقوا على غير موعد، كما قال الله تعالى[(١)]، لعمري إن أشرف مشاهد رسول الله ﷺ في الناس لبدر، وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام، ثم لم أتخلف بعد عن النبي ﷺ في غزاة غزاها، حتى إذا كان غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها، وآذن النبي ﷺ الناس بالرحيل، وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوهم، وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار، وكان قلما أراد غزوة إلا ورّى بغيرها، وكان يقول: «الحرب خُدْعَة» -يعني: إلا غزوة تبوك فإنه جلا للناس أمرهم-، فأراد النبي ﷺ في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبتهم، وأنا أيسر ما كنت، قد جمعت راحلتين، وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة [الحاذ][(٢)] وأنا في ذلك أصغي إلى الظلال وطيب الثمار.

---

(١) في سورة الأنفال: ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد﴾ [الأنفال:٤٢].

(٢) في الأصل: الجاذ. والتصويب من التوابين (ص:٩٥). والحاذ: خفيف الظهر.

فلم أزل كذلك حتى قام رسول الله ﷺ غادياً بالغداة، وذلك يوم الخميس، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس، فأصبح غادياً، فقلت: أنطلق غداً إلى السوق فأشتري جهازي ثم ألحق بهم، فانطلقت إلى السوق من الغد فعسر عليّ بعض شأني، فرجعت فقلت: أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم، فعسر عليّ بعض شأني، فقلت: أرجع غداً إن شاء الله، فلم أزل كذلك حتى التبس بي الذنب وتخلفت عن رسول الله ﷺ، وجعلت أمشي في الأسواق وأطوف بالمدينة، فيحزنني أنني لا أرى أحداً تخلّف إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، وكان ليس أحد تخلف إلا يرى أن ذلك سيخفى له، وكان الناس كثيراً لا يجمعهم ديوان، وكان جميع من تخلف عن النبي ﷺ بضعة وثمانين رجلاً، ولم يذكرني النبي ﷺ حتى بلغ تبوكاً، فلما بلغ تبوكاً قال: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من قومي: خلفه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا نبي الله ما نعلم إلا خيراً.

قال: فبينا هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب، فقال النبي ﷺ: كن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة. فلما قضى النبي ﷺ غزوة تبوك وقفل ودنا من المدينة، جعلت أتذكر بماذا أخرج من سخط النبي ﷺ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، حتى إذا قيل النبي ﷺ هو مصبحكم غداً [بالغداة][1] زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو إلا بالصدق، فدخل النبي ﷺ ضحى فصلّى في المسجد، وكان إذا جاء من سفر فعل ذلك، دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس، فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه فيستغفر لهم، ويقبل علانيتهم، ويَكِلُ

(١) في الأصل: بالغداء. والتصويب من التوابين (ص:٩٦).

سرائرهم إلى الله تعالى، فدخلت المسجد فإذا هو جالس، فلما رآني تبسم تبسم المغضب، فجئت فجلست بين يديه فقال: ألم تكن ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى يا نبي الله. قال: فما خلفك؟ فقلت: والله لو بين يدي أحد من الناس غيرك جلست لخرجت من سخطته عَلَيَّ بعذر، لقد أوتيت جدلاً، ولكن قد علمت يا نبي الله أني إن أخبرك اليوم بقول تجد عليّ فيه وهو حق، فإني أرجو فيه عقبى الله، وإن حدثتك اليوم [حديثاً][1] ترضى عني فيه وهو كذب، أوشك أن يطلعك الله عليّ، والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخفّ حاذاً مني حين تخلفت عنك. قال: أما هذا فقد صدقكم الحديث، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت فثار على أثري أناس من قومي يؤنبونني، فقالوا: والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قط قبل هذا، فهلا اعتذرت إلى النبي ﷺ بعذر يرضى عنك به؟ وكان استغفار رسول الله ﷺ سيأتي من وراء ذنبك، ولم تقف نفسك موقفاً لا تدري ماذا يقضى لك فيه، فلم يزالوا يؤنبوني حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي، فقلت: هل قال هذا القول أحد غيري؟ قالوا: نعم، قاله هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة، فقلت: والله لا أرجع إليه في هذا أبداً ولا أكذب نفسي، قال: ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيُّها الثلاثة، قال: فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد، وتنكر [لنا الناس][2] حتى ما هم بالذين نعرف، وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالحيطان التي نعرف، وتنكرت لنا الأرض حتى ما هي بالأرض التي نعرف، وكنت أقوى أصحابي، فكنت أخرج وأطوف في السوق وآتي إلى المسجد

(١) زيادة من التوابين (ص:٩٧).

(٢) في الأصل: وتنكر لناس. والمثبت من التوابين (ص:٩٨).

فأدخل، وآتي النبي ﷺ فأُسلِّم عليه فأقول: هل حرّك شفتيه بالسلام؟ فإذا قمت أصلي إلى السارية، فأقبلت قبل صلاتي نظر إليّ بمؤخر عينيه، فإذا نظرت إليه أعرض عني، قال: واستكان صاحباي، فجعلا يبكيان الليل والنهار لا يُطلعان رؤوسهما، فبينا أنا أطوف في السوق إذا رجل نصراني قد جاء بطعام له يبيعه يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إليّ، فأتاني وأتاني بصحيفة من ملك غسان، فإذا فيها:

أما بعد! فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك، ولست بدار مضيعة ولا هوان، فالحق بنا نواسك، فقلت: هذا أيضاً من البلاء والشر، فَأَسْجَرْتُ لها التنور وأحرقتها. فلما مضت أربعون ليلة إذا رسول من النبي ﷺ قد أتاني فقال: اعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ قال: لا، ولكن لا تقربنّها[١]، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك، فجاءت امرأة هلال بن أمية فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضعيف، فهل تأذن لي أن أخدمه؟ قال: نعم، ولكن لا يقربنك، قالت: يا نبي الله! والله ما به من حركة لشيء، ما زال مكتئباً يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان.

قال كعب: فلما طال عليّ البلاء اقتحمت على أبي قتادة حائطه -وهو ابن عمي- فسلّمت عليه، فلم يرد عليّ، فقلت: أنشدك الله يا أبا قتادة، أتعلم[٢] أني أحب الله ورسوله؟ قال: الله ورسوله أعلم.

---

(١) في الأصل زيادة قوله: تعني.

(٢) قوله: "أتعلم" مكرر في الأصل.

قال: فلم أملك نفسي أن بكيت، ثم اقتحمت الحائط خارجاً، حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي ﷺ عن كلامنا صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر، ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله تعالى، قد ضاقت علينا الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا، إذ سمعت نداءً من ذروة سلع: أبشر يا كعب بن مالك، فخررت ساجداً، وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج، ثم جاء رجل يركض على فرس يبشرني، فكان الصوت أسرع من فرسه، يعني: فلما جاءني الذي سمعت صوته، فأعطيته ثوبي بشارة، ولبست ثوبين آخرين.

قال: وكانت توبتنا نزلت على رسول الله ﷺ ثلث الليل، فقالت أم سلمة: يا نبي الله! ألا نبشر كعب بن مالك؟ قال: إذاً يحطمكم الناس ويمنعونكم من النوم من سائر الليلة.

قال: وكانت أم سلمة رضي الله عنها محسنة في شأني تحزن بأمري، فانطلقتُ إلى النبي ﷺ فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، وهو يستنير كاستنارة القمر، وكان إذا سرّ استنار، فجئت فجلست بين يديه فقال: أبشر يا كعب بن مالك بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، قال: قلت: يا نبي الله، أمن عند الله أم من عندك؟ قال: بل من عند الله، ثم تلا عليهم: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ حتى بلغ: ﴿التواب الرحيم﴾، قال: وفينا نزلت: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

قال: فقلت: يا نبي الله، إن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقاً، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال: أمسك بعض مالك فهو خير لك، فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، قال: فما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام

أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ حين صدقته أنا وصاحباي أن لا نكون كذبناه فهلكنا كما هلكوا، وإني لأرجو أن لا يكون الله أبلى أحداً في الصدق مثل الذي أبلاني، ما تعمدت لكذبة بعد، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي»[١]. هذا حديث اتفق الأئمة الإسلام على إخراجه وتدوينه، فرواه الإمام أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل في مسنده عن يعقوب [بن][٢] إبراهيم، عن ابن أخي الزهري، عن عمه الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب -وكان قائد كعب بن مالك من [بنيه][٣] حين عَمِيَ- قال: سمعت كعب بن مالك، وساق الحديث.

وأخرجه مسلم عن غندر، عن يعقوب بن إبراهيم. وأخرجه البخاري عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري.

وفي جميع الروايات يقول الزهري: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله، عن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك حدثه عن كعب، إلا عبدالرزاق، فإنه رواه عن معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب، عن أبيه كعب بن مالك، وعبدالرحمن سمع من أبيه ومن جده كعب بن مالك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٦٠٣-١٦٠٨ ح٤١٥٦)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠-٢١٢٧ ح٢٧٦٩)، وأحمد (٦/ ٣٨٧-٣٨٩ ح٢٧٢١٩)، وعبد الرزاق (٥/ ٣٩٧-٤٠٥ ح٩٧٤٤)، وابن قدامة في التوابين (ص:٩٤-١٠١).

(٢) في الأصل: عن. وهو خطأ. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب (١١/ ٣٣٣)، والتقريب (ص:٦٠٧).

(٣) في الأصل: بيته. والتصويب من الصحيحين.

وقد أخرج البخاري وغيره من الحفاظ من حديث الزهري عن عبدالرحمن، عن جده كعب بن مالك، فكأن عبدالرحمن سمع هذا الحديث من أبيه ومن جده، فرواه عن كل واحد منهما.

وفي بعض ألفاظ الصحيح: «فلبثت كذلك حتى طال عليّ الأمر، وما من شيء أهم إليّ من أن أموت ولا يصلي عَلَيَّ رسول الله ﷺ، أو يموت [رسول الله ﷺ فأكون من الناس بتلك المنزلة](١) ولا يكلمني أحد منهم ولا يسلم عَلَيَّ ولا يصلي عَلَيَّ»(٢).

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ جاء في أثناء حديث كعب بن مالك أنها نزلت فيهم، فيكون أمراً لجميع المؤمنين بأن يَنْظُمُوا أنفسهم في سلك الثلاثة ومن ضاهاهم من الصادقين الذين استمروا من الإخلاص في إيمانهم والصدق في مقالهم وإيمانهم مقالاً جميلاً وثواباً جزيلاً.

قال ابن عمر: "الصادقين": محمد وأصحابه(٣).

وقال سعيد بن جبير: أبو بكر وعمر(٤).

---

(١) زيادة من البخاري (٤/ ١٧١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٧١٨ ح٤٤٠٠).

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٦٣) عن نافع، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٦). وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥١٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣١٦) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٤) أخرجه الطبري (١١/ ٦٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٦) عن الضحاك. وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٥١٤)، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣١٦) وعزاه لابن جرير. ومن طريق آخر عن الضحاك، وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن عساكر.

ويؤيده قراءة ابن السميفع وأبي المتوكل ومعاذ القارئ: "الصَّادِقَيْنِ" بفتح القاف وكسر النون على التثنية[١].

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: "مع الصادقين": مع علي وأصحابه[٢].

وقال ابن جريج: "مع الصادقين" أي: المهاجرين[٣].

ويروى: أن أبا بكر احتج بهذه الآية يوم السقيفة فقال: يا معشر الأنصار! إن الله يقول في كتابه: ﴿للفقراء المهاجرين﴾ إلى قوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ [الحشر:٨] من هم؟ قالت الأنصار: أنتم هم. قال: فإن الله يقول: ﴿اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء[٤].

وقال السدي: "الصادقين": الثلاثة الذين خلفوا[٥].

والصحيح: ما ذكرته أولاً من القول بعمومه في جميع الصادقين، وهو قول قتادة[٦].

---

(١) انظر: زاد المسير (٣/ ٥١٤).

(٢) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣١٦) وعزاه لابن مردويه. ومن طريق آخر عن أبي جعفر، وعزاه لابن عساكر.

(٣) أخرجه الطبري (١١/ ٦٣). وانظر: الماوردي (٢/ ٤١٤)، وزاد المسير (٣/ ٥١٤).

(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٥١٤).

(٥) أخرجه ابن حاتم (٦/ ١٩٠٧). وانظر: الماوردي (٢/ ٤١٤)، وزاد المسير (٣/ ٥١٤). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣١٦) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٧). وانظر: الماوردي (٢/ ٤١٤)، وزاد المسير (٣/ ٥١٤).

وسائر الأقوال المذكورة لا تنافي ما ذكرته؛ لأنه ليس مقصود القائل حصر الصادقين فيما خصه بالذكر، بل مقصوده بيان الصادقين وتعريفهم بذكر الأشهر منهم والأظهر في نظره.

وقيل: إن الخطاب بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لأهل الكتاب. المعنى: "يا أيها الذين آمنوا" بموسى والذين آمنوا بعيسى "اتقوا الله" في إيمانكم بمحمد "وكونوا مع الصادقين" من المهاجرين والأنصار ومن سلك سبيلهم(١).

ويجوز عندي أن يكون الخطاب بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ للمنافقين؛ لأن هذه السورة كثيرة اللهج بذكرهم والإلمام بحديثهم، فيكون المعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم اتقوا الله بترك النفاق وكونوا مع الصادقين في إيمانهم من المهاجرين والأنصار وغيرهم.

قال ابن مسعود: لا يصلح الكذب في جدٍّ ولا هَزْل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾(٢).

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ

---

(١) وهو قول مقاتل بن حيان. انظر: الماوردي (٢/ ٤١٣)، وزاد المسير (٣/ ٥١٤).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٦٣)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩٠٦)، وسعيد بن منصور في سننه (٥/ ٢٩٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٣٦)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٠٢). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣١٦) وعزاه لسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب﴾ وقد ذكرناهم عند قوله: ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون﴾[(١)].

﴿أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ يعني: في الجهاد، ﴿ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ أي: ولا يترفَّعوا بأنفسهم عن نفسه الكريمة إيثاراً للخفض والدَّعة والرفاهية، ورسول الله ﷺ يخوض غمرات الشدائد والأهوال.

سمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد الله بن أحمد يقول: أخبرنا عبدالله بن منصور بن هبة الله الموصلي، أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الصيرفي، أخبرنا محمد بن عبدالواحد، أخبرنا أبو بكر بن شاذان، أخبرنا أبو عبدالله بن المغلس، أخبرنا أبو عثمان سعيد بن يحيى الأموي، حدثني أبي قال: قال ابن إسحاق: تخلف أبو خيثمة -أحد بني سالم- عن رسول الله ﷺ في غزاة تبوك، حتى إذا سار رسول الله ﷺ رجع أبو خيثمة ذات يوم إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريش لهما في حائط

---

(١) الآية: ١٠١.

لهما، قد رَشَّتْ كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيأت له طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش فنظر فقال: رسول الله ﷺ في الضَّح[١] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء، ما هـذا بالنَّـصَف!! والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى أَلْحَقَ برسول الله ﷺ، ثم قَدَّمَ ناضِحَهُ[٢] فأرحلها، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ فأدركه حين نزل تبوكاً، فلما طلع قال الناس: هذا راكب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة، فلما دنا قال الناس: يا رسول الله، هذا والله أبو خيثمة، فلما أناخ سلم على رسول الله ﷺ ثم أخبره الخبر، فقال رسول الله ﷺ له خيراً ودعا له[٣].

وقال الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهـم، فقال: يا حائطاه! ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله[٤].

قوله تعالى: ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله: ﴿ما كان لأهل المدينة ومـن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسـول الله﴾ كأنـه قيـل: ذلـك النهـي عـن التخلف، أو ذلك الوجوب بسبب أنهـم ﴿لا يـصيبهم ظمـأ﴾ أي: عطـش ﴿ولا نصب﴾ أي: تعب ﴿ولا مخمصة﴾ أي: مجاعـة ﴿في سـبيل الله ولا يطـؤون﴾ أي: يدوسون بحوافر خيولهم أو خفائف [رواحلهـم][٥] وأرجلهـم ﴿موطئـاً يغـيظ

(١) الضَّحُّ: الشمس (اللسان، مادة: ضحح).

(٢) النَّاضِحُ: البعير (اللسان مادة: نضح).

(٣) أخرجه ابن قدامة في التوابين (ص:٩٢-٩٣). وذكره الطبري في تاريخه (٢/ ١٨٣)، وابن هشام في السيرة (٥/ ٢٠٠-٢٠١).

(٤) ذكره أبو السعود في تفسيره (٤/ ١٠٩).

(٥) في الأصل: رواهم. والتصويب من تفسير أبي السعود (٤/ ١١١).

الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ أي: يرزؤونهم شيئاً من غنيمة أو قتل أو هزيمة ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ يزلفهم إليه، ويجازيهم عليه.

وقد دلَّت هذه الآية والتي قبلها: على أن الساعي في طاعة الله تعالى يُثاب على جميع حركاته وسَكَناته ونفقته وعلف دابته وغير ذلك.

قال عطية العوفي: ما أعظم بركة الطاعة[١].

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[٢].

قوله تعالى: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة﴾ قال ابن عباس: تمرة فما فوقها[٣].

﴿ولا يقطعون وادياً﴾ أي: يجاوزونه في مسيرهم طالبين العدو أو آيبين إلى أوطانهم ﴿إلا كتب لهم﴾ آثارهم ونفقتهم وخُطاهم ﴿ليجزيهم الله﴾ اللام متعلقة بـ"كُتِبَ لهم"، أي: كتب لهم في صحائف أعمالهم لأجل الجزاء، ﴿أحسن﴾ أي: أحسن ﴿ما كانوا يعملون﴾.

قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ السبب في نزول هذه الآية: ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لما أَنْزَلَ الله عيوبَ المنافقين في غَزاة تبوك، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة ولا سَرِيَّة أبداً. فلما أمر

---

(١) الوسيط (٢/ ٥٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٤٨ ح٢٦٩٨).

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٤)، وزاد المسير (٣/ ٥١٥).

رسول الله ﷺ [بالسرايا][1] إلى العدو نفر المسلمون جميعاً وتركوا رسول الله ﷺ وحده، فنزلت هذه الآية»[2].

والمعنى: ما ينبغي للمؤمنين أن ينفروا إلى الجهاد جميعاً، بل تبقى طائفة منهم مع الرسول ﷺ؛ ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ فإن قَوَامَ الإسلام الجهاد، وعماد الدين الفقه، ﴿ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ فعلموهم ما أنزل الله بعدهم من القرآن والسنة ﴿لعلهم يحذرون﴾ أي: إرادة أن يحذروا.

وهذا مقصودٌ قد عَزَّ وجوده، واستدل به عامة المتفقهين الأغراض الدنيوية والأغراض الدنيّة، فأصبحوا مجانين بالدنيا، مخمورين بحبها، يتنافسون في طلبها، ويتهالكون في نيل زينتها، دأبهم السياسة لقوانين الرئاسة.

ولله در شيخنا الإمام عماد الدين إبراهيم بن عبدالواحد بن علي المقدسي رضي الله عنه ما كان أقومه بشرائط العلم وأقوله للحق. ولقد كتب إلى بعض فقهاء أهله حين بلغه أنه انتحل سبباً يجتلب[3] به الرئاسة والمناصب يقول كلاماً، منه: ما لهذا أريدُ العلم لأدل عليه، وإنما ذكر الله نعيم الجنة ثم قال: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [المطففين:٢٦].

---

(١) في الأصل: بالسايا. والتصويب من المصادر التالية.

(٢) أسباب النزول للواحدي (ص:٢٦٩)، وزاد المسير (٣/ ٥١٦).

(٣) يجتلب: أي: يطلب.

وقد أخرج الإمام أحمد رضي الله عنه في كتاب الزهد[(١)] بإسناده عن مالك بن دينار قال: إذا طلبتَ العلم لتعمل به سرّك العلم، وإذا طلبته لغير العمل لم يـزدك إلا فخراً».

وأخرج الإمام أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[(٢)].

وقال عبدالرزاق بن همام في قوله: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ... الآية﴾: هم أصحاب الحديث[(٣)].

فصل

أخرج أبو داود في سننه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾، و ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ قال: نسخها قوله: ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾[(٤)].

---

(١) الزهد (ص:٣٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٨ ح٨٤٣٨)، والحاكم (١/ ١٦٠ ح٢٨٨)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٨٥ ح٢٦١٢٧)، وابن حبان (١/ ٢٧٩ ح٧٨).

(٣) انظر: القرطبي (٨/ ٢٩٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٣/ ١١ ح٢٥٠٥).

انظر دعوى النسخ في: الناسخ والمنسوخ للنحاس (ص:٥٢٧)، ونواسخ القرآن لابن الجوزي (ص:٣٧٠).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ قال ابن عمر: هم الروم(١).

وقال ابن عباس: قريظة والنضير وخيبر [وفدك](٢).

قال قتادة: هو عام في قتال الأقرب فالأقرب(٣).

قال الزجاج(٤): فيه دليل على أنه ينبغي أن يُقاتِل أهلُ كُلِّ ثَغْر(٥) الذين يلونهم.

﴿وليجدوا فيكم غلظة﴾ أي: شدة ونكاية وصبراً على الجهاد، وعنتاً وعنفاً في القتل والأسر.

وقرأتُ على الشيخين أبي البقاء العكبري وأبي عمرو الياسري لعاصم: "غَلْظَةَ"(٦) بالحركات الثلاث على الغين، ومثله: الجذوة، والرغوة، والربوة.

---

(١) أخرجه الطبري (١١/ ٧١). وانظر: الماوردي (٢/ ٤١٥)، وزاد المسير (٣/ ٥١٨).

(٢) في الأصل: فدك. والتصويب من زاد المسير (٣/ ٥١٨). انظر: الوسيط (٢/ ٥٣٥)، وزاد المسير (٣/ ٥١٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩١٤). وانظر: الماوردي (٢/ ٤١٦)، وزاد المسير (٣/ ٥١٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٢٤) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٧٦).

(٥) الثَّغْر: الموضع الذي يكون حدّاً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد (اللسان مادة: ثغر).

(٦) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٧)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٥)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٠).

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ
﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا
يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم﴾ أي: فمن المنافقين ﴿من يقول﴾ أي: يقول بعضهم لبعض إنكاراً واستهزاءً وتهكماً بالمؤمنين ﴿أيكم زادته هذه إيماناً﴾ قال الله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا﴾ يعني: صدقوا تصديقاً لا مرية فيه ولا فرية تعتريه ﴿فزادتهم إيماناً﴾؟ تصديقاً ويقيناً.

وقيل: المعنى: فزادتهم عملاً ازدادوا به إيماناً ﴿وهم يستبشرون﴾ بنزولها.

﴿وأما الذين في قلوبهم مرض﴾ شرك وشكّ ﴿فزادتهم رِجْساً إلى رِجْسِهم﴾ أي: كُفْراً منضماً إلى كفرهم ﴿وماتوا وهم كافرون﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَ لا يرون﴾ يعني: المنافقين.

وقرأ حمزة ويعقوب: "تَرَوْنَ" بالتاء على المخاطبة للمؤمنين(١).

﴿أنهم﴾ يعني المنافقين ﴿يُفْتَنُونَ﴾ بالمرض والقحط وغيرهما من أنواع البلاء.

---

(١) الحجة للفارسي (٢/ ٣٤٣)، والحجة لابن زنجلة (ص:٣٢٦)، والكشف (١/ ٥٠٩)، والنشر (٢/ ٢٨١)، وإتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٥-٢٤٦)، والسبعة في القراءات (ص:٣٢٠).

وقال ابن عباس: "يفتنون" أي: ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون[١].

وقال قتادة: يفتنون بالجهاد[٢].

﴿في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون﴾ من نفاقهم ﴿ولا هم يذكرون﴾ أي: يتعظون بذلك.

قوله تعالى: ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ قال ابن عباس: كانت إذا نزلت السورة فيها عيب المنافقين خطبهم رسول الله ﷺ، فعرّض بهم في خطبته؛ شق ذلك عليهم، ونظر بعضهم إلى بعض يودّون الهرب من عند رسول الله ﷺ قائلين: ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المؤمنين إن تسللتم، فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد، فذلك قوله: ﴿ثم انصرفوا﴾ على عزم التكذيب بمحمد ﷺ وما جاء به[٣].

قال الزجاج[٤]: وجائز أن يكونوا ينصرفون عن المكان الذي استمعوا فيه.

﴿صرف الله قلوبهم﴾ قال الفراء[٥]: هو دعاء عليهم.

ويجوز عندي: أن يكون ذلك إخباراً عنهم أن الله جازاهم على انصرافهم بالإضلال عن الهدى.

﴿بأنهم﴾ أي: بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ أي: لا يفهمون الحق ولا يتدبرونه.

---

(١) زاد المسير (٣/ ٥١٩).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ٧٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٩١٦). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٢٥) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٥)، وزاد المسير (٣/ ٥٢٠).

(٤) معاني الزجاج (٢/ ٤٧٧).

(٥) معاني الفراء (١/ ٤٥٥).

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ أي: من جنسكم ونسبكم لتفهموا عنه.

قال ابن عباس: يريد محمداً ﷺ، وليس في العرب قبيلة إلا [وقد ولدته][1] وله فيهم نسب[2].

وقرأ جماعة منهم فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء العالمين وعائشة أم المؤمنين وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين وابن محيصن ومحبوب عن أبي عمرو: "مِنْ أَنْفَسِكُم" بفتح الفاء[3]، أي: من أشرفكم وأفضلكم وأجملكم خَلقاً وأحسنكم خُلقاً.

﴿عزيز عليه ما عنتم﴾ "ما" مع الفعل بتأويل المصدر، وهو مرفوع بـ"عزيز". ويجوز أن يكون مبتدأ، "عزيز" خبره، والجملة نعت لرسول الله ﷺ[4].

---

(١) زيادة من الوسيط (٢/ ٥٣٥).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٥-٥٣٦)، وزاد المسير (٣/ ٥٢٠).

(٣) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٦).

(٤) انظر: التبيان (٢/ ٢٣)، والدر المصون (٣/ ٥١٤).

والمعنى: شديد عليه عنتكم؛ لكونه منكم حسباً ونسباً، فهو يخاف عليكم ويشق عليه ما يلحقكم من الضرر والعَنَت بترك الإيمان، يقال: عَنِتَ الرجل يَعْنَتُ عَنَتاً؛ إذا وقع في مَشَقَّة[١].

ثم أثنى الله تعالى على رسوله ﷺ فقال: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ قال ابن عباس: سَمَّاه باسمين من أسمائه[٢].

﴿فإن تولوا﴾ أعرضوا عن الإيمان بك بغياً وحسداً وعناداً ﴿فقل﴾ لائذاً بالله عائذاً به ﴿حسبي الله﴾ فهو يكفيني ويتولى نصرتي عليكم، ﴿لا إله إلا هو عليه توكلت﴾ في الانتقام منكم والانتصار عليكم، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ وقد ذكرناه في الأعراف[٣].

ووَصَفَ العرش بالعِظَم؛ لتضاؤل جميع المخلوقات بالنسبة إليه.

قال ابن عباس: لا يقدر أحد قدره[٤].

وقرأ ابن محيصن: "العظيمُ" بالرفع، على نعت الرب عز وجل[٥].

هذا آخر سورة [براءة][٦]، وهي التي فضحت المنافقين وبحثت عما في قلوبهم، حتى خشي المؤمنون أفاضل أصحاب رسول الله ﷺ أن ينزل فيهم قرآن.

---

(١) انظر: اللسان، مادة: (عنت).

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط (٢/ ٥٣٦)، وزاد المسير (٣/ ٥٢١).

(٣) عند الآية رقم: ٥٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٢٠). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٣٥) وعزاه لابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٥) إتحاف فضلاء البشر (ص:٢٤٦).

(٦) في الأصل: براء.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما فرغ من تنزيل براءة حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سينزل فيه شيء[1].

وقد ذكر في مقدمة الكتاب ما يدل على أنها من أواخر ما نزل من القرآن.

قال قتادة: إن آخر القرآن عهداً بالسماء هاتان الآيتان خاتمة براءة: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾ إلى قوله: ﴿رب العرش العظيم﴾[2].

---

(١) زاد المسير (٣/ ٥٢١). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٢١) وعزاه لأبي الشيخ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١١٧)، والطبري (١١/ ٧٨)، والحاكم (٢/ ٣٦٨) كلهم عن أبي بن كعب. وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٣٣١) وعزاه لابن الضريس في فضائل القرآن ولابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن عن أبي بن كعب.

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
سورة الأنعام	٣
سورة الأعراف	٧١
سورة الأنفال	٣٥٦
سورة براءة	٤٨٤
فائدة ينبغي أن تلاحظ	٥٢٩
الإشارة إلى اللذين اتخذوا مسجد الضرار	٦٠٠
ذكر حديث كعب بن مالك وصاحبيه وما كان من توبتهم	٦٢٤